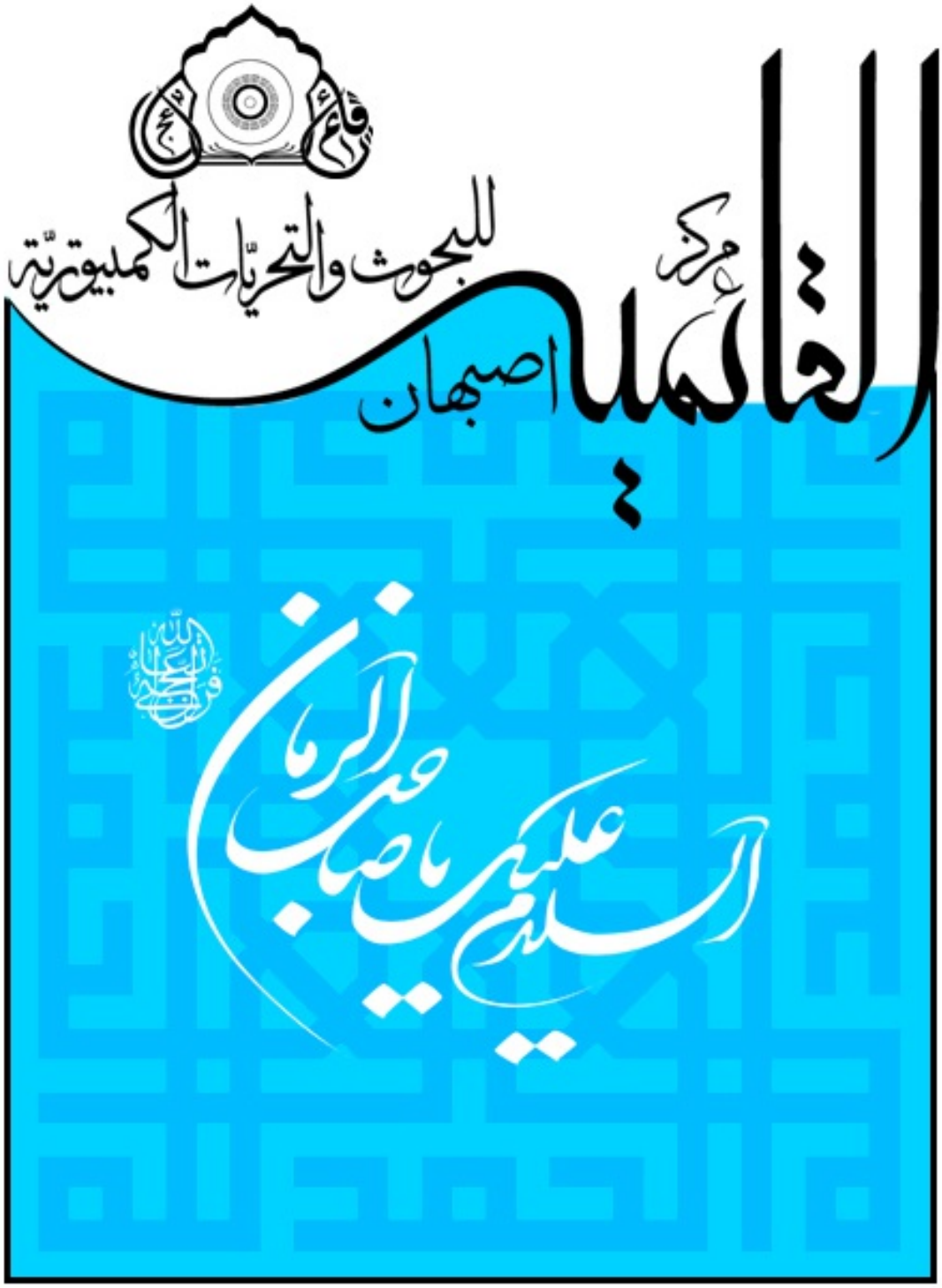

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

بحوث الحسان
في
شرح الأمثال
في القرآن
إعداد
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن

كاتب:

على احمد عبد العال الطهطاوى

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
عون الحنان فی شرح الامثال فی القرآن ----- ۹
اشارة ----- ۹
المقدمة ----- ۹
الفصل الأول التمهید القرآن الکریم وظیفته الأصلیة، و کیف یتخذه المسلمون ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
انتفاع الموتی بقراءة القرآن ----- ۱۳
بدع حول القرآن ----- ۱۴
الغایة من إنزال القرآن ----- ۱۵
وجوب طاعة اللّه و طاعة رسوله، و وعید المخالفین ----- ۱۷
الأمر بتدبر و تفهم القرآن ----- ۱۸
وعید المعرضین عن القرآن ----- ۱۹
فضائل قراءة القرآن و فضائل بعض سوره و آیاته ----- ۱۹
تحزیب القرآن ----- ۲۲
لا تعرض عن قراءة القرآن ----- ۲۳
بدعیة جمع القراءات فی سورة أو آیة واحدة ----- ۲۴
بدع و ضلالات متعلقة بالقرآن العظیم ----- ۲۵
ذکر أسباب إعراض الناس عن القرآن ----- ۲۸
حکم الجهر بقراءة سورة الکهف بالمسجد، و سماعها من المذیاع فی المسجد ----- ۳۱
الفصل الثانی إلزام القرآن للمادیین و الملیّین ----- ۳۱
۱- معنی المادة و المادیین ----- ۳۲
۲- إلزام القرآن للملیین ----- ۵۶
اشارة ----- ۵۶

أما الأول: و هو التوحيد: ۵۷
أما الثانی: و هو نبوّة محمد صلی اللّه علیه و سلم: ۵۷
کلمة للتاریخ ۹۰
رجوع إلی الحق: ۹۱
اشارة ۹۱
أ- الدین و الفطرة «۱»: ۹۲
ب- من غیر المنطق الإیمان بالوحی ثم الکفر بمحمد «۱»: ۹۲
رسالة إلی الرئیس الأمریکی کارتر: ۹۴
الفصل الثانی الأمثال فی القرآن الکریم «۱» ۹۵
اشارة ۹۵
المعجزات: ۹۶
خصائص المعجزات العامة: ۹۷
اختلاف المعجزات: ۹۹
معجزة القرآن الکریم: ۹۹
الأسلوب القرآنی و تأثیره: ۱۰۱
أوجه الإعجاز فی القرآن الکریم: ۱۰۲
مظاهر التیسیر فی القرآن: ۱۰۳
دعوات هدامة: ۱۰۶
الحاجة إلی علاج هذه الموضوعات: ۱۰۹
التصویر فی الأسلوب القرآنی: ۱۱۱
الأمثال: ۱۱۲
رأی علماء البلاغة فی الأمثال: ۱۱۳
رأی الفقهاء فی الأمثال: ۱۱۳
الهدف من ضرب الأمثال: ۱۱۴

أنواع الأمثال: ---- ۱۱۵
اشارة ---- ۱۱۵
تمهید: ---- ۱۱۷
۱- الدعوة إلی الإیمان باللّه و وحدانیته: ---- ۱۲۰
۲- حقیقة التوحید: ---- ۱۲۲
۳- البعث و النشور و الحساب: ---- ۱۳۰
الترغیب و التحذیر: ---- ۱۳۳
الإنفاق فی سبیل اللّه: ---- ۱۴۱
ما المقصود من الصدقة؟ ---- ۱۴۴
النفس الإنسانیة: ---- ۱۴۸
بناء الشخصیة الإسلامیة: ---- ۱۵۲
المنهج: مقدمة: ---- ۱۵۸
المقارنة بین الأمثال القرآنیة: ---- ۱۶۸
الأمثال العربیة: ---- ۱۷۱
۱- المنهج الذی قامت علیه الأمثال: ---- ۱۷۲
أ- بناء الإنسان: ---- ۱۷۲
اشارة ---- ۱۷۲
۱- دع امرأ و ما اختار: ---- ۱۷۳
۲- یداک أوکتا و فوک نفخ: ---- ۱۷۴
۳- تجوع الحرة و لا تأکل بثدییها «۱»: ---- ۱۷۵
۴- رب زارع لنفسه حاصد سواه: ---- ۱۷۵
۵- استعجلت قدیرها فامتلت: ---- ۱۷۶
ب- الإنسان و المجتمع: ---- ۱۷۶
اشارة ---- ۱۷۶

۶- أعط القوس باريها: ---- ۱۷۶
۷- قبل الرماء تملأ الكنائن: ---- ۱۷۷
۸- عند الصباح يحمد القوم السّرى: ---- ۱۷۷
ج- طريق التربية الناجحة: ---- ۱۷۸
كلمة أخيرة: ---- ۱۷۹
محتويات الكتاب ---- ۱۸۰
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---- ۱۸۰

عون الحنان فی شرح الامثال فی القرآن

اشارة

نام کتاب: عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن

نویسنده: علی احمد عبد العال الطهطاوی

موضوع: تمثیلات قرآنی

تاریخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دار الکتب العلمیة

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۵ / ۲۰۰۴

نوبت چاپ: اوّل

عنوان الکتاب: عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن

المؤلف: علی أحمد عبد العال الطهطاوی

الناشر: دار الکتب العلمیة - بیروت

سنة النشر: ۱۴۲۵ - ۲۰۰۴

عدد المجلدات: ۱

رقم الطبعة: ۱

عدد الصفحات: ۲۸۸

المقدمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم إن الحمد للّه، نحمده و نستعینه و نستغفره، و نعوذ باللّه من شرور أنفسنا، و من سیئات أعمالنا، من یهده اللّه فلا مضل له، و من یضلل فلا هادی له، و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله.

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [آل عمران: ۱۰۲].

یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا کَثِیراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَساءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً [النساء: ۱].

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِیداً یُصْلِحْ لَکُمْ أَعْمالَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِیماً [الأحزاب: ۷۰، ۷۱].

أما بعد:

أذکرک و نفسی عزیزی القارئ بقول النبی صلی اللّه علیه و سلم: «من أحدث فی أمرنا هذا ما لیس منه فهو رد». متفق علیه.

۲- قوله صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ آیة الکرسی دبر- بعد- کل صلاة مکتوبة، لم یمنعه من دخول الجنة إلا أن یموت» «۱».

۳- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ الآیتین من آخر سورة البقرة فی لیلة کفتاه» «۲».

۴- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ عدلت له بربع القرآن، و من قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عدلت له بثلث القرآن» «۳».

---

(۱) صحیح الجامع برقم ۶۴۶۴.

(۲) صحیح الجامع برقم ۶۴۶۵.

(۳) صحیح الجامع برقم ۶۴۶۶.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۴

۵- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «و من قرأ القرآن فلیسأل اللّه به، فإنه سیجیء أقوام یقرءون القرآن یسألون به الناس» «۱».

۶- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «و من قرأ بمائة آیة فی لیلة کتب له قنوت لیلة» «۲».

۷- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ حرفا من کتاب اللّه فله به حسنة، و الحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، و لکن: ألف حرف، و لام حرف، و میم حرف» «۳».

۸- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ سورة الکهف یوم الجمعة «۴» أضاء له من النور ما بینه و بین البیت العتیق» «۵».

۹- من قرأ سورة «الکهف» فی یوم الجمعة، أضاء له من النور ما بین الجمعتین «۶».

۹- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عشر مرات بنی اللّه له بیتا فی الجنة» «۷».

۱۰- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «و من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فکأنما قرأ ثلث القرآن» «۸».

۱۱- و قوله صلی اللّه علیه و سلم: «اقرءوا سورة البقرة فی بیوتکم «۹»، فإن الشیطان لا یدخل بیتا یقرأ فیه سورة البقرة» «۱۰».

أیها القارئ الکریم هل ما زلت معی، کل الأحادیث التی سبقت لم یقل فیها النبی صلی اللّه علیه و سلم: «اقرءوا ثم هبوا هذه القراءة للأموات؛ لأن القرآن منا لا یصل للمیت، و النبی صلی اللّه علیه و سلم

---

(۱) صحیح الجامع برقم ۶۴۶۷.

(۲) صحیح الجامع برقم ۶۴۶۸.

(۳) صحیح الجامع برقم ۶۴۶۹.

(۴) قال: یوم الجمعة و لم یقول من یوم الجمعة و لم یقول قبل أذان الجمعة، و قال: من قرأ و لم یقول: من سمع أی أن الثواب لمن یقرأها و القراءة لها شروط: فی السر و لا یشوش علی أحد، أما قراءة القرآن فی مکبرات الصوت فی المساجد قبل آذان الجمعة فبدعة و ضلالة و فی النار، لأن النبی صلی اللّه علیه و سلم لم یکن له مقرئ یقرأ القرآن قبل أذان الجمعة، فعلی أهل الضلال إن یتقوا اللّه و یتوبوا إلیه.

(۵) صحیح الجامع برقم ۶۴۷۱.

(۶) صحیح الجامع برقم ۶۴۷۰.

(۷) صحیح الجامع برقم ۶۴۷۲.

(۸) صحیح الجامع برقم ۶۴۷۳.

(۹) قال: فی بیوتکم و لم یقول فی المقابر و الأموات، یا أهل البدع و الضلال یا ویلکم من اللّه تعالی.

(۱۰) صحیح الجامع برقم ۱۱۷۰.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵

لم يقرأ قرآنا للأموات أبدا (و أتحدى) أى مجرم على وجه الأرض أن يثبت لى بحديث صحيح من البخارى و مسلم: أن النبى صلى اللّه عليه و سلم قرأ قرآنا و وهبه للأموات، و على كل ضال مبتدع أن يضع لسانه فى فمه قبل أن يكذب على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فالويل كل الويل للسادة العلماء إذا لم يستيقظوا من ثباتهم، و يبينوا للناس أن القرآن شريعة و دستور و قانون.

من أجل ذلك عزيزى القارئ الفاضل أقدم لك كتابنا هذا «عون الحنّان فى شرح الأمثال فى القرآن».

و جعلته فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول و يشمل: التمهيد.

الفصل الثانى و يشمل: إلزام القرآن للماديين و الملليين.

الفصل الثالث و يشمل: الأمثال فى القرآن الكريم.

و اسمح لى عزيزى القارئ أن أحكى لك بعض المهازل و السفالات:

١- رجل مجرم يدّعى أنه يعرف البخت و الخط و يكشف السارق؟!! يأتى بمصحف كبير الحجم و يفتح عند سورة يس، و يضع مفتاح كبير ثم يكتف المصحف بخيط، ثم يضع المفتاح فى طرف سبابته، ثم يأمر أحد الناس بوضع الجانب الثانى للمفتاح فى طرف سبابته و بذلك يكون المصحف معلق بين إصبعى الحمارين البهيمين السافلين ثم يقول الشيخ للمصحف- على مشهد من الجاموس و البقر: أيها المصحف إذا كان فلان الفلانى هو السارق فعليك بالدوران لليمين، و إذا لم يكون هو السارق فعليك بالدوران إلى اليسار.

٢- شيخ- مجرم سفيه ضال مضل- يقوم بعمل (عدّية) يس، و هذه هى الطريقة:

يحضر طشت ملئ بالماء و يضع على الماء (ماء ورد) ثم يأتى بلبنه (قالب طوب) أحمر و يشترط أن لا يكون سبق استعماله قبل ذلك، ثم يضعه فى الطشت، ثم يأتى بقماش بفته أبيض و يضع اللبنة فى القماش، ثم يضعه مرة ثانية فى الماء ثم يقرأ سورة (يس) أربعون مرة، ثم ينادى على صاحب المنزل- المسروق- و يقول له: خذ ادفن هذا الميت- و يشير على قالب الطوب- ادفنه ليلا، و قبل طلوع الشمس فإن السارق سوف يدفن مثل هذا؟

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۶

كنت أنا حاضرا على سبيل معرفة ما يجرى فى مصر من ضلال- فسألته عن ذلك فقال: إحنا غسّلنا قالب الطوب و كفّناه و دفنّاه، فإن السارق سوف يلحق به؟!! انظر عزيزى القارئ إلى هذه السفالات و الضلالات، كل الدول تتقدم للأمام و نحن نتقهقر للخلف و نباهى الأمم أننا حضارة سبعة آلاف سنة، فلسطين محتله و تضرب بجميع أنواع الأسلحة الحديثة و العراق كذلك. و نحن ما زلنا فى سفالات، فهل من مدكر؟ فهل من عالم يتقى اللّه تعالى و ينصح الأمة و يكشف الغمة؟

أين علمائك يا مصر؟!! أيها العلماء أفيقوا: يا من توجهون بالريموت كنترول أفيقوا!

يا علماء العصر يا ملح البلد كيف يصلح الملح إذا الملح فسد؟ و اللّه إنى أحبكم، و حبى لكم جعلنى أخاف عليكم من يوم التناد، و يوم الوقوف بين يدى اللّه تعالى، و تسألوا «و عن علمه ما ذا عمل به»؟

عزيزى القارئ اقرأ و تدبر و للّه الحمد المنة.

الشيخ/ على أحمد عبد العال الطهطاوى رئيس جمعية أهل القرآن و السنة

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷

الفصل الأول التمهيد القرآن الكريم وظيفته الأصلية، و كيف يتخذه المسلمون

اشارة

«۱» یقولون: إذا کـان الحی ینتفع بـالقرآن فی حیـاته الدنیویـة، فإن المیت کـذلک لا یحرم من الانتفاع بالقرآن فی مماته، بـدلیل قوله تعالی: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ [الإسراء: ۸۲]، فمثلا إذا قرأ إنسان الفاتحة أو آیـة من سور القرآن علی روح میت له، فهذا جائز، و المیت ینتفع به کانتفاع الحی تماما.

کما یوردون حدیثا نسبوه إلی رسول اللّه صـلی اللّه علیه و سـلم، یدعون أنه یقول فیه: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»، و یتخذون هذا دلیلا لعمل الأحجبة و الأدویة لشفاء المرضی، و دلیلا علی جواز قراءة القرآن علی الأموات.

و نرد علیهم، فنقول: إن اللّه تعالی أنزل القرآن للأحیاء، لیتخذوه هادیا لهم یهدیهم إلی سعادة الدنیا و فلاح الآخرة إن هم آمنوا به، أو لیکون حجة علیهم إن هم ظلوا علی باطلهم، کما یقول المولی: لِیُنْذِرَ مَنْ کانَ حَیًّا وَ یَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَی الْکافِرِینَ [یس: ۷۰]، فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخافُ وَعِیدِ [ق: ۴۵]، وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ [الأنعام: ۱۹].

و قـد أخطأ الناس فهم العبارة التی جاءت بالآیة الکریمة وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ [الإسـراء: ۸۲]، فظنوا أو أفهمهم الشـیوخ أن الرحمة هنا هی للموتی، کما أفهمهم تجار الأحجبة أن عبارة شِفاءٌ لِلنَّاسِ [النحل: ۶۹] فی الآیة هی خاصة بشـفاء أمراض الأجسام، و لکن هذا التفسیر للآیة تحریف لمعناها، و إخراج لها عن مواضعها، فإن الرحمة و الشفاء فی الآیة هی للمؤمنین الأحیاء.

و فی آیـة أخری یقول اللّه عز و جـل: یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْکُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِی الصُّدُورِ وَ هُـدیً وَ رَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ [یونس: ۵۷]، و یقول الشیخ محمد رشید رضا فی تفسیر المنار فی تفسیره لهذه الآیة: أی قد جاءکم کتاب جامع لکل ما

---

(۱) کتاب صراع بین الحق و الباطل، و کتابنا الإبداعات فی مضار الابتداعات.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸

تحتاجون إلیه من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقکم و أعمالکم الظاهرة، و حکمة بالغة لإصلاح خفایا أنفسکم و شفاء أمراضها الباطنیة، و هدایـة واضـحة للصـراط المسـتقیم الموصل إلی سـعادة الـدنیا و الآخرة، و رحمة خاصة للمؤمنین یتراحمون بها فیما بینهم. فمن هذا التفسیر نعرف أن الآیة خاصة بالأحیاء، و لیس للموتی نصیب فیها.

ثم نرد أن نسأل هؤلاء: هل الآیات التی تأمرنا بتأدیـة الصـلاة و الزکاة و الصوم، و تشـرح لنا أصول مناسک الحـج تنفع المیت بشـیء؟ هل الآیات التی تبین لنا أحکام الوصیة عند الموت، و التی تبین لنا المباحات و المحرمات من النساء فی الزواج، و التی تبین لنا أحکام الطلاق تفید المیت بشیء؟ هل الآیات التی تتحدث عن عاقبة المفسدین و المنحرفین عن سبیل اللّه تفید المیت بشیء؟

هـل الآیـات التی تبشـر المؤمنین الـذین یعملون الصالحـات بالجنـة، و تبین مکانهم من نعیم اللّه، تفیـد المیت بشـیء؟ هل الآیات التی تخبرنا بقصص أقوام نوح، و عاد، و ثمود، و کفار قریش، و هلاک أولئک الأقوام، و جاءت تحذرنا من اتباع سبل الانحراف و الغوایة التی سـلکها هؤلاء الأقوام حتی استحقوا غضب اللّه و لعنته مثلهم، هل هذه الآیات تنفع المیت بشیء؟ هل الآیات التی تأمرنا بالإصلاح و التعاون و التآخی، و تحثنا علی الصبر و الجهاد فی سبیل اللّه تنفع المیت بشیء؟

بـالطبع کـل هـذه الآیـات و مـا حـملت إلینـا من معـان و أحکـام و عظات و إنـذار لا تنفع المیت بشـیء، و لو کـتبت بماء الـذهب علی صحائف من ذهب و علقت علی قبر المیت.

معنی سورة الفاتحة: و سورة الفاتحة شأنها شأن سور القرآن، لا تنفع المیت بشیء، و إلی القارئ الدلیل علی هذا من کتب السنة:

روی مسـلم، عن أبی هریرة، رضـی اللّه عنه، أن النبی صـلی اللّه علیه و سـلم، قـال: «من صـلی صـلاة لم یقرأ فیهـا بأم الکتاب فصـلاته خداج، خداج، خداج، غیر تام»، فقیل لأبی هریرة: إنما نکون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها فی نفسک، فإنی سـمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یقول: «قال اللّه تعالی: قسمت الصلاة بینی و بین عبدی نصفین، و لعبدی ما سأل، فإذا قال العبد:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ، قال اللّه تعالی: حمـدنی عبدی، و إذا قال: الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ، قال تعالی: أثنی علیّ عبدی، و إذا قال: مالِکِ یَوْمِ

الدِّینِ، قال اللّه تعالی:

مجدنی عبدی، و إذا قال: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ، قال اللّه تعالی: هذه بینی و بین عبدی، و لعبدی ما سأل ...» إلخ الحدیث.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹

و من هذا الحدیث نفهم أن الفاتحة هی مناجاة بین اللّه و بین عبده، و لیس للمیت فیها شیء تفیده أو تضره.

المیت لا ینفعه إلا عمله: أما الذی یفید المیت و ینفعه، هو أعماله و سعیه فی الدنیا، و ذلک کما یقول المولی جل شأنه: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُرى ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی [النجم: ۳۹- ۴۱]، کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَةٌ [المدثر: ۳۸]، یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ [آل عمران: ۳۰]، فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ [الزلزلة: ۷، ۸].

فهذه کلها نصوص تشهد بأن المیت لن ینتفع إلا بعمله و سعیه فی الدنیا؛ لأنها دار عمل، و بموته انقطع عمله، و لیس له من عمل سوی ما بینه حدیث النبی صلی اللّه علیه و سلم.

سوء استعمال القرآن: و لقد أساء کثیر من المسلمین استعمال آیات القرآن، فهم یستأجرون المشایخ لیقرءونه فی المآتم، و علی قبور الموتی؛ لجلب الرحمة و الغفران لهم، و یضعون القرآن فی بیوتهم فی مجلد فاخر لیحفظ البیت من العفاریت، أو شبح الفقر، أو لیدفع عن العائلة شر الحاسدین، أو یعلقونه علی أبواب المحلات التجاریة أو الصناعیة، أو بسیارتهم بقصد جلب الرزق و دفع الکساد عنهم، و یعلقونه فی شکل حجاب بجسم المریض لیشفیه، أو بجسم طفل وحید أبویه لیحفظه من المرض، أو من عیون الحاسدین، أو لیطیل عمره؛ لأن من سبقوه من إخوته ماتوا أطفالا.

علی هذا النحو السیئ یستعمل أکثر المسلمین آیات القرآن الکریم، و هم یحسبون أنهم یحسنون صنعا، مع أن الإسلام ینکر هذه العادات الذمیمة، و یأمر بترکها، کما جاء فی کثیر من الأحادیث النبویة.

حدیث: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»: أما هذا الحدیث، فلا أصل له، و هو مبتدع، حتی أنه لم یرد له ذکر فی کتب المحققین الذین بینوا لنا الأحادیث الصحیحة و المکذوبة و الموضوعة، و یکفی هذا دلیلا دامغا قویّا علی أن هذا الکلام المنسوب لرسولنا صلی اللّه علیه و سلم ابتدعه تجار القرآن؛ لیکون لهم مورد رزق و مصدر عیش؛ لأنهم وجدوا فی هذا العمل حیاة سهلة و ناعمة، لا عمل فیها، و لا جهد، و لا عرق.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۰

انتفاع الموتی بقراءة القرآن

«۱» یقرأ کثیر من الناس القرآن ثم یهبه للمیت، فهل ینفعه ذلک؟

آیات و أحادیث: تعرف هذه المسألة بمسألة إهداء ثواب العبادة للموتی، و قد اختلفت فیها آراء العلماء، و منشأ الاختلاف أنه وجد فی القرآن آیات تبین سنة اللّه فی الثواب و العقاب، و فی تبدیل السیئات بالحسنات، و وجدت أحادیث صحیحة صریحة فی أن الوالدین ینتفعان بصدقة ولدهما، أو صومه، أو حجه عنهما؛ فمن الآیات قوله تعالی:

لَها ما کَسَبَتْ وَ عَلَیْها مَا اکْتَسَبَتْ [البقرة: ۲۸۶]، و قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکَّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها [الشمس: ۹، ۱۰]، و قوله: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُولئِکَ یُبَدِّلُ اللَّهُ سَیِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ [الفرقان: ۷۰]، و قوله: أَ فَرَأَیْتَ الَّذِی تَوَلَّی [النجم: ۳۳]، فهذه الآیات و نحوها ظاهرة فی أن الإنسان لا ینتفع إلا بسعیه و عمله الذی یزکی نفسه بالنیة الطیبة و الإخلاص للّه.

أما الأحادیث التی وردت فی الموضوع، فکلها تدور حول الجواب عن سؤال واحد، هو: هل ینتفع أبی و أمی إذا صمت أو تصدقت أو حججت عنهما؟ و کان الجواب: نعم ینفعه ذلک.

اختلاف العلماء:

و أمام هذه الآيات و تلك الأحاديث اختلفت آراء العلماء، فرأى فريق أن الآيات مقدمة فی العمل علی الأحاديث، و الأحاديث ليس لها قوة الحكم علی الآيات، و بذلك قرروا أن الإنسان لا ينتفع بعمل غيره أيّا كان ذلك العمل، و كيفما كان ذلك الغير.

و رأى فريق آخر أن الأحاديث صريحة فی انتفاع الوالدين بصدقة ولدهما أو حجه أو صومه عنهما، ثم قالوا: لا فرق بين الولد و غيره، و بذلك قرروا أن الإنسان ينتفع بعد موته بعمل غيره متی أهدی ثوابه إليه، و إن لم يكن من ولده، و قالوا: إن الثواب ملك للعامل، فله أن يتبرع به و يهديه إلی أخيه المسلم، ثم خرج هؤلاء الآيات تخريجا أوهن من موقفهم أمام المانعين، و كذلك كان موقفهم فی قياس غير الولد الذی لم يرد به نص، علی الولد الذی ورد به نص مع وجود الفارق بينهما.

أما الدعاء فهو عبادة مستقلة، ثوابها للداعی فقط، و المدعو له إنما ينتفع بالاستجابة إذا حصلت، و الاستجابة ليست أثرا لإهداء الداعی ثواب دعائه للميت، و إنما هی شأن

---

(۱) الفتاوی للشيخ محمود شلتوت.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱

خاص باللّه للأحياء و الأموات، أما القول بملكية الثواب للعامل، فواضح أنه ليس ملكا بالمعنی المتعارف فی متاع الدنيا لصاحبه نقله و تحويله، فهو توجيه فاسد، و بهذا يتبين أن إطلاق القول بجواز إهداء ثواب العمل، أيا كان من العامل و كيفما كان، لا تنهض له حجة، و لا يستقيم له دليل.

ولد الإنسان من سعيه: و الرأی الذی أراه هو أن الآيات محكمة فی معناها، و أنها من شرع اللّه العام الذی لا يختص بقوم دون قوم، و أن الأحاديث الصحيحة التی أشرنا إليها خاصة بعمل الأبناء يهدون ثوابه للآباء، و قد صح فی الحديث أن ولد الإنسان من سعيه، و عمله من عمله، و بذلك كان انتفاع الوالدين بعمل ولدهما، و إهداء ثوابه إليهما مما تتناوله الآيات.

أما ما جرت به العادات من قراءة الأجانب القرآن، و إهداء ثوابها للأموات، و الاستئجار علی القراءة و الحج، و إسقاط الصلاة و الصوم، فكل ذلك ليس له مستند شرعی سليم، و هو فوق ذلك يقوم علی النيابة فی العبادات التی لم تشرع إلا لتهذيب النفوس، و تبديل سيئاتها حسنات، و هذا لا يكون إلا عن طريق العمل الشخصی، كيف و قد صرح الجميع بأن ما اعتاده الناس من ذلك شیء حدث بعد عهد السلف، و لم يؤثر عن أحد منهم أنه عمل و أهدی لغير الوالدين، مع ظهور رغبتهم فی عمل الخير، و محبتهم لإخوانهم الأحياء و الأموات؟ و الجدير بالمسلم أن يقف فی عبادته و فی شئون الثواب و محو السيئات عند الحد الذی ورد، فبحسنات الإنسان تذهب سيئاته، و بتقواه تغفر ذنوبه، و لا شأن للإنسان فی الثواب يحوله، و لا فی السيئات يمحوها.

بدع حول القرآن

«۱» فی أكثر من رسالة من الرسائل التی تلقيتها يسأل المواطنون من القراء عن حقيقة الأمر فی التداوی ببعض آيات القرآن الكريم أو الرقی بها، كما يسألون أيضا عن رقية المريض ببعض العبارات الخاصة المعتادة، و عن حكم الدين فی قراءة القرآن فی الطرقات العامة بقصد الارتزاق، مما نراه و نشاهده فی كثير من المدن و القری، و ما هو الرأی الصحيح فی قراءة القرآن علی المقابر؟ و ما الرأی فيما يذكر خاصا بفضل سور القرآن أو بعضها؟

---

(۱) الفتاوی للشيخ محمود شلتوت.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۲

تلك خلاصة جملة من الرسائل أعرب مرسلوها عن رغبتهم فى الإجابة على ما يسألون، و هى كلها تدور حول هذا المعنى.

الغاية من إنزال القرآن

«۱» ليس من شك فى أن القرآن أنزل على محمد صلى اللّه عليه و سلم لغرض هو أسمى الأغراض و أنبلها، و هو هداية الناس إلى الحق عن طريقه، و إخراجهم مما هم فيه من الظلمات إلى النور، أنزله اللّه ليطهر القلوب من رجس الخضوع لغيره، و يرشد الناس إلى العقائد الصحيحة، و إلى العلوم النافعة، و إلى الأخلاق الفاضلة التى تحفظهم و تحفظ المجتمع من مزالق الهوى و الشهوة، و أنزله أيضا ليرشد الناس إلى الأعمال الصالحة التى تسمو بالفرد و المجتمع إلى مكانة العزة و الكرامة، و قد أرشد القرآن نفسه إلى هذه الغاية أو الغايات فى كثير من الآيات، فقال تعالى: يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: ۱۵، ۱۶]، و قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِى الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: ۵۷].

و بذلك كان القرآن شافيا لأمراض القلب التى تفسد على الإنسان حياته، و أمراض الصدور جهل بالحق، و شبهة تضعف الإيمان، و شهوة تغرى بالفساد، و قد تضمن القرآن الكريم بنصوصه و إرشاداته ما يعالج البشرية من جهلها و شبهها و شهواتها.

و لم يختلف المسلمون الأولون فى هذه الحقيقة، بل آمنوا بها و حددوا الغاية التى لأجلها نزل القرآن، فأقبلوا على حفظه و درسه، يستخرجون نفائسه، و يتعرفون أحكامه، ثم أخذوا يعالجون به القلوب من رجس العقائد الباطلة، و الأخلاق الفاسدة، و يدفعون به المجتمع إلى سبل الخير و الفلاح.

و من هذا نعلم ما كان للقرآن الكريم من أثر و توجيه فى حياة المسلمين الأولين، بيد أن المسلمين بعد ذلك ما لبثوا أن انحرفوا بالقرآن عما أنزل لأجله، و استخدم لأغراض لا تمت بأوهى الأسباب إليه، و لا هى مما ينبغى أن تستخدم أو تتخذ طريقا إليه.

انحراف بالقرآن عن وجهته: انحرف المسلمون المتأخرون بالقرآن الكريم إلى جهة

---

(۱) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳

أخرى لم يتجه بها أحد من المسلمين الأولين، و السبب فى هذا الانحراف هو ما منى به العلماء من التعصب المذهبى، إذ حملهم هذا على الاكتفاء بما وصل إلى أيديهم من ترك السابقين، و قالوا: إن السابقين كفونا مئونة البحث فى آى الذكر الحكيم استنباطا لحكم شرعى، أو تفسيرا لآية، و جعلوا بينهم و بين النظر فى الكتاب حجابا كثيفا من التقليد و التعصب للمجتهدين السابقين، اعتزازا بفضلهم، و تابعهم المسلمون فى فهمهم، و اتجهوا بالقرآن الكريم وجهة أخرى، حتى إننا نرى المسلمين اليوم، إلا من عصمه اللّه و قليل ما هم، هجروا القرآن الكريم ككتاب هداية و إرشاد، و شاعت بينهم فكرة تقديسه من جهات أخرى هى:

جهة التداوى به من أمراض الأبدان، وجهة استمطار الرحمة بقراءته على أرواح الموتى، وجهة تسول الفقراء به و استغلال عاطفة الإيمان عن طريقه، هذه البدع الثلاث، أو المنكرات الثلاثة، كانت أثرا لهجر المسلمين كتاب اللّه من الجهة التى أنزل لأجلها، و كانت فى الوقت نفسه عنوانا سيئا على إيمان المسلمين من حيث لا يشعرون بمكانة تلك المعجزة الخالدة، التى جعلها اللّه سبيلا لإنقاذ البشرية من الأوهام و الخرافات، و كانت مع هذا و ذاك عنوانا على الجهل بنظام الأسباب و المسببات، الذى نظم اللّه عليه العالم، و هدى الناس إلى السير فى سبيله: أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه:

۵۰]، يجعل اللّه القرآن سبيلا لإنقاذ البشرية من الأوهام و الخرافات، و يعكس نفر من المسلمين القضية، فيجعلونه سبيلا من سبل

الأوهام، و عنوانا على الجهل بأسرار اللّه و نظام اللّه.

الدين و العقل لا يقران هذا الانحراف: و إن تعجب فعجب أن تكتب الآية القرآنية الحكيمة فى إناء ثم تمحى بالماء، ثم يؤمر المريض بشربه، أو تكتب قطع صغيرة من الورق، ثم تلف كالبرشام، و يؤمر المريض بابتلاعها، أو تحرق تلك القطع و يبخر المريض بها على مرات، أو توضع فى خرقة و تعلق حجابا فى مكان معين من جسم المريض، و بهذا و نحوه اتخذ الدجالون القرآن الكريم وسيلة لكسب العيش من طريق يأباه الإيمان، و يصدقه كثير من المسلمين.

و ذلك فضلا عن أنه انحراف بالقرآن عما أنزل لأجله، فإن فيه إفسادا للعقول الضعيفة، و صرفا لأربابها عن طريق العلاج الصحيح، و تغييرا لسنة اللّه فى الأسباب و المسببات، و احتيالا على أكل أموال الناس بالباطل، و هذا تصرف لا يقره دين و لا يرضى به عقل سليم، فإذا تركنا هؤلاء الدجالين يعبثون فى القرى و المدن بالقرآن

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۴

و بالعقول الضعيفة على هذا النحو، و سرت فى شوارع القاهرة أو غيرها من المدن، فإنك ترى المتسولين و قد جلس أحدهم، رجلا أو امرأة، فى ملتقى الطرقات، أو مواقف المواصلات، أو على أبواب المساجد و الأضرحة، يقرأ القرآن، باسطا كفه للغادين و الرائحين بقصد التسول، ترى هذا المنظر المفجع بين الأحياء، فإذا ما ذهبت إلى المقابر رأيت ما هو أدهى و أمر، رأيت الفقراء من حملة القرآن يتسابقون إلى المقبرة، و قد اندسوا بين أفواج الزائرين و الزائرات، يساومونهم على مقدار ما يقرءون، و مقدار ما يأخذون ثمنا لما يقرءون.

و فى هذه المشاهد كلها لا تسمع قرآنا، و إنما تسمع هذرمة فى القراءة، و إخلالا بواجبها، و إخراجا للقرآن ذى الروعة و الجمال إلى ذلك المنظر المزرى الذى يفزّز النفوس، و يجرح الصدور، و يبعده فى نظر السامعين عن أن يكون طريق الهداية و الإرشاد من رب العالمين.

القرآن و دواء الأمراض البدنية: إن الأمراض البدنية قد خلق اللّه لها عقاقير طبية فيها خاصة الشفاء، و أرشد إلى البحث عنها و التداوى بها، و قد صح أن النبى صلى اللّه عليه و سلم دخل على مريض يعوده، فلما رآه طلب من أهله أن يرسلوا إلى طبيب، فقال قائل: و أنت تقول ذلك يا رسول اللّه؟ فقال عليه السلام: «نعم، إن اللّه عز و جل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء»، فعل النبى صلى اللّه عليه و سلم ذلك إرشادا لأمته إلى أن التداوى من الأمراض البدنية من طريق الطب البشرى الذى يعرف الدواء، أما القرآن فلم ينزله اللّه دواء لأمراض الأبدان، و إنما أنزله كما قال: دواء لأمراض القلوب و شفاء لما فى الصدور.

و إذا كانت أمراض الأبدان أمراضا مادية، و شفاؤها بأدوية مادية، فأمراض القلوب أمراض معنوية، و شفاؤها بأدوية معنوية، و القرآن قد عالج مرض الجهل بالعلم، و مرض الشبهة بالبرهان، و مرض الشهوة بالحكمة، و ما التداوى فى الأمراض البدنية بالقرآن إلا كقراءة الختمات للنصر على الأعداء فى ميدان القتال، و إلا كقراءة ما يسميه العامة عدية ياسين تحصيلا للرغبات، كلاهما وضع للعلاج المعنوى مكان العلاج المادى، و كلاهما قلب لنظام اللّه تعالى فى خلقه، و عروج بالقرآن الكريم عما أنزل لأجله.

القراءة على الموتى «۱»: أما استمطار الرحمة على الموتى، فإنه لا يكون إلا بعمل مشروع، كالدعاء، و الصدقة، بشرط أن يكون خالصا لوجه اللّه الكريم، أما ما لم يشرعه

---

(۱) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۵

اللّه و لم يأذن به أو شرعه، و لكن فعله الإنسان بأجر يأخذه من أخيه الإنسان، فثوابه هو ذلك الأجر، و لا ثواب له عند اللّه، و إذا لم يكن للقراءة ثواب عند اللّه لا للقارئ؛ لأنه أخذ أجره ممن استأجره، و لا للمستاجر؛ لأنه لم يقرأ شيئا، فأى شىء يصل من هذه القراءة

إلی الموتی؟ إن رحمة اللّه للموتی شأن من شئونه الغیبیة استأثر بها، و منه وحده تعرف سبلها، و قد بین تلک السبل فی کتابه الکریم، و کل ما یفعله المرء من تلقاء نفسه فی هذا الشأن هجوم منه علی الغیب و تقول علی اللّه بغیر علم، و تحکم فیما لا یحکم فیه إلا اللّه.

التسول بالقرآن: و إذا کان التسول بالوضع الذی نراه الیوم یمقته فی ذاته الشرع و الدین، و تأباه الکرامة و الخلق، و لا ترضاه لنفسها أمة ترید المجد، فما بالنا به إذا اتخذ القرآن الکریم وسیلة له، و اعتراض به المارة فی الطرقات، و المصلین فی المساجد، و الراکبین فی السیارات و القطارات. علینا أن نبذل قصاری جهدنا فی صیانة کتاب اللّه عن الابتذال، و أن نوجه الناس إلی جهة الانتفاع بالقرآن الکریم، و إلی ما یحفظ کرامتنا بین الأمم عن طریق الأسباب التی وضعها سبیلا للمجد و الکرامة.

فضل بعض السور: أما ما جاء عن فضل سور القرآن و تلاوتها، من درجات الثواب التی یحصل علیها قارئ هذه السورة أو تلک، مما رددته بعض کتب التفاسیر، فالواقع أنی فی قراءتی لهذه التفاسیر انتهیت إلی أن ما جاء فی ذلک من أحادیث إنما قصد به التناسب بینها و بین ما احتوت علیه هذه السورة أو السور، و اعترانی شک من جهة أن سور القرآن البالغ عددها (۱۱۴) سورة، کان الرسول صلی اللّه علیه و سلم یتحدث عن کل سورة منها بما یناسبها، و الذی نعلمه أن الرسول ما کان یرتب الثواب علی مجرد القراءة، و إنما کان یرتبه علی الإیمان و العمل الصالح.

و المسألة لیست مسألة مجرد قراءة فحسب، و لعلک تدری الحکمة القائلة: کم من قارئ یقرأ القرآن و القرآن یلعنه. و قد دفعنی ما وقعت فیه من شک أن أبحث عن أصل الأحادیث، فوجدت أنها ترجع إلی أصل واحد، و أن الذی تحث بها و تکلم بها رجل یسمی نوح ابن مریم، و قد سئل فی هذا، فقال: إنی وجدت الناس قد شغلوا بتاریخ ابن إسحاق، وفقه أبی حنیفة عن القرآن، فأحببت أن ألفتهم إلی القرآن، فوضعت هذه الأحادیث، حسبة للّه.

الرّقیة دعاء لا- دواء: أما الرقی بالأدعیة، فإنها تفسر علی نوع من الدعاء، و لکنها لا تقبل علی أنها دواء للمریض من الداء، فللأدواء علاجها مما خلق اللّه من العقاقیر.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶

بعد هذا البیان لا یسعنی إلا أن أدعو المسلمین إلی أن ینظروا للقرآن النظرة اللائقة بمکانته، و أن یضعوه فی المرتبة السامیة التی وضعه فیها المسلمون الأولون، و أن یمحوا من أذهانهم أن آیاته نزلت لدواء الأبدان، أو لشفاء العلل، و إنما هو هدی و رحمة و تشریع، و تنویر للبصائر، و سمو بالإنسانیة، و تقویض للشرک، و هدم للباطل، و نصرة للحق، و اللّه یهدینا سواء السبیل.

وجوب طاعة اللّه و طاعة رسوله، و وعید المخالفین

و طاعة اللّه فی اتباع کتابه، و طاعة الرسول فی اتباع سنته، قال اللّه تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلًا [النساء: ۵۹].

و قال تعالی: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِیُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً فَلا وَ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً [النساء: ۶۴، ۶۵].

و قال: وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ یُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ وَ مَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَتَعَدَّ حُدُودَهُ یُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِیها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِینٌ [النساء: ۱۳، ۱۴].

و قال جل علاه: وَ ما کانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَی اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِیناً [الأحزاب:

۳۶].

و قال: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً [الجن: ۲۳].

و قال: وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً [النساء: ۱۱۵].

و قال: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [المجادلة: ۵].

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷

و قال: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ [المجادلة: ۲۰].

و قال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً [الأحزاب: ۷۱].

و قال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ [النور: ۵۲].

و قال: وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا [النور: ۵۴].

و قال: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً [الفتح: ۱۷].

و قال: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [التغابن: ۱۲].

و قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ [محمد: ۳۳].

و قال: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ [الحشر: ۷].

الأمر بتدبر و تفهم القرآن

حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [فصلت: ۱- ۴].

و قال: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ [ص: ۲۹].

و قال تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ «۱» [القمر: ۱۷].

و قال: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المدثر: ۴۹، ۵۱].

و قال: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ [الجمعة: ۵].

---

(۱) أی یسرنا لفظه و معناه فهل من متذکر منزجر به.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸

و قال: لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ [الأعراف: ۱۷۹].

و قال لنبیه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ «۱» وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ «۲» [فصلت: ۴۴].

و قال: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [النساء: ۸۲].

و قال: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ «۳» عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها [محمد: ۲۴].

و قال: قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ «۴» مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً «۵» تَهْجُرُونَ أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ [المؤمنون: ۶۶- ۶۸].

وعيد المعرضين عن القرآن

قال تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى [طه: ۱۲۴- ۱۲۶].

و قال: وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا [طه: ۹۹- ۱۰۱].

و قال: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ «۶» نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ [الزخرف: ۳۶].

---

(۱) الوقر: الثقل فی الأذن.

(۲) أی کأن من یخاطبهم یناديهم من مکان بعید لا یفهمون منه ما یقوله لهم «کمثل الذی ینعق بما لا یسمع إلا دعاء و نداء صم بکم عمی فهم لا یعقلون».

(۳) أم: بمعنی بل، أی بل علی قلوب أقفالها فهی مطبقة لا یصل إلیها شیء من معانی.

(۴) النکوص: الإحجام عن الشیء و الرجوع.

(۵) أی تسامرون و یقولون القول الفاحش فی النبی صلی اللّه علیه و سلم.

(۶) الإعشاء: عدم الإبصار بالنهار.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۹

و قال: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ [الكهف: ۵۷].

و قال: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ [السجدة: ۲۲].

و قال: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً [الجن: ۱۷].

فضائل قراءة القرآن و فضائل بعض سوره و آياته

عن أبی أمامة، رضی اللّه عنه، قال: سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یقول: «اقرءوا القرآن، فإنه یأتی یوم القیامة شفیعا لأصحابه» رواه مسلم، رحمه اللّه.

و عن النواس بن سمعان، رضی اللّه عنه، قال: سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یقول: «یؤتی یوم القیامة بالقرآن و أهله الذین کانوا یعملون به فی الدنیا تقدمه سورة البقرة و آل عمران تحاجان عن صاحبهما» رواه مسلم.

و عن عثمان بن عفان، رضی اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «خیرکم من تعلم القرآن و علمه» رواه البخاری.

و عن عائشة، رضی اللّه عنها، قالت: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «الذی یقرأ القرآن و هو ماهر به مع السفرة «۱» الکرام البررة، و الذی یقرأ القرآن و یتتعتع فیه و هو علیه شاق له أجران» متفق علیه.

و عن أبی موسی الأشعری، رضی اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم «مثل المؤمن الذی یقرأ القرآن مثل الأترجة «۲» ریحها طیب و طعمها طیب، و مثل المؤمن الذی لا یقرأ القرآن کمثل الثمرة لا ریح لها و طعمها حلو، و مثل المنافق الذی یقرأ القرآن کمثل الریحانة ریحها طیب و طعمها مر، و مثل المنافق الذی لا یقرأ القرآن کمثل الحنظلة لیس لها ریح و طعمها مر» متفق علیه.

و عن عمر بن الخطاب، رضی اللّه عنه، أن النبی صلی اللّه علیه و سلم قال «إن اللّه یرفع بهذا الکتاب أقواما و و یضع به آخرین» رواه مسلم.

---

(۱) السفرة الملائکة، و البررة أی أخلاقهم حسنة و أفعالهم بارة.

(۲) الأترجة: فاکهة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰

و عن ابن عمر، رضی اللّه عنه، عن النبی صلی اللّه علیه و سلم قال: «لا حسد إلا فی اثنتین: رجل آتاه اللّه القرآن فهو یقوم به آناء «۱» اللیل و آناء النهار، و رجل آتاه اللّه مالا فهو ینفقه آناء اللیل و آناء النهار» متفق علیه.

و عن البراء بن عازب، رضی اللّه عنه، قال: کان رجل یقرأ سورة الکهف و عنده فرس مربوطة بشطنین «۲» فتغشته سحابة، فجعلت تدنو، و جعل فرسه ینفر منها، فلما أصبح أتی النبی صلی اللّه علیه و سلم فذکر له ذلک، فقال: «تلک السکینة تنزلت للقرآن» متفق علیه.

و عن ابن مسعود، رضی اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «من قرأ حرفا من کتاب اللّه فله حسنة، و الحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول: الم حرف، و لکن ألف حرف، و لام حرف، و میم حرف» رواه الترمذی، و قال: حدیث حسن صحیح.

و عن ابن عباس، رضی اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم «إن الذی لیس فی جوفه شیء من القرآن کالبیت الخرب» رواه الترمذی، و قال: حدیث حسن صحیح.

و عن عمرو بن العاص، رضی اللّه عنه، عن النبی صلی اللّه علیه و سلم، قال: «یقال لصاحب القرآن:

اقرأ و ارتق و رتل کما کنت ترتل فی الدنیا، فإن منزلتک عند آخر آیة تقرؤها» رواه أبو داود و الترمذی، و قال: حسن صحیح.

و عن أبی سعید رافع بن المعلی، رضی اللّه عنه، قال: قال لی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «أ لا أعلمک أعظم سورة فی القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟»، فأخذ بیدی، فلما أراد أن یخرج قلت: یا رسول اللّه، إنک قلت: لأعلمنک أعظم سورة فی القرآن، قال: «الحمد للّه رب العالمین هی السبع المثانی و القرآن العظیم الذی أوتیته» رواه البخاری، رحمه اللّه.

و عن أبی سعید الخدری، رضی اللّه عنه، أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: فی قراءة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ: «و الذی نفسی بیده، إنها لتعدل ثلث القرآن». و فی روایة أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال لأصحابه: «أ یعجز أحدکم أن یقرأ بثلث القرآن فی لیلة؟»، فشق ذلک علیهم، و قالوا: أینا یطیق ذلک یا رسول اللّه؟ فقال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ثلث القرآن» رواه البخاری.

و عنه أن رجلا سمع رجلا یقرأ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ یرددها، فلما أصبح جاء إلی رسول صلی اللّه علیه و سلم، فذکر ذلک له، و کأن الرجل یتقالها، فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «و الذی نفسی

---

(۱) آناء: ساعات.

(۲) الشطن: الحبل.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱

بیده إنها لتعدل ثلث القرآن» رواه البخاری.

و عن أنس، رضی اللّه عنه، أن رجلا قال: یا رسول اللّه، إنی أحب هذه السورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، قال: «إن حبها أدخلک الجنة».

و عن عقبة بن عامر، رضی اللّه عنه، أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: «أ لم تر آیات أنزلت هذه اللیلة لم یر مثلهن قط؟ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [الفلق: ۱]، و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» [الناس: ۱] رواه مسلم.

و عن أبی سعید الخدری، رضی اللّه عنه، قال: کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یتعوذ من الجان و عین الإنسان حتی نزلت المعوذتان، فلما نزلت أخذ بهما و ترک ما سواهما. رواه الترمذی، و قال: حدیث حسن.

و عن أبی هریرة، رضی اللّه عنه، أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: «من القرآن سورة ثلاثون آیة شفعت لرجل حتی غفر له و هی: تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ [الملک: ۱]» رواه أبو داود، و الترمذی، و قال: حدیث حسن. و فی روایة أبی داود «تشفع».

و عن أبی مسعود البدری، رضی اللّه عنه، عن النبی صلی اللّه علیه و سلم قال: «من قرأ بالآیتین من آخر سورة البقرة فی لیلة کفتاه» «۱» متفق علیه.

و عن أبی هریرة أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: «لا- تجعلوا بیوتکم مقابر، إن الشیطان ینفر من البیت الذی یقرأ فیه سورة البقرة» رواه مسلم.

و عن أبی بن کعب، رضی اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «یا أبا المنذر، أ تدری أی آیة من کتاب اللّه معک أعظم؟»، قلت: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ [البقرة:

۲۵۵]، فضرب فی صدری، و قال: «لیهنک العلم أبا المنذر» رواه مسلم، و فی البخاری فی حدیث آخر طویل: «من قرأ آیة الکرسی عند نومه لم یقربه شیطان».

و عن أبی الدرداء، رضی اللّه عنه، أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: «من حفظ عشر آیات من أول سورة الکهف عصم من فتنة الدجال». و فی روایة: «من آخر سورة الکهف» رواه مسلم.

و عن ابن عباس، رضی اللّه عنهما، قال: بینما جبریل، علیه السلام، قاعد عند النبی صلی اللّه علیه و سلم، سمع نقیضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح الیوم و لم یفتح

---

(۱) کفتاه ما أهمه.

قط إلا- الیوم، فنزل منه ملک، فقال: هذا ملک نزل إلی الأرض لم ینزل قط إلا الیوم، فسلم و قال: أبشر بنورین لم یؤتهما نبی من قبلک: فاتحة الکتاب و خواتیم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطیته» الحدیث رواه مسلم فی صلاة المسافرین، باب فضل الفاتحة و خواتیم سورة البقرة.

و روی الحاکم فی المستدرک بإسناد صحیح، عن معقل بن یسار، رضی اللّه عنهما، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «اعملوا بالقرآن، أحلوا حلاله، و حرموا حرامه، و اقتدوا به، و لا- تکفروا بشیء منه، و ما تشابه علیکم فردوه إلی اللّه و إلی أولی العلم من بعدی کیما یخبروکم، و آمنوا بالتوراة و الإنجیل و الزبور، و ما أوتی النبیون من ربهم و لیسلم القرآن و ما فیه من البیان، فإنه أول شافع مشفع، و ما حل «۱» مصدق، و إنی أعطیت سورة البقرة من الذکر الاول «۲» و أعطیت طه و الطواسین من ألواح موسی، و أعطیت فاتحة الکتاب من تحت العرش».

و روی الدرامی و الترمذی، رحمه اللّه، عن أنس، رضی اللّه عنه، عن النبی صلی اللّه علیه و سلم أنه قال: «إن لکل شیء قلبا، و قلب القرآن یس، و من قرأ یس کتب اللّه له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» و رمز فی الجامع لضعفه، و صححه شارحه، و قال الشوکانی فی التحفة: قال الترمذی: هذا حدیث غریب.

و أخرج النسائی، و أبو داود، و ابن ماجة، و ابن حبان، رحمهم اللّه، عن معقل بن یسار، عنه صلی اللّه علیه و سلم أنه قال: «قلب القرآن یس، لا یقرأها رجل یرید اللّه و الدار الآخرة إلا غفر له، اقرءوها علی موتاکم» أی من حضر الموت. قال فی التحفة: و صححه ابن حبان و الحاکم.

و أخرج ابن حبان و ابن السنی، عن جندب، رضی اللّه عنه، أنه صلی اللّه علیه و سلم قال: «من قرأ یس فی لیلة القدر ابتغاء وجه اللّه غفر له»، و أخرجه الطبرانی، عن أبی هریرة، و فی إسناده غالب بن تمیم، و هو ضعیف. و أما حدیث: «من داوم علی قراءة یس فی کل لیلة، ثم مات، مات شهیدا»، ففی إسناده سعید بن موسی الأزدی، و هو کذاب.

و روی البخاری، عن عمر، أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال: «لقد أنزلت علیّ اللیلة سورة لهی أحب إلی مما طلعت علیه الشمس»، ثم قرأ: إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً [الفتح: ۱].

---

(۱) أی خصم مجادل مصدق. أ. ه نهایة.

(۲) و هو الکتب المنزلة علی الأنبیاء المتقدمین.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳

و روی الترمذی، و الحاکم، عن ابن عباس، رضی اللّه عنه، أنه صلی اللّه علیه و سلم قال: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ [الزلزلة: ۱] تعدل نصف القرآن، و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [الإخلاص:

۱] ثلث القرآن، و قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ [الکافرون: ۱] تعدل ربع القرآن» و صححه فی الجامع و شرحه، و لکن قال فی التحفة: قال الترمذی بعد إخراجه: حدیث حسن غریب، لا نعرفه إلا من حدیث یمان بن المغیرة الذی هو العنزی. قال یحیی بن معین:

لیس حدیثه بشیء. و قال البخاری: منکر الحدیث. و ضعفه أبو زرعة، و الدارقطنی.

و قال ابن عدی: لا أری به بأسا، فالعجب من الحاکم حیث صحح حدیثه أ. ه.

و أخرج الحاکم، عن ابن عمر، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «أ لا یستطیع أحدکم أن یقرأ ألف آیة فی کل یوم؟»، قالوا: و من یستطیع ذلک؟ قال: «أما یستطیع أحدکم أن یقرأ أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ» [التکاثر: ۱]. أخرجه الحاکم، عن عقبة بن محمد، عن نافع عن ابن عمر. قال المنذری: و رجال إسناده ثقات، إلا أن عقبة لا أعرفه.

و عن أنس، أنه صلی اللّه علیه و سلم قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت یا فلان؟»، قال: لا، و اللّه یا رسول اللّه ما عندی ما أتزوج به، قال: «أ لیس معک قُلْ هُوَ اللَّهُ؟» قال: بلی، قال: «ثلث القرآن»، قال: «أ لیس معک إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ؟» [النصر: ۱]، قال: بلی، قال: «ربع القرآن»، قال: «أ لیس معک: قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ؟» [الکافرون: ۱]، قال: بلی، قال: «ربع القرآن»، قال: «أ لیس معک إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ؟» [الزلزلة: ۱]، قال: بلی، قال: «ربع القرآن، تزوج، تزوج» أی بما معک من القرآن». قال فی تحفة الذاکرین: قال الترمذی بعد إخراجه: هذا حدیث حسن، و قد تکلم فی هذا الحدیث مسلم فی کتاب التمییز، و هو من روایة سلمة بن وردان، عن أنس. قال أبو حاتم: لیس بقوی، عامة ما عنده عن أنس منکر. و قال یحیی بن معین:

لیس حدیثه بذاک. أ. ه.

و فی الجامع و صححه: «من قرأ فی لیلة مائة آیة لم یکتب من الغافلین». و فی الدرامی: «من قرأ مائتی آیة فی لیلة کتب من القانتین»، و «من قرأ فی لیلة ثلاثمائة آیة کتب له قنطار»، و «من قرأ ألف آیة کتب له قنطار من الأجر، و القیراط من ذلک القنطار لا یفی به دنیاکم». و فی روایة: «و القیراط من القنطار خیر من الدنیا و ما فیها و اکتسب من الأجر ما شاء اللّه»، و هذه الأحادیث، و إن کان فیها مقال، فهی داخلة تحت عموم حدیث: «من قرأ حرفا من کتاب اللّه فله حسنة، و الحسنة بعشر أمثالها ...» الحدیث، و القرآن کلام اللّه و فضائله لا تحصی.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۴

تحزیب القرآن

قال فی المغنی: یستحب أن یقرأ القرآن فی كل سبعة أیام لیكون له ختمة فی كل أسبوع.

قال عبد اللّه بن أحمد: كان أبی یختم القرآن فی النهار فی كل سبعة، یقرأ فی كل یوم سبعا لا یتركه نظرا. و قال حنبل: كان أبو عبد اللّه یختم من الجمعة إلی الجمعة، و ذلک ما روی أن النبی صلی اللّه علیه و سلم قال لعبد اللّه بن عمر: «اقرأ القرآن فی سبع، و لا تزیدن علی ذلک» رواه أبو داود.

و عن أوس بن حذیفة، قال: قلنا لرسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: لقد أبطأت عنا اللیلة، قال: «إنه طرأ علیّ حزبی من القرآن، فكرهت أن أخرج حتی أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: كیف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث «۱»، و خمس، و سبع، و تسع، و إحدی عشرة، و ثلاث عشرة، و حزب المفصل وحده. رواه أبو داود.

و یكره أن یؤخر القرآن أكثر من أربعین یوما؛ لأن النبی صلی اللّه علیه و سلم سأله عبد اللّه بن عمرو:

كم تختم القرآن؟ قال: «فی أربعین یوما»، ثم قال: «فی شهر»، ثم قال: «فی عشرین یوما»، ثم قال: «فی خمس عشرة»، ثم قال: «فی عشر»، ثم قال: «فی سبع»، لم ینزل من سبع «۲» أخرجه أبو داود. قال أحمد: أكثر ما سمعت أن یختم القرآن فی أربعین، و لأن تأخیره أكثر من ذلک یفضی إلی نسیان القرآن، و التهاون به، فكان ما ذكرنا أولی، و هذا إذا لم یكن عذر، فأما مع العذر فواسع له. أ. ه.

لا تعرض عن قراءة القرآن

إذا عرفت فضل القرآن العظیم، و فضل بعض سوره و آیاته، و عرفت وافر و جزیل أجر تلاوته، و علمت كیفیة تحزیب النبی صلی اللّه علیه و سلم و أصحابه للقرآن، و ترتیبهم له علی الأیام و اللیالی، حق لنا أن نقول لک أیها المسلم المتبع لأعظم رسول: لا تعرض عن قراءة كتاب ربک إلی قراءة أوراد المشایخ و أحزابهم، فإن الأجر كله، و الثواب كله، و الفضل العظیم كله، و النصح، و الإرشاد، و الوعظ، و الهدی، و النور كله، و الصراط المستقیم إنما هو فی تلاوة كتاب اللّه تعالی.

---

(۱) أی نقرأه فی ثلاث إلخ.

(۲) أی عن سبع.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵

فیا متبع الرسول الأعظم، إیاک ثم إیاک و ما ابتدع، فإنه ضلالة، و اعلم أنه لا یجوز لک أن تقرأ دعاء البسملة، و لا ورد الجلالة و دعاءها للجیلانی؛ لأنه یصدک عن القرآن، و لا یجوز لک أن تقرأ مسبعات، و لا منظومة الدردیر، و لا ورد السحر، و المیمیة، و المنهجة الكبری، بل اقرأ بدل هذا أحزابا من القرآن تنفعک قراءتها یوم لقاء ربک، و لا سیما قراءة التدبر و التفقه.

أیها العاقل، هل حزب البر، و البحر، و النصر، و حزب الرفاعی الكبیر و الصغیر، و حزب الدسوقی الكبیر و الصغیر أیضا، و حزب النووی و البیومی، و حزب الوقایة المسمی بالدور الأعلی، بل و جمیع مجموع الأوراد، خیر أو حزب واحد، أو سورة واحدة من القرآن العظیم؟! لا بل آیة واحدة، بل حرف واحد من كتاب اللّه، لا شک أنک تعترف أنه أعظم و أجل ألف مرة، بل لا مناسبة بالكلیة، و أنت تشهد و تقر معی بذلک، و لا أظنک تنكره، إن جمیع ما فی مجموع الأذكار الطیبة للطرق السبعة، و جمیع ما فی كتاب مجموع أوراد الخلوتیة و المرغنیة، و أوراد الخلیلیة، و حرز الجوشنی، و حرز الغاسلة، و الجلجلوتیة، و البرهتیة، لا شک أنه من عند غیر اللّه، و لا شک أنه شرع لم یشرعه اللّه و لا رسوله، فصار بدعة، و كل بدعة ضلالة.

و لعلک تقول: إن هذه الأحزاب و الأوراد لا تخلو من آیات قرآنیة فیها، فنقول لک:

القرآن كاللبن النقی الخالص، و أحزابكم و أورادكم كاللبن المخلوط بالدم، أو كاللبن الاصطناعی، فأیهما ترتضیه لنفسک؟ الأول لا شک، بل ما فی القرآن من الموعظة، و الشفاء، و الرحمة، و التذكیر، و الهدایة، و العبرة، و الأمر، و النهی، و الترغیب، و الترهیب، و

ذکر عظمة اللّه و کبریائه، و تعریفک برسول اللّه، و رسوله، و قصص الأنبیاء و أتباعهم، و ما فعل اللّه بالطاغین و العاصین، و ما أعده لأهل طاعته من النعیم المقیم، و غیر ذلک مما لا یمکننا عده، و لا حصر بعضه، و لیس یوجد من ذلک حرف واحد فی أورادکم و لا أحزابکم، فما هی إلا عبادات مخترعات.

و شیء آخر هو أنک لا تقرأ بحرف واحد من کتاب اللّه إلا أوتیت أجره، کما فی الحدیث الصحیح: «من قرأ حرفا من کتاب اللّه فله حسنة، و الحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، و لکن ألف حرف، و لام حرف، و میم حرف، و اللّه یضاعف لمن یشاء»، فما هو ثواب من قرأ حزب الجیلانی کله من أوله إلی آخره ألف مرة، و ما ثواب من یقرأ حزب الکبری، بل و ما ثواب من یقرأ جمیع مجامیع الأوراد کلها حرفا حرفا؟ لا یمکنکم أصلا أن تقدروا لقارئها ثوابا کثواب قراءة أصغر سورة فی القرآن، بل و لا آیة،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۶

و لا حرف واحد، فإن قدرتم و قلتم فظن و إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً [یونس: ۳۶]، بل إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [الحجرات: ۱۲]، بل یکون افتراء و کذبا علی اللّه، وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ وَ هُوَ یُدْعی إِلَی الْإِسْلامِ [الصف: ۷].

فیها أیها المسلمون اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ [الزمر: ۲۳]، و قص علیکم أحسن القصص فی کتابه، فلا تعدلوا عنه و تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هوکوا و تهوکوا «۱»، یا قوم «کفی بقوم ضلالة أن یتبعوا کتابا غیر کتاب ربهم الذی أنزل علی نبیهم»، کذا فی الحدیث، یا قوم حذار حذار من الإعراض عن کتاب اللّه، فإن اللّه یقول: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمی [طه: ۱۲۴]، و یقول: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ «۲» [الزخرف:

۳۶]، و یقول لنبیه: وَ قَدْ آتَیْناکَ مِنْ لَدُنَّا ذِکْراً مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ یَحْمِلُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وِزْراً خالِدِینَ فِیهِ وَ ساءَ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ حِمْلًا [طه: ۹۹- ۱۰۱]، و یقول: وَ مَنْ یُعْرِضْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِ یَسْلُکْهُ عَذاباً صَعَداً «۳» [الجن: ۱۷].

یا قوم، إنی أقول و الحق أقول: إنه لا یرغب عن کتاب ربه إلی مخترعات الشیوخ إلا من سفه نفسه، و ضل سعیه، و زین له الشیطان عمله، فصده عن السبیل، فحزبوا و جزءوا القرآن، و قسموه علی أیامکم و لیالیکم، و حلوا و ارتحلوا فیه من أوله إلی آخره، و اجعلوا المصحف فی جیوبکم دائما و أبدا، بدل المجموع، و لکن أکبر ما تمعنون فیه النظر بعد القرآن أحادیث الرسول، و التعبد بالأدعیة و الأذکار المرویة عنه فی الکتب التی ذکرناها لکم، و هذا فیه الغنیة التامة، و الکفایة العظمی عن جمیع ما تقرءونه من الأوراد، و الأحزاب، و الدلائل، و التوسلات التی لم یتعبد بحرف واحد منها أحد من الصحابة، و لا التابعین، و لا أئمة الدین، أسأل اللّه لی و لکم الهدایة و الاعتصام بکتابه و سنة نبیه، آمین.

---

(۱) التهوک: کالتهور و هو الوقوع فی الأمر بغیر رویة، و قیل: هو التحیر. اه. نهایة.

(۲) قرین: أی صاحب ملازم له.

(۳) صعدا: أی متزایدا؟.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷

بدعیة جمع القراءات فی سورة أو آیة واحدة

سئل شیخ الإسلام ابن تیمیة، رحمه اللّه، عن جمع القراءات السبعة، هل هو سنة أم بدعة؟ و هل جمعت علی عهد رسول اللّه أم لا؟ و هل لجامعها مزیة ثواب علی من قرأ بروایة أم لا؟ فأجاب بقوله: الحمد للّه، أما نفس معرفة القراءة و حفظها فسنة، فإن القراءة سنة متبعة یأخذها الآخر عن الأول، فمعرفة القراءات التی کان النبی صلی اللّه علیه و سلم یقرأ بها، أو یقرهم علی القراءة بها، أو یأذن لهم و قد أقرئوا بها سنة، و العارف بالقراءات الحافظ لها، له مزیة علی من لم یعرف ذلک، و لا یعرف إلا قراءة واحدة، و أما جمعها فی الصلاة

أو فى التلاوة، فهو بدعة مكروهة، و أما جمعها لأجل الحفظ و الدرس، فهو من الاجتهاد الذى فعله طوائف فى القراءة، و أما الصحابة و التابعون، فلم يكونوا يجمعون، و اللّه أعلم.

و قال فى موضع آخر: و أما الجمع فى كل القراءة المشروعة المأمور بها، فغير مشروع باتفاق المسلمين، بل يخير بين تلك الحروف، و إذا قرأ بهذه تارة و بهذه تارة كان حسنا.

و قال بعد حديث الصحاح و هو: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فاقرءوا بما تيسر»، و معلوم أن المشروع فى ذلك أن يقرأ أحدها أو هذا تارة و هذا تارة لا الجمع بينهما، فإن النبى صلى اللّه عليه و سلم لم يجمع بين هذه الألفاظ فى آن واحد، بل قال هذا تارة و هذا تارة. أ. ه.

بدع و ضلالات متعلقة بالقرآن العظيم

فمن ذلك أخذ الفأل و البخت من المصحف، و لا أدرى ما ذا يصنع صاحب البخت إن وقف على آية: فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ [البقرة: ۲۷۹]، أو: لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ [العلق: ۱۵]، أو: ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ [العلق: ۱۶]، أو: سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ [العلق: ۱۸] مثلا. و فى كتاب أدب الدنيا و الدين، أن الوليد بن يزيد تفاءل يوما فى المصحف، فخرج له قوله تعالى: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [إبراهيم: ۱۵]، فمزق المصحف و أنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيدفها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشرفقل يا رب مزقنى الوليد فلم يلبث إلا أياما حتى قتل شر قتلة، و صلب رأسه على قصره، فنعوذ باللّه.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۸

و هذا فعل مذموم جدا يجب تركه و محاربته، و كذا قولهم: إن النبى صلى اللّه عليه و سلم يحزن و يتألم من قراءة سورة: تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ [المسد: ۱] لأجل عمه، فلا تقرأ و لا يصلى بها، و كيف ذلك و قد أنزل اللّه: لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ [الممتحنة: ۱] الآية، و اعتقادهم أن من حلف على المصحف يصاب بالعمى و الكساح هو من خرافاتهم و جهالاتهم المضحكة، و إنما هو يمين يكفر عنها إن رأى أن غيرها خير منها على بعض المذاهب، و إلا فهو يمين غموس، أى يغمس صاحبه فى النار، و قراءتهم سورة يس أربعين مرة بدعائها المخترع المحدث لإهلاك شخص، أو فك مسجون، أو قضاء حاجة، جهل أيضا و بعد عن اتباع الحقائق الشرعية.

و حديث: «يس لما قرئت له». قال الحافظ السخاوى: لا أصل له، و كذا حديث: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»، فتشت عنه كثيرا فى الكتب، فلم أجد له أصلا، و فى آخر تفسير سورة يس من البيضاوى و النسفى أحاديث موضوعة فى فضلها، فينبغى أن لا يعول عليها، و جمع آى سجدات القرآن و السجود عند كل آية بدعة تقدم الكلام عليها، و جمع تهليلات القرآن كما فى حزب البيومى، ابتداع فى الدين، و اختراع لا يرضى، و قراءة النساء القرآن على الرجال فى المحافل و غيرها ممنوع شرعا، و قد قال الرسول صلى اللّه عليه و سلم: «إذا نابتكم نائبة فى صلاتكم فسبحوا، إنما جعل التصفيق للنساء»، كذا فى الصحيح، أينها هن الرسول عن التلفظ بسبحان اللّه فى الصلاة و نجلسهن بيننا للتغنى بالقرآن على مقعد خاص فى محافل الرجال؟ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ [ص: ۵]، و كتب آيات السلام ك سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ [الصافات: ۷۹] بدعة ضلالة أيضا.

و جعلهم المصحف حجابا يعلقونه على أنفسهم، و على مواشيهم جهل شنيع و بدعة، و حمل النساء له أيام حيضهن، و نفاسهن، و وقت جنابتهن، ضلال كبير، و امتهان لكتاب اللّه القدير، و خبر نزول دم عثمان عند قتله على كتاب اللّه على لفظ: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [البقرة: ۱۳۷] باطل لا أصل له، كما فى أسنى المطالب، و حديث شمهورش قاضى الجن الذى فيه: حدثنى سيد المرسلين محمد صلى اللّه عليه و سلم قال:

«حدثنى جبريل، قال: حدثنى إسرافيل عن رب العزة أن من قرأ سورة الفاتحة فى نفس واحد لقضاء حاجة قضيت»، هذا باطل معارض

بما عرف من أنه صلى اللّه عليه و سلم كان إذا قرأ يقف على رءوس الآى و يمدها، ثم لما ذا و ما فائدة قراءتها فى نفس واحد؟ إن هذا لمن أفرى الفرى على اللّه و رسوله، و لو كان صحيحا لثبت فى الصحاح و السنن، و اشتهر على

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۹

ألسنة الصحابة و التابعين، و لم تقتصر روايته على شمهورش الجنى.

و إننى لأعجب كيف يروج هذا على عقول العلماء؟ و كيف يقبلونه؟ و كيف يحفظونه و يقرءونه على الناس، و فى مصنفاتهم يكتبونه؟ و قد سمعت هذا الحديث من شيخ أزهرى يقال له: عالم، و قرأته على ظهر كتاب لشيخ من المتأخرين، فيا للأسف على فساد عقول رؤساء الدين، و رواج الأباطيل و الأضاليل و الترهات على من اشتهر من بين الناس بأنهم كبار المسلمين، و على عدم معرفتهم بين الصحيح و المكذوب على الرسول الأمين صلى اللّه عليه و سلم.

و إننى و اللّه لا أثق أبدا بعلم و لا دين هؤلاء ما داموا لا يفرقون بين الحق و الباطل، و الصحيح و الموضوع، و لا بين الأنوار الربانية المحمدية، و الظلمات الشيطانية.

و الدعاء الذى فى آخر المصاحف لا يجوز التعبد به قطعا، بل هو مذموم و ممنوع شرعا؛ لأنه مخترع و ليس مأثورا، بل كله بدع ضلالات، و توسلات موضوعات، فلا تحل قراءته، بل و لا كتابته فى آخر المصاحف، و القرآن و السنة كافيان شافيان، قال اللّه تعالى مسفها و عائبا أحلام من لم يكتفوا بكتاب اللّه: أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت: ۵۱]، و فى الحديث: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابا غير كتاب نبيهم أنزل على نبى غير نبيهم» رواه أبو داود فى مراسيله.

فكيف بكم و قد أصبحت جل عباداتكم لا هى عن نبى من أنبياء اللّه المتقدمين، و لا هى عن نبيكم محمد صلى اللّه عليه و سلم، و لا عن أصحابه، بل أوحى بها الشيطان على بعض المتعالين، فحذار من التعبد بما لم ينزل على نبيكم، و لا فعله أصحاب نبيكم، إذ المتعبد به بدعى، جاهل، غبى.

و قراءة الختمات التى يعملونها للأموات و يجتمع لها القراء و يفرقون على بعضهم أجزاء الأربعة- المصحف- ثم يستفتحون القراءة و يختمونها جميعا فى ساعة، ثم يهدون ثواب ما قرءوه للمتوفى، بدعة ضلالة فاعلها غاية الجهالة، و لو عاشوا عمر نوح يبحثون فى الشريعة الغراء على دليل يدل على ذلك لما وجدوه، و هؤلاء لو أن الداعى لهم أخرج لهم الغداء أو العشاء قليلا، أو أعطاهم قروشا قليلة، لفضحوه و سبوه و لعنوه لعنا كبيرا، فنعوذ باللّه من الجهل و الشقاء و الخيبة.

و القارئ، الفقى، الراتب فى البيوت دائما و فى رمضان بدعة، و دخولهم على النساء

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۳۰

حال غياب الرجال مفسدة و دياثة، و شحذ القراء بالقرآن فى الشوارع و الطرقات ضلال كبير، و شر خطير، و لو استغنوا بتجارة أو صناعة لغناهم اللّه قطعا: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق: ۲، ۳]، وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً [الطلاق: ۴]، و فى الحديث عنه صلى اللّه عليه و سلم قال: «لو أنكم تتوكلون على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا و تروح بطانا» رواه الإمام أحمد، و الترمذى، و ابن ماجة، و الحاكم، عن عمر بسند صحيح كما فى الجامع، فاتقوا اللّه أيها القراء، و توكلوا على اللّه و تحرفوا لدنياكم، «فإن اللّه يحب العبد المؤمن المحترف، و اعرفوا ربكم و ادعوه، فإنكم لو عرفتم اللّه حق معرفته لزالت لدعائكم الجبال» و ذكرهما فى الجامع.

و قراءة الفاتحة زيادة فى شرف النبى صلى اللّه عليه و سلم بدعة لا أصل لها، و قد قال تعالى: صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً [الأحزاب: ۵۶]، و لم يقل: اقرءوا عليه، و قراءة الفاتحة بنية قضاء الحاجات، و تفريح الكربات، و هلاك الأعداء، بدعة لم يأذن بها الدين، و قراءة الفاتحة بالسماح كما يفعله الفقراء بدعة، و قراءة الفاتحة عند شرط خطبة الزواج و اعتقادهم أن قراءتها عهد لا ينقض بدعة و اعتقاد

فاسد و جهل.

و قراءة سورة الفيل إلى كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [الفيل: ۵] ثم تكرير كَعَصْفٍ مرات لأجل إسكات الكلاب عن النباح، و اعتقادهم أنها تمنع الكلب عن عض الإنسان، و أنه إذا قرأ لفظة مَأْكُولٍ عضه الكلب، هذا هو كلام و اعتقاد من لا عقل له و لا دين.

و المسبعات: الفاتحة، و المعوذتان و الإخلاص، و الكافرون سبعا سبعا بدعة، لم يرد فيها و لا حديث ضعيف، و لم يتعبد بها الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و لا أحد من خلفائه، و لا أصحابه، فما هى إلا منام رآه إبراهيم التيمى، و ليست المنامات شريعة يتعبد بها.

و الفائدة التى يعملونها لجلب الرزق، و يصومون عن أكل كل ذى روح أياما، و يحتجبون عن الناس فى الخلوة فى مكان مظلم، و يكررون عقب كل صلاة مئات المرات آية: وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ [يس: ۷۲] هى باطلة قطعا، و لا تعود على صاحبها بأدنى فائدة، بل بالخيبة الدائمة، و الذى يجلب الرزق حقا، و يفتح لك بركات السماء و الأرض، إنما هو تقوى اللّه، قال تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ [الأعراف: ۹۶].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۳۱

و قولهم: كان السيوطى إذا أراد أن يفسر القرآن، خرج إلى الجبل ففسره هناك خوفا من الخطأ فى التفسير، فإنه ينزل الغضب على أهل البلد، كلام باطل لا أصل له البتة، و ما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان، ليصدهم به عن سبيل اللّه، و قد قال اللّه تعالى:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر: ۱۷]، أى متذكر و متعظ به، و قال تعالى: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [فصلت: ۱- ۴]، و قال تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ [ص: ۲۹].

و لهذا الجهل الفاشى بينهم، ترى الناس جميعا، حتى حملة القرآن، يتحاملون عن التكلم فى معنى آية من كتاب اللّه، و إن كان أحدهم حافظا لمعناها، و إن كان سمع تفسيرها عشرين مرة، و إن كان قرأها فى التفسير مائة مرة، فتراهم يتناهون بحدة و شدة، يقولون: ارجع ارجع أحسن تنزل علينا الغضب، ما لك و ما للتفسير، خلى التفسير لأصحابه يا عم.

و من هنا عم فينا الجهل و طم، و ساءت أخلاقنا، و سفهت أحلامنا، و قسمت قلوبنا، فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً [البقرة: ۷۴]، و عصى اللّه و رسوله جهارا، و بعدنا عن كل فضيلة، و وقعنا فى كل رذيلة، حتى صرنا أذل و أحقر الأمم بعد أن كانت العزة و السلطان لنا، و كل هذا بسبب هجرنا و بعدنا من تعاليم القرآن السامية، و عدم اعتناقنا لأوامره و نواهيه، و إعراضنا عن فهمه و تدبر معانيه، قال تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً [طه: ۱۲۴]، و قوله: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ [الزخرف: ۳۶] و قوله: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً [الجن: ۱۷]، و قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ [الكهف: ۵۷].

و اعتقادهم كفر من غلط، أو لحن فى قراءة سورة الكافرين اعتقاد باطل فظيع شنيع، و متى يتعلم الإنسان دينه، و كتاب ربه، إذا كان بغلطة ينزل عليه و على أهل بلدته المقت و الغضب، و بلحنه يكفر و يخرج من الدين؟ نعوذ باللّه من ضلال المضلين، و من الشيطان الرجيم، لما علم الشيطان عظم أجر هذه السورة ألقى هذا بين الناس.

فقد روى الطبرانى، و الحاكم، أنه صلى اللّه عليه و سلم قال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تعدل ثلث القرآن، و قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ تعدل ربع القرآن» حديث صحيح، كما فى الجامع، و قد تقدم فى الحديث المتفق عليه أن: «الذى يقرأ القرآن و يتتعتع فيه و هو عليه شاق له

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۳۲

أجران»، و ورد: «من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف منه عشر حسنات، و من قرأه و لحن فيه، فله بكل حرف حسنة» و صححه ابن قدامة.

و كتاب الدر النظيم فى خواص القرآن العظيم لا تجوز قراءته، و لا العمل بما فيه، و ليس فيه جملة نافعة، و لا فائدة صادقة، بل كل

فوائده و جمله کاذبة خاطئة، و مثله کتاب الفوائد فی الصلات و العوائد، إلا أن هذا خلط، فجمع بعضا من الصحیح، و الضعیف، و بقیته أکاذیب، و خرافات، و أباطیل، و ترهات، و أضالیل، و تمویهات، أعاذ اللّه منها المسلمین و المسلمات.

و قولهم لقارئ القرآن: اللّه اللّه، کمان، کمان یا أستاذ، هیه هیه، اللّه یفتح علیک، حرمه اللّه بقول: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ [الأعراف: ۲۰۴]، و الحق أنهم لم یلتذوا بألفاظ القرآن؛ لأنهم لم یفقهوا لها معنی، بل ما کانت لذتهم إلا من حسن نغمة القارئ، و الدلیل علی ذلک أنه لو قرأ قارئ لیس حسن الصوت، السورة بعینها، التی کانت تتلی علیهم لانفضوا من حوله، سابین لاعنین له و لمن جاء به، قائلین: جایب لنا فقی حسه زی حس الوابور.

و لقد وصف اللّه المؤمنین من عباده بأنهم: إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیاتُهُ زادَتْهُمْ إِیماناً [الأنفال: ۲]، و قال فیهم أیضا: تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ [الزمر: ۲۳].

ذکر أسباب إعراض الناس عن القرآن

هذه الأسباب کثیرة جدا، و لیس منها ما یعد عذرا مقبولا عند اللّه تعالی، و سنبین لک هذا إن شاء اللّه، فنقول: المعرضون طوائف:

الطائفة الأولی: العلماء، و لإعراضهم عن القرآن سببان:

السبب الأول: أن الکتب التی یقرءونها و یتدارسونها لم توصلهم إلی إدراک حقائق هدایته، و لم تکشف لهم أنواره الربانیة، و أسراره الصمدانیة، و مواعظه الرحمانیة، و إرشاداته المؤثرة، و ترغیبه و ترهیبه، و قصصه، و عجائبه، و محاسنه، و غیر ذلک مما لو أنزله اللّه: عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ [الحشر: ۲۱]، ذلک لأنها مشحونة بالمسائل المنطقیة و البیانیة و الفلسفیة، و إظهار وجوه الإعراب و الصرف،

و لذلک کانت الهدایة و الدلالة بها علی اللّه و دینه قلیلة جدا، و لذا نری کثیرا منهم یترکون الصلاة، و ینقرونها نقرا، مخلین بها، و یرتکبون الکبائر من المحرمات، فقطعا هم لم یذوقوا طعم القرآن، و اللّه لو ذاقوا طعمه و حلاوته و لذة مناجاته تعالی لما وقعوا فی محارم اللّه، و لأداهم ذلک إلی الجهاد فی سبیله لیلا و نهارا، سرا و جهارا، و خصوصا فی عصرنا هذا الذی سالت فیه سیول الفتن و الأضالیل، و کادت عواصف الملحدین و الزائغین و المبتدعین تنسف أنوار الهدایة المحمدیة نسفا.

و هذا هو مقتضی القرآن و الإیمان، فإن اللّه تعالی یقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ یَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحجرات: ۱۵]، فلیس صادقا فی إیمانه من لم یجاهد فی سبیل اللّه بماله و نفسه، و أی جهاد أعظم من دعوة الناس جمیعا إلی الاستمساک بالقرآن و نواهیه بالحکمة و الموعظة الحسنة، و إلا فبالعنف و الشدة، کما قال تعالی: جاهِدِ الْکُفَّارَ وَ الْمُنافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ [التوبة: ۷۳] الآیة.

فلما لا تظهرون للناس عجائب القرآن السامیة، و معجزاته الهادیة، و علومه العالیة، و قصصه الوعظیة، و سیاسته الاجتماعیة، و إدارته المدنیة بأسالیب الإقناع العصریة، التی انتهجها أخوکم صاحب المنار فی تفسیره، و فی کتابه الوحی المحمدی، الذی أظهر فیه علوم القرآن و معجزاته ما یحتاج إلیه العالم الإنسانی، فتضاربون بأعاجیب کتاب ربکم، و سنن نبیکم، و حلاوة فصاحتکم، و عذوبة بلاغتکم، أعاجیب السینمات و التیاترات و اللونبارکات و مسارح الرقص و الغناء، إنکم لما أعرضتم عن تعلیم و إرشاد و جهاد أبنائکم و إخوانکم، أعرضوا عنکم و انصرفوا إلی ملاذهم و شهواتهم، فاللوم علیکم.

ثم لما ذا لا تکاتبون حکومتکم الإسلامیة بذلک؟ لما ذا لا تتخذون رؤساء الحکومة إخوانا لکم، فترغبون فی القرآن و الإیمان و رضاء الرحمن؟ و جنة عالیة قطوفها دانیة؟

و ترهبونهم من ترک القرآن و معصیة الرحمن، و من نارٌ حامِیَةٌ [القارعة: ۱۱] و من سَمُومٍ وَ حَمِیمٍ وَ ظِلٍّ مِنْ یَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَ لا کَرِیمٍ [الواقعة: ۴۲- ۴۴]، إنکم لو فعلتم ذلک لوجدتم و فاقا، و اتفاقا، و ألفة، و محبة، و مودة بین سائر المسلمین، فلما لم تفعلوا أحل بنا ما حل، فأنتم المسئولون بین یدی ربکم عن ضیاع هذه الأمة بسبب إعراضکم عن کتاب اللّه.

السبب الثانی: مرتباتهم الضخمة، و جراياتهم الکثیرة، فإن الذین یأخذون خمسین و ستین جنیها، إلی تسعین و مائة، إلی خمسمائة و ستمائة، مرغمون و مضطرون إلی تنمیق

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۳۴

مآکلهم، و مشاربهم، و ملابسهم، و مناکحهم، و مساکنهم، و أتومبیلاتهم، و جراجاتهم، و استثمار أموالهم، و تکثیر أطیانهم و عزبهم، و قصورهم، و بنائهم، و تشییدهم، و تجدیدهم، و تصلیحهم، لکل ذلک و هذا و غیره یحتاج ضرورة إلی ضیاع أکثر الأوقات.

ثم اعلم أنا لا نقول لهم: ألقوا بأموالکم فی البحر، أو بددوها، أو وزعوها علی الناس، کلا کلا بل نحن نعلم أن عزة الإسلام و المسلمین لا تکون إلا بالأموال، و لکنا نقول لهم: وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ [التوبة: ۴۱]، انشروا علوم الإسلام علی المسلمین، و افتحوا لهم فی البلاد المدارس، و قرروا فیها حفظ القرآن، و تدریس التفاسیر و کتب السنة و التوحید، و وظفوا فیها العلماء العاملین، و رتبوا لهم المرتبات، و احبسوا علیها الأوقاف، فإن خریجی الأزهر یکثرون عاما بعد عام، و لا یجدون کسبا یعیشون به کما تعیشون، بل هم عالة علی أهلیهم و أقاربهم و علی الناس، یعلمون کل الوسائل للحصول علی وظیفة بمسجد یتعیشون منها، و یجلسون ینتظرون السنین العدیدة حتی یبیعوا کتبهم و یخرجوا إلی بلاد الأریاف کی یسهر الواحد منهم فی رمضان عند رجل بجنیه واحد، و بعضهم یعظون فی المساجد، و بعد الوعظ یقول الواحد للناس: إننی عالم مسافر إلی بلدی، و لیس معی ما یوصلنی فساعدونی، و بعضهم یبکی و یقول: احترق منزلی أو ثیابی، أو یقول: سرقنی النشال، و هم کاذبون.

و إنما أوقعهم فی الکذب شدة ما هم فیه من الفقر و الفاقة، فهلا کفیتم هؤلاء المساکین ذل السؤال؟ هلا سافرتم إلی البلاد ففتشتم علی بلد لیس فیه علم فأسستم فیه مسجدا و رتبتم فیه عالما؟ هلا أرسلتم علی نفقاتکم وعاظا یجوبون البلاد، و یعلمون العباد، و ینشرون الإصلاح، و یخمدون نار الإفساد؟ کلا بل ألهتکم أموالکم عن تبیان أوامر اللّه و نواهیه، و هلا تدبرتم قوله عز و جل: إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَیِّناتِ وَ الْهُدی مِنْ بَعْدِ ما بَیَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِی الْکِتابِ أُولئِکَ یَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ یَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ [البقرة: ۱۵۹]، و قوله: قُلْ إِنْ کانَ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ وَ إِخْوانُکُمْ وَ أَزْواجُکُمْ وَ عَشِیرَتُکُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسادَها وَ مَساکِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِی سَبِیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ [التوبة: ۲۴].

الطائفة الثانیة: جماعة الأغنیاء البخلاء، أطغتهم الأموال، و ألهتهم الآمال، فکانوا ممن أو کمن قال اللّه فیهم: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ [إبراهیم: ۲۸]، منعوا الزکاة المفروضة، و النفقات الواجبة و المندوبة، فعشوا عن

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۳۵

القرآن الکریم، و الذکر الحکیم، فسلط اللّه علیهم الشیاطین، یدعونهم إلی الشر، و یأمرونهم بالمنکر، و ینهونهم عن المعروف، و یجرونهم إلی السینمات، و حفلات الرقص و الغناء، و یصدونهم عن الجمعة و الجماعات، و سماع القرآن و الخطب، فهم یجاهدون فی سبیل الشیطان بأموالهم و أنفسهم معرضون عن الحق، و قد قال تعالی: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ [الزخرف: ۳۶]، فیا أغنیاء المسلمین وَ لا یَکُونُوا کَالَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَیْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ [الحدید: ۱۶].

الطائفة الثالثة: القراء الذین لا یقرءون القرآن إلا لجمع حطام الدنیا، فیتلونه فی حفلات المآتم و الختمات و اللیالی، و کثیر منهم یتعلمون القراءات لأجل التعیش، و لأجل أن یرغبوا فیه أکثر من غیره، و لأجل أن یکتسب هو أکثر منهم، و لو سألتهم عن معنی کلمة واحدة من کتاب اللّه لعجزوا، و من الناس من لا یحفظون أولادهم القرآن إلا لأجل إعفائهم به من القرعة العسکریة، و منهم من

یعلمونه أبناءهم و بناتهم العمیان لأجل المعیشة و الارتزاق، و ما لهذا أنزل القرآن.

الطائفة الرابعة: المتصوفة، و السبب فی إعراض هؤلاء الناس عن القرآن إنما هو اشتغالهم بأحزاب مشایخهم، و أورادهم، و بالبیارق، و البازات، و اللیالی، و الختمات، و الموالد، و الحضرات، و المنامات، و التخمیر بسانوریا مانوریا سبابینیرا، و الواجب علی العلماء أن یحاربوا هؤلاء الأقوام.

الطائفة الخامسة: جماعة المتفرنجین و الصناع، و هؤلاء قد شغلوا بقراءة الجرائد السیاسیة، و المجلات الفکاهیة و الهزلیة، و کتب الحکایات و الروایات و القصص و الأشعار، کالزیر سالم، و أبو زید، و المهلهل، فتراهم یحفظون الکثیر من المسائل الطویلة السیاسیة، و الحکایات و القصص و الفکاهات و الشعر و غیر ذلک، و یحفظون قلیلا و لا کثیرا من علوم الإسلام، بل یعدون المقبلین علی فهمها و العمل بها مجانین، أو عقولهم متأخرة، و هؤلاء کل آیة فی القرآن نزلت فیمن یعرضون عن ذکر ربهم تصفعهم هم علی نواصیهم، قال تعالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِیَ ما قَدَّمَتْ یَداهُ [الکهف: ۵۷]، و قد وصف اللّه المعرضین عما ذکروا به بالحمر، فقال:

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْکِرَةِ مُعْرِضِینَ کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ «۱» [المدثر: ۴۹، ۵۱].

---

(۱) أی أسد.

و قال فی أمثالهم: مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوها کَمَثَلِ الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ [الجمعة: ۵]، و قال: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَکْثَرَهُمْ یَسْمَعُونَ أَوْ یَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلًا [الفرقان: ۴۴]، و قال: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِی غَمْرَةٍ «۱» مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِکَ هُمْ لَها عامِلُونَ حَتَّی إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِیهِمْ «۲» بِالْعَذابِ إِذا هُمْ یَجْأَرُونَ لا تَجْأَرُوا الْیَوْمَ إِنَّکُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ قَدْ کانَتْ آیاتِی تُتْلی عَلَیْکُمْ فَکُنْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ تَنْکِصُونَ «۳» [المؤمنون: ۶۳- ۶۶] الطائفة السادسة: الجماعة الأمیون، و هؤلاء یحفظ أحدهم مائة موال، و مائة حدوثة، و کثیرا من الأحراز و الفوازیر، و یذکر لک کل ما یسمعه من الحکایات، و کل ما یقرأ أمامه من قصة الظاهر بیبرس، أو عنترة، أو خلیفة، ثم إذا خاطبته فی حفظ شیء من القرآن لیصحح به صلاته یعتذر لک بعدم القراءة و الکتابة، و یقول لک: یا سیدی بعد ما شاب یودوه الکتاب، هذا جوابهم مع أنا نری منهم من یخاطب الإفرنج بلغاتهم، و إننی لأعرف أناسا أمیین یجیدون قراءة و کتابة اللغات الأجنبیة، و لا یحسنون النطق بسمع اللّه لمن حمده، و لا بالفاتحة، فالمسألة راجعة إلی العنایة و الاجتهاد، فلو اجتهد رجل أمی فی حفظ ما یسمعه من أوامر الدین و نواهیه، و من آیات القرآن و سنن النبی صلی اللّه علیه و سلم، کبعض محافظته علی التعالیم الأجنبیة لحفظ شیئا کثیرا، بل لو شاء حفظ القرآن کله، و ألف حدیث نبوی لکان ذلک سهلا علیه جدا، و جماعة العمیان أکبر شاهد و دلیل علی ذلک، و لکنهم أعرضوا و نأوا ف وَ تُوبُوا إِلَی اللَّهِ جَمِیعاً أَیُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ [النور: ۳۱]، و اذکروا قول ربکم لنبیه: وَ قَدْ آتَیْناکَ مِنْ لَدُنَّا ذِکْراً مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ یَحْمِلُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وِزْراً خالِدِینَ فِیهِ وَ ساءَ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ حِمْلًا یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِینَ یَوْمَئِذٍ زُرْقاً [طه: ۹۹- ۱۰۲].

الطائفة السابعة: جلاس حانات الخمور، و آلات اللهو و الطرب، و جلاس المقاهی، و لاعبی النرد، و الطاولة، و الکتشینة، و الضمنة، و أصحاب الحشیشة، و الأفیونة، و الکوکایین، و التبغ، و الدخان، و التنباک، و غیر ذلک، و هذه الأشیاء الخبیثة الملعونة قد أضرب و أفسدت أخلاق کثیر من الشبان، بل و الشابات، و کم قد خربت من بیوتات کانت عامرات، فهی التی فتکت بکثیر من العائلات، و إنه لا سبیل إلی الخلاص من

---

(۱) غفلة.

(۲) أغنياءهم و رؤساءهم.

(۳) يرجعون القهقرى و يتأخرون عن الإيمان.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۳۷

هذه الدواهی كلها و الطوام و الرزايا العظام إلا- اتفاق العلماء جميعا على الدعوة إلى اللّه، و إلى الكتاب العزيز، و السنة المطهرة، بالاجتهاد و المثابرة و الصبر على الدعاية إلى اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة، و الجدال بالتی هی أحسن مع أهل الزيغ و الضلال، و المبتدعة الجهال.

لكن لا يتم هذا العمل إلا بمساعدة الحكومة لهم، و لن تساعدهم الحكومة أبدا إلا بعد اتفاقهم التام مع رؤسائها، و لن يتفق معهم رؤساؤها إلا بعد تبيانهم لهم حقائق الدين و محاسنه العالية الغالية، و عظمته، و أبهته، و جماله، و جلاله، و كماله، و رحمته، و عدله، و إحسانه، و فضله، و بعد أن يدخلوا نور القرآن و الإيمان و العلم الصحيح فی قلوبهم، و بهذا يتم العمل، و ينشر الدين، و يتحد المسلمون و ينتصرون على عدوهم، و تكونون أنتم علماء عالمين مجاهدين فی سبيل اللّه، هذا و إلا فمن قومكم من استحب الكفر على الإيمان، و منهم ألوف يسبون الدين بغير مبالاة، بل و منهم من يسبون اللّه و يسبون رسول اللّه، و رأينا منهم من يرى أن العار الكبير فی الأذان و الصلاة و يقف على باب بيته حيث يمنع ابنه من الخروج لأداء الصلاة، و قد سمعناهم جهارا يقولون:

ليتنا خلقنا إنكليزا، أو يهودا، أو نصارى، حيث إن المسلمين اجتمع عليهم أشقى الشقاء، فقر الدنيا و عذاب الآخرة، فإنا للّه و إنا إليه راجعون.

حكم الجهر بقراءة سورة الكهف بالمسجد، و سماعها من المذياع فی المسجد

س: سبق أن أديت فريضة الجمعة بأحد مساجد الوجه القبلی، فوجدت أهالی القرية يستعملون جهاز الراديو لتلاوة القرآن الكريم بدلا من المقرئ، فهل يجيز الشرع ذلك؟

الجواب: إن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة فی المسجد فی الوقت الذی اعتيد أن تقرأ فيه، و على الكيفية التی تقرأ بها، شیء حدث بعد العصور الأولى فی الإسلام، و لم يؤثر حتى عن عصر الأئمة أنها كانت تقرأ بتلك الكيفية، فهی من هذه الجهة تدخل فی دائرة البدع، و قراءتها تحدث تشويشا على المتنفلين و الذين يؤدون تحية المسجد، فإذا فرضنا أنها لم تقرأ أصلا لكان خيرا.

و سماعها عن طريق الراديو ليس إلا سماع قراءة جهرية لسورة الكهف بالكيفية المبتدعة، و حكمها حكم سماعها أو قراءتها من نفس القارئ، فمن شاء أن يترك سماعها عن طريق الراديو فليترك قراءتها عن طريق قراءة القارئ.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۳۸

و العبارة مأثورة عن الشرع لا يصح الزيادة فيها بما لم يؤثر عنه صلى اللّه عليه و سلم، و بخاصة إذا أحدث ذلك فی نفس الجمهور أنها عبادة مشروعة بهذه الكيفية فی ذلك الوقت. و من هنا خاصة نرى الكف مطلقا عن قراءة سورة الكهف فی ذلك الوقت و بتلك الكيفية حتى لا يعتقد الناس أن غير المشروع مشروع «۱».

---

(۱) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۳۹

الفصل الثانی إلزام القرآن للماديين و الملیّين

۱- معنی المادة و الماديين

كثر إطلاق المادة على مجموع الأجرام التی يتألف منها العالم المشاهد، و على ذلك فالماديون هم الذاهبون إلى نفی كل موجود سوی المادة المذكورة، و أن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس، لا يتناول شيئا وراءه، و يقال لهم: الطبيعيون، و ذلك أنهم سئلوا عن منشأ الاختلاف فی صور المواد و عوارضها، و التنوع الواقع فی آثارها، فنسبوه إلى طبيعة هذه الأشياء، و من زعمهم أن المادة وجدت بنفسها، و يستحيل أن تكون من العدم، قالوا: لأن العقل لا يمكن أن يتصور مادة تتلاشی إلى درجة العدم، فكيف يحكم بوجودها فی زمن من الأزمان فی حالة لا يمكن أن تصير إليها، و زعموا أن العالم لم يزل و لا يزال لا يتغير و لا يضمحل، و هذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التی فيه، إلى آخر مفترياتهم و ادعاءاتهم الفارغة.

و قد بطل قولهم: أن العقل لا يمكن أن يتصور مادة تتلاشی إلى درجة العدم، بما ثبت فی هذه الأيام عن طريق الحس و التجربة من تحول المادة و تلاشيها إلى قوة صرفة، و معنی محض.

و بما أنهم قالوا بأزلية المادة، فقد أنكروا الخالق، و بما أنهم قالوا بعدم زوال هذا العالم، و أنه لا يضمحل أبدا، فقد أنكروا البعث، و بضرورة الحال ينكرون رسالة خاتم النبيين محمد صلى اللّه عليه و سلم.

هذا و قد أبطل العلماء قدم المادة، حيث قالوا «۱»: و مما أحال قدم المادة، أن القديم لا بدّ من كونه كاملا، موجودا بذاته، لا يقبل تغيرا، هذه أخص أوصافه، و ذلك لأنه لو كان غير كامل، للزم أن يتكامل بغيره متصاعدا، حتی يصل إلى كائن كامل فی ذاته، لا يفتقر إلى غيره، و لو كان غير موجود بذاته، للزم أن يكون له علة قد أوجدته، فلا يكون أزليا، و لو كان يقبل التغير، لتواردت عليه البدايات و النهايات، فكان غير قديم.

---

(۱) من كتاب دلائل التوحيد، للعلامة القاسمی، بتصرف.

و أوصاف القديم هذه لا تنطبق على المادة بوجه؛ لأن المادة ناقصة تتكامل دائما و أبدا، متعددة، ليس لها وجود من ذاتها، تتغير وضعا، و فعلا، و اتصافا، إذ يتعلق الواحد فيها بالآخر، مما يجره إليها كل من التدافع و التجاذب، و حينئذ فلا تكون المادة قديمة، و معنی ذلك أن المادة حدثت من العدم.

فإن قال قائل: كيف تحدث المادة من العدم؟ قلنا: قال بعض المحققين: دعوی أن الحدوث من العدم محال، يقال عنها: إنها محال بنفسها، لا بفعل قادر أزلی، و عدم إدراكنا لذلك و كونه مما يفوق طور العقل لا ينفيه، إذا لا يلزم من جهل الأمر نفيه، و قد اعترف الماديون بتعذر معرفة أصل المادة، و كم من أشياء مشهورة يعسر على الإنسان إدراك حقيقتها، و كما أنه لا يحق لمن لا يبصر أمرا أن ينكر وجوده، فهكذا ليس لمن لم يفهم حقيقة الخلق أن ينكر وجوده، لا سيما و هی من غيب الغيوب، و أبطن البطون. و قال آخر: لا يخفی أن الاعتراض يرجع إلى هذا، و هو لا شیء يصير من لا شیء.

فنقول: إن أريد به أنه لا موجود بدون موجد، فهو صحيح إجماعا، و أما إذا كان المراد به لا شیء، يمكن أن يصدر من لا مادة، ففيه تفصيل، فبالنظر إلى الأسباب المتناهية القوی التی تشاهد فی عالم الحس، لا خلاف فيه؛ لأن الخليقة أيا كانت لا تقدر أن تصنع من لا شیء شيئا.

و أما بالنظر إلى الخالق جل و علا، فباطل، إذ من شأن القوة غير المتناهية إلا تتقيد بشیء خارج عنها، فيمكنها أن توجد الشیء من العدم البحت، أی لا من مادة كيفما شاءت، و متی شاءت، و إلا كانت متناهية محدودة، و ذلك محال عليها، و لا يلزم من قدمه تعالى قدم المخلوقات، إذ هو تعالى فاعل مطلق، لا يضطره شیء، إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: ۸۲]. أ. ه.

هذا موقف العقلاء من بيان فساد مذهب الماديين فی إنكارهم الخالق جل و علا، و البعث، و نبوّة خاتم الأنبياء. أما موقف القرآن، فقد

ألزم كل مكلف من إنس و جن، ذكر و أنثى، بهذه المطالب الثلاثة، و فى أوائل سورة البقرة بيان لها، ففى قوله سبحانه:

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [البقرة: ٣]، إيمان بالخالق و توحيده، و فى قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ [البقرة: ۴]، إيمان بنبوّة محمد و الأنبياء جميعا، عليهم الصلاة و السلام، و فى قوله جل شأنه: وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [البقرة: ۴]، إيمان بالبعث و المعاد.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۱

و قد خص هذا بالذكر بعد دخوله فى قوله: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [البقرة: ٣]، لمزيد العناية به، و رفعة شأنه، و قد بينت الآية بعد ذلك فى قوله تعالى: أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [البقرة: ۵]، أن هؤلاء المؤمنين بهذه المطالب الثلاثة، هم المتمكنون من الهدى الإلهى، و أنهم دون غيرهم المفلحون، الظافرون بكل محبوب، الناجون من كل مكروه. و قد سلك القرآن الكريم فى إثبات هذه المطالب عليهم، و إلزامهم بها، طريق النظر و الفكر، فبه يتوصل إلى العلوم، و يهتدى إلى الحقيقة.

قال جمال الدين الخوارزمى فيما نقله عنه العلامة القاسمى: النظر هو قانون الاستدلال فى الأمور، و قاضى الصدق، و برهان الشريعة، و ترجمان الإيمان، و حجة الأنبياء، و محجة الأولياء، و السيف القاطع على الأعداء، و هو رأس السعادة فى الدين، فأساس التدبير، و صحة الاعتقاد، و خلاصة التوحيد فى ناصية النظر، كما أن أساس الكفر و الشرك فى جانب التقليد.

و ما دام فى العالم حق و باطل، و لكل منهما مشايعون، فلا يتصور معرفة الحق من الباطل إلا بالنظر، و الإنسان خلق كامل الرأى، عظيم الفكر، دراكا للمعانى، و أعطى الإدراك و هو العقل، فإذا استعمله على وجهه، وقع عنده العلم للمنظور فيه، كما يقع العلم بالمدركات عند الإدراك، فعند فتح الأجفان يبصر الأشياء، و عند الاستماع يسمع، و عند استعمال اللسان يتكلم، كذلك عند النظر يعلم.

فنحن معشر المسلمين نعرف الحق من الباطل بالنظر، و نعرف الكفر من الإيمان بالنظر، و نعرف اللّه و رسوله بالنظر، و نعرف أن التقليد بلا برهان باطل، و لا معصوم إلا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، كل ذلك بالنظر، و بالجملة فالناس من عهد آدم، عليه السلام، إلى منقرض العالم، إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر و الفكر، سواء كان فى أمر الدين أو الدنيا، و يقول بعضهم لبعض: انظروا و تفكروا، فلولا أنه طريق واضح، و منهج لائح، لما فزعوا إليه. أ. ه. بتصرف.

و نحن نسير مع القرآن الكريم فى إثبات و بيان هذه المطالب الإيمانية الثلاثة:

المطلب الأول: وجود الصانع و توحيده:

الآيات فى هذا المطلب كثيرة جدا، فهى أكثر من أوراق الأشجار، كما أنها أجلى من ضياء النهار، و سوف نقتصر من هذه الكثرة على النذر اليسير؛ لاقتضاء المقام ذلك،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۲

و سوف نجعلها تحت عناوين أربعة، و إن كان بعضها يتداخل فى البعض الآخر.

أولا: آيات فى خلق الإنسان و نشأته.

ثانيا: آيات فى إمداده بما يحتاج إليه من رزق و طعام.

ثالثا: آيات فى بعض مظاهر الكون.

رابعا: آيات فى مظاهر التدبير الإلهى فى أحوال الإنسان الخاصة.

ثم بعد ذلك نذكر ما سبق به العلامة ابن رشد من الكشف عن المنهج القرآنى الذى سلكناه و اخترناه، و هاك التفصيل:

أولا: خلق الإنسان:

الإنسان آدم أبو البشر، أول موجود على ظهر البسيطة، و أول نبى نزل عليه الوحى، كان خلقه من تراب، و لا يغيب عن البال ما قدمناه من إبطال أزلية المادة، و أنها لم توجد بنفسها، بل أوجدها الفاعل المختار، و على ذلك فآدم من تراب، و التراب مخلوق من العدم،

ثم تحول التراب بعد صب الماء عليه إلى طين، فصار هذا الطين حمأ مسنونا، طينا متغيرا، ثم جف هذا الحمأ المسنون فصار صلصالا كالفخار، ثم سوى اللّه جل جلاله صورة آدم، عليه السلام، من هذا الفخار، ثم نفخ فيه من روحه، فكان إنسانا أصلا لأبنائه الموجودين عموما إلى أن تنتهى الدنيا.

و لا نريد أن نذكر هذا للماديين، فهم لا يصدقونه؛ لأنه غيب، و لا يؤمن بالغيب إلا المؤمنون الصادقون، و إنما نريد أن نذكر لهم كيف كان خلق ذرية آدم من بعده، فذلك محسوس لهم و مشاهد، فتكون الدلالة فيه ألزم، و الحجة فيه أقوى. و سوف لا نتعرض لتفسير الآيات المسوقة إلا بالقدر الذى يتضح به المراد، و تظهر عنده الحقيقة.

كيفية خلق الذرية: قال اللّه تعالى فى سورة المؤمنون: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ [المؤمنون: ۱۲- ۱۴].

إن الماديين لا يستطيعون أن ينكروا هذه الأطوار فى خلق الذرية بحال من الأحوال، و لا يمكنهم أن يدفعوا منها شيئا، اللهم إلا إذا أمكن أن تنكر الشمس و هى طالعة، و ينكر سواد الليل و بياض النهار.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۳

قال المفسرون فى بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن اللّه تعالى أمر بالعبادات فى أول السورة، حيث قال جل ذكره: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ [المؤمنون: ۱، ۲]، إلى قوله تعالى: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ [المؤمنون: ۱۱]، و لما كان الاشتغال بعبادة اللّه لا يصح إلا بعد معرفته سبحانه، عقبها بذكر ما يدل على وجوده، و اتصافه بعنوان الجلال و الكمال، فذكر الاستدلال بتقلب الإنسان فى أدوار الخلقة، و أدوار الفطرة.

فقال تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ، أى آدم مِنْ سُلالَةٍ، أى خلاصة مِنْ طِينٍ [المؤمنون: ۱۲] «۱» ثُمَّ جَعَلْناهُ، أى نسله، فحذف المضاف، نُطْفَةً، أى منيا من الصلب و الترائب فِى قَرارٍ مَكِينٍ [المؤمنون: ۱۳]، و هو الرحم، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، أى صيرنا النطفة البيضاء علقة، أى قطعة دم حمراء، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، أى صيرنا قطعة الدم الحمراء قطعة لحم قدر ما يمضغ، لا شكل فيها و لا تخطيط، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً، أى جعلناها عظاما من رأس و رجلين و ما بينهما، يعنى أصبحت ذات شكل مخصوص، و وضع معين، فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً، أى كسونا بما لنا من قوة الاختراع تلك العظام لحما بما ولدنا منها ترجيعا لحالها قبل كونها عظاما، و قويناها و شددناها بالروابط و الأعصاب، ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ [المؤمنون: ۱۴]، مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها، حيث جعله حيوانا و كان جمادا، و ناطقا و كان أبكم، و سميعا و كان أصم، و بصيرا و كان أكمه، و أودع ظاهره و باطنه، بل كل عضو من أعضائه، و كل جزء من أجزائه، عجائب و غرائب لا تدرك بوصف الواصف، و لا تبلغ بشرح الشارح.

و إذا كان لنا أن نتكلم عن تفاوت العطف بالفاء و ثم، فإنا نقول: إن المعطوف بكلمة «ثم» مستبعد حصوله مما قبله، و هو المعطوف عليه، فجعل هذا الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخى و البعد الحسّى؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب، و كذا جعل النطفة البيضاء دما أحمر، و هذا بخلاف جعل الدم لحما، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً [المؤمنون: ۱۴]، و بخلاف تصليب المضغة و جعلها عظاما المنبئ عنه قوله تعالى:

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً، و كذا مد اللحم على العظم ليستره، المصرح به فى قوله

---

(۱) من العلماء من يرى أن المراد بالإنسان بنو آدم، و خلقهم من سلالة من طين، أى خلاصة من الأغذية التى مصدرها التربة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۴

سبحانه: فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً [المؤمنون: ۱۴].

فإن العطف فی هذه المواضع الثلاثة کان بالفاء؛ لأن المعطوف فیها لیس ببعید و لا غریب عن المعطوف علیه، و حینئذ فلا یعترض بما قیل: إن مدة کل طور أربعون یوما، و ذلک یقتضی عطف الجمیع بکلمة «ثم» إن نظر لآخر المدة و أولها، أو یقتضی العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط.

و وجه دفع الاعتراض ظاهر مما قدمنا، و هو أن المتعاطفات بکلمة «ثم» بینها غایة البعد العقلی، فنزل منزلة البعد الحسی الزمنی، و کان العطف ب «ثم» بخلاف المتعاطفات بالفاء، فلم یکن بینها هذا البعد العقلی، و إن کان بینها مطلق بعد، فجاءت الفاء علی أصلها و وضعها للترتیب و التعقیب.

فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ [المؤمنون: ۱۴]، أی تنزه عن کل شائبة و نقص، و حاز جمیع صفات الکمال، و المراد بالخالقین المقدرین، أی الصانعین، یقال لمن صنع شیئا: خلقه، إذا الخلق معناه إیجاد الشیء بتقدیر معین و وضع مخصوص، فیقال لصانع الباب أو الکرسی مثلا: إنه خلقه، أی أوجده علی شکل مخصوص و هندسة معینة، فکلمة الخلق لا تنفی عن البشر بمعنی الصنع، و إنما هی منفیة عنهم بمعنی الاختراع، و الإیجاد من العدم، فلیس ذلک إلا للّه الواحد القهار.

روی أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قرأ هذه الآیة، فلما بلغ قوله تعالی: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ [المؤمنون: ۱۴]، قال عمر، رضی اللّه عنه: فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ [المؤمنون: ۱۴].

و روی أن عبد اللّه بن سعد بن أبی السرح کان یکتب لرسول اللّه، صلوات اللّه و سلامه علیه، فنطق بذلک قبل إملائه، فقال له الرسول صلی اللّه علیه و سلم: «اکتب، هکذا نزلت»، فقال عبد اللّه: إن کان محمد نبیا یوحی إلیه، فأنا نبی یوحی إلیّ، فلحق بمکة کافرا، ثم أسلم یوم الفتح «۱».

نظائر لهذه الآیة: لهذه الآیة فی إیرادها المعنی السابق أشباه و نظائر من آی القرآن الکریم، جاءت بهذا المعنی بأسالیب مختلفة، و جمیع هذه الأسالیب فی أعلی درجات الإعجاز، و تلک خصیصة القرآن، یأتی بالمعنی الواحد فی عدة مواضع بأسالیب مختلفة،

---

(۱) هذه الروایة ضعیفة؛ لأن السورة مکیة.

و الکل فی أعلی درجات البلاغة و الإعجاز، و هذا ما تنقطع دونه الأعناق، من هذه الآیة:

۱- قوله تعالی فی سورة النحل: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ [النحل: ۴]، تذکر هذه الآیة مبدأ التطور فی خلق الإنسان، ثم نهایته، مع الإعراض عن المراحل و التطورات التی بینهما، و الحکمة فی ذلک أن هذه السورة جاءت لتعدید نعم اللّه تعالی علی خلقه، حتی سماها بعض المفسرین سورة النعم.

من أجل ذلک ذکرت الآیة المبدأ الأول لتصویر الإنسان و تخلیقه، ثم طوت المراحل المترتبة علی هذا المبدأ، و أتت بالنتیجة و الغایة، و هو أنه خَصِیمٌ مُبِینٌ [النحل: ۴]، إذ أن ذلک فی باب تعداد النعم ظاهر، واضح، و مشاهد محسوس، و مما یدل علی أن هناک وسائط و أطوارا فی الآیة الکریمة، وجود فاء التعقیب، و إذا التی للمفاجأة، فإن کونه خصیما لا یعقب و لا یفاجئ کونه نطفة، و المعنی أنه قوی و اشتد بتنقله فی هذه الأطوار، حتی أعقب ذلک و فاجأه أنه خصیم مبین، و معنی أنه خصیم مبین، أی شدید الخصومة بینها یفصح عما فی نفسه بالنطق و البیان.

۲- قوله تعالی فی سورة الزمر: یَخْلُقُکُمْ فِی بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلُماتٍ ثَلاثٍ [الزمر: ۶]، تتصل هذه الجملة الکریمة بأول الآیة قبلها: خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها [الزمر: ۶]، فهی بیان لکیفیة خلق ما ذکر من الأناسی، إظهارا لما فیها من عجائب القدرة.

و معنی قوله تعالی: خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ [الزمر: ۶]، أی حیوانا سویا من بعد عظام مکسوة لحما، من بعد عظام عادیة، من بعد مضغ، من

بعد علق، من بعد نطف.

و أما قوله سبحانه: فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ [الزمر: ۶]، فقد قال أئمة التفسير إنها ظلمة الرحم، و ظلمة المشيمة التى هى غلاف الولد، و ظلمة البطن.

أما أهل التشريح، فقد قالوا ما قرب من هذا، فقد جاء فى مجلة لواء الإسلام، العدد الثانى، شوال سنة (۱۳۸۷ ه) (۱۵) فبراير سنة (۱۹۶۴ م)، للأستاذ صلاح أبو إسماعيل، ما نصه: ثم نرهف السمع إلى علم الأجنة لنسمعه يقرر أن الجنين فى بطن أمه يكون محاطا بثلاثة أغشية صماء، لا ينفذ منها الماء، و لا الضوء، و لا الحرارة، و نرى هذا يلقى ضوءا على قوله تعالى: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ [الزمر: ۶]. أ. ه.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۶

و لا نرى تفاوتا كبيرا بين الرأيين، فقد تكون المشيمة التى قال بها أئمة التفسير إحدى هذه الأغشية، و يعلوها الغشاءان الآخران.

۳- قوله جل شأنه فى سورة عبس: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ [عبس: ۱۷- ۲۳].

قال البيضاوى عند هذه الآية: دعاء عليه بأشنع الدعوات، و تعجب من إفراطه فى الكفران، و هو مع قصره يدل على سخط عظيم، و ذم بليغ.

فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، فكيف يليق ذلك بالقادر سبحانه؟

و التعجب أيضا إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء، فكيف يليق ذلك بالعالم جل شأنه؟

فالجواب أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب؛ لبيان استحقاقه لأعظم العقاب، حيث أتى بأعظم القبائح، كقولهم إذا تعجبوا من شيء: قاتله اللّه ما أخبثه، و أخزاه اللّه ما أظلمه، و قيل: ما أكفره باللّه و نعمه، مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، و أيا ما كان فهو ذم و تقبيح للإنسان حيث أعرض عن النظر و التفكير.

قوله سبحانه: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [عبس: ۱۸]، شروع فى بيان ما أنعم به عليه بعد المبالغة فى وصفه بكفران نعم خالقه، و الاستفهام فيه للتقرير، أى إيقاف الإنسان الكافر على حال شأنه و تعريفه بها، و هى حال حقيرة لا تستدعى أن يكون كافرا متكبرا.

و ذكر الجواب فى قوله تعالى: مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ [عبس: ۱۹]، لا يقتضى أن الاستفهام حقيقى؛ لأن المراد بهذا الجواب ما هو على صورته؛ لأنه بدل من قوله:

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [عبس: ۱۸]، فكأنه قيل بادئ ذى بدء: مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ [عبس: ۱۹].

و قوله جل شأنه: فَقَدَّرَهُ [عبس: ۱۹]، أى علقة، ثم مضغة، إلى آخر خلقه، و قيل سواه، كقوله: ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا [الكهف: ۳۷]، أى قدر كل عضو فى الكيفية و الكمية، بالقدر اللائق لمصلحته، كقوله تعالى: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [الفرقان: ۲]، و الفاء على هذه الأقوال للترتيب فى الذكر، لا فى الوجود الزمنى، إذ المعنى أنه خلقه مصاحبا للتقدير، و قوله سبحانه: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [عبس: ۲۰]،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۷

يصح أن يكون المراد بالسبيل طريق خروجه من بطن أمه، فتكون «أل» عوضا عن الضمير، و المعنى: ثم سبيله، أى طريق خروج الإنسان من بطن أمه، يسره اللّه له، و سهل عليه خروجه، و يصح أن يكون المراد به أيضا السبيل العام، أى طريق الخير و الشر، و يكون منصوبا على الاشتغال بفعل مقدر تقديره: ثم يسر السبيل يسره، فالضمير فى يسره للسبيل، أى سهل السبيل للإنسان، كقوله تعالى: أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه: ۵۰].

و قوله جل و علا: ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ [عبس: ۲۱] عد الإماتة من النعم؛ لأنها وصلته فى الجملة إلى الحياة الأبدية، و النعم المقيم، فَأَقْبَرَهُ أى جعله فى قبر يستره، و إنما لم يقل: فقبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، و المقبر هو اللّه تعالى، يقال: قبر الميت، إذا دفنه، و أقبره، إذا أمر

غيره أن يجعله فى قبر، و كان القبر إكراما للإنسان، حيث لم يكن كغيره من بقية الحيوانات يلقى على الأرض عند موته تأكله الطير، و الهوام، و تنهشه السباع.

و قد أشارت الآية إلى إيجاب المبادرة بتجهيز الميت من غسله، و تكفينه، و الصلاة عليه، بالفاء التى تفيد التعقيب من غير مهلة فى قوله: فَأَقْبَرَهُ.

و قوله تعالى: ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ [عبس: ۲۲]، أى أحياه بعد موته للبعث، و مفعول شاء محذوف، أى شاء إنشاره، و أنشره جواب إذا، و عبر بكلمة إذا؛ لأن وقت المشيئة غير معلوم، و أما سائر الأحوال المذكورة قبل، فتعلم أوقاتها من بعض الوجوه، ثم تفوض إلى المشيئة.

و قوله: كَلَّا [عبس: ۲۳]، ردع للإنسان عما هو عليه من الكبر، و الترفع، و الإصرار على إنكار التوحيد و البعث، و على هذا تكون متعلقة بما قبلها، و الوقف عليها حسن، و يكون قوله سبحانه: لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ [عبس: ۲۳]، سببا لهذا الردع، و هذا ما قاله الزمخشرى، و تبعه البيضاوى، و قيل: معناها حقا، و به قال الجلال المحلى، و أبو السعود، و عليه تكون متعلقة بما بعدها، أعنى قوله: لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ [عبس: ۲۳]، و الوقف حينئذ قبيح.

و قوله تعالى: لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ [عبس: ۲۳]، أى لم يفعل الإنسان من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ما أمره اللّه به مما افترضه عليه، فالضمير فى يَقْضِ للإنسان

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۴۸

بمعنى العموم، و يصح أن يكون راجعا إلى الإنسان الكافر فى قوله: قُتِلَ الْإِنْسانُ [عبس: ۱۷]، و المعنى عليه أن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمره به ربه من التأمل فى دلائل عجائب خلق اللّه تعالى «۱».

ثانيا: آيات فى إمداد الإنسان بما يحتاج إليه من رزق و طعام:

قدمنا دلائل القرآن على الماديين فى إثبات وجود البارى بذكر خلق الإنسان، و تطوراته، و بيان نشأته، و هى وقائع محسوسة، و آيات ملموسة لا- يتأتى لعاقل إنكارها، و لا- يستطيع ذو فطرة سليمة أن يجحدها، اللهم إلا- عند من خسر نفسه، و كفر بالضروريات و المشاهدات، و صدق اللّه إذ يقول: وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ [لقمان: ۳۲].

ثم إن اللّه تعالى أمد الإنسان بإمدادات هى قوام حياته، و أصل غذائه و معاشه، و أساس منافعه و حاجاته، هى أيضا براهين و دلائل على وجود الخالق سبحانه، منعما عظيما، و برا رحيما، و متفضلا دائم الفضل، عميم الكرم. و نسوق فيما يأتى بعض هذه الإمدادات، و تلك النعم، بيانا للضالين، و عظة و عبرة للمتقين.

---

(۱) قبل أن ندع الحديث عن خلق الإنسان، أحب أن أشير إلى رأى علمى ساقه الدكتور جمال الدين حسين مهران، بكلية الصيدلة، جامعة القاهرة، و نشر فى جريدة الأهرام (۲۸/ ۸/ ۱۹۸۱) بيانا للآية الكريمة: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ:

يأمرنا اللّه أن ينظر الإنسان فى نشأته كى يحس بدلائل قدرة خالقه؛ ليستدل بذلك أن الذى أنشأه قادر على إعادة خلقه بعد موته. و قد خلق الإنسان من ماء متدفق يندفع من بين الصلب، و هو منطقة العمود الفقرى، و الترائب و هى عظام الصدر.

و قد أبانت دراسات علم الأجنة الحديثة أن نواة الجهاز التناسلى و الجهاز البولى فى الجنين تظهر بين خلايا الطبقة الجرثومية الوسطى الموجودة بين المنطقة الصدرية و المنطقة القطنية أو البطنية للعمود الفقرى، و تبقى الكلى فى مكانها، و تنزل الخصية إلى مكانها المعروف فى الصفن عند الولادة، و على الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل، فإن الشريان الذى يغذيها بالدم طيلة حياتها يتفرع من الأورطية بحذاء الشريان الكلوى.

كما أن العصب الذى ينقل الإحساس إليها، و يساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية، و ما يصاحب ذلك من سوائل، متفرع من

العصب الصدری العاشر الذی یغادر النخاع الشوکی بین الضلعین العاشر و الحادی عشر، مما یظهر أن الأعضاء التناسلیة و ما یغذیها من أعصاب و أوعیة دمویة تنشأ من موضع فی الجسم بین الصلب و الترائب، أی بین المنطقة القطنیة و المنطقة الصدریة للعمود الفقری.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۴۹

۱- قال اللّه تعالی فی سورة عبس: فَلْیَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلی طَعامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنا فِیها حَبًّا وَ عِنَباً وَ قَضْباً وَ زَیْتُوناً وَ نَخْلًا وَ حَدائِقَ غُلْباً وَ فاکِهَةً وَ أَبًّا مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ [عبس: ۲۴- ۳۲].

تفسیر إجمالی: فَلْیَنْظُرِ الْإِنْسانُ، أی یوقع النظر التام بکل شیء یقدر علیه من بصر و بصیرة، إِلی طَعامِهِ [عبس: ۲۴] الذی هو قوام حیاته، کیف هیأ له أسباب المعاش لیستعد بها إلی المعاد.

و قوله تعالی: أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا [عبس: ۲۵]، بفتح الهمزة علی البدل من طَعامِهِ بدل اشتمال، بمعنی أن صب الماء سبب فی إخراج الطعام، فهو أی إخراج الطعام، مشتمل علیه، أو بمعنی أن هذه الأشیاء، أعنی صب الماء و شق الأرض، مشتملة علی الطعام؛ لأن معنی قوله تعالی: إِلی طَعامِهِ إلی حدوث طعامه، فالاشتمال علی هذا من باب اشتمال الثانی علی الأول؛ لأن النظر و الاعتبار إنما هو فی الأشیاء التی یتکون منها الطعام لا فی الطعام نفسه، و قوله سبحانه: ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا [عبس: ۲۶]، أی بعد مهلة من إنزال الماء شققنا الأرض بالنبات، الذی هو فی غایة الضعف عن شق أضعف الأشیاء، فکیف بالأرض الصلبة؟! ثم سبب عن هذا الشق ما هو کالتفسیر له، فقال تعالی: فَأَنْبَتْنا بما لنا من القدرة التامة فِیها حَبًّا [عبس: ۲۷]، جمع حبة، بفتح الحاء، هو ما یحصده الناس و یدخرونه، کالقمح، و الشعیر، و أما الحبة، بکسر الحاء، فهو کل ما ینبت من البذور لا یحفل به، و لا هو یدخر، و قدم الحب علی غیره من المذکورات؛ لأنه کالأصل فی التغذیة.

وَ عِنَباً ذکره بعد الحب؛ لأنه غذاء من جهة، و فاکهة من جهة، وَ قَضْباً [عبس: ۲۸]. قال ابن عباس، رضی اللّه عنهما: هو الرطب؛ لأنه یقتضب من النخل، أی یقطع، و رجحه بعضهم لذکره بعد العنب؛ لأنهما یقترنان کثیرا.

وَ زَیْتُوناً، و هو ما یعصر منه الزیت، وَ نَخْلًا [عبس: ۲۹]، جمع نخلة، فکل من هذه الأشجار مخالف للآخر فی الشکل و الحمل، و غیر ذلک، مع الموافقة فی الأرض، و السقی، فلیتدبر هذا جیدا.

وَ حَدائِقَ غُلْباً [عبس: ۳۰]، الحدیقة الشجر الذی قد أحدق بجدار و نحوه،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵۰

و غُلْباً جمع أغلب و غلباء، کحمر فی أحمر و حمراء، و المراد بساتین کثیرة الشجر غلاظه، وَ فاکِهَةً و هی ما تأکله الناس من ثمار الأشجار، کالتین و الخوخ، فهو من عطف العام علی الخاص، إذا قلنا: إنه معطوف علی قوله: عِنَباً، و أما إذا عطف علی حَدائِقَ کما هو المتبادر، فهو عطف خاص علی عام.

و قوله تعالی: وَ أَبًّا [عبس: ۳۱] مأخوذ من أبه إذا أمه، أی قصده؛ لأنه یؤب، أی یؤم، أو من أب لکذا، إذا تهیأ له؛ لأنه متهیأ للرعی. و فی المصباح: الأبّ المرعی الذی لم یزرعه الناس مما تأکله الدواب و الأنعام.

و قوله تعالی: مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ [عبس: ۳۲] متاعا مفعول لأجله أو مطلق، و العامل فیه محذوف و تقدیره فعل ذلک متاعا لکم أو متعکم کذلک تمتیعا، و المعنی تتمتعون به أنتم و أنعامکم، فابن آدم فی السبعة المذکورة، و الأنعام فی الأب، و خصصت الأنعام بالذکر لکثرة الانتفاع بها، و إلا فغیر الأنعام تنتفع بما تنتفع به الأنعام.

۲- قال تعالی فی سورة النبأ: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً [النبأ: ۱۴- ۱۶]، و نری فی هذه الآی سوق المعنی فی إیجاز بلیغ، و أسلوب بدیع، شأن القرآن الکریم فی تکریر المعنی علی صور شتی من البلاغة الخارقة، و الإعجاز المنقطع النظیر.

قوله سبحانه: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً، المعصرات هی السحائب الماطرة، و هو مأخوذ من العصر؛ لأن السحاب ینعصر فیخرج

منه الماء، و العاصر لهذه السحب هو الريح، و معنى الثجاج السريع الاندفاع، كما يندفع الدم من العروق فى الذبيحة، و منه قول النبى صلى اللّه عليه و سلم و قد قيل له: ما أفضل الحج؟ فقال: «العج و الثج»، أراد بالعج التضرع إلى اللّه تعالى بالدعاء الجهير، و بالثج ذبح الهدى.

قوله تعالى: لِنُخْرِجَ بِهِ، أى الماء، حَبًّا، أى نجما «۱» ذا حب مما يتقوّت به، كالحنطة، و الشعير، و الأرز، وَ نَباتاً، أى ما يعتلف به كالتبن، و الحشائش، كما قال تعالى: كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ [طه: ۵۴].

وَ جَنَّاتٍ، أى بساتين تجمع أنواع الشجر و النبات، أَلْفافاً، أى ملتفة الأغصان و الأوراق، جمع لفيف، كشريف و أشراف.

---

(۱) النجم من النبات: ما ليس له ساق.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۵۱

۳- قال سبحانه فى سورة الزمر: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ [الزمر: ۲۱].

تبين لنا هذه الآية أن ماء المطر قد يدخله اللّه تعالى فى الأرض فى أمكنة قريبة ينبع منها، بحيث لا يستعصى على الناس إخراجه، و لا يتعذر عليهم الحصول عليه عند ضرورياتهم و حاجتهم، رحمة منه بخلقه، و لطفا بعباده، و تدبيرا محكما لسد عوزهم، و إنجائهم من المهلكات، فالآية الكريمة توقف المخاطب على ما يشاهده من نزول الماء على هذه الصفة، و على هذا النحو الذى لا ينكر، و قوله: فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ [الزمر:

۲۱]، أى أدخله ينابيع فى الأرض، و هى عيون و مجار كائنة فيها، و كانت هذه العيون و تلك المجارى قريبة من سطح الأرض، و لم تكن بعيدة فى أسفلها جدا، بحيث يشق على الناس إخراج الماء منها.

و قوله تعالى: ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ [الزمر: ۲۱]، المراد بالزرع جميع ما يستنبت من الأرض، و معنى اختلاف ألوانه خضرته، و صفرته، و بياضه، إلى غير ذلك، و يشمل اختلاف الأصناف كذلك من برّ، و شعير، و سمسم، و غيرها.

و قوله تعالى: ثُمَّ يَهِيجُ، أى ييبس، فَتَراهُ بعد الخضرة مثلا مصفرا من يبسه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن ينفصل عن منابته، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً فتاتا، إِنَّ فِي ذلِكَ، التدبير لَذِكْرى تذكيرا و تنبيها لِأُولِي الْأَلْبابِ [الزمر: ۲۱]، أصحاب العقول الصافية، فيتذكرون هذه الأحوال فى النبات، فيعلمون أنه لا بدّ لها من صانع حكيم دبر أحوالها، و هيأها على هذا النحو العجيب.

۴- قال تعالى فى سورة المؤمنون: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ [المؤمنون: ۱۸]، أتت هذه الآية بالمعنى المتقدم، مع بيان أن إنزال الماء كان بميزان مضبوط يتمشى مع مصالح البلاد و العباد، و تحيا به الخلائق و الكائنات، فليس فيه زيادة على المصلحة، فيكون الغرق و الهلاك، و ليس فيه نقص، فيكون القحط و الجدب.

و نريد أن نقف قليلا عند قوله سبحانه: بِقَدَرٍ [المؤمنون: ۱۸]، فهذا يدل على أن نزول الماء لم يكن من طبيعة السماء، و لا من مادتها، و لا بحكم أنها سماء، و إلا لكان

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۵۲

إما زائدا عن المصلحة، و إما ناقصا عنها، و إما متمشيا، و فى حال تمشيه معها، لم يكن عن قصد أو تدبير، و إنما هو بالمصادفة، فليس إنزاله على تلك الضوابط العجيبة و الموازين الدقيقة إلا للقادر المختار، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

كما أن فى قوله تعالى: وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ [المؤمنون: ۱۸]، ما يفيد هذا المعنى أيضا، فلم يكن وجود الماء فى الأرض من ذاتها أو طبيعتها، و لا بحكم أنها أرض، و إلا لبقى دائما أبدا لا يزول و لا يحول، و كم سمعنا و رأينا ذهاب الماء من أرض كان فى باطنها، و خلوها منه بعد أن كان متمكنا فيها.

فقدرة اللّه سبحانه على إذهاب الماء من الأرض قدرة فائقة، لا يتعاظمها شيء، و لا يقف أمامها مانع، كما هو ظاهر من التعبير القرآنى، فما دام الموجد لهذا الماء و المخترع له هو اللّه الفاعل المختار، فهو كذلك القادر على رفعه، و إزالته، و زواله، فعلى العباد أن يستنبطوا النعمة فى الماء، و يقيدوها بالشكر الدائم.

۵- قال سبحانه فى سورة يس: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس: ۳۳- ۳۶].

نرى فى هذا تصريحا بأن عملية إنزال الماء، و إخراج النبات به، و ما إلى ذلك، دليل واضح، و برهان ظاهر على توحيد اللّه تعالى و قدرته الباهرة.

و إذا كان جل ذكره يقول: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ [النساء: ۸۲]، و يقول: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ [ص: ۲۹]، و يقول: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها [محمد: ۲۴]، فعلى المؤمن العاقل أن يتدبر هذه الآية التى نحن فيها و أمثالها مما قدمنا؛ لاستخراج ما فيها من المعانى الدالة على جلال الخالق سبحانه و كماله. و من هنا أنشد الإمام القشيرى معنفا و موبخا من أهمل ذلك و لم يحفل به، يقول:

يا من تصدر فى دست الإمامة فى‌مسائل الفقه إملاء و تدريسا «۱»

غفلت عن حجج التوحيد تحكمهاشيدت فرعا و ما مهدت تأسيسا

---

(۱) الدست: فارسى معرب، بمعنى اليد، يطلق على التمكن فى المناصب و الصدارة.

ثالثا: آيات فى بعض مظاهر الكون:

آية اختلاف الليل و النهار: و سوف نطيل الكلام فيها؛ لما لها من عموم النفع، و ظهور دلالتها على المراد، فكل من الليل و النهار يتوارد على الآخر، فبينما النهار مضيء يجلى الأرض بنوره، و يعمها بضيائه، إذا بالليل يغشاه، فترى المعمورة و قد عمها الظلام الحالك، و سادها السكون القاطع للأعمال، و المريح للأبدان، فهذا التوارد، أعنى ذهاب إحداهما و مجيء الآخر مكانه دون توقف أو تغير، آية دالة على وجود اللّه سبحانه، و توحيده، و عظيم قدرته، كما أن اختلافهما بالزيادة و النقصان دون أن يحصل لهذه الزيادة أو ذلك النقصان أدنى تغير على مر السنين و الأعوام، لأقوى دليل على المراد.

و قال بعض العلماء: و عندى فيه وجه ثالث، و هو أن الليل و النهار كما يختلفان بالطول و القصر فى الأزمنة، فهما يختلفان فى الأمكنة، فإن من يقول: إن الأرض كرة، فكل ساعة عينتها، فتلك فى موضع من الأرض صبح، و فى موضع آخر عصر، و فى آخر مغرب، و فى آخر عشاء، و هلم جرا، إذا اعتبرنا البلاد المختلفة فى الطول، أما البلاد المختلفة فى العرض، فكل بلد عرضه للشمال أكثر كانت أيامه الصيفية أقصر، و أيامه الشتوية بالضد من ذلك، فهذه الأحوال المختلفة فى الأيام و الليالى بحسب أطوال البلاد و عرضها أمر عجيب. أ. ه.

يضاف إلى ما تقدم انتظار أحوال العباد فى معاشهم بالراحة فى الليل، و السعى فى النهار، مصداق قوله تعالى فى سورة القصص: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [القصص: ۷۱- ۷۳].

و ما أبدع قوله سبحانه فى سورة الرعد فى التعبير عما فى الليل و النهار من آية بقوله: يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ [الرعد: ۳]، و ذلك أن قوله:

یُغْشِی یفید صراحة أن اللیل بظلمته یستر النهار کله، فلم یبق هناک موضع للضوء أصلا، مع ما فیه من الاستعارة البدیعة، و بیان ذلک أن الإغشاء إنما هو إلباس الشیء، و لما کان إلباس اللیل النهار، و تغطیة النهار به غیر معقول؛ لأنهما متضادان لا یجتمعان، و اللباس لا بدّ أن

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵۴

یجتمع مع اللابس، کان لا بدّ من تقدیر مضاف، أی یغشی اللیل مکان النهار، و مکان النهار هو الجو، فیکون الجو هو الذی یلبس ظلمة اللیل و یجتمع معها، و لا منافاة فی ذلک.

أما الاستعارة، فهی أن یقال: شبه إحداث الظلمة فی الجو الذی هو مکان الضوء بإغشائها إیاه، و تغطیته بها بجامع مطلق الستر فی کل، و استعیر الإغشاء بمعنی إلباس الظلمة للجو، لإحداث الظلمة به، ثم اشتق منه یغشی بمعنی یلبس علی طریق الاستعارة التبعیة.

و إنما لم یذکر عکسه: و یغشی النهار اللیل؛ للعلم به من باب الاکتفاء بذکر أحد الضدین، کما فی قوله تعالی: سَرابِیلَ تَقِیکُمُ الْحَرَّ [النحل: ۸۱]، أی و البرد.

و هذا الاکتفاء و الحذف فی هذه الآیة یشبه الاکتفاء و الحذف فی سورة یس: وَ آیَةٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ [یس: ۳۷]، فإنه صرح بآیة اللیل دون آیة النهار، مع أن السیاق یرشد حتما إلی أن التقدیر: و النهار نسلخ منه اللیل، فإذا هم مبصرون.

و فی نَسْلَخُ استعارة تصریحیة تبعیة، و ذلک أنه شبه انکشاف ظلمة اللیل بکشط الجلد من الشاة، و الجامع ما یعقل من ترتب أحدهما علی الآخر، و استعیر کشط الجلد، أی سلخه، لانکشاف ظلمة اللیل، و اشتق منه نَسْلَخُ بمعنی نکشف، علی سبیل الاستعارة التصریحیة التبعیة.

و العجیب فی أمر اللیل و النهار أن کلا منهما فی مدته و ما حدد له من زمن، لا یغلب أحدهما الآخر، فکل منهما مقهور فی خصائصه و ممیزاته بإرادة الفاعل المختار، و قدرة القادر الذی لا یعجزه شیء فی الأرض و لا فی السماء، و هذا ما یعطیه قوله جل جلاله فی سورة یس أیضا: لَا الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَها أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ [یس: ۴۰].

فالشمس التی هی آیة لا ینبغی لها، أی لا یسهل علیها، ما دام هذا الکون موجودا علی ذلک الترتیب و النظام البدیع، أن تدرک القمر فتجتمع معه فی اللیل، فما النهار سابق اللیل، و لا اللیل سابق النهار، أی فلا یأتی أحدهما قبل انقضاء الآخر، فالآیة من الاحتباک؛ لأنه نفی أولا إدراک الشمس للقمر، ففیه دلیل علی ما حذف من الثانی من

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵۵

نفی إدراک القمر للشمس، أی فیلغیها، و إن کان یوجد فی النهار، لکن من غیر سلطنة فیه بخلاف الشمس، فإنها لا تکون فی اللیل أصلا، و نفی ثانیا سبق اللیل النهار، و فیه دلیل علی حذف سبق النهار للّیل، و کل من الشمس و القمر فی فلک محیط به، و هو الجسم المستدیر، أو السطح المستدیر، أو الدائرة؛ لأن أهل اللغة علی أن فلکة المغزل سمیت فلکة لاستدارتها، و فلکة الخیمة هی الخشبة المسطحة المستدیرة التی توضع علی رأس العمود لئلا یمزق العمود الخیمة.

و لما ذکر لها فعل العقلاء من کونها علی نظام محرر لا یختل، و سیر مقدر لا یعوج، جمعها جمعهم بقوله سبحانه: یَسْبَحُونَ یعنی جمعها جمع العقلاء، لا أنها ذات عقل و حیاة، بل لما تقدم من نظامها الدقیق، و سیرها العجیب، خلافا لما قال به بعض المنجمین من أن لها عقلا و حیاة.

قال الرازی: إن أردتم القدر الذی یصح به التسبیح فنقول به؛ لأنه ما من شیء من الأشیاء إلا و هو یسبح بحمد اللّه، و إن أردتم شیئا آخر، فلم یثبت ذلک، و الاستعمال لا یدل علیه، کما فی قوله تعالی فی حق الأصنام: ما لَکُمْ لا تَنْطِقُونَ [الصافات: ۹۲]، و قوله: أ لا تنطقون «۱». أ. ه.

و مما یزید معنی اختلاف اللیل و النهار وضوحا و تبیانا، قوله سبحانه فی سورة النور:

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ [النور: ۴۴]، فاللّه الذی له الأمر کله یحول الظلام ضیاء، و الضیاء ظلاما، و یزید أحدهما تارة، و ینقصه تارة أخری، مع المطر تارة، و الصحو أخری، فینشأ من ذلک التقلیب من الحر و البرد، و غیر ذلک ما یبهر العقول، و لهذا قال سبحانه منبها علی النتیجة: إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ [النور: ۴۴]، علی وجود الصانع القدیم، و کمال قدرته، و إحاطة علمه، و نفاذ مشیئته.

هذا و فی قوله سبحانه فی سورة الزمر ما یؤکد هذا المعنی، و هو قوله جل شأنه:

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ [الزمر: ۵]، و المعنی یدخل اللیل علی النهار، و یدخل النهار علی اللیل. و قیل: ینقص من اللیل فیزید فی النهار، و ینقص من النهار فیزید فی اللیل، فما نقص من اللیل دخل فی النهار، و ما نقص من النهار دخل فی اللیل.

---

(۱) انظر: التفسیر الکبیر (ج ۲۶) (ص ۷۷) طبعة دار الفکر.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵۶

قال البغوی: و منتهی النقص تسع ساعات، و منتهی الزیادة خمس عشرة ساعة. و قال الرازی: إن النور و الظلمة عسکران عظیمان، و فی کل یوم یغلب هذا ذاک، و ذاک هذا، و فی ذلک دلالة علی أن کل واحد منهما مغلوب مقهور، و لا بدّ من غالب قاهر لهما یکونان تحت تدبیره و قهره، و هو اللّه تعالی. رحم اللّه الرازی، و جزاه عن الإسلام و الحقیقة خیر الجزاء.

دلائل من سورة الرعد: هذا و قد رأینا أن نسوق أوائل سورة الرعد، فقد جمعت ثمانیة أدلة، منها اثنتان سماویتان، و ستة أرضیة، قال اللّه تعالی: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد: ۲- ۴].

الدلیل الأول: قوله تعالی: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها [الرعد:

۲]: ذکرت هذه الآیة عقب قوله تعالی: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ [الرعد: ۱]، برهانا قویا علی التوحید، و دلیلا ساطعا علی عظمة الباری و قدرته، و معنی قوله:

رَفَعَ السَّماواتِ [الرعد: ۲]، أی أنشأها مرفوعة لا أنها کانت موضوعة فرفعها، و لکن جعلها فی الابتداء مرفوعة، و دلالة ذلک علی التوحید ظاهرة، فإنه لا یقدر علی رفع ما فیه سعة و بعد بغیر عمد إلا اللّه الواحد القهار.

و توضیح تلک الدلالة أن ارتفاعها علی سائر الأجسام لیس مقتضی جسمیتها، و لا مقتضی ذاتها أو ذات غیرها، و إلا کان کل جسم کذلک، و لا- مقتضی خصوصیتها النوعیة؛ لأنا ننقل الکلام إلی اختصاصها بتلک الخصوصیة، فنقول: إن اختصاصها بها لیس لجسمیتها، و إلا کان کل جسم کذلک، و لیس اختصاصها بهذه الخصوصیة لذاتها و لا لذات غیرها؛ لأن الأجسام و الأحیاز متساویة، فتعین أن یکون لارتفاعها مخصص خارجی لیس جسما و لا جسمانیا، و إلا لکان له حیز یشغله بذاته، أو بتبعیة موضوعه، و لا بدّ أن یکون ذلک المخصص أیضا فاعلا مختارا یرجح بعض الممکنات علی بعض بإرادته.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵۷

و قوله: بِغَيْرِ عَمَدٍ، أی رفعها خالیة عن عمد مرئیة، و انتفاء العمد المرئیة یحتمل أن یکون لانتفاء العمد و الرؤیة جمیعا، أی لا عمد لها فلا تری، و یحتمل أن یکون الانتفاء للرؤیة فقط بأن یکون لها عمد غیر مرئی، و هو القدرة، فإنه تعالی یمسکها مرفوعة بقدرته، فکأنها عماد لها، فقوله: بِغَيْرِ عَمَدٍ معناه بغیر عمد مرئیة، فکلمة النفی و إن کانت متقدمة فی الذکر، فهی متأخرة فی المعنی، و کونها مرفوعة بعماد غیر مرئی مثل کونها مرفوعة بغیر عماد أصلا فی کون ذلک الرفع عجیبا خارجا عن دائرة العقل و الخیال، فإنا لا نتعقل ارتفاع

السقف الواسع الرفیع السمیک بغیر عمد مرئیة، و نظیر الآیة فی الاحتمالین قولک: ما رأیت رجلا صالحا، فإن صدقه یحتمل أن یکون لانتفاء الرجل و الصلاح جمیعا أو لانتفاء الصلاح وحده.

و یصح أن یکون قوله: تَرَوْنَها استئنافا، و الضمیر فیه یعود علی السموات بعد أن کان راجعا إلی العمد فیما تقدم، و الجملة لا محل لها من الإعراب، کأنه قیل: ما الدلیل علی أن السموات مرفوعة بغیر عمد، فأجیب بأنکم ترونها غیر معمودة، أو فاستشهد علی کونها مرفوعة بغیر عمد برؤیة الناس لها کذلک.

الدلیل الثانی: قوله سبحانه: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی [الرعد: ۲]: و المعنی أنه سبحانه ذلل الشمس و القمر لمنافع خلقه مقهورین، یجریان علی ما یریده سبحانه، کل منهما فی فلکه إلی وقت معلوم، و هو فناء الدنیا و زوالها، فعند ذلک الوقت تنقطع هذه الحرکات، و تبطل تلک التسخیرات، کما وصف اللّه تعالی ذلک فی قوله: إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْکَدَرَتْ [التکویر: ۱، ۲]، و قوله:

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ [الانشقاق: ۱]، و قوله: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ [الانفطار:
۱].

و یصح أن یکون معنی الأجل المسمی هو المدة المعینة لکل منهما التی یتم فیها أدواره فی منازله المخصصة له، و التی ینجم عنها الشهر بالنسبة للقمر، و السنة بالنسبة للشمس، علی ما یقوله أهل الفلک.

و وجه الدلالة علی المراد فی هذا الشأن أن اختصاصهما بالحرکة الدائمة علی وجه مخصوص من البطء و السرعة، و نسق معین، مع کون الأجسام متماثلة، لا بدّ له من مخصص، کما تقدم ذکره عند الدلیل السابق.

هذا و لما کان خلق السموات و الأرض غیبا لتقدمه، و کان مقصودنا إلزام المادیین بما

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۵۸

یشاهدون بالحس و یرون بالعین، کان الاستدلال برفع السموات بغیر عمد، و تسخیر الشمس و القمر، و غیر ذلک بما سیأتی أدخل فی بیان المراد، و الزام لهم مما لا یشاهدونه، و إن کان فی خلق السموات و الأرض ذاته دلیل من غیر شک علی وجود الصانع سبحانه لمن عنده عقل صحیح خال من الشوائب و الکدورات.

و لما ذکر تعالی دلائل وحدانیته، و کمال قدرته من رفع السماء بغیر عمد، و أحوال الشمس و القمر، أردفها بذکر الدلائل الأرضیة کما یأتی.

الدلیل الثالث: قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی مَدَّ الْأَرْضَ [الرعد: ۳]:

و المعنی أنه سبحانه بسط الأرض طولا و عرضا؛ لتثبت علیها الأقدام، و یتقلب علیها الحیوان، و وجه الاستدلال بامتداد الأرض أن کونها ممدودة، أی ذات امتداد من الطول و العرض و العمق علی قدر معین، مع جواز کونها أزید مقدارا مما هی علیه الآن، أو أنقص منه، لا بدّ له من مخصص کما تقدم، و مد الأرض لا ینافی کونها کرة؛ لأن الکرة إذا کانت فی غایة الکبر، کانت کل قطعة منها تشاهد کالسطح.

الدلیل الرابع: قوله جل شأنه: وَ جَعَلَ فِیها رَواسِیَ [الرعد: ۳]:

أی أنه سبحانه خلق فی الأرض جبالا ثوابت باقیة فی حیزها، غیر متنقلة، لا تتحرک و لا یتحرک ما هی راسیة فیه، و هذا لا یکون إلا بتخلیق القادر الحکیم، فضلا عن أن حصولها فی بعض جوانب الأرض دون البعض الآخر، مع أن طبیعة الأرض واحدة، لا بدّ أن یکون بتخصیص الفاعل المختار.

الدلیل الخامس: قوله سبحانه: وَ أَنْهاراً [الرعد: ۳]:

أی و جعل فی الأرض أنهارا جاریة لمنافع الخلق، و النهر هو المجری الواسع من مجاری الماء، و أصله الاتساع، و منه النهار؛ لاتساع

ضوئه. فمن ذا الذى هيأها لهذا النفع الدائم المتواصل للخلائق كلهم من إنسان، و حيوان، و دواب، و هوام، إنه ليس إلا اللّه الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا.

ثم إن فوائد المجارى المائية كثيرة، و صدق اللّه العظيم إذ يقول: وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [فاطر: ۱۲].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۵۹

الدليل السادس: قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد: ۳]:

أى جعل فى الأرض من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين، و الاختلاف إما من حيث الطعم، كالحلو و الحامض، أو اللون، كالأسود و الأبيض، أو الحجم، كالصغير و الكبير، أو الطبيعة، كالحار و البارد، و توضيح ذلك و بيانه أن الحبة إذا وقعت فى الأرض نبتت و ربت، و بسبب ذلك ينشق أعلاها و أسفلها، فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة، و يخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة، و هذا من جانب العجائب؛ لأن طبيعة الحبة واحدة، و تأثير الطبائع و الأفلاك و الكواكب فيها واحد، ثم إنه خرج من أحد جانبى تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء، و من الجانب الآخر جرم غائص فى الأرض، و من المحال أن يتولد من طبيعة واحدة طبيعتان متضادتان، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم.

ثم إن الشجرة النابتة يكون بعضها خشبا، و بعضها نورة «۱»، و بعضها ثمرة، و تلك الثمرة يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع، فالجوز مثلا له أربعة أنواع من القشور، قشره الأعلى، و تحته القشرة الخشبية، و تحته القشرة المحيطة باللب، و تحت هذه القشرة قشرة أخرى فى غاية الدقة تمتاز عما فوقها، و أيضا فقد يحصل من الثمرة الواحدة الطبائع المختلفة، فالعنب مثلا قشره و عجمه باردان يابسان، و لحمه و ماؤه حاران رطبان، فتولد هذه الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوى تأثيرات الطبائع و تأثيرات الأنجم و الأفلاك لا بدّ و أن يكون بتدبير العليم الحكيم.

الدليل السابع: قوله جل شأنه: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ [الرعد: ۳]:

أى يغطى الليل بظلمته النهار، و كذلك يغطى النهار بضوئه الليل، فيستدل بفعلهما على ما قدره اللّه تعالى لهما فى السير من الزيادة و النقصان، و قد تقدم لذلك مزيد إيضاح فى آية الليل و النهار، و لما كان غشيان الليل النهار ظاهرة تظهر للناس على سطح الأرض و ينتفعون بها فى معاشهم، عدت من الأدلة الأرضية.

الدليل الثامن: قوله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ [الرعد: ۴]:

ذكر تعالى دليلا آخر ظاهرا جدا، و هو أن الأرض التى أنتم سكانها قِطَعٌ بقاع

---

(۱) النورة: الزهرة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۶۰

مختلفة مُتَجاوِراتٌ، أى متقاربات يقرب بعضها من بعض، واحدة طينية، و الأخرى سبخة لا تنبت، و أخرى صالحة للزرع لا للشجر، و أخرى بالعكس، و أخرى قليلة الريع، و أخرى كثيرة.

و لو لا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك؛ لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الأرضية، و ما يلزمها و يعرض لها من الأسباب السماوية، فليست هذه القطع الأرضية فى خواصها و أحوالها مستندة إلى الاتصالات الفلكية و الحركات الكونية؛ لأن قطع الأرض مختلفة فى صفاتها، مع اشتراكها فى الطبيعة الأرضية، و كونها متجاورة متقابلة، بحيث يكون تأثير الشمس و سائر الكواكب فيها على السوية.

ثم قال سبحانه و تعالى: وَ جَنَّاتٌ [الرعد: ۴]، أى بساتين فيها أنواع الأشجار المختلفة، مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ [الرعد: ۴]،

جمع صنو، و هى النخلات، يجمعها أصل واحد، و تتشعب فروعها، وَ غَيْرُ صِنْوانٍ [الرعد: ۴]، أى متفرقات مختلفة الأصول.

و لما كان الماء بمنزلة الأب، و الأرض بمنزلة الأم، و كان الاختلاف مع اتحاد الأم و الأب، أعجب و أدل على الإسناد إلى الواحد المسبب، قال تعالى: يُسْقى [الرعد:

۴]، أى الجنات بما فيها، بِماءٍ واحِدٍ [الرعد: ۴]، فتخرج أغصانها و ثمراتها فى وقت معلوم، وَ نُفَضِّلُ بَعْضَ ها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ [الرعد: ۴]، أى فى الطعم ما بين حلو و حامض، و فى الشكل، و الرائحة، و المنفعة ... إلخ. و ذلك مما يدل على القادر الفاعل المختار، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد: ۴].

دلائل من سورة النحل: و ننتقل إلى سورة النحل، فنأتى منها ما يقوى المراد، و يزيد فى إيضاحه، قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: ۱۰، ۱۱].

من المعلوم و المشاهد أن النبات نوعان:

أحدهما: معد لرعى الأنعام، و قد ذكره تعالى بقوله: تُسِيمُونَ.

و ثانيهما: مخلوق لأن يكون غذاء للإنسان، و هو المراد بقوله تعالى: يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۶۱

و كان الظاهر أن يقدم ما يأكله الإنسان، إلا أن مرعى الحيوان يكون بنية الحيوان الذى هو غذاء حيوانى للإنسان، و هو أشرف من الأغذية النباتية، فبهذا الاعتبار يكون مرعى الحيوان أشرف مما يأكله الإنسان، فلذلك قدم الأول على الثانى.

ثم إن الغذاء النباتى قسمان: حبوب، و فاكهة، فهو تعالى أشار إلى الحبوب بلفظ الزرع، و إلى الفواكه بقول: الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ، و لا شك أن الحبوب أشرف فى الغذائية من الفواكه، و أشرف الفواكه من الزيتون و النخيل و الأعناب، فلذلك خص هذه الفواكه بالذكر، و أشرف هذه الثلاث هو الزيتون؛ لأنه فاكهة من وجه، و إدام من وجه؛ لكثرة ما فيه من الدهن، و منافع الأدهان كثيرة، حيث تصلح للأكل، و الطلى، و اشتعال السرج، و أشرف الباقين النخل، فلذلك قدم الزيتون على النخل، و قدم النخل على الأعناب، و كان ختم الآية بقوله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، تنبيها على أنه لا بدّ من مزيد التفكير فيما حوته الآية، و ما اشتملت عليه، حتى يحصل المقصود تاما كاملا.

و ذلك أن أحوال النبات، و إن كانت دالة على وجود اللّه تعالى، إلا أن دلالتها تحتاج إلى تأمل، فإنه لما ذكر تعالى أنه أنزل من السماء ماء، فأنبت به الزرع و الزيتون ... إلخ، قد يتوهم أن الاختلاف فى الفصول الأربعة، و تأثيرات الشمس و القمر و الكواكب هى الموجدة لهذه الأشياء، فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال، لا يكون الاستدلال بأحوال النبات وافيا بإفادة المطلوب، قاطعا للشكوك و الريب، و هذا الختم فى هذه الآية نظير ما ختمت به آية الرعد السابقة: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد: ۳]، و قد بينا هناك ما فيه التفكير بالنسبة للحبة التى توضع فى الأرض، فيخرج أعلاها فى الهواء شجرا يحمل زهورا، و ثمارا، و يغوص أسفلها عروقا فى الأرض، لا تحمل زهرا و لا ثمرا، إلى غير ذلك مما بيناه.

ثم قال تعالى بعد ذلك مباشرة: وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [النحل: ۱۲]، فالتسخير مراد به هنا أنه جل جلاله هيأ هذه الأشياء و جعلها على أحوال و صفات و أوضاع، بحيث ينتفع بها الإنسان، و تنظيم بها أحواله، و كان قوله: مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إعلاما بأن تأثير هذه الكونيات فى حوادث العالم السفلى ليس مستندا إلى الحركات الفلكية، و إلا لاحتاجت تلك الحركات إلى أن تستند إلى حركات أخرى، و لا شك أن الحركات

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۶۲

الكوكبية لا يمكن استنادها إلى أفلاك و كواكب أخرى، و إلا لزم الدور أو التسلسل، و كلاهما محال «۱».

و لا- یمکن استناد تلک الحرکات و الأوضاع إلی قوة الأفلاک من حیث إنها أجسام متماثلة فی الجسمیة، فلو کان جسم معین من تلک الأجسام علة لصفة، و وضع معین فی هذا الجسم، لکان کل جسم واجب الاتصاف بذلک الوضع و الصفة، و لامتنع اختلاف الصفات و الأوضاع، أی لأن السبب واحد، و هو الجسمیة، و هو موجود فی الکل، و لکن الاختلاف فی الصفات و الأوضاع موجود لم یمتنع، فالجسمیة لیست هی السبب، فثبت أن الجسم یمتنع أن یکون متحرکا لکونه جسما، و بقی أن یکون متحرکا لغیره، و ذلک الغیر إما أن یکون قوة قائمة به، أو أمرا مباینا له.

و الأول باطل کما تقدم بأن یقال: لم اختص ذلک الجسم بعینه بتلک القوة بعینها دون سائر الأجسام، فتعین أن تکون تلک الحرکة مستندة إلی أمر مباین عنه، و ذلک المباین لا- یخلو إما أن یکون موجبا بالذات إلی جمیع الأجسام علی السویة، فلا یکون بعض الأجسام بقبول بعض الصفات المعینة أولی من بعض، لکن ثبت أن بعض الأجسام أولی ببعض الصفات من بعض الأجسام الأخری، فتعین أن ذلک المباین فاعل مختار، و أن الحرکات الفلکیة علی تقدیر استناد الحوادث السفلیة إلیها حادثة بتخلیق اللّه تعالی و تقدیره و تکوینه جل شأنه. و لما تم هذا الدلیل فی هذا المقام، ختمت الآیة بقوله تعالی:

إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ.

رابعا: آیات فی مظاهر التدبیر الإلهی لأحوال الناس الخاصة:

۱- أعمار الناس و آجالهم: ضبط بعض الباحثین أعمار الإنسان فی أربعة مراتب:

المرتبة الأولی: سن الطفولة و النمو، و هو من أول العمر إلی بلوغ ثلاثة و ثلاثین سنة، و هو غایة سن الشباب و بلوغ الأشد.

المرتبة الثانیة: سن الوقوف، و هو من ثلاثة و ثلاثین سنة إلی الأربعین، و هو غایة القوة و کمال العقل.

---

(۱) الدور هو توقف معلول علی علة توقفت علیه بمرتبة أو بمراتب، و هو باطل؛ لأنه یلزم تقدم الشیء علی نفسه، و إن استمرت سلسلة العلل و المعلولات إلی غیر نهایة، فهو التسلسل المحال ببراهین متعددة ذکرها العلماء.

المرتبة الثالثة: سن الکهولة، و هو من الأربعین إلی الستین، و هذه المرتبة یشرع فیها الإنسان فی النقص، لکنه نقص خفی قد لا یظهر.

المرتبة الرابعة: سن الشیخوخة و الانحطاط الظاهر، و تمامه عند الأطباء إلی مائة و عشرین سنة.

فهذا الاختلاف فی الجسم الإنسانی بالتزاید، و النقص، و الانحطاط الخفی و الجلی، مع استواء أحوال التربیة و التدبیر الکائنین من قبل نفسه، یدل علی أنه بتدبیر الفاعل المختار، قال تعالی فی سورة النحل: وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ ثُمَّ یَتَوَفَّاکُمْ وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِکَیْ لا یَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَیْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ قَدِیرٌ [النحل: ۷۰].

فقوله: یَتَوَفَّاکُمْ، أی بآجال مختلفة، فلا یقدر الصغیر أن یؤخر، و لا الکبیر أن یقدم، فمنکم من یموت علی حال قوته، وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

و قوله سبحانه فی آخر الآیة: إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ قَدِیرٌ، یعنی علیم بمقادیر أعمارهم، یمیت الشاب النشیط، و یبقی الهرم الفانی، و فی ذلک تنبیه علی أن تفاوت آجال الناس لیس إلا- بتقدیر قادر حکیم، رکب أبنیتهم، و عدل أمزجتهم علی قدر معلوم، و لو کان مقتضی الطباع کما یقول الطبیعیون، لم یبلغ التفاوت بینهم هذا المبلغ.

۲- البر یلد الفاجر، و الفاجر یلد البر: أما أن البرّ یلد الفاجر، فهو ما یصرح به قوله تعالی حکایة عن إبراهیم و ولده إسحاق، علیهما السلام: وَ بارَکْنا عَلَیْهِ وَ عَلی إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِینٌ [الصافات: ۱۱۳]. قال صاحب الکشاف عند هذه الآیة ما نصه: و فیه تنبیه علی أن الخبیث و الطیب لا یجری أمرهما علی العرق و العنصر، و هذا ما یهدم أمر الطبائع و العناصر.

و أما أن الفاجر یلد البر، فهو ما یشیر إلیه قوله تعالی: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّی أَراکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلالٍ

مُبِينٍ [الأنعام: ۷۴]، على أرجح الأقوال أنه أبوه لا عمه.

و لا شک أن الماديين يرون هـذه المخالفات بعقولهم، و يبصـرونها بأعينهم، فبما ذا يعللونها و قد انقطع أصـلهم، و انهدم ركنهم بمثل هـذه الوقائع و تلک المشاهدات. و إنا لا نأتی إليهم بمثل هذه الحقائق من حيث إن القرآن الكريم قالها، فهم قاتلهم اللّه لا يؤمنون به، و إنما نأتی إليهم من حيث إن القرآن ذكرها حقيقة محسوسة، و واقعة ملموسة

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۶۴

لا يستطيعون لها نكرانا. و ما أجمل قول القائل:

إذا طاب أصل المرء طابت فروعهو من عجب جادت يد الشوک بالورد

و قـد يخبث الفرع الـذی طاب أصـلهليظهر سر اللّه فی العكس و الطرد ۳- الأـحمق المرزوق: هو آيـة ظاهرة على تـدبير اللّه تعالى، و حكمته، و تفرده بالملک و السـلطان، فليس غنى هذا المكثر الأحمق من كياسـته، و وفرة عقله، فهو خلو من ذلک، و لا بكثرة سـعيه و اجتهـاده، فهو خامل غير مصـيب فی رأيه، كما أن فقر العاقل ليس من بلادته، و نقصان عقله، و قلـة سـعيه، فإنک ترى أكيس الناس و أعقلهم يفنى عمره فی طلب القليل من الـدنيا، و لا ينال ذلک، و ترى أجهل الناس و أخسـهم عقلا تنفتح عليه الدنيا، فلما رأينا الأعقل الأفضل أقل نصـيبا، و الآخر الأجهل أوفر نصـيبا، علمنا أن ذلک بسـبب قسـمة القسام الـذی يفعل ما يشاء، كما قال تعالى: نَحْنُ قَسَـمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا [الزخرف: ۳۲]. و ما أجمل قول من قال:

كم عالم يسكن بيتا بالكرى «۱»و جاهل يملک دورا و قرى

لمـا قرأنـا قوله سـبحانهنحن قسـمنا بينهم زال المرا و هكـذا تجاوب المؤمنون الصادقون مع هـذا التـدبير الإلهی العظيم، و هـذا الوضع الربانی الحكيم. و من ذلک قول الإمام الشافعی، رضی اللّه عنه:

و من الدليل على القضاء و حكمهبؤس اللبيب و طيب عيش الأحمق و قول سفيان بن عيينة:

كم من قوی قوی فی تقلبهمذبذب الرأی عنه الرزق ينحرف

و كم ضعيف ضعيف فی تقلبهكأنه من خليج البحر يغترف

هذا دليل على أن الإله لهفی الخلق سر ليس ينكشف أما من لم يفطن لهذه الحكمة، و غابت عنه تلک الدقيقة، فقد تبرموا و ضـجروا، حتى قال قائلهم:

كم عالم ضاقت مذاهبهو جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذی ترک الأوهام حائرةو صير العالم النحرير زنديقا

---

(۱) بالإيجار.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۶۵

و لو اهتدی هذا القائل بنور الحقيقة، و استضاء بنور الشريعة، لانقلب صديقا لا زنديقا، على نحو ما قدمنا عن الأئمة السابقين.

۴- الـذكاء و البلادة، أو العلم و الجهل: كم يؤسف العالم و يحزنه أن يرى ولـده لا يأبه بالعلم، و لا ينهـج نهجه، و لكن ما الحيلة أمام قضاء اللّه و تـدبيره، فليس فی طرق الإنسان الحكيم أن يورث ولـده الحكمـة، أو أن يـذيقه كأس المعرفـة، و هنا يتجلى صدق اللّه فی قوله: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ [البقرة: ۲۶۹].

و فی هذا المعنى يقول العالم الفاضل حنفی ناصف، رحمه اللّه تعالى:

أ تقضی معی إن حان حينی «۱» تجاربیو ما نلتها إلا بطول عنائی

و أبذل جهدی فی اكتساب معارفو يفنی الذی حصلته بفنائی

و يحزننى ألا أرى لى حيلةلإعطائها من يستحق عطائى

إذا ورث الجهال أبناءهمغنى و جاها فما أشقى بنى الحكماء لكنه كما قلنا شيء خارج عن الطوق الإنسانى اقتضته حكمة العليم الحكيم، الذى أحاط بكل شيء علما، و الذى دلنا بهذا التدبير على أنه ذو الجلال و الإكرام.

المنهج القرآنى فى الدلالة على وجود الصانع: كما يراه ابن رشد «۲»:

إذا تصفحت آيات الكتاب العزيز، وجدتها تنحصر فى ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على العناية، أعنى كون الشيء على وضع معين و صفة معينة، و إما آيات تتضمن التنبيه على الاختراع لجوهر الأشياء، و إما آيات تجمع بين الأمرين جميعا.

آيات العناية فقط:

مثل قوله تعالى: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَ الْجِبالَ أَوْتاداً [النبأ: ۶، ۷]، إلى

---

(۱) الموت.

(۲) ابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ولد بقرطبة سنة ۵۲۰ ه، و هو أعلم أهل عصره بعلوم الفلسفة، و الطب، و الرياضة، و تولى منصب قاضى القضاة بقرطبة بعد خلو المنصب بوفاة والده، و أشهر مؤلفاته: تهافت التهافت، و الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، و فصل المقال فيما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال، و كتاب بداية المجتهد و نهاية المقتصد فى الفقه، و قد توفى عام ۵۹۵ ه.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۶۶

قوله: وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً [النبأ: ۱۶]. و مثل قوله سبحانه: تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً [الفرقان: ۶۱].

و مثل قوله جل شأنه:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ [عبس: ۲۴] الآيات.

ففى هذه و مثيلاتها عناية بالإنسان، و هذه العناية هى الدليل على وجود الصانع الحكيم، و ذلك أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان، و مكملة لمصالحه، و متممة لنظام حياته، و هذه الموافقة بالضرورة من فاعل قاصد، إذ لا يمكن أن تكون بالاتفاق، فمن أراد معرفة اللّه تعالى المعرفة التامة، فليبحث عن منافع الموجودات من أرض، و ماء، و نار، و هواء، و تسخير للشمس و القمر، و تذليل الحيوان، و غير ذلك مما هو مشاهد و ملموس، بل إن العناية لتظهر كذلك فى تكامل أعضاء الإنسان و أجزاء بدنه. عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن ۱ ۶۶ - معنى المادة و الماديين ..... ص : ۳۹

ات الاختراع فقط:

مثل قوله تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ [الطارق: ۵، ۶].

و مثل قوله سبحانه: أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [الغاشية: ۱۷] الآيات.

و مثل قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج: ۷۳]. و من هذا قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم، عليه السلام: إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ [الأنعام: ۷۹].

ففى هذه الآيات و مثيلاتها دلالة على وجود مخترع، و ذلك أن المادة ليست أزلية كما قدمنا فى أول البحث، يعنى لم تخلق نفسها، و أن اللّه قادر على أن ينشئها من العدم، فهذه الموجودات مخترعة، و كل مخترع لا بدّ له من مخترع، و تدلنا دقة نظام هذه المخترعات، و انتظام سيرها، على أن هذا المخترع فاعل مختار، لهذا كان واجبا على أن من أراد معرفة اللّه حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقى فى جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع، و إلى هذا أشار بقوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ [الأعراف: ۱۸۵].

آیات تجمع بین الدلالتین:

و هی کثیرة مثل قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الَّذِینَ مِنْ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۶۷

قَبْلِکُمْ [البقرة: ۲۱]، إلی قوله: فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة:

۲۲]، فإن قوله: الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ، تنبیه علی دلالة الاختراع، و قوله: الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً [البقرة: ۲۲] تنبیه علی دلالة العنایة.

و مثل هذا قوله سبحانه: وَ آیَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَیْتَةُ أَحْیَیْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ یَأْکُلُونَ [یس: ۳۳]، و قوله جل شأنه: وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَکَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ [آل عمران: ۱۹۱].

فهذه الطریق هی الصراط المستقیم التی دعا اللّه الناس منها إلی معرفة وجوده، و نبههم علی ذلک بما جعل فی فطرهم من إدراک هذا المعنی، و إلی هذه الفطرة الأولی المستقرة فی طباع البشر أشار بقوله سبحانه: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلی أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قالُوا بَلی شَهِدْنا [الأعراف: ۱۷۲]، و لذا قد یجب علی من کانت رغبته طاعة اللّه، و الإیمان به، و امتثال ما جاءت به رسله، أن یسلک هذه الطریقة، حتی یکون من العلماء الذین یشهدون للّه بالربوبیة مع شهادته لنفسه و شهادة الملائکة، کما قال تعالی: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِکَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ [آل عمران: ۱۸].

و من الدلالات الموجودات من هاتین الجهتین وجود الأشیاء مسبحة للّه تعالی، المشار إلیه بقوله: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ [الإسراء:

۴۴]، فالکائنات من حیث کونها موجودة، فیها دلیل الاختراع، و من حیث کونها خاضعة للّه منقادة لما أراده منها، مثل دوران الأفلاک، و سیلان الماء، و هطول الأمطار، و ما إلی ذلک، فیه دلالة الغایة و العنایة.

فقد بان من هذه الأدلة أن الدلیل علی وجود الصانع منحصر فی هذین الجنسین دلالة العنایة و دلالة الاختراع، و أن هاتین الطریقتین بأعینهما طریقة الخواص، و أعنی بالخواص العلماء، و طریقة الجمهور، و إنما الاختلاف بین المعرفتین فی التفصیل، أعنی أن الجمهور یقتصرون من معرفة العنایة و الاختراع علی ما هو مدرک بالمعرفة الأولی المبینة علی الحس، و أما العلماء فیزیدون علی ذلک ما یدرک بالبرهان، حتی قال بعضهم: أن الذی أدرکه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان و الحیوان هو قریب من کذا

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۶۸

و کذا آلاف منفعة، و إذا کان هذا هکذا، فتلک هی الطریقة الشرعیة و الطبیعیة التی جاء بها الرسل و نزلت بها الکتب.

و العلماء لیس یفضلون الجمهور فی هذین الاستدلالین من قبل الکثرة فقط، بل من قبل التعمق فی معرفة الشیء الواحد نفسه، فإن مثال الجمهور فی النظر إلی الموجودات مثالهم فی النظر إلی المصنوعات التی لیس عندهم علم بصنعتها، فإنهم یعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط، و أن لها صانعا موجودا، و مثال العلماء فی ذلک مثال من نظر إلی المصنوعات التی عنده علم ببعض صنعتها، و بوجه الحکمة فیها، و لا شک أن من حاله العلم بالمصنوعات هذه الحال هو أعلم بالصانع من الذی لا یعرف من تلک المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط «۱». أ. ه.

و بعد: فهذه الأدلة و ما أکثر نظائرها فی القرآن تدل علی وجود الخالق جل و علا، بل علی وجوده أزلا و أبدا، و أنه واحد، له کل صفات الجلال و الإکرام.

أما عن أزلیته، فنسوق دلیل ابن رشد، و هو أن الموجودات الممکنة لا بد لها من علل تتقدم علیها، فإن کانت العلل ممکنة، لزم أن یکون لها علل، و یمرّ الأمر إلی غیر نهایة، و ذلک هو التسلسل المحال، و إن لم یکن هناک علة لزم وجود الممکن بلا علة، و ذلک مستحیل، فلا بد من أن ینتهی الأمر إلی علة ضروریة، فإذا انتهی الأمر إلی علة ضروریة، لم تخل هذه العلة الضروریة أن تکون

ضرورية بسبب أو بغير سبب، فإن كانت بسبب، سئل أيضا فى ذلك السبب، فأما أن تمر الأسباب إلى غير نهاية، فيلزم أن يوجد بغير سبب ما وضع أنه موجود لسبب، و ذلك محال، فلا بد أن ينتهى الأمر إلى سبب ضرورى بلا سبب، أى بنفسه، و هذا هو واجب الوجوب ضرورة. أ. ه.

و قوله: فيلزم أن يوجد بغير سبب ... إلخ، و ذلك لأن التسلسل محال، يعنى فلا وجود له، فقد تبين أن ما فرض أنه بسبب و هو العلة الضرورية فى وجود الممكنات أصبح بلا سبب، و هذا خلاف الفرض، و هو محال.

و أما عن كونه أبديا، فإنا نقول: ثبت فى أصول التوحيد و قواعد المنطق أن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

أما عن كونه واحدا، فإننا نسوق الدليل المتعين على كل طالب علم أن يعرفه، فهذه

---

(۱) انظر: مناهج الأدلة لابن راشد، تحقيق د. محمود قاسم (ص ۱۵۱- ۱۵۵) بتصرف.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۶۹

الممكنات لا بدّ لها من موجد قادر حكيم يوجد على ما تقتضيه حكمته و مشيئته، متعاليا عن معارضة غيره، إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه، فإما أن يتفقا و إما أن يختلفا.

فإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم و الآخر إعدامه، فإما أن ينفذ مرادهما، فيلزم عليه وجود العالم و عدم وجوده، و هو جمع بين النقيضين، و هو محال، و إما ألا ينفذ مرادهما، فيلزم عجزهما و عدم وجود العالم، و هو باطل بالمشاهدة، و إما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فيكون الآخر عاجزا فلا يكون إلها، و الأول غير إله لمماثلته للثانى فرضا، و هذا يسمى برهان التمانع، و إن اتفقا فلا جائز أن يوجداه معا بالاستقلال فى آن واحد لما يلزم عليه من اجتماع مؤثرين على أثر واحد، و هو باطل، و لا جائز أن يوجداه مرتبا بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر بعده، لما يلزم عليه من تحصيل الحاصل و هو باطل، و لا جائز أن يوجداه على سبيل المعاونة لما يلزم عليه من عجز كل منهما فلا يوجد العالم.

و لا جائز أن يوجد أحدهما بعض العالم، و الآخر البعض الثانى، للزوم عجزهما؛ لأن كلا منهما عاجز عن التصرف فيما تصرف فيه الآخر، و هذا يسمى برهان التوارد.

قال اللّه تعالى: وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [المؤمنون: ۹۱]. و قال جل شأنه: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا [الإسراء: ۴۲]. و قال سبحانه: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا [الأنبياء: ۲۲].

و بعد: هذا هو التوحيد، أحد مطالب الإيمان الثلاثة التى أنكرها الماديون، قد ثبت بما لا يقبل الشك على ما تقدم بيانه و إيضاحه، و بقى الأمران الآخران: البعث و الرسالة، إلا أنه لا يفوتنا الآن أن نذكر أن إثبات التوحيد يستلزم المطلبين الآخرين، و ذلك أن آثار الحدوث و الإمكان ظاهرة فى جميع الأجسام، فكان الاعتراف بأنها كلها للّه تعالى و تحت تصرفه و قدرته سبحانه، كان ذلك لازما على كل عاقل لا سبيل إلى إنكاره.

و الاعتراف بذلك يستلزم الاعتراف بوحدانيته سبحانه كما تقدم، و الاعتراف به يستلزم الاعتراف بصحة الإعادة؛ لأن من قدر على الإبداء، فهو أقدر على الإعادة، كما سيأتى، كذلك يستلزم الاعتراف بحقيقة الرسالة و بعثه الرسل؛ لأن الصانع الحكيم

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۰

لا يصدر عنه مثل هذه المصنوعات العجيبة، إلا لحكمة و عاقبة حميدة، كما قال تعالى:

رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ [آل عمران: ۱۹۱].

و ذلك يستدعى أن يبتلى عباده و يكلفهم بأوامره و نواهيه، حتى يظهر المطيع من العاصى، و يجازى كل واحد منهم على حسب

استحقاقه، و هذا التكليف لا يكون إلا بمبلّغ الأحكام، فدلّ ذلك على إن إرسال الرسل مما تقتضيه الحكمة.

فالاعتراف بأن ما فى السموات و الأرض للّه، يستلزم الاعتراف بحقية هذه المطالب الثلاثة.

المطلب الثانى: البعث:

نسوق ثلاثة مواضع من القرآن الكريم تحث هؤلاء المنكرين على النظر و الاستدلال.

الموضع الأول من سورة النحل:

قال اللّه تعالى: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [النحل: ۳۸- ۴۰].

ادعى هؤلاء البديهة فى إنكار البعث، فقالوا: إن الإنسان ليس إلا هذه البنية المخصوصة، فإذا مات و تفرقت أجزاؤه، و بطل المزاج و الاعتدال، امتنع عوده بعينه؛ لأن الشىء إذا عدم فنى، و لم يبق له ذات و لا حقيقة بعد فنائه، فالذى يعود يجب أن يكون شيئا مغايرا للأول.

و أشاروا إلى ادعائهم ضرورة ذلك الإنكار بالإقسام و اليمين، و هذا هو ما حكاه اللّه تعالى عنهم فى سورة يس، عن أبىّ بن خلف حين أخذ عظما قد رمّ و بلى، ففتته بيده، و قال للرسول صلى اللّه عليه و سلم: أ ترى أن اللّه يحيى هذه؟ قال: «نعم، و يبعثك و يدخلك النار»، و ذلك فى قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ۷۸، ۷۹] الآيات.

و قد رد اللّه تعالى عليهم أبلغ رد، فقال: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا، أى يبعثهم بعد الموت، فإن لفظة بَلى إثبات لما بعد النفى. ثم قال: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۱

يَعْلَمُونَ [النحل: ۳۸]، أنهم يبعثون، إما لعدم علمهم بأن البعث من مواجب الحكمة التى جرت عليها عادته سبحانه بمراعاتها، و إما لقصر نظرهم على المألوف حين يشاهدون الميت يمكث مدة مديدة، و أحقابا طويلة لا تطرأ عليه حياة، فيتوهمون امتناع البعث، ثم بين سبحانه الحكمة فى البعث بقوله: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ [النحل: ۳۹]، و ذكر سبحانه إمكانه، و أن مألوفهم و ما يشاهدون من عدم طريان الحياة على الميت فى أزمان متطاولة أمر عادى لا يتنافى مع قدرة القادر، و ذلك فى قوله تعالى: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [النحل: ۴۰].

و إيضاح ذلك و تفصيله كما يلى:

حكمة البعث: إن الحياة كما هو مشاهد تجمع بين الحق و الباطل، و العدل و الظلم، و الإنصاف و الجور، فإذا لم يكن للمغلوب أمل يحتمى به، و يعيش عليه، فى أنه سينتصر يوما، و أنه سيأخذ حقه حتما، كان ذلك قضاء على وجوده، و قتلا لحياته، و هذا ما يأباه المنطق الصحيح و العقل السليم، فضلا عن الحكمة الإلهية.

و إذا لم يكن لذوى الحق و الخير و أولى الفضيلة و الكرم أمل فى أن يحسب لهم هذا و يجازون عليه، انعدم الحافز على الخير، و بطل الداعى إلى المعروف، و كانت حياة تعسة مرذولة تأباها الحيوانية المحضة، فضلا عن الإنسانية الكاملة، و إذن فلا بد من يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً [آل عمران: ۳۰]. فعلى الماديين أن ينظروا فى هذا نظر استدلال و اعتبار، و أن يتأملوا عن فكر و استرشاد.

إمكان البعث: و هو كما تقدم ذكره: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [النحل: ۴۰]، فالمقصود كما قرره العلماء بيان سهولة خلق الإنسان عليه سبحانه، و أنه متى أراد الشىء كان، فمثل اللّه تعالى تكوينه للمكونات بمجرد تعلق إرادته من غير توقف و

امتناع، بأمر الآمر المطاع إذا أمر المأمور المطيع المسارع فى الامتثال، فعبر عن سرعة تكوينه على الوجه المذكور بالأمر المستلزم للامتثال، فإنه تعالى لو أراد خلق الدنيا و الآخرة بما فيهما فى قدر لمحة بصر ما عاقه شىء. و المعنى أن إيجاد كل مقدور على اللّه تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو أهون من الإبداء بالنسبة إلى عقولنا.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۲

الموضع الثانى من سورة الحج:

قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج: ۵].

ساق اللّه تعالى خلق الإنسان هنا دليلا على البعث، و فى سورة: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ [المؤمنون: ۱]، ساقه سبحانه دليلا على وجوده، فقال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [المؤمنون: ۱۲]، إلى قوله: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ [المؤمنون: ۱۴].

فخلق الإنسان فى أطواره المذكورة كما يصلح دليلا على وجود الخالق و توحيده، يصلح أيضا دليلا على البعث كما يأتى:

فالآية تقول: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ [الحج: ۵]، أى شك و تهمة و حاجة إلى البيان، فتفكروا فى خلقتكم الأولى، لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا.

ثم إنه ذكر مراتب الخلقة الأولى أمورا سبعة هى:

المرتبة الأولى: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ [الحج: ۵]، أى أنشأناكم بقدرتنا التى لا يتعاظمها شىء، مِنْ تُرابٍ لم يسبق له اتصاف بالحياة. و فى الخلق من تراب وجهان:

أحدهما: إنا خلقنا أصلكم، و هو آدم، عليه السلام، من تراب، كما قال اللّه تعالى:

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [آل عمران: ۵۹].

الثانى: من الأغذية، و الأغذية إما حيوانية، و إما نباتية، و غذاء الحيوان ينتهى إلى النبات قطعا للتسلسل، و النبات إنما يتولد من الأرض و الماء، فصح قوله: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ [الحج: ۵].

المرتبة الثانية: ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ [الحج: ۵]، و حالها أبعد شىء عن حال التراب، فإنها بيضاء سائلة لزجة صافية، كما قال تعالى: مِنْ ماءٍ دافِقٍ [الطارق: ۶].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۳

المرتبة الثالثة: ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ [الحج: ۵]، أى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان، و لا شك أن بين الماء و بين الدم الجامد مباينة شديدة.

المرتبة الرابعة: ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ، أى قطعة لحم صغيرة، و هى فى الأصل قدر ما يمضغ، قوله تعالى: مُخَلَّقَةٍ، أى مسوّاة لا نقص فيها و لا عيب، وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ [الحج: ۵]، أى غير مسوّاة، فكأن اللّه تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة و أملس من العيوب، و منها ما هو على عكس ذلك، و يتبع هذا التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم، و صورهم، و طولهم، و قصرهم ... إلخ.

و قيل فى معنى المخلّقة غير ذلك، و الذى اخترناه أوفق لوجود بناء تفضيل التخليق الدال على تكثير الخلق، فإن الإنسان ذو أعضاء متباينة، و قوى متفاوتة، فإذا أكمل فيه جميع ما يتم به خلقة النوع، فقد كثر فيه الخلق.

و قوله تعالى: لِنُبَيِّنَ لَكُمْ [الحج: ۵]، معناه إنا فعلنا لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا و حكمتنا، و أن من قدر على خلق البشر من التراب و الماء، ثم من نطفة ثانيا، و لا تناسب بينهما، و قدر على أن يجعل النطفة علقة، و فيها تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، و المضغة

عظاما، من قدر على ذلك قدر على إعادة ما بدأه، بل هو أدخل فى القدرة و أهون فى القياس.

و أما قوله: وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى [الحج: ۵]، فهو معطوف على (نبين) فى إحدى القراءتين، و معناه إنا خلقناكم من حال إلى حال، و من خلق إلى خلق، لأمرين اثنين:

أحدهما: تبيين قدرتنا على الإعادة، كما تقدم آنفا.

و ثانيهما: الإقرار فى الرحم لغاية التمام، ثم الخروج طفلا حتى يبلغ الأشد، أى حد التكليف، فيكلفوا معرفة اللّه و توحيده و طاعته، فينالوا سعادة الآخرة.

المرتبة الخامسة: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا [الحج: ۵]، أى تولدوا فى حالة الطفولة، من صغر الجثة، و ضعف البدن، و السمع، و البصر، و جميع الحواس، لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم و عظم أجسامكم.

المرتبة السادسة: ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ [الحج: ۵]، و قد دخلت اللام هنا تأكيدا لها،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۴

كما فى لِنُبَيِّنَ اعتناء ببلوغ الأشد، حيث يكون عنده التكليف، إذ هو المقصود من الإقرار فى الرحم، و المعنى: نمد أجلكم لتصلوا بهذا الانتقال إلى كمالكم فى القوة و العقل.

المرتبة السابعة: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً [الحج: ۵]، أى و منكم من يتوفّى عند بلوغ الأشد أو قبله، و منكم من يرد بالشيخوخة إلى أخس العمر، و هو سن الهرم، فتنقص جميع قواه، و يعود كهيئته الأولى فى أوان الطفولة من سخافة العقل و قلة الفهم، فينسى ما علمه و ينكر من عرفه، فما أعظم هذه الدلالات على المراد، و ما أوضح هذه الحالات على المقصود، فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: ۴۶].

و لما تم هذا الدليل بأحكم المقدمات و أصح النتائج، و كان أول الإيجاد فيه غير مشاهد، و هو قوله تعالى: خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ [الحج: ۵]، ذكر سبحانه دليلا آخر على البعث مشاهدا فى كل أحواله و ملابساته، و هو قوله جل شأنه: وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً، أى ساكنة يابسة، فَإِذا أَنْزَلْنا بما لنا من القدرة، عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ تحركت و تأهلت لإخراج النبات وَ رَبَتْ أى ارتفعت، و ذلك أول ما يظهر منها للعين، و نمت بما يخرج منها من النبات الناشئ من التراب و الماء وَ أَنْبَتَتْ فيه مجاز؛ لأن اللّه تعالى هو المنبت، و أضيف إلى الأرض توسعا، مِنْ كُلِّ زَوْجٍ صنف بَهِيجٍ [الحج: ۵] حسن المنظر، نضير باختلاف الألوان، و الطعوم، و الروائح، و الأشكال، و المنافع، و المقادير.

الموضع الثالث من سورة الروم:

قال اللّه تعالى: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى [الروم: ۸].

قوله تعالى: فِي أَنْفُسِهِمْ، إما أن يكون ظرفا للتفكير، و المعنى: أو لم يشغلوا قلوبهم الفارغة عن الفكر بالفكرة الصالحة، و التفكير و إن كان محله القلب، إلا أنه زيد قوله: فِي أَنْفُسِهِمْ لزيادة تصوير حال المتفكرين، كما يقال: أبصره بعينه و أضمره فى نفسه، و على هذا يكون المتفكر فيه هو قوله: ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ على ما هما عليه من النظام المحكم، و القانون المتقن، فيعلموا أن اللّه تعالى لم يخلقهما

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۵

عبثا و لا جزافا، و لكن ليعتبر بها عباده، و ليستدلوا بها على وحدانيته سبحانه، و كمال قدرته، و أنه إنما خلقها لمنافع العباد، بلاغا لهم فى دار التكليف، و عونا لهم على اكتساب ما يسعدهم فى دار الجزاء، و هو معنى قوله: بِالْحَقِ و الباء فيه إما سببية، أو حالية، أى ما خلقهما إلا للحق، أو ملتبسة بالحق مقرونة به، لا باطلا، و لا عبثا خاليا عن حكمة بالغة، و لا لتبقى خالدة، و إنما خلقها مؤجلة بأجل مسمى، بعده يكون البعث، و فى قوله: وَ ما بَيْنَهُما ما يفيد أن هناك مخلوقات بين السماء و الأرض بها كمال المنافع، و تمام النظام.

و إما أن يكون قوله: فِي أَنْفُسِهِمْ هو متعلق التفكير و موضوعه، و المعنى عليه:

هلاـ تفكروا فى أمر أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم، و هم أعلم بأحوالها، حتى يتضح لهم كمال قدرة اللّه تعالى، فإن من تفكر فى تشريح بدن الإنسان، و ما أودع فيه من غرائب التدبير الإلهى، حصل له العلم القطعى بأن اللّه تعالى فاعل مختار، كامل العلم و القدرة، منزه عن الشركاء و الأنداد، و حصل له كذلك العلم بحقيقة البعث و الجزاء؛ لأنه إذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال، و أجزاءه مائلة إلى الانحلال، فيقطع، بأنه سيفنى عن قريب، فلو لم يكن له حياة أخرى، لكان خلقه على هذا النحو عبثا، كما أشير إليه بقوله تعالى: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون: ۱۱۵]، و هذا ظاهر؛ لأن من بالغ فى تدبير شيء سيفنى عن قريب بالكلية، و صوره أحسن تصوير، و اعتنى فى انتظام أحواله أبلغ ما يمكن من الاعتناء، مع علمه بأنه يصير عن قريب كأن لم يكن شيئا مذكورا، لا شك أن يضحك منه و يتعجب من سفاهته، فمن تفكر فى شأن نفسه على هذا الوجه علم أنه تعالى خلقه للبقاء، و لا بقاء إلا بالحشر، فظهر أن تفكر الإنسان فى أمر نفسه يؤديه إلى القطع بأن العالم كله له، إله واحد قادر على الإبداء و الإعادة، و يكون قوله تعالى: ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى [الروم: ۸]، جملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها، ذكرت بعد إقامة دليل الأنفس استدلالا بدليل الآفاق.

و بعد، فهذه براهين يقينية قطعية على إمكان البعث و جوازه، و أما تحقق الوقوع، فليس له إلا إخبار الصادق المصدوق الذى قامت المعجزة القاهرة على صدقه، و هو الرسول محمد صلى اللّه عليه و سلم، و هذا ما يستدعينا أن نتكلم عن المطلب الثالث الذى أنكره الماديون، و هو إثبات رسالة محمد، صلوات اللّه و سلامه عليه.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۶

المطلب الثالث: إثبات رسالة محمد صلى اللّه عليه و سلم:

يضطرنا إثبات هذا المطلب، أن نبين فى وجازة ضرورة النبوّات للبشر.

قال ابن سينا، كما نقله العلامة القاسمى فى كتابه دلائل التوحيد: من المعلوم أن نوع الإنسان محتاج إلى اجتماع و شركة فى ضروريات حاجاته، مكفيا بآخر من نوعه يكون ذلك الآخر أيضا مكتفيا به، و لا تتم الشركة إلا بمعاملة و معاوضة يجريان بينهما، يفرغ كل واحد منهما صاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد كثير، و لا بد فى المعاملة من سنة و عدل، و لا بدّ من سان معدل، و لا بدّ من أن يكون إنسانا، و لا يجوز أن يترك الناس و آراءهم فى ذلك فيختلفون، و يرى كل واحد منهم ما له عدلا و ما عليه جورا و ظلما، فالحاجة إلى هذا الإنسان فى بقاء النوع الإنسانى أشد من الحاجة إلى إثبات الشعر على الأشفار و الحاجبين، فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضى هذه و تدع تلك التى هى أثبتها، فلا بد إذن من نبى هو إنسان متميز من بين سائر الناس بآيات تدل على أنها من عند اللّه، يدعوهم إلى التوحيد، و يمنعهم من الشرك، و يسنّ لهم الشرائع و الأحكام، و يحثهم على مكارم الأخلاق، و ينهاهم عن التباغض و التحاسد، و يرغبهم فى الآخرة و ثوابها، ثم يكرر عليهم العبادات ليحصل لهم تذكر المعبود بالتكرير، و استفادة ملكة الالتفات إلى الحق و الإعراض عن الباطل.

و فى هذا المطلب أيضا يسلك القرآن الكريم بالجاحدين و المنكرين مسلك الحث على النظر و الاستدلال، و ذلك فيما لابسه من أحوال شريفة، و ما اتصف به من خلال كريمة.

قال اللّه تعالى فى سورة يونس: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ [يونس: ۱۶]، جاءت هذه الآية الكريمة ردا على اقتراح المنكرين فى الآية السابقة: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ [يونس: ۱۵]، و فى هذا الاقتراح منهم رمز و إشارة بأنه إنما أتى بهذا الكتاب من عنده لا من جهة الوحى.

و بيان ذلك أن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علما، و لم يشاهد عالما، و لم ينشئ قريضا و لا خطبة، ثم قرأ عليهم كتابا بذت فصاحته كل منطق، و علا على كل منثور و منظوم، و احتوى على قواعد علمى الأصول و الفروع، و أعرب عن

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۷

أقاصيص الأولين، و أحاديث الآخرين على ما هى عليه، علم أنه معلم به من اللّه تعالى.

و ما أبدع قوله تعالى: أَ فَلا تَعْقِلُونَ [يونس: ۱۶]، أى أ فلا تستعملون عقولكم لتعلموا أن مثل هذا الكتاب العظيم ممن لم يتعلم و لم يتتلمذ، و لم يطالع كتابا، و لم يمارس مجادلة، إنه لا يكون إلا على سبيل الوحى.

و الآية فى فحواها و معناها جواب عما دسوه تحت قولهم: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ [يونس: ۱۵] من إضافة الافتراء إليه صلى اللّه عليه و سلم، فهذا محمد قد انقضى شبابه و ولى، و أشرف على نهاية العقد الرابع من عمره، دون أن يبدو من أمره شىء خارق، أو يند عن المألوف فى قومه إلا اشتهاره بالصدق و الأمانة.

و فجأة، و فى هذه الفجاءة السر كل السر، إذا هذا الرجل الذى قطع ثلثى عمره هادئا ساكنا، يصبح داعية حق، فيقذف بالحق الإلهى على الباطل الجاهلى فيدمغه، آخذا بيد قومه إلى حيث نور الحقيقة الكبرى.

ثم لم يلبث أن اتصل صلى اللّه عليه و سلم بملوك الأرض و أباطرتها عن طريق الكتب و الرسائل، يدعوهم إلى الهدى و الرشاد، منذرا لهم بعذاب أليم، إن هم صموا آذانهم عن سماع دعوته، واعدا إياهم جنة النعيم إن هم آمنوا برسالته، ثم أتبع القول العمل، فسيّر جيوشه فى غزوة تبوك إلى حدود الشام.

و إن هو إلا وقت يسير بعد وفاته، حتى قام خلفاؤه الذين استقوا من نبعه و اهتدوا بهديه يكتسحون الدنيا شرقا و غربا، و ما هى إلا ثمانون سنة على ما قدره المؤرخون حتى كان أكثر من مائة مليون من البشر يدينون بدين هذا الأمى العربى عن طواعية و اختيار و حب و إكبار.

و اليوم بعد أربعة عشر قرنا من الزمان يزيد أتباعه عن ألف مليون من البشر، و هم فى ازدياد مستمر. و هذا أمر منقطع النظير، و حدث لم تشهد الدنيا له مثيلا بإجماع أهل الرواية و النقل الذين أنصفوا الحقيقة و صانوا لها حرمتها و قداستها.

هذا بالنسبة لتأسيس الدولة و قيامها فى تلك المدة الوجيزة، أما ما احتوته الدعوة من حقائق و نظم و تشريع، فهو أمر فوق القدر، و لا يأتى به إلا خالق البشر، فلو نظرنا إلى ما فى القرآن من تشريع لوجدنا فيه من القوانين و المبادئ الأساسية لتنظيم حياة الفرد و الجماعة فى حالتى السلم و الحرب ما لا- زيادة عليه لمستزيد، فالحرية، و الإخاء، و المساواة، و الشورى، و التعاون الفردى و الجماعى، كل ذلك نبه عليه القرآن و جلاه منذ

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۸

أربعة عشر قرنا من الزمان، فالحاكم و المحكوم أمام قانون الشريعة سواء، يقام الحد على أعظم الملوك سلطانا، و على أقل الناس شأنا، و فى فرض الزكاة تعاون جماعى بين المسلمين و ترابط قوى بينهم، يقيهم مصارع الهلكة، و مأساة البغى و الحسد، كما أنه لا تفاضل فى الإسلام الذى جاء به محمد صلى اللّه عليه و سلم بالنسب، و المنصب، و الجاه، بل بالتقوى، أعنى معرفة اللّه و توحيده و طاعته، و ما أبدع قول من قال:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينهفلا تترك التقوى اتكالا على الحسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارسو قد وضع الكفر الحسيب أبا لهب و فى هذا المعنى يقول عمر فى شأن أبى بكر الذى أعتق بلالا، رضى اللّه عن الجميع: أبو بكر سيدنا و أعتق سيدنا، إلى غير ذلك مما تضيق به الصحائف، و لا يتسع له الوقت، فالحق أنا لا نجد تفسيرا لهذا الذى جاء به محمد صلى اللّه عليه و سلم إلا أنه وحى من عند اللّه رب العالمين الذى أحاط بكل شىء علما.

و نسوق كذلك بعض آيات من القرآن الكريم تضمنت شيئا من الأبحاث الكونية و الطبيعية التى لا مفر للماديين من الاعتراف بها، و بذلك يكونون محجوجين ملزمين بأن ما أتى به محمد صلى اللّه عليه و سلم وحى إلهى، و بالتالى أنه رسول حقا و يقينا.

۱- قال اللّه تعالى فى سورة يونس: هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ [يونس: ۵].

ففى قوله: ضِياءً إشارة إلى ما قرره الباحثون فى هذا الباب من أن القمر يستمد نوره من ضوء الشمس، حيث أن لفظ: ضِياءً يدل على

معنى أجمع و أقوى من كلمة: «نور»، و فى قوله: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ، إشارة إلى علم الهيئات الذى هو فرع مهم من فروع علم الفلك، تدور عليه مصالح الناس و مواقيتهم.

۲- قال تعالى فى سورة الحجر: وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ [الحجر:

۱۹]، و قال بعد آية واحدة من نفس السورة: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر: ۲۱].

فالآيتان تشملان ما قاله الباحثون فى الطبيعيات، من أن العناصر الداخلة فى تركيب الأجسام تكون على نسب معينة، و موازين مقدرة، كما قال تعالى فى سورة

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۷۹

الرعد: وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ [الرعد: ۸]، فالماء مثلا مركب من أوكسجين و هيدروجين بنسبة (۱- ۲) و هكذا.

۳- قال اللّه سبحانه فى سورة الأنعام: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ [الأنعام: ۳۸]، و فى ذلك إشارة إلى علم التاريخ الطبيعى، فبين الإنسان و هذه الكائنات تشابه فى الأجهزة الهضمية و التنفسية ... إلخ.

۴- قال اللّه جل شأنه فى سورة الأعراف: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأعراف: ۳۱]، و نلمح هنا مبدأ هاما من مبادئ علم الصحة الغذائى.

۵- قال تعالى فى سورة المائدة: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ [المائدة: ۳]، و فى ذلك إشارة إلى ما يسمى بالطب الوقائى.

۶- قال سبحانه فى سورة النساء: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً [النساء: ۱۱۰].

و فى ذلك إشارة إلى مبدأ هام من مبادئ الطب النفسى، و لقد عد علماء المسلمين اليأس من رحمة اللّه كبيرة من الكبائر، أخذا من قوله تعالى: إِنَّهُ لا- يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ [يوسف: ۸۷]، كما عدوا الأمن من العقوبة كبيرة من الكبائر، إذ فى ذلك انتشار الفوضى، و انتهاك الحرمات، و الجناية على الأنفس و الأموال، و من هنا قال القرآن الذى جاء به محمد صلى اللّه عليه و سلم فى صفة المؤمن الصادق: يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ [الزمر: ۹].

۷- يقول جل جلاله فى سورة مريم: يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا [مريم: ۲۸].

و فى ذلك إشارة إلى علم الوراثة و قوانينها، غير أنه لا يغيب عن البال ما قدمناه سابقا أثناء الكلام عن المطلب الأول عند الحديث عن مظاهر التدبير الإلهى، من أن عوامل الوراثة ليست ذاتية، بل هى سبب عادى يصح تخلفه.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۸۰

۲- إلزام القرآن للملبين

اشارة

و يتضمن هذا القسم: بحث آيات القرآن التى تخص اليهود وحدهم بالخطاب، و تلزمهم الحجة و البرهان، و آيات تخص النصارى وحدهم، ثم آيات تجمع بينهم فى خطاب واحد، تدعو كلا من الفريقين إلى الإيمان و التوحيد على مقتضى رسالة محمد صلى اللّه عليه و سلم.

و لما رأينا بعض المعاصرين، و هو المحامى أحمد حسين، فى كتابه: فى الإيمان و الإسلام، قد خالف صريح النص القرآنى الناطق بكفر أهل الكتاب من اليهود و النصارى، نبهنا على ذلك، و رددنا عليه بمقتضى الأصول و الموازين الصادقة، و قد قدمنا بين يدى البحث تمهيدا نبين فيه ما يجب على المكلف اعتقاده كما وضحته الآيات القرآنية.

کانت سورة البقرة من السور الطوال التی فصلت فیها الأصول، و الأدلة، و الأحکام، و لذلک وجدنا فیها المطالب الثلاثة التی تلزم کل مکلف، و تتحتم علیه مؤیدة بالدلیل و البرهان، و هذه المطالب هی:

۱- التوحید.

۲- نبوّة سیدنا محمد صلی اللّه علیه و سلم.

۳- المعاد.

أما الأول: و هو التوحید:

فقد ذکره اللّه تعالی فی قوله: یا أَیُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ [البقرة: ۲۱]، إلی قوله: فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ۲۲]، فإنه لما ذکر فی أول السورة قبل ذلک فرق المکلفین من: المؤمنون، و الکافرین، و المنافقین، و صفتهم و أحوالهم، و ما اختصت به کل فرقة، أقبل علیهم بالخطاب ملتفتا عن الغیبة، فأمر و نهی، و دعا إلی عبادته وحده، ثم وصف نفسه بأوصاف دالة علی وحدانیته من خلقهم و خلق من قبلهم أحیاء قادرین، و خلق مفترشهم و مستقرهم الذی لا بدّ لهم منه، و خلق ما هو کالخیمة المضروبة علی هذا المستقر، و من ربط المظلة علی المقلة بإنزال الماء، و الإخراج به من بطنها فی أشباه النسل الناتج من الحیوان من ألوان الثمار رزقا لبنی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۱

آدم تذکیرا لهم بأعظم نعمه؛ لیستدلوا به علی وحدانیة المنعم من حیث إنه لا یقدر علیه غیره، فإن تذکیر النعمة یوجب المحبة، و ترک المنازعة، و حصول الانقیاد، و یدعو إلی مقابلتها بالشکر لمنعمها.

و تخصیص نعمة الوجود، و ما تتوقف علیه الحیاة من المسکن و المعاش لکونها أدعی إلی التفکیر فی أن هذه النعم المخلوقة لا یقدر علی إیجاد شیء منها إلا خالق لیس کمثله شیء، حتی یتیقنوا بأن ربهم إله واحد منزه عن الشرکاء و الأنداد، و لا یجعلوا شیئا من المخلوقات ندا له، و هم یعلمون أن شیئا منها لا یقدر علی نحو ما هو قادر علیه.

أما الثانی: و هو نبوّة محمد صلی اللّه علیه و سلم:

فقد أفصح له سبحانه بقوله: وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا [البقرة: ۲۳]، ففی هذه الآیة الکریمة احتجاج قائم علی نفی الریب عن القرآن، و هو یتضمن فی الوقت نفسه الاحتجاج علی صدق محمد صلی اللّه علیه و سلم فیما ادعاه من النبوّة؛ لأن حقیقة القرآن تستلزم ذلک، فکانت هذه الآیة من دلائل النبوّة بهذا الاعتبار.

و الآیة تعلم الکافة بنبوّة سیدنا محمد صلی اللّه علیه و سلم من حیث القرآن المعجز بفصاحته و إفحامه من طولب بمعارضته، إلا أنهم لقصور نظرهم لم یتفطنوا لإعجازه، و قالوا: إنه مختلق مفتری، و یبعد کونه کلام اللّه تعالی؛ لأنه لو کان من عند اللّه تعالی، لأنزل جملة واحدة مخالفا ما یکون من عند الناس؛ لأن ما یوجد عندهم من الکلام المنظوم و المنثور إنما یوجد مفرقا منجما حینا بعد حین، شیئا بعد شیء، حسبما یعنّ لهم من الأحوال المتجددة و الحاجات السانحة.

فلما رأوا القرآن العظیم هکذا نجوما، سورة بعد سورة، و آیات بعد آیات، حسب النوازل، و کذا الحوادث، قالوا: هذا لا یشبه کلام اللّه تعالی، و إنا لفی شک منه مریب؛ لأنه لو کان کلام اللّه تعالی لأنزله جملة واحدة علی خلاف عادة الناس، کما حکی اللّه تعالی عنهم بقوله تعالی: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً [الفرقان: ۳۲]، فأنزل اللّه تعالی: وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ ... [البقرة: ۲۳] الآیة، أی إن ارتبتم فی هذا الذی نزل علی التدریج، فهاتوا أنتم نجما من نجومه، فإنه أیسر علیکم من أن ینزل دفعة، فیتحدی بالمجموع، فیکون التحدی حینئذ بکل القرآن لا ببعضه کما

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۲

هو الحال فی نزوله منجما، فقد جعل ما اتخذوه وسیلة إلی القدح وسیلة إلی تبکیتهم و إلزامهم، و هی غایة التبکیت و الإلزام، فإنهم طولبوا مرة بأن یأتوا بمثل هذا القرآن بقوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [الإسراء: ۸۸].

و مرة بأن قیل لهم: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیاتٍ [هود: ۱۳]، فالحجة فی إثبات نبوّته، علیه الصلاة و السلام، هی القرآن، إلا أنهم لما ارتابوا فی حجته، و طعنوا فیه باحتمال کونه مفتری، أزال شبههم بهذه الآیة التی بیّن بها إعجازه، فإنهم إذا عجزوا عن الإتیان بما یوازی أقصر سورة منه، ظهر کذبهم فی تجویز الاختلاق و الافتراء، و تبین کونه من عند اللّه تعالی، کما یدعیه من نزل علیه، و قد عرفهم اللّه تعالی بهذه الآیة ما یتعرفون به إعجازه و کونه نازلا من عند اللّه تعالی کما یدعیه من نزل علیه، و هو أن یمتحنوا أنفسهم و یجربوا طبائعهم هل یقدرون علی إتیان ما یوازی أقصر سورة مما أتی به من لم یکتب، و لم یقرأ، و لم یخالط القراءة.

فهو تعالی لما بین بهذه الآیة ما هو الحجة علی نبوّته، علیه الصلاة و السلام، بعد ذکره الحجة علی وحدانیته، صارت الآیتان بمنزلة أن یقال: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه.

و أما الثالث: و هو ثبوت المعاد:

فإن اللّه تعالی ذکر الدلیل علیه بقوله سبحانه: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ [البقرة: ۲۴]، أی فاتقوا الفساد المستلزم له دخول النار، فاتقاء النار کنایة عن اتقاء الفساد المستلزم له.

و بیان ذلک و إیضاحه: أنه تعالی لما بیّن لهم ما یتعرفون به أمر الرسول صلی اللّه علیه و سلم، و ما جاء به، و میز لهم الحق من الباطل، رتب علیه ما هو کالخلاصة و الفذلکة له، و هو أنکم إذا اجتهدتم فی معارضته و عجزتم جمیعا عن الإتیان بما یساویه أو یدانیه، ظهر أنه معجز، و التصدیق به واجب، فآمنوا به و اتقوا العذاب المعد لمن کذب، و فی هذا إثبات للمعاد من حیث إنهم لن تکون منهم معارضة أبدا، و علیه فالواجب عقلا و منطقا أن یصدقوا بالقرآن و بکل ما جاء فیه مما یعم الوعد و الوعید فی دار البقاء.

و لا بدّ لنا من أن نبین، و نحن فی هذا المقام، کیف أفاد لفظ النَّاسُ فی الآیة السابقة العموم، فنقول: استدل العلماء علی أن الجموع المحلاة بالألف و اللام نحو:

الرجال، و النساء، و أسماء الجموع نحو: القوم، و الرهط، و الناس تفید العموم و الاستغراق بثلاثة أوجه:

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۳

الوجه الأول: صحة الاستثناء منها، و قد تقرر أن الاستثناء لا یکون إلا من العام؛ لأنه یخرج ما لولاه لدخل، فلو قلت: رأیت الناس، لصح استثناء کل واحد من أفراد الناس من الناس، و لو قلت: کلمت القوم، لصح استثناء کل واحد من أفراد القوم من القوم، قال تعالی: إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ [الحجر: ۴۲]، فإنه استثنی من الجمع المضاف إلی المعرفة، فعلم أنه للعموم کالجمع المحلی بالألف و اللام.

الوجه الثانی: أنه یصح تأکیدها بما یفید العموم، کقوله سبحانه: فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [الحجر: ۳۰]، و التأکید تقریر ما یفیده المتبوع، فلو لم یکن لفظ الْمَلائِکَةُ للعموم لما کان قوله: کُلُّهُمْ تأکیدا له.

الوجه الثالث: استدلال الصحابة بعمومها من غیر نکیر، فإنه لما وقع الاختلاف بعد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فی أمر الخلافة، فقال الأنصار: منا أمیر، و منکم أمیر، تمسک أبو بکر، رضی اللّه تعالی عنه، بقوله صلی اللّه علیه و سلم: «الأئمة من قریش»، و لم ینکره أحد، یعنی أن جمهور الصحابة، رضوان اللّه تعالی علیهم أجمعین، سلموا أن الجمع المعرف بالألف و اللام، و هو لفظ الأئمة الواقع فی الحدیث یفید العموم و القصر علیهم.

و بناء علی هذا فکلمة النَّاسُ فی الآیة الکریمة تعم الموجودین وقت النزول عموما مستفادا من النظر إلی جانب اللفظ، و اعتبار کونه

موضوعا للعموم مع قطع النظر عن القرائن الخارجیة، بخلاف من سیوجد بعد وقت النزول، فإن لفظ النَّاسُ و إن کان یعمهم أیضا، إلا أن عمومه لیس بجهة لفظ فقط، بل بالنظر إلی القرینة الخارجیة، و هو ما تواتر من دینه، علیه الصلاة و السلام، أن مقتضی خطابه و أحکامه شامل للقبیلین، ثابت إلی قیام الساعة، إلا ما خصه الدلیل و أخرجه عن الدخول تحت مقتضی خطابه و أحکامه ممن لا یفهم الخطاب کالصبی، و المجنون، و المغمی علیه، و الناسی، و من لا یقدر علی إتیان المأمور به و ترک المنهی عنه.

و إنما کان لفظ النَّاسُ فی هذه الآیة لا یتناول بجهة لفظه من سیوجد بعد وقت الخطاب؛ لأنه خطاب مشافهة، فهو لا یتعلق بالمعدوم، و إنما یتعلق بمن وجد فی ذلک العصر، و لا یثبت الحکم لمن وجد بعدهم إلا بدلیل آخر، نصا کان، أو إجماعا، أو قیاسا، فإنا قد عرفنا بالتواتر کما تقدمت الإشارة إلیه آنفا أن الخطابات المتعلقة بالموجودین فی عصر النبوّة ثابتة فی حق من سیوجد بعد ذلک إلی قیام الساعة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۴

هذا و لا ینافی عموم لفظ النَّاسُ الشامل للمؤمن و المنافق، ما روی عن علقمة و الحسن، و هما تابعیان جلیلان، أن کل حکم و خطاب نزل فیه: یا أَیُّهَا النَّاسُ [البقرة: ۲۱] فمکی، و یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا [البقرة: ۱۰۴] فمدنی، فإنه یدل علی تخصیص الناس بالکفار الکائنین بمکة، لأنا نقول: إن کان ذلک رأیا لهما، فلا یعترض به علی عموم لفظ الآیة، و إن کان مرفوعا إلی النبی صلی اللّه علیه و سلم، فلا یوجب تخصیصه بالکفار، فإن کونه مکیا لا یوجب کون الخطاب متوجها إلی من فی مکة من الکفار فقط؛ لأن أهل مکة لیسوا بمشرکین جمیعا، بل منهم من هو مؤمن خالص.

و قد یقال بناء علی هذا العموم: کیف یوجه الأمر بالعبادة إلی الکفار، و لیسوا مکلفین بها حال کفرهم؛ لانتفاء شرط صحتها، و هو الإیمان، و هذا الحکم متفق علیه بین الأئمة الشافعیة و الحنفیة.

فنقول: أن أمر الکفار بالعبادة معناه أمر بتحصیل شرطها، و هو الإسلام، کأنه قیل لهم: حصلوا أولا شرط العبادة، ثم ائتوا بها، فإن الأمر بالشیء یتضمن الأمر بإتیان ما یتوقف علیه أیضا، کما إذا أمر المحدث بالصلاة، فإنه مأمور بالتوضؤ أیضا ضمن أمره بالصلاة ضرورة أن وجوب الشیء یوجب وجوب ما لا یتم ذلک الشیء إلا به، و قد یقال أیضا، بناء علی هذا العموم: أن خطاب اعْبُدُوا علی تقدیر عمومه لفرق المکلفین من مؤمنین، و کافرین، و منافقین، یستلزم إما استعمال اللفظ المشترک فیما وضع له عموما، و إما عموم المجاز، فإن العبادة التی أمر بها کل فریق غیر العبادة التی أمر بها الفرق الباقیة.

فنقول: استعمل لفظ اعْبُدُوا فی المعانی المختلفة للفظ العبادة، و ظاهر أن أحداث العبادة فی المستقبل معنی حقیقی له، فإن کانت المعانی الأخری کذلک یلزم الأمر الأول، و إلا یلزم الأمر الثانی، فإن المأمور به هو القدر المشترک بین تلک المعانی، و لیس له معان متعددة حتی یلزم أحد المحظورین، بل له معنی واحد و هو القدر المشترک بین أفراده، فالمطلوب علی هذا من المؤمن، و الکافر، و المنافق، قدر مشترک بینها، و هو الاتجاه إلی اللّه تعالی، فیکون معناه بالنسبة للکفار، إحداث العبادة بعد تحصیل شرطها علی ما تقدم، و بالنسبة للمؤمن زیادته فی العبادة و استمراره فیها، و بالنسبة للمنافق تخلیص قلبه من غیر اللّه تعالی.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۵

و إذا ما قیل بعد هذا: أن سورة البقرة مدنیة باتفاق، قلنا معناه: أن أغلبها لا کلها، أو إن القاعدة أکثریة لا کلیة، فقد یکون بعض السور مدنیا و فیه: یا أَیُّهَا النَّاسُ کسورة البقرة، و قد یکون بعض السور مکیا و فیه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کسورة الحج.

تأکید و تقریر لهذه المطالب الثلاث:

نعم أکد القرآن الکریم هذه المطالب الثلاثة، حیث أورد اللّه تعالی عقب تلک المطالب تعداد النعم العامة لجمیع بنی آدم، حیث قال جل شأنه: کَیْفَ تَکْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ کُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْیاکُمْ إلی قوله سبحانه: وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ [البقرة: ۲۸، ۲۹]، فقد سیقت هاتان الآیتان تعدادا لنعم بنی آدم، و هذه النعم تقرر دلیل الوحدانیة من حیث إنها أمور حادثة لا بدّ لها من محدث منفرد بوجوب الوجود، و

صفات الکمال، و تقرر دلیل المعاد أیضا من حیث إن تلک النعم مشتملهٔ علی خلق الإنسان و أصوله، فإنهم کانوا فی الأصل أجساما لا حیاهٔ لها، عناصر و أغذیهٔ، و أخلاطا نطفا و مضغا مخلّقهٔ و غیر مخلّقهٔ، تامهٔ الخلق، و غیر تامهٔ الخلق، ثم أحیاها اللّه تعالی بخلق الأرواح و نفخها فیها، و مشتملهٔ علی خلق ما هو أعظم من ذلک، و هو ما فی الأرض و السموات، و لا شک أن من قدر علی خلق هذه الأمور ابتداء قادر علی خلقها إعادهٔ.

و أما تقریر نبوّهٔ سیدنا محمد صلی اللّه علیه و سلم، فیؤکده و یقرره قوله تعالی: وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِٔ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهًٔ [البقرة: ۳۰]، إلی آخر القصهٔ من حیث إن نبینا، علیه الصلاهٔ و السلام، أخبر عن أحوال آدم و حواء، و ما وقع لهما من الحوادث و الجزئیات التی لم یقف علیها إلا من له المعرفهٔ بالکتب السماویهٔ، فإنها مذکورهٔ فیها، و هو علیه الصلاهٔ و السلام، نشأ بین قوم أمیین و لم یعرف بالاختلاف إلی أحد من أهل الکتاب، و لم یکن له معرفهٔ بألسن الذین ذکرت القصص فی کتبهم، و لم یغترب عن وطنه مدهٔ یمکن التعلم منها، و لم یوجد النکیر ممن له المعرفهٔ بالکتب فی شیء مما أخبر به.

فدل ذلک علی أنه علم من طریق الوحی من اللّه تعالی إلیه، فکان ذلک دلیلا قطیعا علی نبوّته، إذ لا یعلم الغیب إلا اللّه تعالی و من ارتضاه لرسالته، فیظهر الغیب علیه لیبلغه إلی الخلق لینتفعوا بما فیه من إصلاح دینهم و دنیاهم.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۶

و لا شک بعد هذا البیان و الإیضاح، أن القرآن حجهٔ بینهٔ عامهٔ شاملهٔ، لا تختص بطائفهٔ دون أخری، و لا مذهب دون سواه، من حیث إنه نزل و هو یحمل فی طیه و بین ثنایاه الدلیل علی أنه من عند اللّه تعالی، حیث إن أحدا لم یستطع أن یحاکیه، و لا أن یعارضه فی أی ناحیهٔ من النواحی فی نظمه و معانیه، فی تشریعه و أحکامه، فی قصصه و أخباره، فکان ذلک حجهٔ بالغهٔ و آیهٔ بینهٔ لکل مکلف فیما طلب إلیه أن یقوم به من عقیدهٔ، و امتثال أمر، و اجتناب نهی.

نعم، عجز الکل عن معارضته و هم یرونه مکتوبا، و یسمعونه مقروءا بلسان عربی مبین، فلیس هو من الأحاجی و الألغاز، و لا من الطلاسم و الأسرار، و لیس محجوبا عنهم و لا خافیا علیهم.

و کم تکرر وصف اللّه تعالی له بأنه کتاب مبین، و بأنه قرآن عربی، عجزوا عن معارضته، و هو یصف من کذب به بأنه أصم، و أبکم، و أعمی، و أنه فی الظلمات لیس بخارج منها، و أنه شر من الدواب، و أن له فی الآخرهٔ نار جهنم لا یموت فیها و لا یحیی.

عجزوا عن معارضته و هو یبین أن أعمال الخیر الصادرهٔ ممن کفر به: کَسَرابٍ بِقِیعَهٍٔ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّی إِذا جاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً [النور: ۳۹]، فما کان أیسر لهم أن یعارضوه لو استطاعوا لیزیلوا عن أنفسهم هذه النقائص، و یریحوا أفئدتهم من هذا العناء، و یخلصوا وجودهم من هذا الشقاء المضنی الألیم.

عجزوا عن معارضته و هو یقول لهم: لَنْ تَفْعَلُوا المعارضهٔ و لن تستطیعوها، فأربی بذلک علی الغایهٔ، و أتی علی ما فوق النهایهٔ، کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ [هود: ۱].

عجزوا عن معارضته و هو یقول فی محکم آیاته: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً [النساء: ۸۲]، و یقول: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُها [محمد: ۲۴].

فهو یأمرهم بمقتضی هذه الآیات أن یتدبروه، و أن یتفهموه، و أن ینظروا فیه حتی لا تبقی لهم شبههٔ یتعللون بها، و لا و هم یتمسکون به، یعنی فالقرآن العظیم مصدق لنفسه فیما جاء به من نفائس علم التوحید، و حقائق علم الأحکام، و أسرار قصص الأولین، بسبب الإعجاز الذی هو حقیقهٔ من حقیقته، و رکن من أرکان معناه، و هذا ما یجب ألا

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۷

یغیب عن البال، و أن یکون فی قرارهٔ کل نفس مؤمنهٔ بالقرآن.

فالملحد حین یقول: إنی لا أومن بما جاء فی القرآن من حقائق و علوم، إلا إذا ثبت ذلک عندی بالدلیل العقلی، نقوله له: إن القرآن

یحمل معه الـدلیل العقلی علی أنه من عند اللّه تعالی، و هو تحدیه لکل الخلائق و عجزهم عن المعارضة کما بینا، فهات ما عندک من المعارضة، و إلا فأنت محجوج بالبرهان الصادق، و ملزم بالدلیل الصحیح.

و إن لم یکن فی استطاعتک وحدک أن تأتی بالمعارضة، فضم إلی نفسک من یساویک، أو أعلی منک من عموم الإنس و الجن إن أمکنـک، و نعلمـک من الآـن أنکم جمیعـا عاجزون مقهورون، فسـلم دون مکابرة، و لا معانـدة، و اعلم أنه تنزیل من رب العالمین، و سیبقی القرآن کذلک غالبا غیر مغلوب، قاهرا غیر مقهور، إلی أن یرث اللّه تعالی الأرض و من علیها.

و أمـا إذا لم تکن من أهل البحث و النظر، فألق قیادک لأهل العلم، و انضو تحت لوائهم، فهم العارفون بالحقیقـة و الأمناء علیها، و هم حماتها و الحراس علیها، و صدق القائل إذ یقول:

و إذا لم تر الهلال فسـلملأناس رأوه بالأبصار هـذا و لیعلم أن هـذا الإعجاز خاص بالقرآن دون الکتب السابقـة، فکل واحـد منها و إن تعین صـدقه بأن صـدق اللّه تعالی مبلغه بأن أظهر علی یـدیه من المعجزات القاهرة لیس معجزا مصـدقا لنفسه، و من هنا، أی من حیث إن القرآن العظیم مصدق لنفسه بسبب کونه معجزا کان مصدقا للکتب المتقدمة، معیارا علیها، شاهدا علی مضمونها، و صحتها.

تلکم هی المطـالب الثلاـث مع أدلتها، و التی تلزم جمیع فرق المکلفین، بما فی ذلک الیهود و النصاری، إلا أن اللّه تعالی خص الیهود و النصاری بالذکر؛ لما لهم من شـرع سـماوی سابق، و وحی إلهی ماض، فکان کفرهم أفظع، و مخالفتهم أفحش، و هو ما نذکره فیما یلی.

هـذا و قـد قدمنا لک بسـطا و إیضاحا لهذه المطالب الثلاثة من حیث إثباتها، و الرد علی من أنکرها و کفر بها من الماديین فی القسـم الأول.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۸

محاجة القرآن للیهود:

قـال اللّه تعـالی: یـا بَنِی إِسْـرائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْـدِی أُوفِ بِعَهْـدِکُمْ وَ إِیَّایَ فَـارْهَبُونِ وَ آمِنُوا بِمـا أَنْزَلْتُ مُصَـدِّقاً لِمـا مَعَکُمْ وَ لاـ تَکُونُوا أَوَّلَ کـافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآیاتِی ثَمَناً قَلِیلًا وَ إِیَّایَ فَاتَّقُونِ وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَکْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ۴۰- ۴۲].

بنو إسـرائیل: بنو إسـرائیل هم الیهود خاصـة، و إن کـانت الکلمـة بأصل وضـعها تشـمل الیهود و النصاری، من حیث إن إسـرائیل لقب یعقوب، علیه السـلام، فمعنی إسرا بالعبرانیة عبد، و إیل اللّه، فمعناه عبد اللّه، و قیل: صفوة اللّه، و لا شک أن النصاری من أبنائه، و هم فی الأصل قوم من الیهود آمنوا بعیسی، علیه السلام.

و دلیل هذا الاسـتعمال أن القرآن حین قال هنا: یا بَنِی إِسْرائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ [البقرة: ۴۰]، ذکر ما أنعم علی أسلافهم من فلق البحر، و إنجـائهم من فرعون، و غیر ذلـک من النعم التی لم تعرف إلا عنـد الیهود، دون النصاری، کـذلک قال تعالی فی سورة المائـدة: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً [المائدة:

۱۲]، إلی أن قال: وَ مِنَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّا نَصاری أَخَذْنا مِیثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُکِّرُوا بِهِ [المائدة: ۱۴]، ثم جمعهما فی خطاب واحد بعد ذلک حیث قال جل شأنه: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمَّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتابِ [المائدة:

۱۵]، و کذلک قال فی هذه السورة أیضا: لَقَدْ أَخَذْنا مِیثاقَ بَنِی إِسْـرائِیلَ وَ أَرْسَـلْنا إِلَیْهِمْ رُسُـلًا کُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوی أَنْفُسُهُمْ فَرِیقـاً کَـذَّبُوا وَ فَرِیقاً یَقْتُلُونَ [المائـدة: ۷۰]، ثم قـال بعـد ذلـک: لَقَـدْ کَفَرَ الَّذِینَ قـالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِـیحُ ابْنُ مَرْیَمَ [المائـدة: ۱۷]، ثم جمعهما فی خطاب واحد، فقال: یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ [النساء: ۱۷۱].

و هؤلاء الیهود خصـهم اللّه تعالی بالذکر، و طالبهم بالإیمان بما أنزل علی محمد صلی اللّه علیه و سلم، و أتی لهم بأدلة خاصة تلزمهم بعد أن أدخلوا فی عموم الخطاب السابق فی قوله سـبحانه: یا أَیُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّکُمُ [البقرة: ۲۱]، و ذلک لما لهم من العلم و الإیمان

بالتوراة، فالخطاب فی قوله: یا بَنِی إِسْرائِیلَ [البقرة: ۴۰] لعلماء الیهود، بقرینة قوله تعالی: وَ لا تَکُونُوا أَوَّلَ کافِرٍ بِهِ [البقرة: ۴۱]، أی لا تکونوا أئمة فی الکفر

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۸۹

یقتدی بکم أتباعکم، فتکونوا حاملین لأوزارکم و أوزارهم، کما قال تعالی: لِیَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ کامِلَةً یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِینَ یُضِلُّونَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما یَزِرُونَ [النحل: ۲۵]، و الجهال لا یقتدی بهم، فلا یکونون أول الکفار، خاطبهم اللّه تعالی، و أمرهم أن یذکروا نعم اللّه علیهم، استمالة لقلوبهم، و تحریضا علی أداء شکرها، و توبیخا علی إعراضهم عنه، و أمرهم بعد تذکیر النعم أن یوفوا بعهوده؛ لیکونوا أئمة فی الإیمان به، علیه السلام، و بما أنزل علیه.

نعم اللّه علی بنی إسرائیل:

و النعم علی بنی إسرائیل کثیرة، منها أنه تعالی استنقذهم من فرعون و قومه، و أورثهم أرضهم و دیارهم، و أنزل علیهم الکتب، و جعل فیهم أنبیاء، و ظلل علیهم الغمام، و أنزل علیهم المنّ و السلوی، و هذه النعم و إن کانت علی أسلافهم، فهی نعم علیهم أیضا؛ لأن الإنعام علی الآباء إنعام علی الأبناء، من حیث إن الأبناء یشرفون بشرف الآباء.

و قیل: أراد بالنعم ما أنعم اللّه به علی آبائهم و علیهم، حیث أدرکوا زمن النبی صلی اللّه علیه و سلم، و بناء علی هذا یکون انتظام الآیة بما قبلها حسنا جدا من جهة أنه تعالی لما عرض لهم من أول هذه السورة إلی هذا الموضع مرارا متعددة، حیث ذکر نفاقهم، و عذابهم الألیم علی هذا النفاق، و عدد ما أنعم به علی کافة البشر من نعمه العامة التی من جملتها تکریم أبیهم آدم، علیه السلام، و أنکر قبح حال من یکفر باللّه الذی أنعم بمثل هذه النعم، ثم خاطب الکل بقوله تعالی: فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنْ تَبِعَ هُدایَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ [البقرة: ۳۸].

و من هنا کان تخصیصهم بالخطاب من بین المخاطبین بعد ذکر الخطاب العام فی قوله سبحانه: یا أَیُّهَا النَّاسُ [البقرة: ۲۱] حسن الموقع جدا من حیث إنهم قد آتاهم الهدی، و تمکنوا من الانتفاع بالنعمة العظمی، و هی نعمة من أرسله اللّه تعالی رحمة للعالمین فی وقت اختلافهم و تغییرهم الکتاب، و کانوا یستفتحون به علی الذین کفروا، و قد خص أسلافهم من جلائل النعم بما لم یظفر بمثله أحد، فأمروا بشکر هذه النعم حتی یکونوا ممن أدی شکر سوابق النعم و لواحقها.

و لم یرض بعض العلماء بهذا القول بناء علی أن حمل النعمة علی ما ذکر یحتاج إلی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۰

تکلف، إما أن یحمل قوله تعالی: الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ [البقرة: ۴۰] علی حذف کلمة (و علی آبائکم)، و إما أن یجعل الخطاب لجمیع بنی إسرائیل الحاضرین و الغائبین بتغلیب الحاضرین، فإنه لو لم یتکلف أحد هذین الوجهین، للزم أن یجمع بین الحقیقة و المجاز فی قوله تعالی: عَلَیْکُمْ بأن یراد ما أنعم به علیهم و علی آبائهم.

و قیل: أراد بقوله تعالی: أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ ما أنعم به علی جمیع البشر من خلقهم أحیاء قادرین، و من خلق جمیع ما فی الأرض، ثم تسویة السموات السبع لینتظم جمیع ما یصلح به أمر معاشهم و معادهم، إلی غیر ذلک من النعم الشاملة لجمیع المکلفین، فعلی هذا فالخطاب و إن کان خاصا ببنی إسرائیل لکونهم مقصودین بالتبکیت، حیث إن هذه السورة أول سورة نزلت بالمدینة، و قد آمن من أجلها من آمن، و لم یبق إلا معاند، و نعنی ببنی إسرائیل الیهود الذی نسوا نعمة اللّه علیهم، و ترکوا شکرها، إلا أن جمیع الناس یشارکونهم فی حکم هذا الخطاب، و هو وجوب ذکر نعمته تعالی علیهم لما رزقوا من فنون النعم التی لا تحصی، و علی هذا یقال: ما دام المراد بالنعمة النعمة العامة لکل البشر، فلم قیدت النعمة بهم، حیث وصفها بقوله تعالی: الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ؟.

فنقول: قصد بهذا استمالة قلوبهم، و حملهم علی أداء شکرها فیما أمر به و نهی عنه، و هذا المقصود إنما یتم إذا لوحظت النعم باعتبار وصولها إلی المنعم علیه، مع قطع النظر عن حصولها لغیره، فإن هذه الملاحظة بهذه الجهة توجب استمالة قلوبهم، و تحملهم علی أداء

شکرها.

و الذی یتخلص فی بیان المراد من النعمة علیهم: إما أن یکون المراد بالنعمة علیهم نعم آبائهم خاصة، و یکون المراد من قوله سبحانه فیما بعد: وَ إِذْ نَجَّیْناکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ [البقرة: ۴۹] التأکید و التقویة لهذا المعنی، و إما أن یکون المراد نعم آبائهم الماضین، و نعمه سبحانه علیهم فی إدراکهم زمن محمد صلی اللّه علیه و سلم، و یکون قوله سبحانه:

وَ إِذْ نَجَّیْناکُمْ تأکیدا أیضا بالنسبة لنعم الآباء الماضین علی ما هو ظاهر، و إما أن یکون المراد بالنعمة علیهم ما أنعم به علی جمیع البشر، کما تقدم إیضاحه، و یکون قوله:

وَ إِذْ نَجَّیْناکُمْ تأسیسا لا تأکیدا کما لا یخفی.

ثم لیعلم أن الکلام جری معهم من هنا یا بَنِی إِسْرائِیلَ [البقرة: ۴۰] إلی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۱

حزب: سَیَقُولُ السُّفَهاءُ [البقرة: ۱۴۲]، فتارة دعاهم بالملاطفة، و ذکر الإنعام علیهم و علی آبائهم کما بینا، و تارة بتوبیخهم علی سوء أعمالهم و ذکر عقوبتهم التی عاقبهم بها، و کان فی ذکر هذا کله و إیضاحه و تفصیله علی لسان نبینا محمد صلی اللّه علیه و سلم، و هو النبی الأمی الذی لم یقرأ، و لم یکتب، و لم یخالط أحدا ممن له درایة بالقراءة و الکتابة، أصدق شاهد و أکبر برهان علی نبوّته صلی اللّه علیه و سلم و صحة دعوته لهم و لغیرهم، و علی وجوب الانضواء تحت لوائه، و التصدیق بما جاء به.

قال سیدی عبد الرحمن الثعالبی الجزائری فی تفسیره المرسوم بالجواهر الحسان فی تفسیر القرآن ما نصه: قال الطبری: و فی إخبار القرآن علی لسان النبی صلی اللّه علیه و سلم بهذه المغیبات التی لم تکن من علم العرب، و لا وقعت إلا فی خفی علم بنی إسرائیل دلیل واضح عند بنی إسرائیل و قائم علیهم بنبوّة نبینا محمد صلی اللّه علیه و سلم.

تصدیق القرآن لما سبقه:

و لنتکلم علی قوله تعالی: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَکُمْ وَ لا تَکُونُوا أَوَّلَ کافِرٍ بِهِ [البقرة: ۴۱]، اندرج الأمر بالإیمان بالقرآن فی قوله: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِی [البقرة: ۴۰] فی الآیة قبل، إلا أنه أفرد الأمر به علی طریق عطف الخاص علی العام، تنبیها علی شرفه من حیث إنه طاعة مقصودة فی نفسها، متعبدة بذاتها، لا تتوقف صحته و اعتباره علی شیء آخر من الطاعات، بل هو عمدة یعتمد علیه سائر الطاعات، و به اعتبارها، و أنها من فروعه و ثمراته. و لما کان أصلا مقصودا بالذات من التکلیف، و رعایة الوفاء بالعهود، صار کأنه أمر مغایر للعهود المأمور بإیفائها.

و قوله: مُصَدِّقاً لِما مَعَکُمْ، وجه تصدیقه لما معهم من الکتب من حیث إنه نازل حسبما نعت فیها، أو مطابق لها فی الدعاء إلی التوحید، و الأمر بالعبادة، و العدل بین الناس، و النهی عن المعاصی و الفواحش، و غیر ذلک من الأمور التی لا تتبدل باختلاف الأمم و الأدیان، فلا یجری فیها النسخ، فهو مصدق لها فی هذه الأمور، و مصدق لها کذلک فیما یخالفها من جزئیات الأحکام و فروعها بسبب اقتضاء مصلحة کل قوم و زمانهم، من حیث إن کل واحدة منها حق بالنسبة إلی زمانها، و منسوخة عند انقضاء زمانها، فالجزئیات المخالفة بحسب الزمان کحل فعل ما، و حرمته متطابقة من حیث إن کل واحدة منها حق تقتضیه مصلحة کل قوم و زمانهم.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۲

قال الإمام زادة «۱»: قال الراغب: لا منافاة بین ما أتی به الأنبیاء، علیهم الصلاة و السلام، من أصول العبادات، و أنهم کنفس واحدة، من حیث إنه یتساوی دعاؤهم إلی التوحید و الأرکان الثلاثة من الشرائع، التی هی العبادات الخمس، و أحکام الحلال و الحرام، و المزاجر، و إنما الاختلاف بینهم فی جزئیات الأحکام و فروعها، کیفما تقتضیه مصلحة کل قوم و زمانهم، فکل نبی مصدق للآخر فیما أتی به، من حیث إن کلیات شرائعهم متساویة، و أن فروعها حق بالإضافة إلی زمان کل واحد منهم و أمته، حتی لو کان أحدهم فی زمن الآخر لم یر المصلحة إلا فیما أتی به الآخر، و لذلک قال صلی اللّه علیه و سلم فی حق موسی بن عمران: «ما وسعه إلا اتباعی»،

فعلی هذا و إن کانت فی القرآن أحکام جزئیة مخالفة لما فی الزمان الأول و الکتب السابقة صورة، فإنها موافقة من حیث إن کل واحد منها مقتضی الحکمة و المصلحة، فظهر من هذا أن المنسوخ موافق للناسخ حقیقة، من حیث إن کل واحد منها مقتضی الحکمة. أ. ه.

و الحدیث المشار إلیه نصه: «لو کان موسی حیا ما وسعه إلا اتباعی»، و قد رواه الإمام أحمد فی مسنده، کما ذکره الخطیب الشربینی فی تفسیره، فما دام القرآن الکریم مصدقا للکتب السماویة، فاتباع هذه الکتب لا ینافی الإیمان بالقرآن، بل یوجب الإیمان به؛ لکونه مطابقا لها و مصدقا، و لذلک قال جل شأنه: وَ لا تَکُونُوا أَوَّلَ کافِرٍ بِهِ [البقرة: ۴۱]، فالمقصود به تأکید الأمر بالإیمان به، و تقویة لإیجابه، کأنه قیل: آمنوا بما أنزلت، بل کان الواجب علیکم أن تکونوا أول من آمن به، لکونه مصدقا لما معهم من الکتب المنزلة علیهم، و واجب علیهم اتباع ما یطابقها بعد الاعتقاد بحقیقته و حقیقة ما فیه من الأحکام، و إلا لم یکونوا معتقدین بحقیقة کتابهم و متبعین إیاه.

و قد عرف أهل الکتاب موافقة القرآن الکریم لکتبهم، حیث لم یتکلفوا جمع القرآن إلی کتبهم، و مقابلة البعض بالبعض، و لو کان مخالفا لهم فی زعمهم لفعلوا ذلک حتی یظهر الخلاف، فیظهر کذبه، علیه الصلاة و السلام، فی قوله: إن القرآن منزل علیه، فینجوا من تعرضه لها، فلما لم یفعلوا، دل ذلک علی أنهم عرفوا أن القرآن موافق لکتبهم.

نعم علیهم أن یکونوا أول من آمن به؛ لما تقدم من مطابقة القرآن الکریم لما معهم، و لأنهم کانوا أهل نظر فی معجزاته صلی اللّه علیه و سلم، و العلم بنشأته؛ لأنه قد مرّ أن الخطاب فی

---

(۱) حواشی زاده علی البیضاوی.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۳

قوله: یا بَنِی إِسْرائِیلَ [البقرة: ۴۰] لعلماء أهل الکتاب، فهم أهل النظر و الاستدلال بخلاف المشرکین و جهلة أهل الکتاب، فإنهم لیسوا مثل هؤلاء العلماء فی أهلیة النظر و الاستدلال، و کانوا یستفتحون علی الذین کفروا، أی یطلبون الفتح و النصرة علی المشرکین، و یقولون: قد آن بعث النبی الأمی الذی نجده فی التوراة و الإنجیل، فإذا بعث فنحن نؤمن به أول الناس کلهم و نقاتلکم معه، و هو ما یصرح به قوله سبحانه: وَ لَمَّا جاءَهُمْ کِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ کانُوا مِنْ قَبْلُ یَسْتَفْتِحُونَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا کَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الْکافِرِینَ [البقرة: ۸۹]، کما أنهم کانوا یبشرون العرب بزمانه صلی اللّه علیه و سلم، و یقولون: قد أظل زمان نبی یخرج بتصدیق ما قلنا من طلب الاستفتاح و النصر، فنقتلکم معه قتل عاد و إرم، فهذه الأمور تقتضی أن یکونوا أول من آمن بالقرآن، و بواسطة اقتضائها یؤمنوا بمحمد صلی اللّه علیه و سلم قبل المشرکین و الجهلة منهم.

تبدیل الیهود لآیات اللّه:

و قوله سبحانه: وَ لا تَشْتَرُوا بِآیاتِی ثَمَناً قَلِیلًا وَ إِیَّایَ فَاتَّقُونِ [البقرة: ۴۱]، اختلف فی الثمن الذی نهوا أن یشتروه بالآیات، فقالت طائفة: إن الأحبار کانوا یعلمون دینهم بالأجرة، فنهوا عن ذلک، و قیل: کانت للأحبار مأکلة یأکلونها علی العلم، و قال قوم: إن الأحبار أخذوا رشی من الحکام علی تغییر صفة محمد صلی اللّه علیه و سلم، و قال قوم: معنی الآیة لا تشتروا بأوامری و نواهی و آیاتی ثمنا قلیلا، یعنی الدنیا و مدتها، و العیش الذی هو نزر لا خطر له، و هذا القول الأخیر هو الألیق، فإن معناه أنهم کفروا بمحمد صلی اللّه علیه و سلم حقدا، و حسدا، و جحدا، و عنادا.

کفروا به مخافة أن یفوتهم ما هم فیه من رئاسة، و سیطرة علی العامة، یعنی غرتهم الدنیا، و مالت بهم عن الحق الواضح و الصراط المستقیم، نعم لو ثبت أنهم کانوا یأخذون الرشوة، أو کانت لهم مآکل علی العامة، أو کانوا یأخذون علی تعلیم التوراة أجرا و هم منهیون عن ذلک، وجب المصیر إلیه، و إلا فالقول الأخیر أوفق و أحکم کما تقدم، و لذلک قال بعض الأئمة: و اعلم أن هذا النهی

صحیح، سواء کان فیهم من فعل ذلک أو لم یکن، بل لو ثبت أن علماءهم کانوا یأخذون الرشی علی کتمان أمر الرسول صلی اللّه علیه و سلم و تحریف ما یدل علی ذلک کان الکلام أبین.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۴

ثم وبخهم اللّه تعالی علی سوء صنیعهم، و إضلالهم أمر العامة، فقال: وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَکْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ۴۲]، أمروا أولا بتکمیل نفوسهم بالإیمان، و اتباع الآیات، و ترک الضلال، ثم نهوا عن إضلال غیرهم، و إضلال الغیر له طریقان، و ذلک لأنه إن کان قد سمع دلائل الحق، فإضلاله إنما یکون بتشویش تلک الدلائل علیه بالشبهات الباطلة، و إذا کان لم یسمعها، فإضلاله إنما یکون بکتمها و إخفائها عنه حتی لا یصل إلیها و یستدل بها علی الحق.

فقوله تعالی: وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ، نهی عن الطریق الأول بالإضلال، و قوله: وَ تَکْتُمُوا الْحَقَ، نهی عن الطریق الثانی، و هو منعه من الوصول إلی الدلائل، و اللبس الخلط، یقال: لبس الحق بالباطل، من باب ضرب، أی خلطه به، و قد یلزمه جعل الشیء شبیها بغیره، و قد لا یلزمه، کما فی خلط التفاح بالزبیب، فإن خلطه به لا یؤدی إلی الاشتباه و الالتباس، کما فی خلط الباطل بالحق، بحیث یشتبه أحدهما بالآخر حتی لا یمیز بینهما، فیستعمل اللبس الذی فی الآیة فی لازم معناه الأصلی، و هو الاشتباه و عدم الامتیاز، حتی لا یقال: إنهم لم یخلطوا الحق بالباطل، بل جعلوا الباطل موضع الحق، فإن جعل الباطل موضع الحق یؤدی إلی اشتباه کل منهما بالآخر، و هو المراد المنهی عنه فی الآیة الکریمة، فالباء علی هذا تکون للاستعانة، کالتی فی:

کتبت بالقلم.

یعنی أنهم استعانوا علی جعل الحق شبیها بالباطل بکتابة الباطل موضع الحق.

و لبعض العلماء ملحظ آخر فی توجیه معنی الاستعانة، أنهم لم یکتبوا الباطل موضع الحق، بل أبقوا الحق فی التوراة، و لکنهم صرفوه بالتأویل الفاسد إلی غیر معناه المقصود، مثل قولهم: محمد رسول، و لکن إلی غیرنا، فإقرارهم ببعثته حق، و جحدهم أنه ما بعث إلیهم باطل، و لعل هذا التوجیه أسلم.

فإذا ما قالوا: إنا لم نکتب باطلا- موضع الحق، قلنا لهم: و مع ذلک فإنکم صرفتم اللفظ عن غیر المراد من غیر دلیل، و لا برهان، و لذلک استبعد بعض العلماء أیضا کون الباء للتعدیة، إذ المعنی علیه: لا تخلطوا الحق الذی فی التوراة بالباطل الذی تکتبونه فیها، فلهم أن یقولوا: لم نکتب باطلا بجانب حق، یعنی فلم یلزمهم، و لم یقطع علیهم کل أعذارهم، إلا أن یکون المعنی: و لا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التی أوردتموها علی السامعین، و ذلک لأن النصوص الواردة فی التوراة فی أمر محمد صلی اللّه علیه و سلم کانت

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۵

نصوصا خفیة یحتاج فی معرفتها إلی الاستدلال، ثم إنهم کانوا یحتالون فیها و یشوشون أوجه الدلالة علی المتأملین فیها بإلقاء الشبهات، فهذا هو المراد بقوله: وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ، و أما قوله: وَ تَکْتُمُوا الْحَقَ، فمعناه إخفاءه عمن لم یسمعه، کما أن قوله: وَ لا تَلْبِسُوا معناه التشویش علی من سمعه، کما هو واضح مما تقدم، و هذا هو السر فی الجمع بینهما، فلکل منها اتجاه یغایر اتجاه الآخر و یخالفه.

و لا- بدّ لنا من الکلام علی إعراب هذه الجملة: وَ تَکْتُمُوا، و بیان هل هی مجزومة عطفا علی النهی السابق فی قوله: وَ لا تَلْبِسُوا، أو منصوبة فی جواب هذا النهی بأن مضمرة وجوبا بعد واو المعیة، إذ المعنی یختلف علی کل منهما؟ فنقول: قال فریق:

إنها مجزومة داخلة تحت حکم النهی، کأنه قیل: لا تکتموا الحق، فیکون النهی متوجها إلی کل واحد من الفعلین علی حدة، أی لا تفعلوا هذا و لا هذا، إذ کل واحد منهما مستقل بالقبح، و وجوب الانتهاء عنه. و قال فریق: إنها منصوبة بإضمار أن فی جواب النهی بعد الواو التی تقتضی المعیة، فإن النهی حینئذ هو الجمع بین الفعلین، کأنه قیل:

لا تجمعوا بین لبس الحق و الباطل و کتمانه، کما فی قول الشاعر:

لا- تنه عن خلق و تـأتی مثله‌عـار علیک إذا فعلت عظیم و معلوم أن «أن» مع ما فی حیزها، تکون فی تأویل المصـدر، فلا بـد من تأویل الفعل الذی قبلها بالمصدر أیضا؛ لیکون من قبیل عطف الاسم علی مثله، و التقدیر: لا یکن منکم لبس الحق بالباطل مع کتمانه، و علی هذا لا یعلم النهی علی کل واحد من الفعلین إلا بدلیل خارجی.

لا- یقـال: یلزم علیه جواز تلبیسـهم بـدون الکتمـان و عکسه، کمـا فی: لا- تأکل السـمک و تشـرب اللبن؛ لأنا نمنع ذلک، إذ النهی عن الجمع لا یـدل علی جواز البعض و لا علی عـدمه، و إنما یدل علیه دلیل آخر، أما فی مسألهٔ السـمک فللطب، و أما فی الآیهٔ فلقبح کل منها، و فائـدهٔ الجمع المبالغهٔ فی النعی علیهم، و إظهار القبح فی أفعالهم من کونهم جامعین بین فعلین، إن انفرد کل منهما عن صاحبه کان قبیحا، یعنی فالطب فی مسألهٔ السمک هو الذی أجاز أحد الفعلین منفردا عن الآخر، و لم یجوز ذلک النهی عن الجمع فی قولهم: لا تأکل السـمک و تشـرب اللبن، و قبح کل واحد من الفعلین فی الآیهٔ منع جواز أحدهما، و لم یمنعه النهی عن الجمع فیها کذلک. و قوله تعالی: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۶

جملهٔ اسمیهٔ فی محل نصب حال، و عاملها إما تَلْبِسُوا أو تَکْتُمُوا، و المعنی:

وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنکم لابسون الحق بالباطل کاتمون، فإنه أقبح، إذ الجاهل قد یعذر.

تکذیب القرآن لدعاوی الیهود:

هذا و قد استمر الکلام مع الیهود إلی حزب «سیقول» کما قلنا قبل ذلک، و فیه الرد علیهم و إلزامهم الحجهٔ ما هو فوق الکفایهٔ، و لنأت من هذا بآیتین سیقتا لغرض واحد و هو: تکذیب القرآن للیهود فی ادعائهم أن الدار الآخرهٔ خالصهٔ لهم من دون الناس، قال تعالی: قُلْ إِنْ کانَتْ لَکُمُ الـدَّارُ الْآخِرَهُ عِنْـدَ اللَّهِ خالِصَـهً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ وَ لَنْ یَتَمَنَّوْهُ أَبَـداً بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ [البقرهٔ: ۹۴، ۹۵]، یعنی أن من جملـهٔ قبـائحهم أنهم کـانوا یأمنون من سوء الخاتمـهٔ و لا یخافون منها، بل یحکمون بأن الـدار الآـخرهٔ و مـا أعـد اللّه تعـالی لعباده من الملک العظیم و النعیم المقیم لهم دون غیرهم، کما قال تعالی حکایـهٔ عنهم: لَنْ یَـدْخُلَ الْجَنَّهَ إِلَّا مَنْ کـانَ هُـوداً أَوْ نَصـاری [البقرهٔ: ۱۱۱]، و قـولهم: کُونُوا هُوداً أَوْ نَصـاری تَهْتَـدُوا [البقرهٔ: ۱۳۵]، و قـولهم: نَحْنُ أَبْنـاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ [المائدهٔ: ۱۸].

و قولهم: وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَیَّاماً مَعْدُودَهً [البقرهٔ: ۸۰]، فأمر اللّه تعالی رسوله صلی اللّه علیه و سلم بأن یقول لهم: إن کانت الدار الآـخرهٔ لکم کمـا تزعمون، و إن کنتم أبنـاء اللّه و أحباءه کما تـدعون، فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ [البقرهٔ: ۹۴]، و ذلـک لأن المرء لا یکره الانتقال إلی داره و بستانه، بل یتمنی ذلک، و کذلک المرء لا یکره القدوم علی اللّه تعالی، و لا علی حبیبه، و لا یخاف منهما النقمهٔ، بل یتوقع عنـدهما الکرامات، و الـدرجات، و العطایا، و الهـدایا، فإن کان الأمر کما تقولون، فتمنوا الموت حتی تنجوا من غم الدنیا و من تحمل الشدائد التی أنتم فیها، إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ [البقرهٔ: ۹۴] فی زعمکم بأن الآخرهٔ لکم و أنکم أبناء اللّه و أحباؤه.

فإذا ما قال الیهود اعتراضا علی هـذا الإلزام: إنکم تقولون: إن الآخرهٔ للمؤمنین، فلم لا نری أن أحدا من المؤمنین یتمنی الموت إذا قیل له: تمن الموت، فکل عذر لاح لکم فهو عذر لنا، فلا معنی لاحتجاجکم بذلک علینا، قلنا: أجاب العلماء عن هذا الإشکال بوجهین:

أحدهما: أن المؤمنین لم یجعلوا لأنفسهم من الفضل و المنزلهٔ عند اللّه تعالی مثل ما

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۷

جعل الیهود لأنفسهم، بل المؤمنین، و إن جل قدرهم، غیر الأنبیاء، علیهم الصلاهٔ و السلام، لا یزول عنهم خوف الخاتمهٔ، و من کان قد ابتلی بشـیء من الخطایا، فهو مفتقر إلی زمن یتدارک فیه ما فاته، فلهذا لم یتمن المؤمنون الموت، فأما الیهود، فقد ادعوا أنهم من أهل الجنهٔ، و لیس بها شیء من الشدهٔ، و الدنیا دار شدهٔ و بلیهٔ، فلا معنی لامتناعهم عن تمنی الموت لو کانوا صادقین فی دعواهم.

و ثانیهما: أنهم کانوا یزعمون أنهم أبناء اللّه و أحباؤه، و فی تمنیهم الموت وصول إلی أبیهم و حبیبهم فی زعمهم، و لا أحـد یرغب و

لا ینفر عن الحبیب و الأب، فدل امتناعهم من ذلک علی کذبهم فی دعواهم، و أما المسلمون فلا یدعون ذلک، و لا یتمنون الموت، بل یرغبون فی امتداد الحیاة لمزید الأعمال الصالحة کما هو ظاهر.

و قوله: خالِصَةً الخالص کالصافی، لکن الصافی یقال فیما لم یکن فیه شوب قبل ذلک، و لا یقال: خالص، إلا إذا کان فیه شوب من قبل فزال، و قوله: مِنْ دُونِ النَّاسِ لفظ دُونِ لما کان فی الأصل اسما للقاصر عن الشیء، اعتبر ذلک فی المکان تارة، و فی الشرف تارة، و فی الاختصاص تارة، فیقال فی المکان: دونک هذا، أی خذه من أدنی مکان منک. و یقال فی الاختصاص: هذا إلی دونک، و یقال فی الشرف:

فلان دون فلان، أی أقل منه رتبة و منزلة.

فإن قیل: کیف قال: مِنْ دُونِ النَّاسِ و المخاطبون أیضا هم الناس؟ قیل: المراد بالناس أکثرهم، إذ لفظه عام، و معناه خاص، أی دون باقی الناس و سائرهم. و قال بعضهم: فیه لطیفة، و هی أنه جل جلاله یعرض بهم، و یشیر بأنهم لیسوا من الناس، و الکلمة بأصل وضعها تحتمل المدح و الذم، فالمدح نحو قولک: فلان لیس بإنسان، بل هو ملک کریم، و الذم نحو قولک: یغرنک من فلان مظهر صلاحه، فهو لیس بإنسان، إذ المعنی أنه أحط إلی درجة الحیوانیة، و لا شک أنهم من القبیل الثانی، فهذه هی اللطیفة التی فی الآیة التی قال بها البعض.

و قد أخبر اللّه تعالی أنهم لن یتمنوه أبدا بما قدمت أیدیهم، و فی هذا بیان للعلة التی بسببها لا یتمنون الموت، فإنهم عالمون بما صنعوا من الکفر بعیسی و الإنجیل، و بمحمد صلی اللّه علیه و سلم و بالقرآن، و بتحریف التوراة، فیعلمون بما لهم عند اللّه تعالی من العذاب الألیم و العقاب الدائم، و أنه لا نصیب لهم فی الجنة، و إنما قالوا: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۸

[المائدة: ۱۸]، و أنهم من أهل الجنة علی الخصوص بطریق النعت و المکابرة، و لذلک لم یتمنوا الموت.

و قد روی عنه صلی اللّه علیه و سلم: «أنهم لو تمنوا الموت، لغص کل إنسان بریقه، فمات مکانه، و ما بقی علی وجه الأرض یهودی»، و الغصة: الشجی، و هو ما تعلق بالحلق من العظم و نحوه، و لم ینزل إلی الجوف، و المعنی: لا یقدر علی أن یبتلع ریقه فیموت فی مکانه.

من دلائل النبوة المحمدیة:

و هذه الجملة و هی قوله سبحانه: وَ لَنْ یَتَمَنَّوْهُ أَبَداً [البقرة: ۹۵] إخبار بالغیب، فإن عدم تمنیهم فی المستقبل، و هو غیب لا یعلم بالحس، و لا ببدیهة العقل، و لم ینصب علیه دلیل أیضا، فکانت الآیة من المعجزات الدالة علی حقیة رسالة سیدنا محمد صلی اللّه علیه و سلم، فإنه لما أخبر اللّه تعالی أنهم لا یتمنون الموت أبدا، کان الأمر کما قال، مع أن تکذیبه، علیه السلام، أهم الأمور عندهم، و أن ما یدعوهم إلیه ممکن متوفر بالنسبة إلیهم، و أن قولهم: تمنینا الموت، سهل و غیر متعسر علیهم، فلو قال أحد منهم، لظهر کذبه، علیه السلام، فیما أخبر به عن اللّه تعالی، و لتبین بذلک کذبه فی دعوی الرسالة أیضا، و مع ذلک امتنعوا من أن یقولوا ذلک، و کان الأمر کما قال، فعلم بذلک أنه، علیه السلام، إنما علم ذلک، و أخبر به، بأن أوحی إلیه من عند اللّه تعالی، و أنه رسول حقا.

هذا و قد جاء فی الشفا للقاضی عیاض حسبما نقله صاحب تفسیر الجواهر الحسان عند هذه الآیة ما نصه: و من الوجوه البینة فی إعجاز القرآن آی وردت بتعجیز قوم فی قضایا و إعلامهم أنهم لا یفعلونها، فما فعلوا و لا قدروا علی ذلک، کقوله تعالی للیهود:

قُلْ إِنْ کانَتْ لَکُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ ... الآیة. قال أبو إسحاق الزجاج: فی هذه الآیة أعظم حجة، و أظهر دلالة علی صحة الرسالة؛ لأنه قال لهم: فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ [البقرة: ۹۴]، و أعلمهم أنهم لن یتمنوه أبدا، فلم یتمنه واحد منهم. و عن النبی صلی اللّه علیه و سلم: «و الذی نفسی بیده، لا یقولها رجل منهم إلا غص بریقه»، یعنی یموت مکانه. قال أبو محمد الأصیلی: من أعجب أمرهم أنه لا توجد منهم جماعة و لا واحد من یوم أمر اللّه تعالی نبیه بذلک یقدم علیه، و لا یجیب إلیه، و هذا موجود مشاهد لمن أراد أن یمتحنهم.

المراد بتمنی الموت:

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۹۹

قال جماعة: هو إرادة بالقلب، مع السؤال باللسان. و قال البعض: هو السؤال باللسان فقط. فإن قلت: من أعلمك أنهم لم يتمنوا؟ أجيب: بأنهم لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقل سائر الحوادث، و لكثر ناقلوه من أهل الكتاب و غيرهم من أولى المطاعن فی الإسلام، و هم أكثر من الذر، و ليس أحد منهم نقل ذلك.

فإن قيل: التمنی من أعمال القلوب، و هو سر لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا!؟ أجيب: بأن التمنی ليس من أعمال القلوب، إنما هو قول الإنسان باللسان: ليت لی كذا، فإذا قاله، قالوا: تمنی، و ليت كلمة تمن، و محال أن يقع التحدی بما فی الضمائر و القلوب، و لو كان التمنی بالقلوب و تمنوا، لقالوا: تمنينا الموت فی قلوبنا، و لم ينقل أنهم قالوا ذلك.

فإن قيل: لم يقولوه؛ لأنهم علموا أنهم لا يصدقون. أجيب: بأنه كم حكی عنهم من أشياء قالوها للمسلمين من الافتراء علی اللّه، و تحريف كتابه، و غير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه، و لا محمل له إلا الكذب الصرف، و لم يبالوا، فكيف يمنعون من أن يقولوا: إن التمنی من أفعال القلوب، و قد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين فی قولهم، و إخبارهم عن ضمائرهم، و كان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذبا؛ لأنه أمر خفی و لا سبيل إلی الاطلاع عليه.

فإن قيل: عدم نقل تمنيهم الموت إلی الآن لا يدل علی عدم تمنيهم أبدا. أجيب: بأنه لا محيص عن هذا الإشكال إلا أن يكون الخطاب مع المعاصرين، و قد انقرضوا و لم يتمنوا، و إلا لنقل ذلك و اشتهر، فلما لم ينقل، علم أنهم لم يتمنوه.

و لعل هذا القول يخالف ما تقدم آنفا عن الشفا نقلا عن أبی محمد الأصيلی، من أن عدم التمنی ثابت للاحقين منهم أيضا، و الحاصل أن التمنی إما فعل اللسان، و إما فعل القلب، و أيا ما كان يثبت و هو أنهم لم يتمنوه.

من أنباء الغيب:

كذلك من الإخبار بالغيب الذی يلزمهم و لا يستطيعون رده، ما أشارت إليه الآية الكريمة فی قوله سبحانه: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ [آل عمران: ۴۴].

أنباء الغيب هی ما تقدم قبل هذه الآية من ذكر قصة زكريا، و يحيی، و مريم، و أمها

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۰۰

امرأة عمران، و كل هؤلاء من بنی إسرائيل، و لا يمكن أن يعلمه الرسول صلی اللّه عليه و سلم إلا بوحی إلهی، و هذا و لا شك دليل علی بنی إسرائيل، و إلزام لهم بالحجة التی لا يستطيعون ردها، و بيان ذلك أن إخباره صلی اللّه عليه و سلم بهذه الأنباء، و هی معلومة عندهم و حاصلة لديهم علی الوجه المطابق للواقع من دلائل صدقه فی دعوی النبوة، بناء علی أن الإخبار بالشیء علی الوجه المطابق للواقع يتوقف علی العلم به، و طريق العلم منحصر فی:

۱- المشاهدة.

۲- الاستماع من أهل العلم و قراءة أسفارهم.

۳- الوحی.

و أن ما عدا الوحی من طريق العلم منتف عنه صلی اللّه عليه و سلم، فتعين أنه، عليه السلام، إنما أخبر بتلك الأنباء بالوحی، و أنه نبی حقا، ثم إنه تعالی لم ينف من طريق العلم فی الآية الكريمة، إلا أنه صلی اللّه عليه و سلم لم يشاهد هذه الوقائع كما يصرح به قوله: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ ...

[آل عمران: ۴۴] إلخ، و فی ظاهر الحال أنه لا حاجة إلی نفی المشاهدة لكون انتفائها معلوما قطعا؛ لأن مشاهدة الإنسان ما سبق علی وجوده سبقا زمانيا مستحيلة، و استحالتها معلومة لكل أحد، بخلاف الاستماع من أهل العلم و أصحاب التواريخ، فإنه و إن كان منفيا

فی نفس الأمر أیضا کانتفاء المشاهدة، إلا أنه متوهم و لیس استحالته کاستحالة المشاهدة، فالتصریح بنفی ما لا حاجة إلی نفیه، و ترک التعرض بنفی ما ینبغی التعرض بنفیه خلاف مقتضی الظاهر، فما الوجه؟

قال العلماء فی تحقیق ذلک: إن الآیة صرحت بنفی المشاهدة مع عدم الحاجة إلیه، و ترکت التعرض بنفی السماع، مع أن العقل یجوزه فی الجملة لنکتة، و هی التهکم بالیهود المنکرین لنبوته صلی اللّه علیه و سلم؛ و لأن یوحی إلیه. و طریق التهکم أن العلم منحصر فی الثلاثة المذکورة لا محالة، و أنهم ینکرون الوحی إلیه، و یعترفون أیضا بأنه صلی اللّه علیه و سلم لیس من أهل السماع، و قراءة کتب التواریخ للقطع بأنه، علیه السلام، لم یخالط أهل الکتاب، و لم یصاحب منهم أحدا، فلم یبق من طریق العلم فی حقه صلی اللّه علیه و سلم إلا مشاهدة ما أخبر به من الوقائع، و ذلک أنهم کما ینکرون الوحی إلیه صلی اللّه علیه و سلم مع اعترافهم له بأنه لم یصاحب أحدا من أهل الکتاب، فإذا نفت الآیة المشاهدة، و انتفاؤها معلوم قطعا و یقینا عند کل أحد، کان المقصود التهکم بمنکر الوحی، کأنه قیل لهم: أیها المنکرون، أن یوحی إلیه صلی اللّه علیه و سلم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۰۱

و المتهمون له فی دعوی نبوته لیس لکم سبب فی اتهامکم سوی أنکم تجوزون أن یکون إخباره صلی اللّه علیه و سلم بذلک مبنیا علی مشاهدته و معاینته ذلک، و أنه غایة فی السفاهة، و نهایة الجنون و الجهالة، و من أضل ممن عدل عن الاحتمال الثابت بالمعجزات القاطعة و البراهین القطعیة، و هو أنه صلی اللّه علیه و سلم یوحی إلیه إلی احتمال لا یذهب إلیه و هم أحد، و هو أنه صلی اللّه علیه و سلم أخبر عن هذه الحقائق بالمشاهدة.

محاجة القرآن للنصاری فی عبادة عیسی:

قال اللّه تعالی: إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [آل عمران: ۵۹] الآیة.

سبب النزول:

روی أن وفد نصاری نجران جادلوا رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، و قالوا: ما لک تشتم صاحبنا، قال: «و ما أقول؟»، قالوا: تقول: إنه عبد اللّه و رسوله، قال: «أجل، إنه عبد اللّه و رسوله، و کلمته ألقاها إلی مریم العذراء البتول»، فغضبوا و قالوا: هل رأیت إنسانا قط من غیر أب، فإن کنت صادقا فأرنا مثله، فنزل قوله تعالی: إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [آل عمران: ۵۹].

کأنهم قالوا: یا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر، وجب أن یکون أبوه هو اللّه تعالی، فقال: إن آدم ما کان له أب و لا أم، و لم یلزم من ذلک أن یکون أبوه هو اللّه تعالی، و أن یکون هو ابنا له تعالی، فکذا القول فی عیسی، علیه الصلاة و السلام.

و لعله من الواضح بعد بیان هذه المشابهة الواقعة بین عیسی و آدم، علیهم السلام، أن تبطل شبهتهم فی قولهم فی عیسی: إنه ابن اللّه تعالی، و علیهم بمقتضی هذا أن ینزلوا عن اعتقادهم فی بنوة عیسی، و أنه ابن اللّه تعالی، و لم یستطیعوا أن یفروا من هذا أبدا، اللهم إلا ما کان من عنادهم و استکبارهم.

آیة المباهلة:

ثم قال تعالی زیادة فی الإلزام و تأکیدا لإظهار الحجة علیهم: فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ [آل عمران: ۶۱]، المراد بالعلم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۰۲

البینات الموجبة له من الدلائل و البراهین، مثل قوله تعالی قبل ذلک: وَ یُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلًا [آل عمران: ۴۶]، و ما أشبه ذلک مما یدل علی أنه وجد بعد أن کان معدوما، و استقر فی مضیق الرحم، ثم ترعرع و صار شابا یأکل، و یشرب، و یحدث، و ینام، و یستیقظ.

و إنما فسر العلم بالبينات و البراهين؛ لأن العلم الذى حصل فى قلبه، عليه الصلاة و السلام، لا يوجب إفحامهم، و انقطاع جدالهم و شبهاتهم، و لا إقدامهم على المباهلة و الملاعنة، بل الذى يوجب ذلك هو إيراد الدلائل عليهم، بحيث يلجئهم إلى الاعتراف بالحق و قبوله، أو إلى إصرارهم على إنكاره و تكذيبه، عنادا و استكبارا، مع أن نفس العلم لا يتصف بالمجيء و الانتقال من موضعه، بخلاف الدليل، فإنه يوصف بالورود و القيام.

و المراد بالمباهلة الملاعنة، بأن يقال: بهلة اللّه، أى لعنته على الكاذبين منا و منكم بأمر عيسى، عليه السلام. و البهلة، بضم الباء و فتحها، و أصله الترك، من قولهم: بهلت الناقة إذا تركت بلا صرار «۱»، و معنى قوله: تَعالَوْا أى بالرأى و العزم، لا بالأجساد و الأشخاص؛ لأنهم حاضرون عنده، عليه الصلاة و السلام، بأجسادهم حيث إنهم يجادلونه صلى اللّه عليه و سلم فى شأن عيسى، عليه السلام.

قوله: نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ ... الآية، أى ليدع كل منا و منكم نفسه و أعزة أهله، و إنما قدمهم على النفس؛ لأن الرجل يخاطر بنفسه لأجلهم، و يحارب دونهم، فلما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم هذه الآية على وفد نجران، و دعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع و ننظر فى أمرنا، ثم نأتيك غدا.

فخلا بعضهم ببعض، و قالوا للعاقب، و كان ذا رأيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟

فقال: و اللّه لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل، و لقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، و اللّه ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم، و لا نبت صغيرهم، و لئن فعلتم لنهلكن، فإن أبيتم إلا الإقامة على دينكم و على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا هذا الرجل و انصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و قد غدا محتضنا للحسين، آخذا بيد الحسن، و فاطمة تمشى خلفه، و على بن أبى الخطاب خلفها،

---

(۱) فى المختار: صر الناقة: شد عليها الصرار، بالكسر، و هو خيط يشد لئلا يرضعها ولدها.

رضى اللّه تعالى عنهم، و هو صلى اللّه عليه و سلم يقول لهم: «إذا أنا دعوت فأمنوا».

فقال أسقف نجران، و هو اسم سريانى لرئيس النصارى و عالمهم، و هو غير العاقب:

يا معشر النصارى، إنى لأرى وجوها لو سألوا اللّه تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة.

فقالوا: يا أيا القاسم، رأينا أن لا نباهلك، و أن نقرك على دينك، و نثبت على ديننا، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، و عليكم ما عليهم»، فأبوا، فقال: «إنى أنابذكم»، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، و لكن نصالحك على أن لا تغزونا و لا تردنا عن ديننا، على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة، ألف فى صفر، و ألف فى رجب، نؤديها للمسلمين، و عارية ثلاثين درعا، و ثلاثين فرسا، و ثلاثين بعيرا، و ثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، و المسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها، فصالحهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على ذلك، و قال: «و الذى نفسى بيده، إن العذاب تدلى على أهل نجران، و لو لاعنوا لمسخوا قردة و خنازير، و لأضرم عليهم الوادى نارا، و لاستأصل اللّه تعالى نجران و أهله، حتى الطير على رءوس الشجر، و لما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلهم».

و جاء فى بعض الروايات عن عائشة، رضى اللّه عنها: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم خرج و عليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علىّ، رضى اللّه عنهم، ثم قال: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ [الأحزاب: ۳۳]، و فى ذلك دليل على نبوته صلى اللّه عليه و سلم، و على فضل أهل الكساء، رضى اللّه تعالى عنهم، و عن بقية

الصحابة أجمعين.

نعم انقطعوا عن المباهلة و خافوها، و لم يجرءوا بعد مشاورة أهل الرأى فيهم على الدخول فى ساحتها، و ذلك أعظم دليل ملزم و قاطع لشبههم، و إلا فما كان أسهل عليهم و أيسر لهم أن يلاعنوا و يقولوا فى تضرع: لعنة اللّه على الكاذبين منا و منكم بأمر عيسى.

قال بعض العلماء: فإن قيل: الأولاد إذا كانوا صغارا لم يجز نزول العذاب بهم، و قد ورد فى الخبر أنه صلى اللّه عليه و سلم أدخل فى المباهلة الحسن و الحسين، رضى اللّه عنهما، فما الفائدة؟

و الجواب: أن عادة اللّه تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلك معهم

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۰۴

الأولاد و النساء، فيكون ذلك فى حق البالغين عقابا، و فى حق الصبيان و النساء لا يكون عقابا، بل يكون جاريا مجرى إهانتهم، و إيصال الإيلام إليهم، و معلوم أن شفقة الإنسان على أولاده شديدة جدا، و ربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم، و إذا كان كذلك فهو، عليه الصلاة و السلام، أخذ صبيانه و نساءه معه، و أمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك، ليكون أدعى للخصم إلى قبول الحق، و أبلغ فى الزجر عن المخالفة، و أقوى فى تخويفهم، و أدل على وثوقه، عليه الصلاة و السلام، بأن الحق معه. انتهى.

عيسى عبد اللّه و رسوله:

ثم يأتى بعد ذلك قوله سبحانه: إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران: ۶۲].

و نرى فى صدر هذه الآية الكريمة، أن ما قصه اللّه تعالى فى شأن عيسى، و أنه عبد اللّه و رسوله، هو الإخبار الصحيح، و القول الحق، دون ما ادعته النصارى، من أنه ابن اللّه تعالى و اللّه سبحانه أبوه، و نرى فى قوله تعالى: وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ نفى الإلهية فى عموم و استغراق عن غير اللّه تعالى و إثباتها له وحده، جل جلاله، و عظم شأنه. ثم يأتى ختام الآية: وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لنرى فيه ردا قويا على إلهية عيسى، و إلزاما لا مفر منه بأنه عبد اللّه و رسوله، و بيانه كالآتى:

إن تعريف كل من المسند و المسند إليه و توسيط ضمير الفصل بينهما، يفيد الحصر و التخصيص، و يدل على انتفاء القدرة التامة، و الحكمة البالغة عن عيسى، عليه السلام، فالنصارى لما اعتمدوا فى زعمهم إلهية عيسى، عليه السلام، على قدرته على إحياء الموتى، و إبراء الأكمه و الأبرص، و على إخباره بالمغيبات من أحوالهم، أجاب اللّه تعالى عن هذه الشبهات بأن هذا القدر من القدرة لا يكفى فى الإلهية، بل لا بدّ أن يكون القادر عزيزا غالبا لا يقهر، و أنتم قد اعترفتم بأن عيسى، عليه السلام، ما كان كذلك، بل قلتم إن اليهود قتلوه، و أيضا فإن ما فيه من علمه بالمغيبات و إخباره عنه لا يكفى أيضا فى إلهيته، بل لا بدّ أن يكون العالم حكيما، أى عالما بجميع المعلومات، و بجميع عواقب الأمور، فقوله تعالى: وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ باعتبار دلالته على أن عيسى، عليه السلام، بمعزل عن القدرة التامة، و الحكمة البالغة، فهو جواب عن شبهة النصارى و استدلالهم بقدرته على إبراء الأكمه و الأبرص، و إحياء الموتى، و بعلمه

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۰۵

المغيبات و إخباره عنها على إلهيته.

و فى هذا بيان لواقع محسوس، و مشاهد ملموس، و هو أن قدرة عيسى، عليه السلام، ليست تامة، و علمه ليس شاملا، و ليس فى وسعهم إنكار هذا أبدا، إلا فى إصرار على الباطل و عناد مع الحق، نعم عاندوا و أصروا على ما هم عليه من الزعم الفاسد و الاعتقاد الباطل فى حق عيسى، عليه السلام، و أعرضوا عن الحجج و البينات المؤدية إلى الاعتقاد الحق، و التدين بالدين القويم، فأوعدهم اللّه بقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ [آل عمران: ۶۳]، أى فإن أعرضوا عن التمسك بالحجج و الاعتقاد بوحدانية الإله، فاعلم أن توليهم و إعراضهم ليس إلا على سبيل العناد، فاقطع كلامك عنهم، و فوّض أمرك إلى اللّه تعالى، فإنه تعالى مطلع على ما فى قلوبهم من التمرد و العناد، قادر على مجازاتهم، ثم إن قوله: فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ فيه وضع للظاهر موضع المضمر ليدل على أن التولى عن

الحجج و الإعراض عن التوحيد، إفساد للدين و الاعتقاد، المؤدى إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

إلى كلمة سواء:

ثم إن القوم لما أعرضوا على المباهلة خوفا من أن يهلكهم اللّه تعالى بطريق الاستئصال، و أظهروا بعض الانقياد و الصغار، حيث التزموا بأداء الجزية كما تقدم ذلك، أعرض اللّه تعالى عن المجادلة معهم بتجهيلهم و بيان سخافة عقولهم، و سلك سبيل الرشاد باللطف و الإنصاف، بحيث لا يميل فيه إلى جانب، و لا يشوبه شىء من التعصب و التحكم، فقال تعالى: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: ۶۴]، أى هلموا إلى كلمة ذات استواء و عدل، و سواء مصدر، كذهاب و صلاح و فساد، و معناه الاستواء و الاعتدال، و صفت الكلمة به مبالغة فى استوائها، و عدم الاختلاف فيها بين الكتب المنزلة من السماء و بين الأنبياء المرسلين، فهو من قبيل رجل عدل.

و المعنى: تعالوا إلى كلمة عادلة مستقيمة مستوية بين أهل الشرائع الإلهية، إذا أتينا بها نحن و أنتم كنا على السواء و الاستقامة، سمى الكلام التام المفيد للمقصود كَلِمَةٍ على طريق تسمية الكل باسم جزئه، و من تسميتهم القصيدة بتمامها قافية، مع أن

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۰۶

القافية جزء منها، و فى الحديث: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

ألا كل شىء ما خلا اللّه باطلو كل نعيم لا محالة زائل ثم إنه تعالى فسر الكلمة بقوله سبحانه و تعالى: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، و وجه كونه تفسيرا لها أن قوله: أَلَّا نَعْبُدَ إما بدل من كَلِمَةٍ بدل كل من كل، أو أنه خبر مبتدأ محذوف، أى هى ألا نعبد، و الجملة استئنافية، فإنه لما قيل: تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ قال قائل: ما هى؟ فقيل: هى أَلَّا نَعْبُدَ، فعلى التقديرين صح كونها مفسرا لما قبلها.

و أما قوله سبحانه: وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، يعنى: و لا نقول عزير ابن اللّه، و لا المسيح ابن اللّه، و لا نطيع الأحبار فيما أحدثوه من التحليل و التحريم؛ لأن كلا منهم بشر مثلنا.

روى أنه لما نزلت: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ [التوبة:

۳۱]، قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول اللّه، قال: «أ ليس كانوا يحلّون لكم و يحرّمون فتأخذون بقولهم؟»، قال: نعم، قال: «هو ذاك».

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، يعنى: فإن تولوا عن كلمة التوحيد المجمع عليها بين الشرائع و الكتب السماوية، فقولوا لهم: قد لزمتكم الحجة و أصبحتم مغلوبين بها، إلا أنه دل على هذا الجواب بلازمه، و هو قوله: فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، أى قولوا اشهدوا و اعترفوا بأن من أتى بالكلمة السواء و عمل بمدلولها فهو المسلم، دون من خالفها و تولى عن العمل بمدلولها.

و يصح أن يكون قوله: فَقُولُوا اشْهَدُوا هو الجواب، و يكون فيه تعريض بكفرهم، أى اعترفوا يا أهل الكتاب بأنكم كافرون من حيث إنكم أعرضتم عن الحق المتفق عليه بين العقلاء. قال العلماء: و المعنى: فإن تولوا و أعرضوا عن الإجابة لما دعوتهم إليه، فليس إعراضهم ذلك لأجل مساعدة الحجة إياهم، فقل لهم: قد أسفر الصبح و تبين لذى عينين، فاعترفوا بأنا مسلمون منقادون للحق دونكم، و نظيره قول الغالب فى جهاد، أو صراع، أو نحوهما: اعترف بأنى أنا الغالب، و سلم إلى الغلبة. أ. ه.

قال الخطيب الشربينى فى تفسيره: قال البيضاوى: تنبيه: انظر إلى ما راعى اللّه سبحانه فى هذه القصة من المبالغة، و الإرشاد، و حسن التدريج فى الحجاج، فبين أولا أحوال عيسى و ما تعاور عليه من الأطوار المنافية للإلهية، ثم ذكر ما يحل عقدتهم و يزيل

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۰۷

شبهتهم، فلما رأى عنادهم و لجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها و انقادوا بعض الانقياد، دعاهم بالإرشاد، و سلك طريقا أسهل و ألزم، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى، و الإنجيل، و سائر الأنبياء و الكتب، ثم لما لم يجد ذلك

أيضا عليهم، و علم أن الآيات و النذر لا تغنى عنهم، أعرض عن ذلك، و قال:

اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. انتهى.

بيان ما احتواه التنبيه:

قوله: بين أولا أحوال عيسى ... إلخ، هو قوله سبحانه: وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: ۴۶] و نحوه على ما ذكرناه سابقا.

و قوله: ثم ذكر ما يحل عقدتهم، هو قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ [آل عمران: ۵۹].

و قوله: بنوع من الإعجاز، و هو تقديم ذكر من يخاطر المرء بنفسه لأجلهم و يحارب دونهم.

طوائف النصارى:

قال اللّه تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [المائدة: ۷۲، ۷۳].

تبين الآية الأولى من هاتين الآيتين رأى طائفة من النصارى فى شأن عيسى، و هم اليعقوبية، القائلون باتحاد الإله مع عيسى، تعالى اللّه عما يقولون علوا كبيرا.

و تبين الآية الثانية رأى طائفتين منهم، و هما النسطورية و الملكانية، و يبين اللّه تعالى فى كلتا الآيتين، الرد على هذه المزاعم الفاسدة، من تلكم الطوائف الكافرة، ففى الآية الأولى حكم اللّه تعالى عن عيسى، عليه السلام، أنه متبرئ من هذه الاعتقادات، آمرا لهم بعبادة اللّه تعالى رب الجميع و خالق الكل، اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ [المائدة: ۷۲]، ثم

توعدهم و هددهم، حيث قال: وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [المائدة: ۷۳]، و هذا الرد فى هاتين الآيتين هو عين الحقيقة، و نفس الصواب، لو كان لهم عقول تفكر، و قلوب تسمع و تتدبر.

حقيقة المسيح و أمه:

و لكن اللّه تعالى، و هو الرحيم بخلقه، الرءوف بعباده، يزيد الأمر إيضاحا، و تأكيدا، و كشفا، و تبيانا، فيلزمهم برد واقعى محسوس لا يقدرون على الفكاك منه، و لا يستطيعون أن يخرجوا من دائرته إلى دائرة الوهم و الباطل، و هذا هو ما جاء بعد ذلك من الآيتين الكريمتين و هما: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [المائدة: ۷۵، ۷۶].

قوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أى ليس هو بإله كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة، و ما من خارق إلا و قد كان مثله أو أعجب منه لمن كان قبله، فإن كان اللّه قد أحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا، و جعلها حية تسعى على يد موسى، و هو أعجب، و إن كان قد خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب و أم، و هو أغرب.

وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ، أى بليغة الصدق فى نفسها كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق فى الأقوال و الأفعال فى المعاملة مع الخلق، و صدق الأفعال و الأقوال فى المعاملة مع الخالق لا يصدر منهن ما يكذب دعوى العبودية و الطاعة، فإن من كان مجتهدا فى إقامة وظائف العبودية و ملازمة الإنابة و الطاعة يسمى صديقا أو صديقة، تصدق الأنبياء، كما قال تعالى فى وصفها: وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها

[التحریم: ۱۲].

قال بعض العلماء: و هذه الآیة من أدلة من قال: إن مریم، علیها السلام، لم تکن نبیة، فإنه تعالی ذکر أشرف صفاتها فی معرض الرد علی من قال بإلهیتهما إشارة إلی ما هو الحق فی اعتقاد ما لها من أعلی الصفات، فإن أعظم صفات عیسی، علیه السلام، الرسالة، و أکمل صفات أمه، علیها السلام، الصدیقیة.

و لما بین سبحانه أقصی ما لهما من الکمالات، بین أن ذلک لا یوجب لهما الإلهیة

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۰۹

بقوله تعالی: کانا یَأْکُلانِ الطَّعامَ؛ لأن من احتاج إلی الاغتذاء بالطعام و ما یتبعه من الهضم، لم یکن إلا جسما مرکبا من عظم، و لحم، و عروق، و أعصاب، و أخلاط، و غیر ذلک، مما یدل علی أنه مصنوع و مؤلف مدبر کغیره من الأجساد، فکیف یکون إلها، و خص الأکل بالذکر لأنه أصل الحاجات، و الإله لا یکون محتاجا، و قیل: هذا کنایة عن الحدث؛ لأن من أکل و شرب لا بدّ له من البول و الغائط، و من کانت هذه صفته، کیف یکون إلها؟ ثم لما أوضح اللّه تعالی لهم الأدلة فی أمرهما حتی ظهر کالشمس بعدهما عما ادعوا فیهما أتبعه التعجب بقوله سبحانه: انْظُرْ کَیْفَ نُبَیِّنُ لَهُمُ الْآیاتِ علی وحدانیتنا.

ثُمَّ انْظُرْ أَنَّی یُؤْفَکُونَ، أی یصرفون عن الحق مع قیام البرهان، و کان العطف ب ثُمَ للتفاوت بین العجب من بیان اللّه للآیات علی التوحید، و بین العجب من إعراضهم عن هذا البیان، و أن إعراضهم أعجب.

قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أی غیره، یعنی عیسی، ما لا یَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً، أی لا یستطیع أن یضرکم بمثل ما یضر اللّه تعالی به من البلایا، و المصائب فی الأنفس، و الأموال، و لا أن ینفعکم بمثل ما ینفعکم اللّه تعالی به من صحة الأبدان، و السعة، و الخصب، و کل ما یستطیعه البشر من المضار و المنافع، فبإقدار اللّه تعالی و تمکینه.

و هذا دلیل قاطع علی أن أمر عیسی مناف للربوبیة، حیث جعله لا یستطیع ضرا و لا نفعا، و صفة الرب تعالی أن یکون قادرا علی کل شیء، لا- یخرج مقدور عن قدرته تعالی، و إنما قال: ما فی حق من یعقل مع أن أصله یطلق علی غیر العاقل، نظرا إلی ما هو علیه فی ذاته فإنه، علیه السلام، فی أول أحواله لا یوصف بعقل و لا بشیء من الفضائل، و إنما ظهر علی یدیه من بعض المنافع، و إزالة بعض المضار بإقدار اللّه تعالی علی ذلک و تمکینه إیاه، فکیف یکون إلها؟ و کان التعبیر ب ما تنبیها علی أنه من جنس ما لا یعقل، بمعنی أنه فی ذاته لا یملک ضرا و لا نفعا إلا بتملیک اللّه له و إقداره کما بینا.

و هذا القدر مشترک بینه و بین غیره و أنه، علیه السلام، واحد من آحاد تلک الحقیقة، و من کانت له حقیقة تقبل المجانسة و المشارکة، فبمعزل عن الإلهیة، و بیان ذلک و توضیحه

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۰

أن من کان له حقیقة یشارک بها غیره، لا بدّ أن یکون له ما یتمیز به عن غیره، فیترکب مما به الاشتراک، و ما به الامتیاز، و الترکیب ینافی الإلهیة، فعیسی، علیه السلام، باعتبار ذاته لا یملک شیئا نفعا و لا ضرا، و هو بهذا الاعتبار یشترک مع آحاد کل من لا یملک لنفسه ضرا و لا نفعا، فإذا ما انضم إلیه خصیصة تمیزه عن بقیة آحاد هذه الحقیقة، بأن قدر بأقدار اللّه تعالی علی جلب نفع، أو دفع ضر، کان مرکبا، و الترکیب ینافی الإلهیة کما قدمنا آنفا.

غلو الیهود و النصاری:

ثم یقول اللّه تعالی بعد ذلک خطابا لأهل الکتاب عامة من یهود و نصاری، کما هو رأی الأکثر: قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِیلِ [المائدة: ۷۷]، الغلو نقیض التقصیر.

و قوله تعالی: غَیْرَ الْحَقِ یفید أن الغلو فی الدین نوعان: غلو حق، و هو أن یجتهد فی تحصیل حججه، کما یفعل المتکلمون، و غلو باطل، و هو أن یتجاوز الحق و یتخطاه بالإعراض عن الأدلة، فیرفعوا عیسی، علیه السلام، إلی أن یدّعوا له الإلهیة.

وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ فی غلوهم، و هم أسلافهم الذین قد ضلوا بتمادیهم فی الباطل من التثلیث و غیره، حتی ظن حقا ضَلُّوا أی بعد مبعث رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، عَنْ سَواءِ السَّبِیلِ، أی طریق الحق، و هو الإسلام، و السواء فی الأصل هو الوسط، و الأهواء هاهنا المذاهب التی تدعوا إلیها الشهوة دون الحجة.

قال أبو عبید: لم یذکر الهوی إلا فی موضع الشر، لا یقال: فلان یهوی الخیر، إنما یقال: یرید الخیر و یحبه، و قیل: سمی الهوی هوی؛ لأنه یهوی بصاحبه إلی النار، و قال رجل لابن عباس: الحمد للّه الذی جعل هوای علی هواک، فقال: کل هوی ضلالة.

و بعد فما أصدق هذه الحقائق القرآنیة، و ما أعظم هذه الآیات التنزیلیة، و ما أشد إلزامها للیهود و النصاری فی انحرافهم عن التوحید و بعدهم عما جاء به القرآن الکریم من العقیدة الحقة، و الأعمال التشریعیة الصالحة، و ما أصدق قول اللّه تعالی: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ [التوبة: ۳۳].

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۱

محاجة القرآن للیهود و النصاری معا:

هذا و إذا کانت الآیات السابقة قد ألزمت الحجة کلا من الیهود و النصاری علی حدة و انفراد، فهناک آیات جمعتهما فی خطاب واحد، و ألزمتهما الحجة و البرهان، نسوق منها ما یلی:

أولا- قال تعالی: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمَّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتابِ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ قَدْ جاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ کِتابٌ مُبِینٌ [المائدة: ۱۵].

حکی اللّه تعالی قبل ذلک عن الیهود و النصاری نقضهم العهد، و ترکهم ما أمروا به، ثم دعاهم بعد ذلک إلی الإیمان بمحمد صلی اللّه علیه و سلم، فقال: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ ... الآیة، فهی دعوة صریحة خاصة لهم، و خطاب قوی موجه إلیهم، و إیرادهم بعنوان أَهْلَ الْکِتابِ لانطواء الکلام المصدر به علی ما یتعلق بالکتاب، و للمبالغة فی التشنیع علیهم، فإن أهلیة الکتاب من موجبات مراعاته، و العمل بمقتضاه، و بیان ما فیه من الأحکام، و قد فعلوا من الکتم و التحریف ما فعلوا و هم یعلمون، فقد أخفت الیهود آیة الرجم، کما أخفت النصاری بشارة الإنجیل بمحمد صلی اللّه علیه و سلم.

و فی إعلامه صلی اللّه علیه و سلم یخفی ما فی کتبهم، و هو أمی لا یکتب و لا یصحب القرّاء، دلیل علی صحة نبوته، لو ألهمهم اللّه الخیر، و قوله: وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ، یعنی مما یکتمونه، فلا- یتعرض له و لا- یؤاخذهم به؛ لأنه لا حاجة إلی إظهاره، و الفائدة فی ذلک أنهم یعلمون کون النبی صلی اللّه علیه و سلم عالما بما یخفون، و هو معجزة له أیضا، فیکون ذلک داعیا إلی الإیمان به.

و فی قوله تعالی: قَدْ جاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ کِتابٌ مُبِینٌ یعنی القرآن، فإنه الکاشف لظلمات الشک و الضلال، و الکتاب الواضح الإعجاز، فالنور و الکتاب المبین متحدان بالذات، و عطف أحدهما علی الآخر من قبیل عطف الصفة علی الصفة، مع اتحاد الموصوف بهما، و هو القرآن. و قیل: یرید بالنور محمدا صلی اللّه علیه و سلم، و علی ذلک فالعطف من قبیل عطف الذات علی الذات، و أیا ما کان، فالمراد بهذه الجملة المستأنفة أن فائدة مجیء الرسول لیست منحصرة فیما ذکر من بیان ما کانوا یخفونه، بل إنه جاء لهم نورا یهتدون به فی معرفة الحق، و یسترشدون به إلی الغایة المنشودة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۲

ثانیا: قال تعالی: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِیرٍ وَ لا نَذِیرٍ فَقَدْ جاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ [المائدة: ۱۹].

نص هو فی غایة البیان أنه صلی اللّه علیه و سلم أرسل للیهود و النصاری، و لیس معنی إرساله إلیهم إلا- أن یؤمنوا بما جاء به من

توحيد خالص، و يعبدوا اللّه على شريعته التى رسمها و بينها من صلاة و صيام، و ما إلى ذلك، و ما أروع قوله فى الآية الكريمة: أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ، فهو يدل على أنهم فيما هم عليه من شريعة حرّفوها، و دين أضاعوه فى أمس الحاجة إلى بيان شاف، و إيضاح للحق كامل، فمعنى الآية هو الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطماس آثار الوحى، و هم أحوج إليه لإزالة العذر، و إلزام الحجة، فعليهم أن يعوا ذلك نعمة من اللّه عليهم، و رحمة منه بهم.

ثالثا: قال تعالى: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ [المائدة: ۶۸].

بعد أن أمرهم اللّه تعالى فى الآيتين السابقتين باتباع محمد صلى اللّه عليه و سلم، و بين لهم أنه صلى اللّه عليه و سلم إنما جاء لهم ليصحح العقيدة، و يرشدهم إلى السبيل السوى، قال لهم فى هذه الآية الكريمة:

أن ما هم عليه من دين باطل لا يعتد به إطلاقا، حتى يكون ذلك حافزا لهم إلى الدخول فى دين محمد صلى اللّه عليه و سلم، فإن المرء يأنف أن يكون على عقيدة باطلة، أو عبادة فاسدة، ما دام سليم الطبع، بعيدا عن التعصب و التمسك بالباطل، فقوله تعالى: لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ أى يعتد به حتى يسمى شيئا لفساده و بطلانه، كما تقول: هذا ليس بشىء، تريد تحقيره و تصغيره، و فى أمثالهم: أقل من لا شىء.

حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، أى بأن تعملوا بما فيها، و منها الإيمان بمحمد صلى اللّه عليه و سلم، و الإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقته المعجزة الناطقة بوجوب الطاعة له، و المراد بقوله: وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ هو القرآن الكريم، و ما أبدع قوله: وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، يعنى فالقرآن أنزل إليهم و لهم، و هم مقصودون به ضمن من قصد، و مطالبون بالعمل بأحكامه ضمن من طلب إليه ذلك من بقية المكلفين.

و أما قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ... إلى آخره، فهو بيان لما هم عليه من كفر

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۱۳

بالقرآن، و حقد على من جاء به، و قد سماهم اللّه تعالى كافرين، حيث لم يؤمنوا به، و قد نهى النبى صلى اللّه عليه و سلم عن أن يحزن على كفرهم، ففى المؤمنين مندوحة عنهم و غناء، أى غناء له صلى اللّه عليه و سلم، يعنى فهم كفار بمقتضى هذه الآية القرآنية و غيرها من النصوص القرآنية الأخرى التى ذكرنا بعضها سابقا، و ما داموا كذلك، فليس لهم فى الآخرة أدنى نصيب من رحمة اللّه تعالى.

رابعا: و يؤكد هذا و يوضحه و يزيده بيانا ما جاء فى قوله جل جلاله: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف: ۱۵۶- ۱۵۸].

قال العلماء: هذا النص من أبين الأدلة على عموم رسالته صلى اللّه عليه و سلم و شمولها لكل الطوائف و جميع الأجناس على تباين مذاهبها و اختلاف نحلها.

و نسوق تفسير هذا النص، و بيان ما فيه من عظيم الفوائد، و جليل المنافع، الأمر الذى هو موضوع بحثنا، و مرتبط به أتم الارتباط، فقوله سبحانه: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ سيق هذا الكلام جوابا لدعاء سيدنا موسى فى قوله قبل ذلك: أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ [الأعراف: ۱۵۵، ۱۵۶].

فجاء قوله تعالى بعد ذلك: قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فقوله: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، أى من

خلقی فی الدنیا، ما من مسلم، و لا- کافر، و لا- مطیع، و لا- عاص، إلا- و هو متقلب فی نعمتی، و هذا معنی حدیث أبی هریرة فی الصحیحین: «إن رحمتی سبقت غضبی»، و فی روایة: «غلبت غضبی»، و أما فی الآخرة، فقال تعالی: فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ و خصها بالذکر لنفعها المتعدی، و لأنها کانت أشق علیهم.

روی أنه لما أنزل: وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ قال إبلیس: أنا من ذلک الشیء، فقال تعالی: فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ، و لا

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۴

یکفرون بشیء منها، فأیس إبلیس منها، و تمناها الیهود و النصاری، و قالوا: نحن نتقی و نؤمن بآیات ربنا، فأخرجهما اللّه تعالی بقوله: الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَ، و معنی الأمی أنه لا یقرأ و لا یکتب، و هی صفة نبینا محمد صلی اللّه علیه و سلم، قال صلی اللّه علیه و سلم: «نحن أمة أمیة لا نکتب، و لا نحسب»، و العرب أکثرهم ما کانوا یکتبون و لا یقرءون، أی الخط، و النبی صلی اللّه علیه و سلم کان کذلک.

قال أهل التحقیق: و کونه أمیا بهذا التفسیر، کان من جملة معجزاته، و بیان ذلک من وجوه:

الأول: أنه صلی اللّه علیه و سلم کان یقرأ علیهم کتاب اللّه تعالی منظوما مرة بعد أخری، من غیر تبدیل ألفاظه، و لا تغییر کلماته، و الخطیب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها، فلا بد و أن یزید فیها، أو ینقص عنها بالقلیل و الکثیر، ثم إنه صلی اللّه علیه و سلم مع أنه ما کان یکتب و لا یقرأ یتلو کتاب اللّه تعالی من غیر زیادة، و لا نقصان، و لا تغییر، فکان ذلک معجزة، و إلیه الإشارة بقوله تعالی: سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسی [الأعلی: ۶].

ثانیا: أنه لو کان یحسن الخط و القراءة، لکان متهما فی أنه ربما طالع کتب الأولین، فحصل علی هذه العلوم من تلک المطالعة، فلما أتی بالقرآن العظیم المشتمل علی العلوم الکثیرة من غیر تعلم أو مطالعة، کان ذلک من المعجزات، و هذا هو المراد من قوله تعالی: وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ [العنکبوت: ۴۸].

ثالثا: تعلم الخط شیء سهل، فإن أقل الناس ذکاء و فطنة یتعلمون الخط بأدنی سعی، فعدم تعلمه یدل علی نقصان عظیم فی الفهم، ثم إنه تعالی آتاه علوم الأولین و الآخرین، و أعطاه من العلوم و الحقائق ما لم یصل إلیه أحد من الخلق، و مع تلک القوة العظیمة فی العقل و الفهم جعله بحیث لم یتعلم الخط الذی یسهل تعلمه علی أقل الخلق عقلا و فهما، فکان الجمع بین هاتین الحالتین المادتین جاریا مجری المعجزات. انتهی.

ثم إن هذا الاتباع الذی وصف به الیهود و النصاری تارة یکون بالقوة فقط لمن تقدم موته علی زمانه صلی اللّه علیه و سلم، و تارة یخرج من القوة إلی الفعل کمن لحق زمانه زمان دعوته، فمن علم اللّه تعالی منه أنه لا- یتبعه إذا أدرکه لا- یغفر له، و لو عمل جمیع الطاعات، و قد عرفه سبحانه لهم بجمیع خواصه حتی لا یتطرق عند مجیئه ریبة، و لا یتعلل أحد فی أمره بعلة،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۵

و لذلک اتبعه الَّذِی یَجِدُونَهُ أی علماء الیهود مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ باسمه و نعته، و لکنهم کتموا ذلک و بدلوه و غیروه حسدا منهم و خوفا علی زوال ریاستهم، و قد حصل لهم ما کانوا یخافونه، فقد زالت ریاستهم و وقعوا فی الذل و الهوان.

و قوله تعالی: یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ یجوز أن یکون استئنافا، و یجوز أن یکون المعنی یجدونه مکتوبا عندهم أنه یأمرهم بالمعروف و ینهاهم عن المنکر ... إلخ، و یحتمل أن یکون متعلقا ب یَجِدُونَهُ فی موضع حال علی تجوز، أی یجدونه فی التوراة آمرا بشرط وجوده.

حقیقة المعروف و المنکر:

المعروف ما عرف بالشرع، و کل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، و المنکر مقابله. قال الرازی: و مجامع المعروف فی

قوله صلى اللّه عليه و سلم: «التعظيم لأمر اللّه و الشفقة على خلق اللّه»، و ذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته، و إما ممكن لذاته.

أما الواجب لذاته: فهو اللّه تعالى، لا معروف أشرف من تعظيمه، و إظهار الخشوع، و الخضوع على باب عزته، و الاعتراف بكونه موصوفا بصفات الكمال، مبرءا عن النقصان و الآفات، منزها عن الأنداد و الأضداد.

و أما الممكن لذاته: فإن لم يكن حيوانا، فلا سبيل إلى ايصال الخير إليه؛ لأن الانتفاع مشروط بالحياة، و مع ذلك فإنه يجب النظر إلى كلها بعين التعظيم من حيث إنها مخلوقة للّه، و من حيث إن كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلا ظاهرا، و برهانا باهرا على توحيده و تنزيهه، فإنه يجب النظر إليه بعين الاحترام، و من حيث إن للّه سبحانه و تعالى فى كل ذرة من ذرات المخلوقات أسرارا عجيبة و حكما خفية، فيجب النظر إليها بعين الاحترام.

و أما إن كان المخلوق من جنس الحيوان، فإنه يجب الشفقة عليه بأقصى ما يقدر الإنسان عليه، و يدخل فيه بر الوالدين، وصلة الأرحام، و بث المعروف، فيثبت أن قوله صلى اللّه عليه و سلم: «التعظيم لأمر اللّه و الشفقة على خلق اللّه»، كلمة جامعة لجميع جهات الأمر بالمعروف. و لا شك أن المنكر هو ضد الأمور المذكورة.

قوله تعالى: وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ أى ما حرّم عليهم فى شرعهم، كالشحوم،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۱۶

و يحرّم عليهم الخبائث، أى كالدم، و لحم الخنزير، و الربا، وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ، أى ثقلهم الذى كان يحمل عليهم، وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ من الدين و الشريعة، و ذلك مثل قتل النفس فى التوبة، و قطع الأعضاء الخاطئة، و قرض النجاسة من البدن، و الثوب بالمقراض، و غير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى إسرائيل، شبهت بالأغلال التى تجمع اليد إلى العنق، كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل، فكذلك لا تمتد على الحرام الذى نهيت عنه، و كانت هذه الأثقال فى شريعة موسى، عليه السلام، فلما جاء محمد صلى اللّه عليه و سلم نسخ ذلك كله، و يدل عليه قوله صلى اللّه عليه و سلم: «بعثت بالحنفية السهلة السمحة».

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أى بمحمد صلى اللّه عليه و سلم، وَ عَزَّرُوهُ أى وقّروه و عظموه، و أصل التعزير المنع و النصرة، و تعزير النبى صلى اللّه عليه و سلم تعظيمه، و إجلاله، و دفع الأعداء عنه، وَ نَصَرُوهُ على أعدائه وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أى القرآن، سمى نورا لأنه به تستنير قلوب المؤمنين، فتخرج من ظلمات الشك و الجهالة إلى ضياء اليقين و العلم.

و لا يقال: إن القرآن ما أنزل مع شخص محمد صلى اللّه عليه و سلم، و إنما نزل مع جبريل. لأنا نقول:

معناه لأنه أنزل مع شخصه صلى اللّه عليه و سلم؛ لأن نبوّته ظهرت مع ظهور القرآن، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات، قال: أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، أى الفائزون بالمطلوب فى الدنيا و الآخرة.

عموم الدعوة الإسلامية:

و قوله سبحانه: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف:

۱۵۸]، هذا أمر اللّه تعالى لنبيه بإشهار دعوته، و هذه من خصائصه صلى اللّه عليه و سلم من بين سائر الرسل، فإنه صلى اللّه عليه و سلم بعث إلى الناس كافة، و إلى الجن عامة، و كل نبى بعث إلى قومه خاصة، لقوله صلى اللّه عليه و سلم: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: أرسلت إلى الأحمر و الأسود، و جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا، و نصرت على عدوى بالرعب منى مسيرة شهر، و أطعمت الغنيمة دون من قبلى، و قيل لى: سل تعطه، و اختبأت شفاعتى لأمتى».

فإن قيل: كان آدم، عليه السلام، مبعوثا إلى جميع أولاده، و نوح لما خرج من السفينة كان مبعوثا إلى الذين كانوا معه، مع أن جميع الناس فى ذلك الزمان ما كانوا إلا ذلك القوم. أجيب بأن ذلك لم يكن لعموم رسالتهما، بل للحصر المذكور، فليس ذلك من باب عموم الرسالة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۷

قوله تعالی: جَمِیعاً حال من إلیکم، أی أن الکل یشترط علیهم الإیمان بی و الاتباع لی، قال بعض الفضلاء: و قد طار الخبر بشریعة محمد صلی اللّه علیه و سلم إلی کل أفق و تغلغل فی کل نفق، و لم یبق اللّه تعالی أهل مدر، و لا وبر، و لا سهل، و لا جبل، و لا بحر، و لا بر، فی مشارق الأرض و مغاربها، إلا و قد ألقاه إلیهم، و ملأ به مسامعهم، و ألزمهم به الحجة، و هو سائلهم عنه یوم القیامة.

فهذه الآیات القرآنیة الصادقة، و تلکم البراهین التنزیلیة الحقة، تلزم الیهود و النصاری بالإیمان بما جاء به محمد صلی اللّه علیه و سلم من التوحید الذی انحرفوا عنه و ضیّعوه، و من التعبد و الخضوع للّه تعالی علی وفق ما رسم القرآن، و بین من أحکام و شریعة تخالف و تغایر ما جاء فی کتبهم علی ما اقتضته الحکمة الإلهیة من نزول الشرائع علی ما یناسب کل أمة مع رسولها.

فما قالوه عن إیمانهم باللّه تعالی، فقد تبین فساده، حیث ثلثوا و أثبتوا له البنوّة جل جلاله، و ما قالوه عن إیمانهم بالیوم الآخر، فهو فاسد کذلک، حیث لم یؤمنوا به علی حقیقة ما أخبر اللّه عنه، بل علی ما فهموه زورا و بهتانا، کما أنهم لیس لهم یقین فیما فهموه، إذ الیقین هو العلم المتقین بالدلیل، و إنما اعتقادهم خیال فاسد، و جهل محض، و لذلک قال عز من قائل فی وصف المتقین فی أول سورة البقرة: وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ [البقرة: ۴]، قال المفسرون: إن قوله: بِالْآخِرَةِ متعلق ب یُوقِنُونَ فلم قدم علیه؟ و إن قوله: هُمْ فاعل فی المعنی ل یُوقِنُونَ فلم جعل مبتدأ و قدم علیه؟

و محصول الجواب أنه عدل إلی کل واحد من المتقدمین لیفید التقدم الأول، و هو تقدیم بالآخرة، أن إیقانهم مقصور علی ما هو حقیقة الآخرة لا یتعداها إلی ما هو خلاف حقیقتها کما یزعم الیهود، کأنه قیل: یوقنون بالآخرة لا بغیرها، و فیه تعریض بأهل الکتاب الذین لم یؤمنوا بالقرآن بأن ما کانوا علیه لیس من الإیمان بحقیقة الآخرة لعدم خلوص علمهم بالآخرة عن الشبهة الباطلة، فإن اعتقادهم فی أمر الآخرة غیر مطابق لحقیقة الآخرة.

و لیفید تقدیم الفاعل المعنوی أن الإیقان بالآخرة مقصور علی المؤمنین، لا یتجاوزهم إلی أهل الکتاب الذین لم یؤمنوا بالقرآن، و فیه تعریض لهم بأن اعتقادهم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۱۸

الذی یزعمون أنه إیقان لیس إیقانا أصلا، بل هو جهل محض، کما أن معتقدهم خیال باطل، و إنما الإیقان ما علیه المؤمنون، کما أن الآخرة هی التی یعتقدونها، فإن أهل الکتاب یقولون: لن یدخل الجنة إلا من کان هودا أو نصاری، و أن الیهود قالوا:

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَیَّاماً مَعْدُودَةً [البقرة: ۸۰]، إلی آخر مفترایاتهم الباطلة، و اللّه یقول الحق، و هو یهدی السبیل.

الرد علی المحامی أحمد حسین:

لقد رأینا کتابا بعنوان: فی الإیمان و الإسلام «۱»، وضعه أحد المحامین فی هذا العصر، و هو الأستاذ أحمد حسین، و فیه ما لا یتفق مع النصوص القرآنیة السابقة، لذلک رأینا من الواجب علینا إزاء الدعوة الإسلامیة أن نبین ما فیه، إخلاصا للحقیقة، و وضعا للحق فی نصابه، فنقول مستعینین باللّه وحده، و متوکلین دائما علیه:

قال الکاتب فی صفحة (۱۷۴، ۱۷۵) من هذا الکتاب تحت عنوان: الإسلام یؤاخی بین الأدیان و یوفق بینها، بعد کلام ما نصه: فجاء الإسلام علی خلاف جمیع العقائد التی سبقته یؤاخی بین الأدیان کلها.

الإسلام و الأدیان:

نقول: إن الإسلام کما هو معلوم و ثابت یوافق الأدیان السابقة کلها، و یتآخی معها و یرتبط بها أشد الارتباط فی أمر التوحید بنص قوله تعالی: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبیاء: ۲۵]، و یتآخی معها کذلک فی أصول العبادات دون هیئاتها و أشکالها، قال تعالی حکایة عن بنی إسرائیل: وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً، إلی أن قال:

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ [البقرة: ۸۳].

و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [البقرة: ۱۸۳]، أما هيئات العبادة و أشكالها، فمختلف فيها قطعا، حيث إن لكل أمة مع رسولها تشريعا خاصا فى هذه العبادات اقتضته الحكمة الإلهية، كما أوضحناه سابقا فى أول البحث، و دليل هذا الاختلاف فى التشريع قوله جل جلاله:

لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً [المائدة: ۴۸].

قال العلامة أبو السعود عند هذه الآية ما نصه: و المعنى: لكل أمة كائنة منكم أيها

---

(۱) طبعة دار القلم، الطبعة الثانية.

الأمم الباقية و الخالية جَعَلْنا أى عينا و وضعنا شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً خاصين بتلك الأمة، لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى عيسى، عليهما السلام، شرعتهم التوراة، و التى كانت من مبعث عيسى إلى النبى صلى اللّه عليه و سلم شرعتهم الإنجيل، و أما أنتم أيها الموجودون من سائر المخلوقات، فشرعتكم القرآن ليس إلا، فآمنوا به و آمنوا بما فيه.

و قال العلامة الجمل فى حواشيه على الجلالين: قال ابن عباس: قوله: شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً سنة و سبيلا. و قال قتادة: سبيلا و سنة، فالسنن مختلفة، فللتوراة شريعة، و للإنجيل شريعة، و للقرآن شريعة يحل اللّه بها عز و جل فيها ما يشاء، و يحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، و الدين الذى لا يقبل التغير هو التوحيد و الإخلاص للّه تعالى و الإيمان بما جاءت به جميع الرسل، عليهم السلام. و قال علىّ بن أبى طالب:

الإيمان منذ بعث آدم، عليه السلام، شهادة أن لا إله إلا اللّه، و الإقرار بما جاء من عند اللّه تعالى، و لكل قوم شرعة و منهاج.

قال العلماء: وردت آيات دالة على عدم التباين بين طرق الأنبياء، منها قوله تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً إلى قوله: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى: ۱۳]، و منها قوله سبحانه: أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ [الأنعام: ۹۰].

وردت آيات دالة على حصول التباين بينها، منها هذه الآية، و هى قوله تعالى:

لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً، و طريق الجمع بين هذه الآيات أن كل آية دلت على عدم التباين، فهى محمولة على أصول الدين من الإيمان باللّه، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر، فكل ذلك جاءت به الرسل من عند اللّه تعالى، فلم يختلفوا فيه.

و أما الآيات الدالة على حصول التباين بينها، فمحمول على الفروع و ما يتعلق بمظاهر العبادات، فجائز أن يتعبد اللّه عباده فى كل وقت بما شاء، فهذا هو طريق الجمع بين الآيات، و اللّه أعلم بأسرار كتابه. انتهى.

هذا هو القرآن الحكيم، و هذا هو فهم الراسخين من أولى العلم فيه، نقلناه ليكون حجة نيرة، و برهانا ساطعا على من انحرف فى القول و خلط فيه، و بعد عن الصواب و المنهج المستقيم.

كذلك ذكر الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً [الشورى: ۱۳] فى بيان حكمة اقتصار الآية الكريمة على البدء بنوح بدون آدم، نقلا عن القاضى ابن العربى ما نصه: ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال فى حديث الشفاعة المشهور الكبير: «و لكن ائتوا نوحا، فإنه أول رسول بعثه اللّه تعالى إلى الأرض، فيأتون نوحا، فيقولون له: أنت أول رسول بعثه اللّه تعالى إلى أهل الأرض»، و هذا صحيح لا إشكال فيه، كما أن آدم أول رسول نبى بغير إشكال، إلا أن آدم لم يكن معه إلا بنوه، و لم تفرض له الفرائض، و لا شرعت له المحارم، و إنما كان شرعه تنبيها على بعض الأمور، و اقتصارا على ضروريات

المعاش، و أخذا بوظائف الحياة و البقاء، و استمر هذا إلى نوح، فبعثه اللّه تعالى بتحريم الأمهات و البنات و الأخوات، و وظف عليه الواجبات، و أوضح له الآداب و الديانات، و لم يزل ذلك يتأكد بالرسل، و يتناصر بالأنبياء، صلوات اللّه عليهم، واحدا بعد واحد، و شريعة إثر شريعة، حتى ختمها اللّه تعالى بخير الملل، ملتنا، على لسان أكرم الرسل، نبينا محمد صلى اللّه عليه و سلم.

و كأن المعنى: أوصيناك يا محمد و نوحا دينا واحدا، يعنى فى الأصول التى لا تختلف فيها الشرائع، و هى التوحيد، و الصلاة، و الزكاة، و الصيام، و الحج، و التقرب إلى اللّه تعالى بصالح الأعمال، و الصدق، و الوفاء بالعهد، و أداء الأمانة، وصلة الرحم، و تحريم الكفر، و القتل، و الزنا، و الإذاية للخلق كيفما تصورت، و الاعتداء على الحيوان كيفما دار، و اقتحام الدناءات و ما يعود بخرم المروءات، فهذا كله مشروع دينا واحدا، و ملة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء، و إن اختلفت أعذارهم، و ذلك قوله تعالى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، أى اجعلوه دائما، قائما، مستمرا، محفوظا، مستقرا من غير خلاف فيه و لا اضطراب، فمن الخلق من و فى بذلك، و منهم من نكث، و من ينكث فإنما ينكث على نفسه، و اختلفت الشرائع وراء هذه فى أحكامها حسبما أراد اللّه تعالى مما اقتضت المصلحة، و أوجبت الحكمة وضعه فى الأزمنة على الأمم، و اللّه أعلم.

فهذا هو التوحيد بين الأديان و الاختلاف بينها، و قد تبين بوضوح أن ذلك لازم لكل دين، و ضرورى فى كل رسالة سبقت الإسلام و تقدمت عليه، على خلاف ما يفهم من عبارة الكاتب التى نقلناها عنه سابقا فى قوله: فجاء الإسلام على خلاف جميع العقائد التى سبقته يؤاخى بين الأديان كلها، فقوله: على خلاف جميع العقائد، يقصد به جميع الأديان، و هو كلام لا سند له و لا دليل، بل الدليل يبطله و يأتى عليه من أساسه، قال

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۲۱

تعالى: وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ [المائدة:

۴۶] الآية، فقوله: مُصَدِّقاً فى الموضعين حال، الأول من «عيسى»، و الثانى من «الإنجيل». قال العلماء: إنها حال مؤكدة، إذ مقتضى أن عيسى رسول من اللّه تعالى، أن يكون مؤمنا بما فى التوراة، و مقتضى أن الإنجيل كتاب من اللّه، أن يكون مصدقا للتوراة التى هى من عند اللّه كذلك.

و قال تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ [المائدة: ۴۸]، قال الخطيب الشربينى فى تفسيره عند هذه الآية ما نصه: و لما كانت الكتب السماوية من شدة تصادقها كالشىء الواحد، عبر تعالى بالمفرد، فقال: مِنَ الْكِتابِ، أى الكتب المنزلة التى جاء بها الأنبياء من قبل، فاللام الأولى فى الكتاب للعهد؛ لأنه عنى به القرآن، و الثانية للجنس؛ لأنه عنى به جنس الكتب المنزلة.

فثبت بهذا بطلان قول الكاتب أن العقائد السابقة لا تآخى بينها، و يجب أن لا يغيب عن البال أن تصادقها إنما هو على ما أوضحناه و بيناه من التوحيد بينها فى الأصول و الاختلاف بينها فى الفروع، و إلا لما قال تعالى فى شأن التوراة: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا [المائدة: ۴۴].

و لما قال سبحانه فى شأن الإنجيل: وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ [المائدة: ۴۷]، و بناء على ما بينها من تصادق و اتحاد يجب على كل أصحاب ديانة سابقة أن يدخلوا فى الديانة اللاحقة لها، متعبدين للّه على ما فيها من فروع الأحكام التى تخالف الشريعة السابقة، و إلا فهم كافرون مخلدون فى النار.

فإن أراد الكاتب بتآخى الإسلام مع بقية الأديان هذا الذى أوضحناه و بيناه لهو صحيح ثم صحيح، و إن أراد غير ذلك بأن أراد أن ما فى الأديان الأخرى من تشريع يخالف تشريع القرآن صحيح يتعبد به و ينال به عند اللّه الثواب الجزيل و النعيم الدائم، و أن من صلى من أهل الديانات الأخرى، و صام، و حج على وفق ما جاء فى شريعته، يساوى و يعادل من صلى، و صام، و حج على وفق شريعة القرآن، و أن كلا منهما يرضى عنه اللّه فى دار البقاء، فهذا كفر صريح لا شبهة فيه على ما قدمنا من الأدلة و البراهين الملزمة بالدخول فى الإسلام و الانضواء تحت لوائه.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۲۲

جدال أهل الكتاب:

و قال الكاتب فی صفحة (۱۷۸) ما نصه: و لقد أمر الإسلام معتنقيه أمرا ألا يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلا بالتی هی أحسن، وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ [العنكبوت: ۴۶]، و ما ذلك إلا ليشعروا أن المتدين أخو المتدين، و إن اختلفا فی بعض الآراء و الأفكار.

و ذكر الكاتب قبل كلامه هذا أن من أصحاب الديانات أتباع كنفشيوس فی الصين، و بوذا فی الهند، و زاردشت بالفرس، و إخناتون المصری القديم، و قال: إنه لا يحق لمسلم أن يزدريهم أو أن يحقرهم، فقد يكونون من الرسل الذين لم يقص القرآن قصصهم.

و نقول له قبل أن نتكلم معه فی الآية الكريمة التی ساقها دليلا على دعواه: إن الرسل الذين لم يقصهم اللّه تعالى علينا فی القرآن هم ضمن الغيب الذی لم يطلعنا اللّه عليه لحكمة يعلمها هو، فعلينا أن نؤمن بأن هناك رسلا دعت الناس إلى توحيد اللّه و عبادته دون أن نعرف أشخاصهم و أزمنتهم و ما لابس وجودهم من وقائع و حوادث، فقد قال العلماء فی قوله تعالى: وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ [النساء: ۱۶۴]، معناه أن هناك رسلا سميناهم لك فی القرآن، و عرفناك أخبارهم، و إلى من بعثوا من الأمم، و ما حصل لهم من قومهم، و قوله: لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، أی لم نسمهم لك، و لم نعرفك أخبارهم، فمجرد تجويز أنهم رسل لا يكفی أبدا لإعطائهم قداسة الرسل.

و لنتكلم معه فی الآية: نقول: إنه لم يسق الآية بتمامها، و فی ذلك تغطية للحقيقة و ستر لها عن أعين المتطلعين إليها و الراغبين فی معرفتها، فالآية فی سوقها هذا تدل على أن لا نجادل إلا بالتی هی أحسن دائما أبدا، و هذا غير مراد قطعا بدليل قوله سبحانه بعد هذا مباشرة: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا، و لنذكر معنى الآية بعد ذلك، فنقول:

قوله تعالى: وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ [العنكبوت: ۴۶]، أی اليهود و النصارى ظنا منكم أن الجدال ينفع، أو يزيد فی اليقين، أو يرد واحدا عن ضلال مبين، إِلَّا بِالَّتِی، أی المجادلة التی هِیَ أَحْسَنُ، كمعارضة الخشونة باللين، و الغضب بالكظم و الدعاء إلى اللّه تعالى بآياته، و التنبيه على حججه كما قال: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ [المؤمنون: ۹۶].

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۲۳

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بأن حاربوا و أبوا أن يقروا بالجزية، فجادلوهم بالسيف إلى أن يسلموا، أو يعطوا الجزية، و قيل: إلا الذين آذوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و قيل: إلا الذين أثبتوا الولد و الشريك، و الاستثناء فی قوله: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا متصل، و إنما فسر الظلم فی الآية بمحاربتهم المؤمنين حتى لا يقال: كيف قال تعالى: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مع أن أهل الكتاب جميعا ظالمون؛ لأنهم كافرون، قال تعالى: وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: ۲۵۴].

فالآية الكريمة شروع فی بيان إرشاد أهل الكتاب و دعوتهم إلى الإسلام بعد بيان إرشاد أهل الشرك فی قوله تعالى قبل ذلك: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً [العنكبوت: ۴۱] الآية، فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى معناه دعوتهم إلى الإيمان بمحمد صلى اللّه عليه و سلم و ما جاء به؛ لأن هذا هو المتعين المفروض الذی يلزم كل مكلف من المسلمين فی حدود الاستطاعة و القدرة كما هو واضح، و ما أبدع قوله فی هذه الآية: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ بعد قوله سبحانه فيها: وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِی أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ.

قال الخطيب الشربينی عندها ما نصه: أی خاضعون منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الأصول من الفروع، سواء كانت موافقة لفروعكم، كالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس، أو ناسخة كالتوجه إلى الكعبة، و لا نتخذ الأحبار و الرهبان أربابا من دون اللّه لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفا لكتابه و سنة نبيه صلى اللّه عليه و سلم. انتهى هذا هو معنى الآية، و هذا هو ما يفهم منها على مقتضى الموازين الصحيحة و الضوابط الدقيقة، هذا هو ما تعطيه الآية على وفق ما قاله أئمة الهدى و الراسخون فی التحقيق و المعرفة.

قلنا فیما تقدم: إن الآیة فی دعوة أهل الکتاب إلی الإسلام، و الکاتب یقول: إن المجادلة للإشعار أن المسلم فی دینه أخو الیهودی و المسیحی فی دینهما. و لا ندری من أین جاءت هذه الأخوة و هم یتجهون إلی بیت المقدس، و نحن نتوجه إلی الکعبة، و صلاتنا تخالف صلاتهم، و صیامنا یخالف صیامهم، إلی غیر ذلک.

و قد نطق القرآن بکفرهم کما یصرح به قوله: یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، اللهم إلا إذا أمکن أن یقال فی المتضادات: إن بینها أخوة، و فی المتباینات: إن فیها صلة و رابطة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۲۴

الإیمان و العمل الصالح:

و قال فی صفحة (۱۷۹) تحت عنوان: الإیمان و العمل الصالح، بعد کلامه ما نصه:

فکل من آمن و عمل صالحا فی هذه الدنیا فله أجره عند ربه، سواء فی ذلک المسلم، أو المسیحی، أو الیهودی، أو المتدین بأی دین من الأدیان، إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ النَّصاری وَ الصَّابِئِینَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ.

قلنا فیما تقدم عند ردنا علیه فی قوله: الإسلام یؤاخی بین الدیان، ما نصه: فإن أراد الکاتب بتآخی الإسلام مع بقیة الأدیان الأخری، هذا الذی أوضحناه، فهو صحیح، و إن أراد غیر ذلک بأن أراد أن ما فی الأدیان الأخری من تشریع یخالف تشریع القرآن صحیح یتعبد به، و ینال به عند اللّه تعالی الثواب الجزیل، و النعیم الدائم، و أن من صلی من أهل الدیانات الأخری و صام و حج علی وفق ما جاء فی شریعته یساوی و یعادل من صلی و صام و حج علی وفق شریعة القرآن، و أن کلا منهما یرضی عنه اللّه فی دار البقاء، فهذا کفر صریح لا شبهة فیه.

أما هنا و فی هذا الموضع، فقد انکشف لنا الغطاء عما یقول الکاتب من أن الإسلام یؤاخی بین الأدیان، و أنه لا یقصد بتآخی الإسلام مع بقیة الأدیان إلا هذا الذی یصرح به هنا من أن کل من عمل صالحا علی أی دین، فله أجره عند ربه، و قد تأید هذا بما ذکره الکاتب فی مقدمة الطبعة الأولی فی کتابه هذا، فقال فی صفحتی (۱۳ و ۱۴) تحت عنوان: المادیة هی الخطر المشترک، ما نصه: و علی أیة حال، فقد حان الوقت لیدرک کل صاحب عقیدة دینیة أیا کان موضعها و محورها، أن الخطر الذی أصبح یهدد عقیدته لیس ما یقول به دین آخر. إلی أن قال: و إنما الخطر الذی أوشک أن یهدد العقائد و یقتلعها من جذورها هو هذه المادیة الطاغیة الجارفة المسعورة.

فهو یری أن الأدیان کلها متآخیة، و أن أصحابها ناجون، یرضی اللّه عنهم جمیعا دون الماددیین الذین استهوتهم المادة و غلبهم حبها، و تغلغل هذا الرأی فی نفس الکاتب إلی حد أنه رسم علی غلاف کتابه ما ینبئ عن هذا التآخی و یشیر إلیه، فقد رسم علی الغلاف مئذنة و صلیبا بجانبها، و بجانب الصلیب من فوق رسم شمسا، و بجانب الصلیب من أسفل رسم نجمة، و بین الشمس و النجمة فی محازاة الصلیب و بجانبه رسم شخصا فرعونیا، یعنی فهو یدعو إلی الفکرة قولا، و کتابة، و رسما، و تصویرا، و تفسیر هذا

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۲۵

الرسم علی حسب ما جاء فی کلامه الذی ذکرناه قریبا أن الرجل الفرعونی و الشمس رمزان إلی أخناتون المصری، و النجمة هی رمز و شعار الیهودیة، أما الصلیب فهو معروف أنه للنصاری، و المئذنة معلوم أنها للمسلمین، و لا ندری ما رمز الزرادشتیة، و لا رمز الکونفشیوسیة، و لا رمز البوذیة، و علی کل، فهذا الذی ذکرناه هو ما أمکننا أن نستخلصه من هذا الرسم، و لعله یقول فیما لم یرمز إلیه أنه محمول علی غیره و مقصود معه، بدلیل کلامه السابق الذی ذکرناه.

و نقول نحن من جانبنا: کل من یقول و هو غیر مؤمن بالقرآن و برسالة محمد صلی اللّه علیه و سلم أنه من أهل الجنة، و أن اللّه تعالی عنه راض، و أنه تعالی یثیبه علی عقیدته أو عبادته فی دار البقاء، فهو کاذب خاطئ، قال تعالی حاکیا عن الیهود و النصاری: وَ قالُوا لَنْ

يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: ۱۱۱، ۱۱۲].

سمى اللّه تعالى هذا القول منهم أمنية تمنوها، و شهوة رغبوا فيها، يعنى فلا دليل على ذلك و لا برهان، ثم أمر نبيه صلى اللّه عليه و سلم أن يطلب منهم البرهان فى ذلك، و أن يظهروا ما عندهم من حجة إن كانت لهم حجة أو برهان، و كانت الإجابة ب بَلى لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة، و بين سبحانه بهذا أن الجنة لن تكون إلا لمن أسلم و انقاد للّه تعالى بقلبه باطنا، و بجوارحه ظاهرا.

و قال بعد ذلك أيضا حاكيا عنهم: وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [البقرة: ۱۳۵]، فاللّه سبحانه بهذه الآيات يكذبهم تكذيبا صريحا، و يبين لهم كيف يكون الوصول إلى الجنة و نيل ما عند اللّه تعالى من الثواب، و إذا كان القرآن يكذب اليهود و النصارى فى هذه الدعاوى التى قالوها، و هم أصحاب شرع سماوى سابق، فغيرهم ممن لم يعلم له كتاب و لم يعرف له رسول من سائر المذاهب و الأديان التى ذكرها الكاتب، أولى بهذا التكذيب و أحق به، و على الكل أن ينضوى تحت لواء القرآن، و أن يصدق بما جاء فيه من تشريع و أحكام.

فحقيقة الإيمان الصحيح اللازم لكل مكلف فى أى جنس، و على أى ملة و مذهب، الإيمان المعتبر عند اللّه تعالى فى النجاة من الخلود فى النار، و فى نيل الثواب الدائم

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۲۶

و النعيم المقيم فى الجنة، هو الإيمان بالقرآن و سائر الكتب السماوية السابقة عليه، قال تعالى فى أول سورة البقرة فى بيان وصف المتقين: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ [البقرة: ۴]، قال المفسرون عند هذه الآية: و الإيمان بالإنزالين جملة فرض عين، و بالأول دون الثانى تفصيلا من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، و لكن على الكفاية؛ لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج و يشوش المعاش.

قال تعالى من هذه السورة أيضا: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [البقرة: ۱۳۶].

وَ الْأَسْباطِ جمع سبط، و هو الحافد، و المراد حفدة يعقوب و أبناؤه و ذراريه، فإنهم حفدة إبراهيم و إسحاق، و قد نسبت صحف إبراهيم إلى الأسباط؛ لأنهم كانوا متعبدين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها، فكأنها أنزلت إليهم، كما أن القرآن لهذا الاعتبار نزل إلينا.

ثم قال تعالى كذلك فى هذه السورة: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ [البقرة: ۱۷۷].

اختلف نظر المفسرين فى بيان المخاطب بهذه الآية، و على أى قول منها، فهى دليل واضح على أن الإيمان لن تكون له حقيقة منجية إلا إذا كان بجميع الأنبياء و ما نزل إليهم.

قال فريق: إن المراد بالمخاطب أهل الكتاب، و عليه يكون المعنى: ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، و صلاة النصارى إلى المشرق، فإنهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حوّلت، و ادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد اللّه تعالى عليهم و قال:

ليس البر ما أنتم عليه، فإنه منسوخ، و لكن البر ما فى هذه الآية. و قوله تعالى:

وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ على تأويل حذف مضاف، أى بر من آمن، أو بتأويل البر بمعنى ذى البر، أى و لكن البر الذى ينبغى أن يهتم به بر من آمن، أو لكن ذا البر من آمن باللّه و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب، أى الكتب، إن أريد به الجنس، و إلا فالقرآن.

و يرى البعض أن المخاطبين هم المسلمون، و المعنى عليه: ليس البر كله فى الصلاة،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۲۷

و لكن البر ما فى هذه الآية. و بعضهم عمها فى المسلمين و أهل الكتابين، أى ليس البر مقصورا بأمر القبلة.

و مقصودنا من هذه الآية لا يختلف على أى قول من الأقوال كما قدمنا آنفا. كذلك جاء فى آخر هذه السورة قوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

فهذه دلائل صادقة و براهين قوية دامغة على ما قلناه فى بيان حقيقة الإيمان المنجى، من أخل بجزئية من هذه الحقيقة، فإيمانه غير صحيح و لا معتبر شرعا، بمعنى أن من فرّق فى إيمانه بين كتاب و كتاب، أو رسول و رسول، أو ما إلى ذلك، فهو كافر.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً [النساء: ۱۵۰، ۱۵۱]. و قال حكاية عن اليهود خاصة: وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ [البقرة: ۸۹]، إلى أن قال: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ [البقرة: ۹۱].

فالفروق التى ذكرها الكاتب فى كلامه الذى ذكرناه قبل لا تؤمن بمحمد صلى اللّه عليه و سلم و لا بقرآنه، فهى كافرة بمقتضى هذه النصوص القرآنية، و ما دامت كافرة فلن يقبل اللّه تعالى لها عملا عنده فى دار البقاء، قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: ۱۸]، يعنى: فكل عمل طيب يصدر عن الكافر من صدقة، و صلة رحم، و فك أسير، و إقراء ضيف، و بر والد، فى عدم الانتفاع به، كرماد اشتدت به الريح، فلم تبق له عينا و لا أثرا، فهم لا يجدون لهذا العمل ثوابا عند اللّه تعالى لفقد شرطه، و هو الإيمان الصحيح، و قال تعالى: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً [الفرقان: ۲۳]، يعنى قصدنا إلى أعمالهم التى عملوها من مكارم الأخلاق، كالجود، و إغاثة الملهوف، و نحو ذلك، فَجَعَلْناهُ، لكونها لم تؤسس على الإيمان، هَباءً و هو ما يرى من شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۲۸

مَنْثُوراً أى مفرقا فهو مثله فى عدم النفع، إذ لا ثواب فيه لعدم شرطه.

قال العلماء: و إن كانوا قد يجازون عليه فى الدنيا. و ما دامت أعمالهم الصالحة لا ثواب عليها لفقد شرطها و هو الإيمان، فليس لهم إلا النار مستقرا و مقيلا.

ثم إن الكاتب لما استشهد على دعواه بالآية الكريمة، قال بعدها مباشرة: و قد تكررت هذه الآية فى القرآن بنصها و معناها أكثر من مرة حتى أصبحت بمثابة قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامى، حتى لقد جعل منها تشريعا قائما عند ما أباح للمسلم أن يتزوج بكتابية على غير دينه، و أن تبقى على دينها.

أما بالنسبة للآية، فنقول: لا يمكن أبدا فى ميزان العقل السليم و المنطق الصحيح أن تفهم الآية على ما يبدو منها للكاتب بعد أن بين القرآن حقيقة الإيمان، و ما يجب على المكلف أن يؤمن به، و بعد أن حكم بالكفر على من كذّب و فرّق بين رسول و رسول، كما قدمنا كل ذلك صريحا دون لبس أو غموض، و إلا لكان القرآن من عند غير اللّه تعالى، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

و إذن فلا بد من فهمها على هذه الحقائق، و على أساس هذه الأصول، و تلكم الحجج القوية الدامغة. قال أئمة التفسير: اختلف فى الذين آمنوا فى هذه الآية، فقالت فرقة:

«الَّذِينَ آمَنُوا» هم المؤمنون حقا بنبينا محمد صلى اللّه عليه و سلم، و قوله: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» يكون فيهم بمعنى من ثبت و دام، و فى سائر الفرق بمعنى من دخل فيه.

و قالت فرقة: المراد بالذين آمنوا، المؤمنون بالأنبياء قبل بعثة نبينا محمد صلى اللّه عليه و سلم، و يكون المعنى: أن الذين آمنوا على التحقيق فى زمن الفترة مثل: قس بن ساعدة، و ورقة بن نوفل، و بحيرا الراهب، و أبى ذر الغفارى، و سلمان الفارسى، و هؤلاء هم

أصحاب الإيمان الحق قبل ظهور النبی صلی اللّه علیه و سلم، و الذین کانوا علی الدین الباطل المبدل من الیهود و النصاری و الصابئین من آمن منهم باللّه و الیوم الآخر و بمحمد صلی اللّه علیه و سلم عند إدراکهم زمنه، فلهم أجرهم ... إلخ.

فالآیة تبین بهذا أن أی دین قبل ظهور محمد صلی اللّه علیه و سلم لو کان صحیحا لا ینفع المتدینین به عند ظهوره صلی اللّه علیه و سلم، و علیهم أن یؤمنوا بالقرآن، و بما جاء به، علیه السلام، إذا أدرکوا زمنه، و إلا فهم هالکون، و من باب أولی ما إذا کان باطلا و مبدلا کدین الیهود و النصاری، فلو فرض أن إنسانا قبل ظهور بعثة النبی صلی اللّه علیه و سلم کان یقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه و أن عیسی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۲۹

رسول اللّه، علی معناها الصحیح الصادق، لم تنفعه هذه الشهادة عند ظهور البعثة المحمدیة، و علیه إذا أدرک زمانها أن یقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، فالأدیان کلها لاغیة و باطلة، سواء کانت صحیحة أو فاسدة عند ظهور الدعوة المحمدیة.

هذا ما تعطیه الآیة علی ما قدمنا من کلام أئمة التفسیر، إذن فهی ضد ما قال الکاتب، و ضد دعواه، و هی علیه لا له.

وقفة مع آیة:

بقی قوله: و قد تکررت هذه الآیة فی القرآن بنصها و معناها أکثر من مرة، حتی أصبحت بمثابة قاعدة أساسیة من قواعد الدین الإسلامی، حتی لقد جعل منها تشریعا قائما عند ما أباح للمسلم أن یتزوج بکتابیة علی غیر دینه، و أن تبقی علی دینها.

نقول: أما عن تکرار آیة فی القرآن بنصها و معناها أکثر من مرة، فنحن نطالبه بالدلیل علی ذلک، و لا یکلفه الدلیل أکثر من أن یتصفح المصحف الشریف سوره و آیاته، حتی یأتی لنا بمواضع التکرار التی قالها و ادعاها، و سوف لا یجد بعد أن یتقصی القرآن کله أوّله و آخره، و وسطه و طرفیه، ما یثبت له هذا الذی قاله، و لا ذلک الذی ادعاه.

فمقتضی کلامه أن الآیة کررت ثلاث مرات علی الأقل، إذا راعینا المعنی الموضوع للعبارة، أما إذا راعینا المعنی العرفی لهذا التعبیر، فالمعنی أن الآیة کررت مرات و مرات.

و الحقیقة و الواقع أن هذه الآیة الکریمة بالنص السابق الذی ذکرناه قبل قد ذکرت فی سورة البقرة، و ذکرت أیضا فی سورة المائدة، و نصها فی سورة المائدة هو هذا: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصاری مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ [المائدة: ۶۹]، و نری فی هذه مع سابقتها اختلافا فی موضعین:

أولا: قال: وَ الصَّابِئُونَ بالرفع و هناک: وَ الصَّابِئِینَ بالنصب.

ثانیا: قال هنا: فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ [المائدة: ۶۹]، و قال هناک:

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ [البقرة: ۶۲]، و عبارة الکاتب تفید أن التکرار کان بنص الأولی، و هذا غیر الواقع المحسوس کما بینا، یعنی أن الآیة الکریمة ذکرت مرتین فی القرآن الکریم فقط دون ما زیادة علی ذلک، أما توجیه

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۳۰

قراءة: وَ الصَّابِئُونَ بالرفع، و هی قراءة الجمهور، فقد قال العلماء فی بیان ذلک أنه من المقدم الذی معناه التأخیر، کأنه قال: إن الذین آمنوا و الذین هادوا من آمن باللّه و الیوم الآخر و عمل صالحا فلا خوف علیهم و لا هم یحزنون، و الصابئون و النصاری کذلک.

و أما قوله: حتی لقد جعل منها تشریعا قائما عند ما أباح للمسلم أن یتزوج بکتابیة علی غیر دینه، و أن تبقی علی دینها.

فنقول: لقد بینا المعنی الصحیح للآیة، ذلک المعنی الذی لا یجوز فهم غیره منها، و هو الذی قال به أئمة المفسرین، و لیس فی هذا المعنی ما یدل أقل دلالة و لا یشیر أدنی إشارة إلی زواج المسلم من الکتابیة، حتی و لا فی مذهبه الفاسد الذی أبطلناه لا توجد هذه الدلالة، فلا یلزم من مذهبه هذا، کل من آمن و عمل صالحا من أی دین فله أجره عند ربه، لا یلزم منه زواج المسلم من الکتابیة؛ لأنه لو جاز زواج المسلم من الکتابیة بمقتضی هذا المذهب لجاز للمسلم أیضا زواج المرأة الزرادشتیة و الکونفشیوسیة، و لا یقول بذلک

مسلم.

نعم أباح اللّه تعالى زواج المسلم من الكتابية بآية أخرى من سورة المائدة، و هى:

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ إلى أن قال: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ [المائدة: ۵]. قال الخطيب الشربينى عند هذه الآية فى قوله تعالى: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، قال: هم اليهود و النصارى، أى أحل لكم أن تنكحوهم و إن كن حربيات. و قال ابن عباس: لا تحل الحربيات، و أما الإماء المسلمات، فيحل نكاحهن فى الجملة، بخلاف الإماء الكتابيات، فلا يحل نكاحهن عند أبى حنيفة، رحمه اللّه تعالى.

هذا و قد جاء فى مجلة «منبر الإسلام» عدد جمادى الأول سنة (۱۳۸۴ ه) مقال بعنوان: حول ترجمة القرآن، للأستاذ محمد وصفى، فيه ما يأتى: قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: ۶۲].

لقد ذهب المستشرقون إلى ترجمة هذه الآية الكريمة ترجمة مضللة بعيدة كل البعد عن المعنى الحقيقى الذى هدفت إليه، و مناقضة لتعاليم الإسلام و عقائد المسلمين صريحا إلى

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۱

أبعد الحدود.

و قبل أن نناقش الترجمة، نرى لزاما علينا أن نذكر نص هذه الترجمة، ضاربين مثلا بترجمة «رودل» مثلا، هذا مع العلم بأن ترجمة من التراجم التى بأيدينا، لم تأت بالترجمة الصحيحة، و إنه ليؤسفنا أن محمد بقول، المسلم، جارى المستشرقين من غير المسلمين فى نفس الخطأ الذى وقعوا فيه، ثم ذكر الكاتب نص الترجمة بالإنجليزية، فليراجعها من شاء.

و هذه الترجمة تعنى أن الذين يؤمنون باللّه و اليوم الآخر و يعلمون عملا طيبا سيكافئون من سيدهم، و سوف لا يلحقهم خوف أو حزن، سواء كانوا مسلمين، أو متبعين للديانة الإسرائيلية، أو صليبيين أو صابئين.

و يفهم من هذه الترجمة أن جميع من على الأرض اليوم من الإسرائيليين و أهل التثليث و الصابئين، هم كالمسلمين سواء، و لن يصيبهم حزن أو خوف يوم القيامة ما داموا مؤمنين بوجود اللّه، و أن سيرهم حسن فى الدنيا حسب أديانهم التى يعتنقونها، و هو ما يتناقض كل التناقض مع قوله تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ [آل عمران: ۸۵].

إن الآية الكريمة معناها أن المسلمين الذين آمنوا برسالة خاتم النبيين، و اليهود الذين اتبعوا شريعة موسى و آمنوا برسالته فى زمنه، و ساروا على تعاليم التوراة الحقيقة، و دعوا اللّه قائلين: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ [الأعراف: ۱۵۶]، و النصارى الذين ما بعث إليهم المسيح عيسى ابن مريم حتى آمنوا برسالته، و اتبعوا الإنجيل الحقيقى طوال الزمن المحدد لرسالته، و الصابئين الذين آمنوا برسالة رسولهم فى زمنه، كل أولئك لهم أجر عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون؛ لأنهم هم الذين يؤمنون باللّه و اليوم الآخر، و يعلمون الأعمال الصالحة التى جاءت بها الكتب التى أرسلت إليهم على يد رسل اللّه الذين أرسلوا لهدايتهم، فمن كان اليهود زمن المسيح عيسى ابن مريم و لم يؤمن به، فقد حبط عمله؛ لأن رسالة موسى تتضمن وجوب الإيمان برسالة عيسى و نبوّته، و اتباع تعاليم شريعته متى جاءت، و المفروض كذلك على النصارى الذين وجدوا أيام نزول القرآن الكريم أن يؤمنوا برسالة خاتم النبيين.

و لقد حكى اللّه تعالى عن الذين آمنوا بالرسول الكريم من النصارى عند نزول

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۲

القرآن الكريم، فقال: وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ [القصص: ۵۱- ۵۴].

فالمؤمنون من أهل الكتاب الذين يكافئهم اللّه تعالى و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، هم الذين يقيمون التوراة و الإنجيل و القرآن، و لا يكفرون بأحدها، هذا مع العلم بأنها جميعا تفرض الإيمان برسالة محمد الكريم. قال تعالى: عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ ... [الأعراف: ۱۵۶، ۱۵۷] الآية. أ. ه.

و نرجع إلى الكاتب أحمد حسين، فنراه يقول فى صفحة (۱۸۰) بعد أن ذكر الآية الكريمة، و هى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ۷، ۸] استشهادا على مذهبه ما نصه: و تطبيقا لذلك، فإن أهل الكتاب كالمسلمين سواء بسواء، من يفعل منهم مثقال ذرة من الخير، فإن اللّه يثيبه عليه، و ما يفعله من شر فإن اللّه يجازيه عليه، و اقرءوا إن شئتم: مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [آل عمران: ۱۱۳- ۱۱۵].

نقول: إن آية وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ... [الزلزلة: ۷] إلخ، لا- تنطبق على أهل الكتاب إطلاقا؛ لأنهم كافرون بالقرآن و برسالة محمد صلى اللّه عليه و سلم، و شرط العمل الصالح كما قدمنا الإيمان بجميع الكتب المنزلة و الرسل جميعا، خص الكاتب هنا أهل الكتاب بالذكر بعد أن جعلهم فيما مضى ضمن أهل الأديان كلها، و أن الكل ناجون، مستشهدا على هذا بآية: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى [البقرة: ۶۲] على ما مر بيانه.

و استشهد هنا بآية كريمة أخرى على دعواه حسبما نقلناه عنه آنفا.

و نحن بعون اللّه تعالى ننقض القول فى بيان و إيضاح، فنقول زيادة على ما تقدم فى أول البحث: إن اللّه تعالى قد خاطب أهل الكتاب بالإيمان بالقرآن، و توعدهم على تركه

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۳

بأقصى و أشد أنواع العقوبات، و هم بهذا يتساوون مع المشركين الماديين فى أن اللّه تعالى طالبهم بالإيمان بالقرآن، كذلك قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا [النساء: ۴۷].

و قال جل ذكره فى سورة التغابن بعد أن حكى عن المشركين أنهم ينكرون البعث:

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا [التغابن: ۸]، يعنى فالمليّون و الماديون متساوون فى التكليف من اللّه تعالى بالإيمان بالقرآن، و لذلك أمر اللّه تعالى نبيه، عليه السلام، أن يوبخ الفريقين على ترك الإيمان به، فقال تعالى: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ [آل عمران: ۲۰].

و قد جعل اللّه تعالى أهل الكتاب فى عداد من لا يؤمن باللّه و لا باليوم الآخر، قال تعالى: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا- يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ [التوبة: ۲۹].

قال سيدى عبد الرحمن الثعالبى الجزائرى فى تفسيره عند هذه الآية ما نصه: و نفى سبحانه عن أهل الكتاب الإيمان باللّه و اليوم الآخر، حيث تركوا شرع الإسلام، و أيضا فكانت اعتقاداتهم غير مستقيمة؛ لأنهم تشعبوا و قالوا: عزير ابن اللّه، و اللّه ثالث ثلاثة، و غير ذلك، و لهم أيضا فى البعث آراء فاسدة، كشراء منازل الجنة من الرهبان، إلى غير ذلك من الهذيان، وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ [التوبة: ۲۹]، أى لا يطيعون و لا يمتثلون، و منه قول عائشة، رضى اللّه عنها: «و ما عقلت أبوى إلا و هما يدينان الدين»، و الدين هنا الشريعة.

فصار المعنى: و لا- يطيعون و لا- يمتثلون شريعة الحق، و شريعة الحق هى ما جاء به النبى صلى اللّه عليه و سلم؛ لأنها نسخت جميع الأديان و جميع الشرائع السابقة، بدليل قوله تعالى بعد ذلك فى هذه السورة أيضا: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: ۳۳].

فتبين بهذا أن أهل الكتاب ليسوا كالمسلمين سواء بسواء كما ادعى الكاتب، و إنما هم

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۴

كافرون كالمشركين سواء بسواء، ما داموا لم يؤمنوا بالقرآن و شريعته، بل كفرهم يزيد قبحا على كفر بقية الكافرين، و لذلك يقول الخطيب الشربينى عند تفسير قوله تعالى:

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ [آل عمران:

۹۸] ما نصه: و تخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، و أنهم و إن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة و الإنجيل، فهم كافرون بهما.

أما عن الآية و الاستشهاد بها، فبعد أن أبطلنا قوله: إن أهل الكتاب كالمسلمين بما تقدم إيضاحه، فقد أصبحت الآية لا تتصل بدعواه إطلاقا، و أما عن معناها و تفسيرها فهو هذا، و نسوق الآية بكمالها، قال تعالى: لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ ... [آل عمران: ۱۱۳] الآيات.

جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ [آل عمران: ۱۱۰]، يعنى لو آمن أهل الكتاب باللّه و رسوله صلى اللّه عليه و سلم، لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه؛ لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرئاسة و استتباع العوام، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ كعبد اللّه بن سلام و أصحابه، وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ، أى المتمردون فى الكفر.

و قيل خيرا لهم من الكفر الذى هم عليه، فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم، و فى ضرب من التهكم بهم و لم يتعرض لما يؤمنون به إشعارا بشهرته، ثم قال هنا: لَيْسُوا سَواءً [آل عمران: ۱۱۳]، الواو فى قوله: لَيْسُوا تعود على أهل الكتاب، و هى اسم ليس، و سواء خبرها، فالوقف عليه تام. و المعنى أنهم ينقسمون إلى مؤمن و كافر؛ لقوله تعالى: مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ [آل عمران: ۱۱۰]، فانتفى استواؤهم، و قد سيقت هذه الجملة تمهيدا و توطئة لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب.

و قوله تعالى: مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ [آل عمران: ۱۱۳] استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم، و مزيل لما فيه من الإبهام و وضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين و للإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتى نصيبا وافرا من الكتاب لا من أراذلهم.

و قوله: قائِمَةٌ معناه المستقيمة العادلة، من أقمت العود فقام، بمعنى استقام، و هذه الأمة، كعبد اللّه بن سلام و أصحابه من اليهود الذين أسلموا، و كالنجاشى

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۵

و أصحابه من النصارى الذى أسلموا أيضا، فكل صفات الخير التى أتت بعد ذلك فى الآيات الكريمة إنما هى لمن آمن منهم بالقرآن و دخل فى حوزة الإسلام، و عبد اللّه تعالى على شريعة النبى محمد صلى اللّه عليه و سلم لا كما زعمه الكاتب فى تحريفه الآيات، و حملها على من لم يؤمن من أهل الكتاب، و لو قرأ سابق الآية و تدبره حق التدبر، لاهتدى إلى المعنى الصحيح الذى قال به أئمة الهدى و أعلام المحققين.

و أما القسم الآخر من أهل الكتاب الذى أشارت إليه الآية، فلم يذكر فى الآية، اكتفاء بذكر أحد الفريقين. قال الخطيب الشربينى فى تفسيره عند هذه الآية ما نصه: أى و الأمة الأخرى غير قائمة، بل منحرفون عن الحق، غير متعبدين بالليل، مشركون باللّه، ملحدون فى صفاته، واصفون لليوم الآخر بغير صفته، متباطئون عن الخيرات، فترك هذه اكتفاء بذكر أحد الفريقين.

فأى مطمع للكاتب بعد هذا البيان فى هذه الآيات و أمثالها مما ادعى فيه أنه يؤيد رأيه الذى لم يقل به أحد، و لم يشهد له أى دليل من نقل صحيح، أو عقل سليم، و اللّه يقول الحق، و هو يهدى السبيل.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۳۶

کلمة للتاریخ

أحمد حسین فی سطور:

- والده ریفی من کفر البطیخ، أما والدته فمن سمنود.

- ولد هو فی القاهرة فی ۱۸ مارس ۱۹۱۱ م، إن کان لا یفتأ یصرح أنه ولد قبل هذا التاریخ.

- تلقی علومه فی کتاب الحی بطولون، ثم التحق بمدرسة الجمعیة الخیریة الإسلامیة الابتدائیة، و انتقل منها إلی مدرسة محمد علی الأمیریة، حیث ألف فی هذه الفترة جمعیة:

نصر الدین الإسلامی.

- تلقی تعلیمه الثانوی فی المدرسة الخدیویة، و انخرط فی نشاطها المدرسی، و کان التمثیل هو النشاط المسیطر، فقدم لهم مسرحیة: أبو مسلم الخراسانی، کما أشرف علی إصدار مجلة المدرسة.

- التحق عام ۱۹۲۹ م بکلیة الحقوق.

- دعا عام ۱۹۳۱ م إلی تصنیع مصر بجهود الشعب، مما أطلق علیه فی حینه: مشروع القرش.

- أسس عام ۱۹۳۳ م جمعیة مصر الفتاة، التی تحولت بعد الحرب العالمیة الثانیة إلی الحزب الاشتراکی، و کانت التعالیم الإسلامیة هی نبراسه دائما، فدعا عام ۱۹۳۸ م إلی تطبیق أحکام الشریعة، و اتهم و نفر من أعضاء جماعته، فیما اشتهر آنذاک باسم: تحطیم الحانات.

- کان له دور کبیر فی محاربة الملک السابق و کل فساد و طغیان، مما جعل حکام ذلک الزمان یعلمون علی التخلص منه، فانتهزوا فرصة حریق القاهرة فی ینایر ۱۹۵۲ م لکی یعتبروه مسئولا عن هذا العمل.

- کان لقیام الثورة فی ۲۳ یولیو ۱۹۵۲ م الفضل فی إنقاذه من حبل المشنقة.

- هاجر من مصر عام ۱۹۵۵ م، و لکنه لم یلبث أن عاد إلیها، فلما أن خاب أمله مرة أخری اعتزل الحیاة و أوی إلی بیته عام ۱۹۶۰ م.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۳۷

- و فی بیته تفرغ للمطالعة و التألیف، فأصدر ثلاثة من المع کتبه:

۱- الطاقة الإنسانیة.

۲- الأمة الإنسانیة.

۳- نبی الإنسانیة.

- جاوزت مؤلفاته الأربعین کتابا، أحدها یقع فی ألفی صفحة، و هو موسوعة تاریخ مصر. عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن ۱۳۷ کلمة للتاریخ ..... ص : ۱۳۶

و لکن عمله الأکبر، و الذی یعتبره تتویجا لحیاته کلها، هو تفسیره للقرآن الکریم.

- أصیب بالشلل الکامل الذی أعجزه عن الحرکة تماما، فیما خلا الکتابة، و هو ما یجعله یقول: ما بقی اللّه یحفظ لی عقلی، و یقدرنی علی الکتابة، فسوف أکتب لنهضة المسلمین.

- یعتز باللقب الذی أطلقته علیه مجلة الأزهر من أنه: الکاتب الإسلامی.

رسالة إلی المجاهد:

بعد هذا التعریف الذی نشر فی مجلة الأزهر، عدد جمادی الأولی عام ۱۳۹۹ ه، عقب عرض لکتابه: وصیتی و إیمانی، أقول کلمة للتاریخ: فعند إخراج هذا الکتاب فی طبعته الأولی عام ۱۹۷۹ م، قلت فی نفسی: إن الأستاذ أحمد حسین ما زال حیا یرزق، و بالتأکید

فهو لم يطلع على ما كتبه المرحوم فضيلة الدكتور سيد أحمد المسير، و من الأمانة العلمية أن أضع هذا الرد أمامه ليقول كلمته، و لكن كيف أتصل بالأستاذ أحمد حسين؟.

هنا يسر اللّه الأحوال، و طرأت على ذهنى فكرة، إن الأستاذ أحمد حسين يكتب مقالا شهريا فى مجلة «منبر الإسلام» فى تفسير القرآن الكريم، و إن رئيس التحرير حينئذ هو الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى، و هو أستاذ معنا فى كلية أصول الدين بالقاهرة، فلما ذا لا أرسل له الكتاب عن طريقه؟! فعرضت الفكرة على الأستاذ عبد المعطى بيومى، فرحب بها، و حملته أمانة توصيل الكتاب و رسالة خطية منى إلى الأستاذ أحمد حسين.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۸

و قد أخبرنى الدكتور رئيس التحرير أنه عند عرض الموضوع على أسرة التحرير فى مجلة «منبر الإسلام» اعترض البعض على إرسال الكتاب و الخطاب إلى الأستاذ أحمد حسين، بدعوى أن الرجل مريض و فى آخر أيامه، و لا يصح أن نؤرق الرجل أكثر مما هو فيه.

فرد الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى قائلا: لأن نصحح للرجل عقيدته، و يلقى اللّه على عقيدة صحيحة، خير من أن ندعه هكذا.

و فعلا، و كما أخبرنى الدكتور عبد المعطى بيومى، فقد أرسل إليه الكتاب و الخطاب، و هذا هو نص الرسالة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم السيد الأستاذ المجاهد الكبير أحمد حسين، السلام عليكم و رحمة اللّه، و بعد:

فأستأذن سيادتكم فى الكتابة إليكم رغم عدم سابق معرفتنا، و لكن رابطة الإسلام أقوى، و واجب التواصى بالحق هو الذى يمنحنى الإذن العام فى مراسلتكم.

و فى البداية فإنى أحيى فيكم جهادكم الطويل المتواصل، و أشكر لكم توجيهاتكم السديدة لجيل اليوم، و نصائحكم الرشيدة لحكام الوطن، و أدعو اللّه لكم بالصحة، و تمام العافية، و حسن العواقب فى الأمور كلها.

هذا و قد كان السيد الوالد المرحوم فضيلة الدكتور سيد أحمد المسير أستاذا للتفسير و الحديث بكلية أصول الدين، و ذات يوم اطلع على كتاب لسيادتكم هو «فى الإيمان و الإسلام»، و الكتاب فى مضمونه العام و منهجه ثمرة طيبة، و غيرة مشكورة، و لكنه اتخذ موقفا من أهل الكتاب، رآه المرحوم والدى و نراه معه، مجانبا للصواب، و بعيدا عن منطق القرآن الكريم.

و قد أملى المرحوم والدى بعض التعليقات على هذا الموقف لطلاب العلم الذين تتلمذوا على يديه، و عند ما انتقل إلى رحمة اللّه، رأيت أن من الوفاء لوالدى و للعلم أن أنشر مذكراته العلمية لينتفع بها المسلمون، و كان هذا الكتاب الذى أرسله اليوم لسيادتكم مع الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومى.

رجاء أن تطلعوا عليه، و تتفضلوا بكتابة تعليق أعدكم، إن شاء اللّه، بنشره فى الطبعة الثانية، حتى تتجلى الحقيقة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۳۹

و اللّه يرعاكم و يسدد خطاكم، مع أطيب أمانى الصحة و السعادة، و كل عام و أنتم بخير.

۷ من المحرم عام ۱۴۰۰ ه دكتور ۲۷/ ۱۱/ ۱۹۷۹ م محمد سيد أحمد المسير

رجوع إلى الحق:

اشارة

انتظرت ردا من الأستاذ أحمد حسين، فلم يصل، و لعل عذرا منعه، و لكن الرجل، رحمه اللّه تعالى، و قد أصبح فى ذمة التاريخ بعد وفاته فى السادس و العشرين من سبتمبر عام ۱۹۸۲ م، قد كتب ردا عاما سجله فى مجلة «منبر الإسلام»، أعلن فيه الرأى الصحيح و العقيدة الحقة فى تفسير آيات القرآن الكريم التى كان قد أخطأ فى فهمها، و أضع أمام القارئ نصا لما سجله المرحوم الأستاذ أحمد

حسین فی مجلة «منبر الإسلام» فی عدد جمادی الأولی سنة ۱۴۰۰ ه، و فیه یقول:

و قد وهم أقوام، فتصوروا أن الیهود و النصاری سواء بسواء و المسلمین آمنوا بسیدنا محمد، علیه الصلاة و السلام، أم لم یؤمنوا، ما داموا یعملون الصالحات، و نقول: إن الإیمان بسیدنا محمد هو الشرط الأساسی لکمال الإیمان.

کذلک ما سجله فی عدد رمضان سنة ۱۴۰۰ ه، و فیه یقول: و یساوی ما تقدم من حیث الکفر باللّه محاولة التفریق بین الرسل، فیقال علی سبیل المثال: نؤمن بموسی أو بعیسی، و لکنا نکفر بمحمد، فمثل هذا القول هو کفر صراح.

و بهذا یکون الرجل، رحمه اللّه تعالی، قد رد أبلغ رد علی رسالتی إلیه، و رجع إلی الحق الذی لقی اللّه علیه مؤمنا صادقا.

من تفسیر الأستاذ أحمد حسین:

أ- الدین و الفطرة «۱»:

شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ ما وَصَّی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ وَ ما وَصَّیْنا بِهِ إِبْراهِیمَ

---

(۱) نشر فی مجلة منبر الإسلام، عدد جمادی الأولی سنة ۱۴۰۰ ه.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۴۰

وَ مُوسی وَ عِیسی أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِیهِ [الشوری: ۱۳].

فالدین واحد، و هو لا- یمکن أن یکون إلا- کذلک، ما دام المصدر واحدا، و هو اللّه، و الهدف منه واحد، و هو عبادة اللّه بعمل الصالحات فی هذه الدنیا، هذه الحقیقة الناصعة البسیطة هی ما یقررها الإسلام فی هذه الآیة التی نحن بصددها و فی غیرها من الآیات، فوعاها المسلمون کل الوعی، و جهلها أتباع الیهودیة و النصرانیة، و من هنا یتفوق الإسلام علی سائر الأدیان، إذ یعترف بها کلها، و یلقن المسلمین أحسن ما فیها کلها و هو جوهرها، عبادة اللّه الواحد الأحد، و العمل الصالح فی الدنیا، لیتلقی الجزاء الحسن علی ذلک فی الآخرة.

فشل الاستشراق و التبشیر بین المسلمین: و من هنا فشلت کل وسائل الاستشراق و التبشیر فی تحویل مسلم واحد من الإسلام إلی النصرانیة أو الیهودیة، فالمسیح، و إبراهیم، و موسی، و یعقوب، و إسحاق، کل هؤلاء رسل اللّه، و حملة الوحی الإلهی، و أیا ما قاموا به من معجزات و خوارق، فقد فعلوه بإذن اللّه لخدمة اللّه.

لا- یکمل إیمان الیهودی أو المسیحی إلا بإیمانه بمحمد: و قد وهم أقوام، فتصوروا أن الیهود و النصاری سواء بسواء و المسلمین، آمنوا بسیدنا محمد، علیه الصلاة و السلام، أم لم یؤمنوا، ما داموا یعلمون الصالحات، و نقول: إن الإیمان بسیدنا محمد هو الشرط الأساسی لکمال الإیمان؛ لأنه إذا کان من المتصور عقلا للملحدین الذین ینکرون الأدیان جملة؛ لأنهم ینکرون اللّه، و الوحی، و البعث، و الحیاة الأخری، فإنه من غیر المتصور أن ینکر مؤمن بکل هذا نبوّة سیدنا محمد، علیه الصلاة و السلام، و التی لم تخرج رسالته عن هذا الإطار.

ب- من غیر المنطق الإیمان بالوحی ثم الکفر بمحمد «۱»:

إِنَّ الَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ [النساء: ۱۵۰]، لا یجب أن یبرح الذهن أن القرآن الکریم قد نزل فی المناسبات لمواقف معینة محدودة، و مع ذلک، فإن آیاته تظل تتحدث إلی أبد الآبدین عن أحداث عامة تتکرر علی اختلاف الزمان و المکان، فهذه الآیة علی سبیل المثال، تتحدث عن یهود المدینة علی زمن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، فهم یزعمون أنهم یؤمنون

(۱) نشر فی مجلة منبر الإسلام، عدد رمضان سنة ۱۴۰۰ ه.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۴۱

باللّه و بموسی کنبی مرسل، و لکنهم لا یؤمنون برسالة سیدنا محمد، علیه الصلاة و السلام، و لکن الآیة صیغت بحیث تنطبق علی کل زمان و مکان.

لا- إیمان باللّه بدون الإیمان برسله: فلا یمکن لزاعم أن یزعم أنه یؤمن باللّه، و لکنه لا یؤمن برسله؛ لأن معنی الإیمان باللّه، أنه هو الذی خلق الإنسان، و خلقه لغایة، و الرسل هم الذین عرّفونا بهذه الغایة، وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ [الذاریات: ۵۶]، و یکون معنی عدم تحقیق هذه الغایة التی جاء بها الرسل، هو عدم الإیمان باللّه، و إلا کان الإیمان باللّه و عدمه سواء بسواء، فما جدوی إیمان لا یترتب علیه شیء علی الإطلاق، و ما أشنعه من کفر أن نقول: أن اللّه قد خلق الخلق، ثم ترکهم لشأنهم لا یعرفون ما یأمرهم به و ما ینهاهم عنه، و هو ما لا نعرفه إلا عن طریق الرسل، فعبث و سفسطة، أن یقول قائل: أؤمن باللّه، و لکنی لا أؤمن برسله، فأحدهما لازم للآخر، بحیث یزول بزواله، و لقد قلنا من قبل، و نقول: أن لا فکاک للإنسان، أی إنسان، من الإقرار بوجود قوة عظمی وراء هذا الکون، یسمیها من لا یؤمنون باللّه: الطبیعة، أو المادة، أو المادیة الجدلیة، فمن یؤمن باللّه دون الإیمان برسله و ما جاءوا به من تعالیم، فهم لا یزیدون عن کونهم أضافوا کلمة جدیدة إلی جوار کلمات الطبیعة و المادة ... إلخ.

وَ یُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ [النساء: ۱۵۰]، و یساوی ما تقدم من حیث الکفر باللّه، محاولة التفریق بین الرسل، فیقال علی سبیل المثال: نؤمن بموسی، أو بعیسی، و لکنا نکفر بمحمد، فمثل هذا القول هو کفر صراح.

کما سوف ینص القرآن فی الآیة التالیة، ذلک أن الإیمان برسول واحد یعنی الإیمان بالوحی، باعتباره الواسطة بین اللّه و الإنسان، فإذا جاء إنسان یقول: إنه یوحی إلیه، و کان ما یقول هو من نوع ما جاء به الرسول الأول، و أثبتت الأحداث أن کل ما قاله و یقوله هو صدق فی صدق، و من فوقه و من قبله صدق، فعلی أی أساس تنکر رسالته، إلا أن یکون إنکار الوحی، و بهذا نعود إلی الکفر باللّه، و أنه یوحی إلی البشر.

سئل السید المسیح: یا معلم، سیکون من بعدک أنبیاء کذبة، فکیف نعرفهم؟ فکان جوابه: من نمارهم تعرفونهم، فعند ما یجیء سیدنا محمد صلی اللّه علیه و سلم یدعو للتوحید، و یحارب الوثنة و الأصنام، و یعذب و یضطهد هو و من اتبعه، فلا یزیدهم ذلک إلا إصرارا علی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۴۲

عبادة اللّه الواحد الأحد، و عند ما یعرض الجاه، و السؤدد، و المال، و الغنی فیرفض، فمن یکون الرسول إلا هذا، الحق أن الملاحدة الماديين عند ما ینکرون کل شیء: اللّه، و الرسل، و الوحی، هم أکثر منطقا من هؤلاء الذین یؤمنون باللّه و بالوحی، ثم یکفرون برسول ینزل علیه الوحی من عند اللّه فعلا.

تفوق الإسلام علی سائر الأدیان: و من هنا قلنا من قبل، و نکرّر تفوّق المسلمین علی سائر معتنقی الأدیان الأخری، فهم یؤمنون بأن جوهر الدیان واحد، و الاختلاف لا یکون إلا فی التفاصیل، حیث ینسخ المتأخر المتقدم، و یقولون بقول القرآن، لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ [البقرة: ۲۸۵].

و معلوم أن هذه الآیات التی نحن بصددها قد جاءت فی سیاق الحدیث عن النفاق، و هو إظهار خلاف الباطن، و التربص لاستغلال الفرص و المناسبات.

وَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَّخِذُوا بَیْنَ ذلِکَ سَبِیلًا [النساء: ۱۵۰]: و هذا هو النفاق بعینه، و الحدیث هنا عن یهود المدینة، و لکنه صالح لکل زمان و مکان، کما قدمنا، فهم یریدون أن یقولوا لسیدنا محمد: أنهم یؤمنون باللّه، و إبراهیم، و موسی، و یقولون للمشرکین:

أنهم يكفرون بمحمد، و لكن اللّه سبحانه و تعالى ينزل حكمه على هذا النوع من السلوك.

أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا [النساء: ۱۵۱]: فهذا هو الكفر الصراح، إذ يعبر القرآن بكلمة حَقًّا.

وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً [النساء: ۱۵۱]: أى و أعددنا لِلْكافِرِينَ، و لقد ذكر لفظ الكافرين مرة ثانية؛ ليكون أمعن فى التوكيد و أشد عَذاباً مُهِيناً، أى أنه عذاب لا يقتصر على الناحية المادية، و هو الألم، بل إنه عذاب معنوى كذلك، إذ هو مهين، أى مذل من الإهانة.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ [النساء: ۱۵۲]: و فى مقابل اليهود و النصارى الذين زعم كل منهما أنه يؤمن برسوله فقط، يقوم المسلمون الذين يؤمنون باللّه، و موسى، و عيسى، و إبراهيم ... إلخ، و هذا ما يجعل الرسالة الإسلامية أشد تكاملا، و أكثر منطقية، فمتى آمن إنسان باللّه، و أنه يوحى لبعض عباده بمشيئته، فعلى أى أساس يكون الإيمان بالبعض و الإنكار على البعض الآخر إلا أن يكون التعصب الأعمى.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۴۳

لما ذا نقول بانتصار الإسلام: إن كثيرين يروننا نسرف فى التفاؤل عند ما نتحدث عن قرب انتصار الإسلام و غلبته على سائر الأديان، و من يحسنون الظن بنا يتصورون أن ما نقوله هو من قبيل الأمانى، حيث نقرر ما نقرر باعتباره حقا مؤكدا، و دليلنا الواقع و التجربة.

فقد جاء وقت لا يعرفه شباب الوقت الحاضر، أو حتى رجاله، كان التبشير بالمسيحية على أشده، و كان يقف خلف المبشرين الإمبراطورية الإنجليزية بكل جلالها، بل أوروبا كلها بكل نجاح حققته فى القرن التاسع عشر، و كان رجل التبشير خريج أعظم جامعات أوروبا، و كل ما كان ينجح فيه هو زعزعة العقيدة الدينية من أساسها، و لكنه لا يكاد يتحدث عن المسيحية، و عن كون المسيح إلها، حتى يرد عليه أبسط مسلم:

اسم اللّه عليك يا خواجة، سيدنا عيسى ده رسول اللّه و ليس هو اللّه!! و هكذا يتحول أبسط مسلم إلى معلم لخريج أكبر جامعات أوروبا، و هذا هو سر عظمة الإسلام.

فليقل المسيحيون عن معجزات سيدنا عيسى ما يقولون، إن المسلم لا ينكر شيئا من ذلك، فالمسيح هو رسول اللّه، و قد زوّده اللّه بالقدرة على فعل ما فعل.

و ليتكلم اليهود عن موسى بأعظم ما يتكلمون، فالمسلم يقول مثل قولهم، و من هنا عاش المسيحيون و اليهود فى ظل الدولة الإسلامية، بل و ازدهروا، حيث لا يستطيع المسلمون أن يعيشوا فى ظل دولة غير إسلامية إلا إذا تناسى المجتمع شأن الدين، كما هو الحال فى أوروبا و أمريكا، و لما كان ذلك يستحيل أن يدوم، إذ يستحيل قيام المجتمعات على غير دين.

و من هنا قلنا: إن المستقبل للإسلام؛ لأنه يعترف بالأديان السماوية الأخرى، و لا تعترف هى به، فهو الأقوى و الأصلح، و بالتالى هو الأبقى، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ [الرعد: ۱۷].

فنحن لا نتكلم لغة التفاؤل فضلا عن لغة التمنى، و إنما نتحدث العلم، و فوق ذلك نتحدث بما وعد به اللّه عز و جل.

أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ [النساء: ۱۵۲]: و إعطاء اللّه الأجر للمحسنين فى الآخرة، أى يوم القيامة، مسألة مؤكدة و محققة، و هى محور الإيمان، و لكن اللّه سبحانه

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۴۴

و تعالى قد يعجل بعض هذا الأجر فى الدنيا، وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ [الصف: ۱۳].

و هو ما فعله للمسلمين أيام نبيهم و عقب أن غادرهم ليلحق بالرفيق الأعلى، حيث فتحوا الدنيا التى كانت معروفة فى ذلك الزمان، و عند ما يعود المسلمون إلى سابق إيمانهم، فسوف يعودون لما كانوا عليه إن شاء اللّه.

رسالة إلى الرئيس الأمريكى كارتر:

و یبدو أن الأستاذ أحمد حسین أدرک خطأه حین سوی بین الإسلام و بین الیهودیة و النصرانیة الموجودتین الآن قبل أن أبعث إلیه خطابی، فقد وجه رسالة إلی الرئیس الأمریکی کارتر، نشرها فی مجلة «الدعوة» العدد الرابع و العشرین، غرة جمادی الثانیة سنة ۱۳۹۸ ه، مایو سنة ۱۹۷۸ م، یدعوه فیها إلی الإسلام، و یقول له صراحة: أسلم تسلم، و إلا وقع علیک إثم الأمریکان جمیعا، و اتهم المسیحیة بالشرک و الوثنیة، و ذهب إلی أن الخطیئة و الفداء أسطورة کنسیة، و قال: إذا کان موضوع المسیح هو هذه القصة، قصة الفداء و الکفارة، فلما ذا لم یصرح بها المسیح مرة واحدة لا عن قرب أو بعد، و ترک الأمر للکنیسة لتصوغه بعد أربعة قرون، لتفرضه علی الناس بقوة الحدید و النار ما استطاعت إلی ذلک سبیلا.

ثم یتهم الأستاذ أحمد حسین النصاری فی عقولهم حین یقبلون عقیدة انتشار الخطیئة فی آدم و ذریته، و یقول:

و لم یقف مسیحی واحد لیسأل نفسه، و ما هو ذنب البشر منذ أیام آدم حتی مجیء المسیح، و هم مئات و ألوف الملایین، حتی یحملوا خطیئة آدم مهما کانوا محسنین؟! و لم یسأل مسیحی واحد نفسه: و ما ذا کان الشأن بالنسبة للأنبیاء و الرسل قبل المسیح؟! ما هو الشأن بالنسبة لإبراهیم، و إسحاق، و یعقوب، و یوسف، و موسی، و کل الأنبیاء الذین سبقوا السید المسیح، أ کل هؤلاء کانوا یعیشون فی الخطیئة باعتبارهم سابقین علی عملیة الکفارة؟! و یواصل الأستاذ أحمد حسین، رحمه اللّه تعالی، بیانه للوثنیة التی تسربت إلی العقیدة النصرانیة، فیقول:

و قد فزعت المسیحیة للکنیسة من القول بتعدد الآلهة، فاخترعت لذلک تعبیر الأقانیم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۴۵

الثلاثة، و أنها مظاهر للّه الواحد، و ضربوا لذلک الأمثلة، و لکن مضمون هذه الأقانیم یدل علی أن الذوات متباینة، فالقول علی أنه فی یوم الدینونة یجلس الابن علی یمین الأب لمحاکمة البشر و محاسبتهم، أی أنه یوجد للابن دور خاص یقوم به، و تشخیص متمیز یبدو علیه، و هکذا نری أن حیلة الأب و الابن و الروح القدس، الکل إله واحد، لا تخرجنا من دائرة تعدد الآلهة الذی هو عقیدة وثنیة، و أسطورة أوزوریس و إیزیس و حورس، هی عقیدة مصریة قدیمة، و قد سادت عبادة إیزیس حوض البحر الأبیض المتوسط قبیل ظهور المسیحیة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۴۶

الفصل الثانی الأمثال فی القرآن الکریم «۱»

اشارة

قال اللّه تعالی، و هو أصدق القائلین: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ [القمر: ۱۷].

و قال أیضا فی محکم قرآنه: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ [الزمر: ۲۷].

و قال تعالی: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنکبوت:

۴۳].

فی ضوء هذه الآیات البینات، و ما ترسله من هدایات، سیکون الحدیث و الفهم لما تهدف إلیه، و ما تثیره فی النفس الإنسانیة المسلمة من یقظات روحیة، و إشراقات وجدانیة، و ما تغرسه فی العقل من هدایة و توجیه، و ما توحی به من تعالیم هادیة لخیری الدنیا و الآخرة.

لقد کان من فضل اللّه علی عباده المؤمنین، أن عصم رسوله الأمین محمد بن عبد اللّه من کید الکائدین، و تدبیر المنافقین، و أذی المشرکین فی کل المحاولات التی صنعوها، و المؤمرات التی حاکوها، و المعارک التی خاضوها؛ إطفاء لنور اللّه، و صدا للناس عن

الهدايـة إلى دين الحق، كانت يـد اللّه هى العليا، فحفظ رسوله، و شد أزره، و نصـره على أعدائه، أعداء الحق، و حفظ رسالته، و صان وحيه و قرآنه من عبث العـابثين، و تـدبير الخـائنين، فلم يلحقه تغيير أو تبـديل كما لحق الكتب السـماوية الأخرى، حفظ اللّه قرآنه من الضـياع، و التحريف، و التشكيك، و الافتراءات، بذلك الوعد القرآنى الذى نردده فى كل حين: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر: ۹]، و لن يخلف اللّه وعده، فهو مصون بقدرته القاهرة؛ لأنه:

۱- كلام اللّه سبحانه و تعالى، و هو القادر وحده على حفظه.

---

(۱) د/ محمد سيد شقير.

۲- الذكر الذى يعرض هذه القدرة فى ملكوت اللّه الواسع فى مظاهرها العديدة.

۳- يعرض قصـص السـابقين من الأنبياء و الرسل، و أنباء من سـبقوا و جاهـدوا فى اللّه حق جهاده، و دعوا إلى كلمـة الحق فى العصور السابقة، و ما كان لهم مع قومهم من صولات و جولات.

۴- يعرض أيضا ما لمحمـد، عليه الصـلاة و السـلام، من مكانـة و منزلـة عنده، و ما لقومه من شأن فى مجالات التقوى و الإيمان، وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ [الزخرف:

۴۴]، فهو ذكر لا يتطرق إليه نسيان، و لا يلحقه نقصان.

لكـل هـذه الأـمور اسـتوجب وحى اللّه و قرآنه، الحفـظ و الصـيانة من كـل كيـد يراد به، و النجـاة من كل مكر على مر الأيام إلى يوم الـدين، هـذا بالإضافة إلى أن سبيل إلى التذكير بنعم اللّه على عباده الظاهرة و الباطنة، و التذكير بطرق العبادة التى يجب أن يسـلكها و يتبعها كل مؤمن بربه، و بما أوحى به من أمور فيها صلاحية للإنسان فى دنياه و أخراه، و تبيان للحق فى كل صوره و مجالاته.

فـالقرآن من اللّه، و معجزته الكبرى التى خص بهـا محمـدا، عليه الصـلاة و السـلام، و أرسل بها إلى الإنسان لكى يرتفع بإنسانيته فوق شهوات الحياة، و يسـمو بإمكاناته التى وهبه اللّه إياها إلى مرقى أعلى، و مسـتوى أفضل، بتوظيفها فى فهم الأمور، و اسـتغلال الطاقات الفعالة التى خلقها اللّه فيه، من ذلك العقل الواعى، و العلم الذى ينير له طريق الهداية و الرشاد.

المعجزات:

من وسائـل توضـيح الأفكار، و تبيان المعانى، أن يلجأ الكاتب، أو المتكلم، إلى اسـتخدام المقارنات، و الموازنات، و المقابلات، حتى يسـهل الفهم، و تتضـح الحقيقـة، و تنجلى الغوامض فى الأفكار المطروحـة، و الآراء المعروضة، و بدون اسـتخدام لذلك يصـعب على القارئ أو السامع الإلمام بالمراد، أو الفهم السريع لما يعرض من رأى أو فكر.

و قـد درج الناس من قـديم الزمن أن يعرفوا الشـىء بنقيضه، فلا يحس الإنسان بقيمـة الضـياء و الإشـراق، و ما يرسـله من طمأنينـة إلى النفس و راحة و هدوء، إلا إذا خيم عليه الظلام بكل ما يحويه من فزع، و رعب، و خوف، يعكر على النفس هدوؤها، و يجعلها

تحس بما كانت تنعم به قبل ذلك من نعمة.

كمـا لاـ يحس الإنسـان بقيمـة مـا ينعم به من صـحة، و راحـة نفس و جسـد، و نعم أنعم اللّه بهـا عليه، إلاـ إذا ألمت به تلك المتاعب الصحية و الجسدية التى تصيبه فى عضو من أعضائه، فتمنعه الحركة، أو تقعد به عن السعى فى سبيل العيش ... إلخ ما هنالك من أمور متناقضة و متقابلة تحمل فى طياتها غموضا أو تعميما.

و نحن فى معرض كلامنا عن المعجزات، إنما نقصـد إلى تجليـة الحقائق، و إبراز الحكمـة الإلهيـة من وراء اسـتعراض تلك المعونات

الکبری التی منحها اللّه جل فی علاه لأولیائه الصالحین المخلصین، و عباده المرسلین، و أنبیائه المصطفین علی مر العصور و ما کان لذلک من أثر فی الهدایة و الإرشاد للأقوام السابقین، ثم الانتقال بعد ذلک إلی تلک المعجزة الخاتمة الکبری، و هی معجزة القرآن الکریم.

فما المقصود بالمعجزة؟

و کما یفهم من اسمها، فهی أمر خلقه اللّه تعالی بقدرته القاهرة، لا تستطیع قدرة البشر علی إحداثه، کما لا یمکن لقواهم الجسدیة، و العقلیة، و الروحیة، أن تفعله أو تحدثه، فلیس بمستطاع إبراهیم، علیه السلام، أن یمنع النار من الإحراق، کما لا یستطیع موسی، علیه السلام، أن یجعل العصا ثعبانا مبینا یلتقط ما فعل سحرة فرعون، و لیس بإمکان عیسی، علیه السلام، أن یحیی الموتی، أو أن یبرئ الأکمه و الأبرص.

و لکن اللّه جلت قدرته منح هؤلاء العباد قوة من عنده، تجعلهم یقدرون علی إحداث ذلک أمام الناس الذین یشعرون بالعجز أمام تلک القوی، یمنح اللّه هؤلاء العباد و الرسل تلک الخوارق و المعجزات تأییدا لهم، و تصدیقا لما أتوا به من رسالة، و لا یستطیع البشر أن یأتوا بمثل هذا الأمر الخارق للعادة؛ لأنه بقدرة اللّه جری علی أیدیهم.

و یری ابن خلدون فی مقدمته، أن الرسول یحمل إلی قومه أمرین:

۱- شریعة یوحی بها إلیه، و یدعو الناس إلی اتباعها.

۲- معجزة بین یدی هذا الموحی به تشهد له بأنه رسول من عند اللّه، و أنه صادق فیما یتلقاه، فلا ینظر قومه فی دعوته قبل أن یقیم لهم الحجة علی أنه رسول من عند اللّه إلیهم، و ذلک مما یظهره اللّه علی یدیه من المعجزات المادیة و المحسوسة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۴۹

و إذا نظرنا إلی دعوة إبراهیم، علیه السلام، و صحفه التی حملت شریعته، وجدناها تختلف عن معجزة النار و نجاته من إحراقها، و کذلک إبراء الأکمه و الأبرص، و إحیاء الموتی، بالنسبة لعیسی، علیه السلام، تختلف عن شریعته إلی نبی إسرائیل من دعوة للإیمان باللّه الواحد، و إتمام رسالة موسی، علیه السلام، فالخوارق فی الغالب تقع مغایرة للوحی الذی یتلقاه النبی، إلا معجزة القرآن الکریم، فهی الوحی المدّعی، و هو الخارق المعجز الذی تشاهده فی عینه، و لا- یفتقر إلی دلیل مغایر له مع الوحی، کما هو الشأن فی سائر المعجزات.

خصائص المعجزات العامة:

اختلفت معجزات الأنبیاء تبعا لاختلاف أقوامهم و أزمانهم، و ما لهؤلاء القوم من نزعات و رغبات، و ما یشتهر بینهم من أمور، و ما یلف حیاتهم من عقائد و اتجاهات، و ما یتفشی بینهم من أمراض نفسیة، و خلقیة، و عقلیة، فلیس الناس جمیعا علی وتیرة واحدة، و خلق واحد، و تفکیر واحد، و تبعا لتلک المتغیرات فی النفوس، و الأخلاق، و العادات، و الاتجاهات، کانت حکمة اللّه العالم بهذه المتغیرات، أن تکون معجزاته متمشیة مع ما یعج به المجتمع من أمور، و ما یزخر به من عادات و عقائد تحتاج إلی إصلاح اعوجاجها، و بتر صانعیها، و القضاء علی الشیطان و أعوانه المفسدین فی الأرض.

و مع اختلاف هذه المعجزات بین نبی و نبی، فإنها تشترک فی خصائص عامة تشملها جمیعا بدءا من إبراهیم، علیه السلام، إلی محمد خاتم الأنبیاء و الرسل، فمن هذه الخصائص:

۱- أنها من اللّه سبحانه و تعالی، أجراها علی یدی أنبیائه و رسله إلی خلقه، شاهدة علی صدق الرسول فی تبلیغه عن ربه عزّ و جل، و إذا ثبت صدق الرسول فیما بلغ، کان ذلک مدخلا إلی التصدیق بالرسالة التی یحملها إلی الناس عن طریق الوحی، و هذه المعجزة لا تخضع لما تخضع له أمور الحیاة من ارتباط الأسباب بالمسببات، فإذا وجد السبب وجد المسبب، و إذا انتفی السبب انتفی المسبب، و

إنما تخضع لخالق الأسباب و المسببات، و هو اللّه سبحانه و تعالى، فهو القادر على أن يجريها على سننه، أو على نقيضه، كما حدث فى كثير من المعجزات الحسية، كمنع الإحراق للنار التى ألقى فيها

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۵۰

خليل اللّه إبراهيم، عليه السلام، بأمره سبحانه: كُونِى بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ [الأنبياء: ۶۹].

۲- أن تكون من جنس ما اشتهر بين الناس فى ذلك الوقت الذى وقعت فيه، و لهم بها إلف، و يمارسون نظائرها فى حياتهم، و ما موقف موسى، عليه السلام، مع فرعون و آله إلا دليل على ذلك، فقد كان السحر و السحرة و الكهنة و ما يصنعون، و ما لهم من سيطرة على الخاصة و العامة فى مصر، أدوات التأثير على القلوب، و العقول، و العقائد، حتى أن الجميع يخضع لآرائهم، فلا تبت الأمور إلا باستشارتهم و تبعا لما يأمرون به.

جابه موسى، عليه السلام، هذه المواقف و هو يعلم تمام العلم أنه مؤيد من قبل اللّه بتلك الآية الكبرى التى تنجيه من فرعون و آله، حينما يقول له: قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ [الأعراف: ۱۰۶- ۱۰۸] الآيات التى تعرض نموذجا لموقف الباطل الزاهق أمام الحق الأبلج الذى يدمغه، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ [الشعراء: ۴۶- ۴۸].

و موقف عيسى، عليه السلام، بين أولئك العلماء الذين اشتهروا بعلومهم، و ما كانوا يصنعون من ألوان الطب و المعرفة، فكانت معجزته الكبرى: يبرئ الأكمه و الأبرص و يحيى الموتى بإذن اللّه.

و معجزة محمد، عليه الصلاة و السلام، فيما أرسل به من قرآن كريم، مؤلف من حروف، و ألفاظ، و كلمات، تقع فى أساليبهم، و من جملة ما يتكلمون به و ينطقون، و لكنهم مع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

بان عجزهم، و ظهر تهافتهم إزاء ما يلقى على أسماعهم، و ما يقوله محمد لهم، و ما يدعوهم إليه من تحدّ واضح، فكان منهم ذلك الاتجاه إلى لون آخر من الاتهامات التى لا تقف على قدمين، و لا يسانده دليل من عقل و فكر، من أنه اكتتب هذه الكلمات، فهى تملى عليه بكرة و أصيلا.

هذه عناصر مجمعة لتلك الخصائص التى تتميز بها تلك المعجزات التى كانت سندا لرسل اللّه فى هداية أقوامهم، و تبصرتهم بما فيه صلاح الأمر من العقائد، و المعاملات، و العلاقات الاجتماعية و الروحية التى تربط بين الناس، و كان لهذه المعجزات تأثيرها فى القوم ما بين مصدق بها و مكذب.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۵۱

و بقى علينا أن نعرض لتلك الفروق الواضحة بين هذه المعجزات، و هى فروق لا تدعو إلى المساس بما لها من مكانة و قيمة، فاللّه هو خالقها و مرسلها؛ لتكون هداية لمن وجهت إليهم، و مناسبة لأحوالهم، و لكن نعرضها لتوضيح حقائقها و ما لها من حكمة جديرة بالتناول و التعريف.

و اختلاف المعجزات بين الأنبياء لا يشعر باختلاف فى العقيدة التى أرسل بها الرسل، فالعقيدة واحدة فى جوهرها، و لا اختلاف بين المؤمنين فى كل عصر حيالها، فالإسلام هو دين كل مؤمن من لدن إبراهيم، عليه السلام، حتى خاتم الأنبياء محمد بن عبد اللّه: إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: ۷۹] فى دعاء إبراهيم، و فى قول عيسى، عليه السلام: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ [المائدة: ۱۱۷].

عقائد واحدة، عبادة اللّه وحده، إيمان بالأصول العامة من بعث، و حساب، و جنة، و نار ... إلخ. أما الشرائع، فهى التى تختلف من عصر إلى عصر، و من قوم إلى قوم، و هى تحكم العلاقة بين الخالق و المخلوق: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً [المائدة: ۴۸]، لذلك نجد ألوانا من الفروق و الاختلاف تتضح فيما نعرضه من دراسة تقارنية قائمة على التحليل و الموازنة بين مختلف الشرائع.

اختلاف المعجزات:

بالنظرة الفاحصة، و القراءة الواعية لتاريخ الأنبياء و الرسل، و ما ترك لنا من آثار و كتب سماوية، نستطيع أن نتبين أن اختلاف الشرائع أدى إلى اختلاف فى الوسائل و المعجزات التى أمد اللّه بها رسله، فقد كانت المعجزات السابقة على رسالة محمد بن عبد اللّه الخاتمة تبدو فى الآتى:

١- أن معجزات موسى و عيسى، عليهما السلام، معجزات أمدهما اللّه بها فى مجابهة أقوام كافرين لا يستنكفون أن يطلبوا من أنبيائهم أن يروا اللّه جهرة، و هم أولئك الذين آذوا رسل اللّه، و قتلوا من دعاهم إلى عبادة اللّه وحده، و هم بنو إسرائيل، جماعات صغيرة، لهم انتماءاتهم الأسرية و العصبية، و يشعرون بأنهم أفضل من بقية البشر، و يتميزون على من عداهم من بقية المخلوقات، لذلك كثر منهم العناد، و المحاجة، و الكفر، فكان لا بدّ من معجزة خارقة للعادة تكون طريقا إلى الإقناع و التدليل على

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ١٥٢

صدق الرسول الذى أرسل إليهم، معجزة موائمة لأحوالهم و ما اشتهر بينهم من أمور، فكانت العصا التى تلقف ما صنع السحرة، و تبطل ما وصل إليه العلماء من أسرار، و سطوة على فرعون و آله، إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى [طه: ۶۹].

قال أيضا: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [الأعراف: ١۶٠].

و كذلك إذا نظرنا إلى آيات المسيح، عليه السلام، الذى أرسله اللّه إلى خراف بنى إسرائيل الضالة، وجدنا أن اللّه قد حباه بمعجزات مادية كثيرة مشاهدة بالأعين من تلك الجماعات الصغيرة التى أرسل إليها، فأجرى على يديه إبراء الأكمه و الأبرص، و إحياء الموتى بإذن اللّه.

و قال اللّه تعالى: وَ رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: ۴۹].

و كذلك معجزات سليمان، عليه السلام، و غيره من الأنبياء و الرسل الذين أرسلوا إلى أقوام سابقين محدودى العدد، محصورين فى جماعات صغيرة من قوم صالح، و قوم هود ... إلخ، تأتيهم معجزة تتفق مع طبيعة الرسالة، و لكنها قليلة النتائج فما يلبث القوم إلا أن يرجعوا إلى تكذيب رسلهم كما حدث مع قوم موسى و عيسى، عليهما السلام.

٢- كذلك نرى من خصائص هذه المعجزات أنها تقع فى مكان واحد، يراها فيه أهل ذلك المكان فقط، و هى لذلك وقف على المشاهدين لها فقط، تنقرض بانقراض مشاهديها، كما تشاهد أيضا فى لحظة من الزمن ثم تختفى، و لا يكون لها صفة الاستمرارية، و كلها معجزات مادية محسوسة قريبة من معارف ذلك العصر، و ما اشتهر عند القوم من طب و علوم.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ١٥٣

معجزة القرآن الكريم:

هى معجزة قولية تشاهد بالبصر و البصيرة، تخاطب العقل و الوجدان، و لا يقتصر الإيمان بها على من عاصرها، و إنما يستمر لمن أتى بعدها، و هى أيضا لكل مخلوقات اللّه من إنس و جن، و صالحة لكل زمان و مكان، و خاتمة أيضا لكل الرسالات السابقة، و مصدقة بكل ما جاء به الأنبياء السابقون، لذلك كانت رسالة عامة، جامعة، خاتمة.

و لکن ما خصائص هذه المعجزة؟ و ما أوجه إعجازها؟

لو نظرنا إلی القرآن الکریم، لوجدناه معجزة قولیة، أمد اللّه بها رسوله محمدا؛ لیهدی بها أصحاب البلاغة و الفصاحة، و الذین یعرفون أسرار الکلمة، و ما توحی به استخدامات اللفظة، و ما تهدی إلیه استعمالات الأسالیب، هذا بالإضافة إلی أنهم قوم لدّ فی خصومتهم، مرنوا علی الجدال و الخصام، و برعوا فی تطویع الکلمات لأغراضهم و أفهامهم، و نجحوا فی فنون القول من شعر، و حکمة، و مثل، و نثر، و لهم فی ذلک مجالات خصبة استوجبوا لأنفسهم بها زعامة القوم من بدو و حاضرة، و التقدیر الأدبی فی أسواقهم الأدبیة التی کانت تعقد فی مواسم الحج و غیرها، و تجمع کل الناس الذین ینطقون الضاد بین صفوفها لیتذوقوا الکلمة، و ما تترکه فی وجدانات الناس من تأثیر، و فی عقولهم من تغییر، و ما تثیره من اتجاهات و عقائد، و اختیار السبل التی تعالج الأوضاع الاجتماعیة، و الروحیة، و الاقتصادیة.

لذلک کان التحدی بهذه المعجزة القولیة سافرا أمام القوم فی کل ناد و مجتمع، یقرع آذانهم بلفظه، و معانیه، و طرائقه، و أسالیبه، فیبهتون، و لا یستطیعون تصرفا فی قول، أو محاکاة فی أسلوب، تحداهم القرآن أن یأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بأقصر سورة کذلک، و لکن هیهات أن تقف قدرة عاجزة قاصرة خاسرة أمام قدرة اللّه التی أوحت بهذا القول لرسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم.

فهذا القرآن شاهد علی صدق الرسالة أولا، فمن تدبر فی آیات اللّه، وجد أنها من عند اللّه، لا تمت بصلة إلی بشر، و إذا ثبت ذلک، دل علی صدق الرسول المبلغ به.

لقد أعلن أحد زعماء قریش، و هو الولید بن المغیرة، عجزه حینما ذهب إلی محمد یعرض علیه تلک المغریات التی اعتقد أنها تستطیع أن تغیر مسار دعوة محمد، أو تغریه بمظاهر الحیاة کما تغری أهل الدنیا، أو تفتّ فی عضده، و توهن من عزمه، فقرأ علیه

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۵۴

السلام قول اللّه تعالی: إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِیتاءِ ذِی الْقُرْبی وَ یَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ الْبَغْیِ یَعِظُکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [النحل: ۹۰]، فما کان منه إلا أن رجع إلی قومه، و قال: و اللّه لقد سمعت کلاما ما هو بکلام الإنس، و لا بکلام الجن، إن له لحلاوة، و إن علیه لطلاوة، و إن أعلاه لمثمر، و إن أسفله لمغدق، و إنه یعلو و لا یعلی.

کلام زعیم من زعماء الرأی و المشورة و البیان، و یعرف محمدا فی نشأته و فی صباه، و یعرفه فی مراحل حیاته معرفة سماع أو مخالطة فی بیئة ضیقة یتصل فیها المجتمع بعضه مع بعض، و تتقسم فیه العائلات و الأسر وظائف الحیاة التی یحتاج إلیها المجتمع، فی ذلک المکان الذی هیأه اللّه لعبادته، و أرسی فیه القواعد أبو الأنبیاء إبراهیم، علیه السلام؛ لیکون أول بیت للّه فی الأرض لعبادته.

کانت للقرآن و لا تزال تلک المکانة العلیا التی أرادها اللّه لکلمته الهادیة، و التی عبرت عنها الآیات القرآنیة فی وصف أثره فی نفوس المؤمنین به فی قوله تعالی:

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ [الزمر: ۲۳].

و فی آیة أخری: إِذا یُتْلی عَلَیْهِمْ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً وَ یَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ کانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا وَ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ یَبْکُونَ وَ یَزِیدُهُمْ خُشُوعاً [الإسراء: ۱۰۷- ۱۰۹].

کتاب معجز یخاطب العقل و الوجدان، و یرسل هدایته إلی کل جبل یتحدی بإعجازه الزمان و المکان؛ لأنه من لدن حکیم خبیر.

و هذه المعجزة من جملة ما نطقت به الألسن، و ما جری فی الاستخدام اللغوی من حروف و ألفاظ، و لکنها فی الذروة من البلاغة التی لم تعهد فی تراکیبهم الأسلوبیة، و لم تتخلف هذه البلاغة، و لم تضعف هذه الفصاحة، بالرغم من کثرة سوره، و تکرار موضوعاته و أغراضه، و اختلاف أسالیبه و عباراته من إیجاز، و إطناب، و تقدیم، و تأخیر، حتی أن هؤلاء العرب و حذاق الکلام مع شدة عداوتهم للإسلام، لم یجدوا فیه مجالا لطعن، بل قالوا: إنه لیس من جنس الخطب و الشعر، و بدءوا ینسبونه إلی السحر مرة، و إلی أنه إفک مرة أخری افتراه محمد، و أعانه علیه قوم آخرون، أو أساطیر الأولین اکتتبها، فهی تملی علیه بکرة و أصیلا.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۵۵

افتراءات و اتهامات اتخذت طريقها إلى شخص الداعی، و هو الرسول، و لم تتجه إلى صلب القرآن الكريم و ما به من إعجاز، لعلمهم اليقينی أنه ليس من كلام البشر، و ليس فی مقدورهم الإتيان بمثله، لذا كان من جانبهم التحذير لأنفسهم و لأصحابهم من الاستماع إليه، فقالوا: لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت: ۲۶].

و مع شدة عداوتهم للرسول، و كفرهم بما جاء به، كانوا يتسابقون خفية إلى الاستماع لهذا القرآن، ثم إذا انكشف أمرهم، تعاهدوا على عدم الرجوع مرة ثانية، و كتمان هذا الأمر حتى لا يفتضح أمرهم أمام قريش.

كل هذا يدل على أن القرآن معجزة رسول اللّه العقلية ببلاغته، و وجوه إعجازه العديدة التی لا تقف عند لون معين، و طريق واحد، و قد عجز العرب عن الإتيان بمثله، و لكن أخذتهم العزة بالإثم، إذ كيف يخضعون لمحمد، و يتركون دين الآباء و الأجداد، و يعبدون الواحد الأحد، و يتنازلون عما لهم من كبرياء؟ دفعهم ذلك كله إلى أن يقفوا من رسول اللّه موقف المحاربة و القتال؛ للصد عن سبيل اللّه، و قد يعرضهم ذلك إلى سبی نسائهم و أطفالهم، و قتل الرجال منهم، و بذل المال الكثير فی سبيل المعارك، و إعداد العدة لقتال المسلمين.

لما ذا اختار العرب المشركون موقف المحاربة من محمد؟ اختاروا هذا الطريق، مع ما فيه من تضحية و دم و مال؛ لأنهم أنفوا أن يقروا بعجزهم أمام تحدی الرسول صلى اللّه عليه و سلم لهم فی كل وقت و حين بهذه الآيات القوية فی دلالاتها: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِی رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ [البقرة: ۲۳، ۲۴]. و قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [الإسراء: ۸۸].

و لو كان هؤلاء الكفار من قريش و أتباعهم يظنون أن محمدا يستعين بغيره من القارئين و الأحبار و الرهبان، لأمكنهم أيضا أن يلجئوا إليهم و يستعينوا بهم، فلما لم يفعلوا ذلك، و آثروا أن يقفوا من محمد موقف المحاربة و النزاع، دلّ ذلك على أن القرآن معجز، و أن بلاغته و وجوه إعجازه عديدة، لا تقف عند حصر، فلا يستطيعون لها تقليدا، و يعجزون عن معارضتها.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۵۶

الأسلوب القرآنی و تأثيره:

أتی القرآن الكريم بأسلوب معجز، متميز عن بقية الأساليب المألوفة فی وقته؛ لأنه من اللّه، فبهر الناس حينما سمعته، و أسر منهم القلوب، و سيطر على نفوسهم، فاستجابت الأفئدة إليه، و لم تنأ عنه إلا- تلك القلوب المريضة التی قست كالحجارة، فلم تستجب لدعوته، و رصدت نفسها لمحاربته و الوقوف أمام دعوته فی الهداية للحق؛ حفاظا على ما لهم من سلطة، و دفاعا عن تقاليدهم العفنة، و عباداتهم الباطلة، حاربوا القرآن بمحاربة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فأخذوا يكيلون إليه التهم الباطلة، و يلفقون الأكاذيب، و يمنعون الناس من الاستماع إليه، و يعذبون من يتلو القرآن من صحابة رسول اللّه فی المسجد الحرام، سلكوا هذه المسالك؛ لأنهم عجزوا عن محاكاة القرآن، أو الإتيان بمثل أقصر سورة فيه، و تهاوت أسلحتهم العديدة أمام هذا الكلام المعجز بلفظه و عباراته، و سبكه و صياغته، و أخباره و نواهيه ... إلخ، كل هذه الألوان المؤلفة من جنس ما يقولون و يؤلفون، و لكنهم عاجزون أن يأتوا بمثله، و هو الذی سمعته الجن، فقالوا: إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِی إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً [الجن: ۱، ۲].

و سمعه نفر من النصارى، فخشعت له قلوبهم و قالوا، كما عبر القرآن الكريم:

ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ

الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ [المائدة: ۸۲، ۸۳].

و سمعه زعيم من زعماء قريش، فقال: إنه يعلو و لا يعلى عليه. نطق بالشهادة الحق فى قرآن اللّه الذى كان له وقعة فى القلوب و النفوس، فكان يقتلع منها عقيدة الشرك و هجمة الباطل.

و ما لنا نذكر ذلك الموقف الذى كان له تأثيره فى مجرى الأحداث فى بدء الإسلام، فأمد الإسلام بجبار الجاهلية عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه و أرضاه، لقد دخل على أخته حينما سمع بإسلامها يريد أن يبطش بها، و تناولت عيناه صحيفة القرآن، فقرأ: طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى [طه: ۱- ۶]، فأخذته رجفة عنيفة أصابت مكمن الحقيقة من نفسه، و قلبه، و عقله، فقال: دلونى على محمد.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۵۷

موقف تعجز مؤثرات الحياة و مغرياتها أن تحول تلك الطاقة من نقيض إلى نقيض، من جاهلية، إلى إسلام، من شدة بغض، إلى تفان فى حب، من جبار فى الجاهلية، إلى عادل فى الإسلام، كل ذلك فعلته تلك الآيات القرآنية التى جمعت بين الأسلوب الإنشائى فى النداء بكلمة: طه، و بين الإخبار بالنعم الجليلة التى أسبغها اللّه على عبده محمد، و هى نعمة القرآن و الإسلام، و ما به من سعادة، و التذكرة لأصحاب القلوب التى تخشى اللّه، و الإعلام بخالق الأرض و السماء، و الجدير بالعبادة، و الإيمان، و الطاعة. كل ذلك كان سبيلا إلى قلب عمر و عقله، فاستجاب للّه، و كان سلاح الإسلام و عونه ضد الشرك و أعوانه.

موقف آخر يدل على تأثير القرآن فى النفوس المتفتحة لقبول الدعوة و الاستجابة لكل معروف، فقد أرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أول معلم للقرآن إلى المدينة بعد أن دخل بعض أهلها فى الإسلام، و هو مصعب بن عمير، فأخذ يعلمهم القرآن، و علم بذلك سعد بن معاذ سيد الأوس، ففزع فزعا شديدا، و رأى أن هذه بداية لشىء خطير يزلزل من مكانته، فقال لابن أخيه أسيد بن خضير: أ لا تذهب إلى هذا الرجل و تزجره؟! فلما ذهب إليه أسيد، قال له: ما جاء بك؟ و هدده، و قال له: اعتزل إن كان لك فى نفسك حاجة، و لكن مصعبا أجابه فى ثبات المؤمن، قائلا: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، و إن كرهته كففنا عنك ما تكره.

ثم أخذ مصعب يقرأ القرآن، و أسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم ذهب إلى عمه، و قال له: ما رأيت بالرجل بأسا، فغضب سعد، و ذهب إلى مصعب ثائرا، فاستقبله مصعب بمثل ما استقبل به أسيدا، و انتهى الأمر بإسلام سعد الذى ذهب إلى قبيلته و جمعها، و قال: ما تعدوننى فيكم؟ قالوا: سيدنا و ابن سيدنا، فقال سعد: كلام رجالكم و نسائكم علىّ حرام حتى تسلموا، فأسلموا جميعا.

و يكفى أن هذه الآيات من كلام رب العالمين، الآمر بكل حسن، الزاجر عن كل معصية، الداعى إلى مكارم الأخلاق، الهادى إلى الصراط المستقيم، و المعجز بكل صوره و أشكاله الأسلوبية التى صيغ منها، فهو متنوع بين الأسلوب الخبرى و الإنشائى، و الإيجاز و الإطناب، و الأسلوب المباشر، و الأسلوب القصصى، و الأسلوب المعتمد على الوصف، و الأسلوب الحكمى، و الأسلوب القائم على ضرب المثل، إلى اللفظ المعبر، و التعبير المصور و المشخص، كل هذا التنويع جاء فى مقامه، و نجح فى تحقيق أهدافه،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۵۸

و كل هذه الأسرار الأسلوبية دفعت أصحاب البلاغة إلى تلمس معرفتها، و الوصول إلى خفاياها.

و لما كان ليس فى مقدرونا الإحاطة بكل هذه الأساليب و تناولها بالدراسة؛ لضيق الحيز، و لصعوبة التناول، فإننا نستطيع بإذن اللّه أن نخلص من تلك الأساليب إلى ما هو أساس بحثنا، و عنوان مؤلفنا، و هو أسلوب الأمثال القرآنية، و طريقة تكوينها و أهدافها.

أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم:

أفاضت كتب التفسير قديمها و حديثها فى بيان أوجه الإعجاز القرآنى، و إنا لموجزون تلك الأوجه إتماما للفائدة فى هذا المقام:

۱- لا تقتصر جوانب الإعجاز القرآنی علی الجانب اللفظی و ما به من فصاحة فی الأسلوب استحوذت علی أفئدة أرباب الفصاحة من قدیم الزمان و حدیثه، و لا علی بلاغة تراکیبه و ما حوته جمله من طرائق عدیدة فی التکوین، و الترکیب، و التنویع «۱»، من جوانب لفظیة شملت ما کان عند العرب سابقا فی آدابهم من شعر، و نثر، و حکمة، و بیان، و إلا لکان ذلک قاصرا علی من ینطق بهذه اللغة فقط، و لا یستطیع التأثیر فی المخاطبین الذین یکلفون بأمر هذا الدین، و یستجیبون له من الأمم الأخری.

و لذا فإن أمر الإعجاز یتعدی الجانب اللفظی، و فصاحته، و بلاغته، و سمو تراکیبه، إلی جوانب أخری تشد انتباه الناس حقا فی کل عصر، و فی کل مکان، و لذا توضع موضع الاهتمام و الدراسة، و تحظی بکثیر من التقدیر و الاحترام، و یمکننا أن نشیر إلی بعضها فی الآتی.

۲- حفل القرآن الکریم بأخبار السابقین و القرون السالفة التی هلکت، کما یحمل أخبارا مغیبة عن انتصارات و أحداث وقعت مثل فتح مکة، و انتصار الروم علی الفرس.

۳- کشفت آیات القرآن الکریم عن ألوان النفسیات التی یعج بها المجتمع فی قدیم الزمان و حدیثه، و بخاصة أهل النفاق، و ما لهم من خصائص.

---

(۱) و اشتماله علی جمیع فنون البلاغة من ضروب التأکد، أنواع التشبیه و التمثیل، و أصناف الاستعارة، حسن المطالع و المقاطع، حسن التواصل، التقدیم و التأخیر، الوصل و الفصل، إلی آخر ما هنالک.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۵۹

۴- یحمل أیضا القرآن الکریم فی طیاته منهجا کاملا یعالج الزمان و المکان، و یصلح من شأن العباد فیهما، و یصلح أمر الدنیا و الآخرة بما یحویه من قیم و أوامر، و ما یضعه من تعالیم صالحة للتطبیق فی کل حین: لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ [فصلت: ۴۲].

هذا قلیل من کثیر من جوانب الإعجاز القرآنی الذی تحدی به العرب و غیرهم من حیث المحتوی الذی أفحم المفکرین علی اختلاف العصور، فکیف یتأتی لمحمد صلی اللّه علیه و سلم فی تلک الفترة القصیرة التی دعا فیها إلی الإسلام أن یبتکر و تظهر هذه التشریعات التی تناولت جمیع مجالات الحیاة سیاسیة، و اقتصادیة، و تربویة، و عقائدیة، و تشریعیة، لا تقتصر علی وقت معین، أو تهتم بجیل خاص، و إنما تصلح لجمیع الأزمان، و الأمکنة، و لجمیع الأجیال التی تختلف فی تفکیرها، و علومها، و قدراتها، بتلک الأحکام الضابطة لأمور الدنیا و الآخرة جمیعا لا تتغیر؛ لأنها من وضع العلیم الخبیر الحکیم.

مظاهر التیسیر فی القرآن:

۱- نسب اللّه سبحانه و تعالی إلی ذاته القدسیة فضیلة التیسیر، فقال: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ [القمر: ۱۷]، و ذلک للترغیب فی قبول ما یأتی به من شرائع یسودها الرفق، و الرحمة، و الیسر، و فی کثیر من مظاهر العبادات التی فرضت علی الإنسان، فهو الرحیم بعباده، و لا یکلف نفسا إلا وسعها.

۲- کانت الحمایة من لدنه لقرآنه من التحریف و التبدیل الذی لحق بالکتب التی أنزلت علی موسی، و عیسی، علیهما و علی نبینا أفضل الصلاة و أزکی السلام، و الحمایة له أیضا من الضیاع بالنسیان و الغفلة، فقد یسر حفظه لکل راغب، و قراءته و تلاوته فی کل وقت لکل قاصد.

۳- کان الرسول یتلوه، و یقرؤه، و یکرره مرات و مرات، فی لیله و نهاره، فی صلاته و سجداته، و یحب أن یسمعه من غیره؛ تنشیطا للهمم، و حفزا لأصحابه، و إثارة للعلم و التعلیم فی نفوسهم.

۴- بالإضافة إلی أنه یطبق القرآن فی حیاته کمنهج للحکم یسیر علیه المؤمنون فی حیاتهم، و یحکم به المجتمع فی تآلفه و ارتباطاته، و تدعی إلیه الأمم و الشعوب الأخری فی تعاملاتها و تعاقداتها، و تصاغ علی هدی تعالیمه سیاسة الأمة الإسلامیة، و تحکم بمقتضاها شعوبها من قبل الحکام.

أ لیس فی ذلک مظهر من مظاهر التیسیر للذکر و التذکر، و الحفظ و الانتفاع بالفهم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۰

و الاسترشاد؟. ذلک کان وعد اللّه لعباده المؤمنین و لرسوله الأمین: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر: ۹].

بقی علینا أن نتعرف الغایة، و أن نعرف الحکمة، و أن نتبصر أمورنا فی الحیاة بمختلف اتجاهاتها سلما و حربا، علما و عملا، عظة و اعتبارا، تطبیقا و إدراکا، سلوکا و فهما، حکما و سیاسة.

هل من مدکر؟ سؤال یوقظ فی کل نفس معانی المعرفة، و الإدراک، و الفهم، و الاتعاظ بما حدث فی الماضی، و العمل علی إصلاح الحاضر، و الطموح لبناء المستقبل، دعوة موجهة للفرد، و الجماعة، و الأمة، کی یعی کلّ دوره، و إمکاناته، و مسئولیاته فی معترک الحیاة.

دعوة موجهة لتحمل الأمانة الکبری التی أنیطت بأعناق کل من وقع تحت دائرة التکلیف السماوی، أمانة الاختیار، و حریة الإرادة، و القدرة علی تحمل المسئولیات، اختیار الإنسان الظالم لنفسه، الجاهل بحقیقة دوره و وضعه، تلک الأمانة التی عرضها اللّه سبحانه و تعالی فی قوله تعالی: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَیْنَ أَنْ یَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ کانَ ظَلُوماً جَهُولًا [الأحزاب:

۷۲].

أمانة ترینا الفرق بین مکلف و مکلف، بین السموات و الأرض و الجبال، و بین ذلک الإنسان القوی الضعیف صاحب الإرادة و الاختیار، أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْکَها فَسَوَّاها وَ أَغْطَشَ لَیْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها وَ الْجِبالَ أَرْساها مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ [النازعات: ۲۷- ۳۳].

اقتضت النظرة الإلهیة لهذا الإنسان الذی خلقه فی أحسن تقویم، و میزه علی بقیة المخلوقات بالعقل و التدبیر، أن جعله محلا لکرامته بالرسالات و الکتب؛ لیحقق الحکمة من وجوده، وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ ما أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِینُ [الذاریات: ۵۶- ۵۸].

و قوله تعالی: إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِیها مَنْ یُفْسِدُ فِیها وَ یَسْفِکُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قالَ إِنِّی أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ [البقرة:

۳۰].

و الخلافة تقتضی تعمیر الکون علی بصیرة من الأمر، و التکوین للذات الإنسانیة، و التحمل للمسئولیات التی یترتب علیها الجزاء من ثواب و عقاب فی الدنیا، و کذلک

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۱

فی الحیاة الأخرویة التی تفرز الطیب و الخبیث، و تحقق عدل اللّه لمن حرم هذا العدل فی دنیاه، و استدامة حیاة أخری تلیق بخلیفة اللّه، الإنسان، عن بقیة المخلوقات التی خلقت من أجله، و عاشت فی دنیاه من کل ما خلق اللّه.

و هذا الأمر من تحقیق حکمة الوجود الإنسانی، و الداخل فی علم اللّه الذی ینفرد به وحده، و یغیب عن مدرکات مخلوقاته الأخری، الملائکة التی أمرت بالسجود تنفیذا لأمر اللّه، سیکمل و یتحقق ما دام خاضعا للمنهج الإیمانی الذی حدده اللّه فی قوله إِلَّا لِیَعْبُدُونِ [الذاریات: ۵۶]، فالعبادة التی یرتضیها اللّه لعباده الذین خلقهم هی العبادة التی تنتج عن تفکیر، و إرادة، و حریة، و اختیار، و علم، و

بصر، و التی توجب الامتیاز و التفضیل عن بقیة المخلوقات التی لا تملک هذه الوسائل، و لا تستطیع الحصول علیها بحکم تکوینها و إمکاناتها، و إن کان ما خلق اللّه جمیعه من أرض، و سماء، و نبات، و حیوان، و طیر، تشترک جمیعها فی عبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد، تعبد اللّه و تؤدی دورها فی الحیاة أداء طاعة و تسخیر لما خلقت من أجله، و بما یتناسب مع خصائصها و ذواتها، وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ [الإسراء: ۴۴].

۵- و من مظاهر التیسیر التی کتبها اللّه لقرآنه، أنه قد حفظ بالکتابة و الطباعة علی مدی العصور، فقد سخر اللّه الإنسان حتی من لم یؤمن به، لکی یشترک فی أمر المحافظة علیه، و ذلک أنه أخذ صفة العالمیة فی وقتنا الحاضر، فالفن بکل إبداعاته یتجه إلی إخراجه فی أبهی صورة له فی أنحاء العالم، مؤمنه و کافره، و تتسابق إلی ذلک دور الطباعة و النشر فی سبیل إخراجه و إبرازه علی الوجه الأکمل الذی یحفظه من التصحیف و الضیاع.

۶- و من فضل اللّه علینا و علی الناس، أن سهل حفظه علی الناشئة فی صغرهم، و یسر نطقه و قراءته علی تلک البراعم الصغیرة التی ترغب فی تعلیمه و حفظه، فهم عن طریق التلقین یستمعون و یکررون القول، و ینطقون الآیات و الحروف تبعا لما یسمعون، و یعلق هذا بأذهانهم حتی علی غیر الناطقین باللغة العربیة.

و الإنسان یأخذه العجب، و تتملکه الدهشة، حینما یسمع إلی قارئ القرآن ینطق الآیات نطقا سلیما یدل علی حبّ شدید لما یقرأ، حبّ یملک علیه نفسه و قلبه، فإذا

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۲

تقرّب منه و تعرّف علیه من خلال لغته، و لهجته، و زیّه، و شکله، رآه باکستانیا، أو هندیا، أو ترکیا ... إلخ، لغته غیر العربیة، و مع ذلک فالنطق، و الاستماع، و الفهم، و القراءة لتلک الآیات البینات التی أوحاها اللّه لنبیه، علیه السلام، یدل علی أن اللّه جلت قدرته قد حفظ هذه الآیات، و یسرها للذکر: إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ [ق: ۳۷]، فقارئه لا یسأمه، و سامعه لا یمجه، بل تکراره یوجب زیادة محبته.

۷- و کما یسر اللّه قراءته علی الناس، یسر علمه علی قلوب قوم، و یسر فهمه علی قلوب آخرین، فکان من الدراسات التی تفرّعت عنه ما أحاط بالحیاة و ما فیها من حاجیات النفوس، و ما ینتابها من مشکلات، و لقد استطاع الفقهاء و العلماء و الباحثون فی شتی المجالات، أن یستخرجوا من کنوز هذا القرآن المحفوظ من رب العالمین ما یعالج أدواء الحیاة التی تخنقها الأزمات، فأبانوا عن شریعة اللّه التی یسودها الیسر، و الرفق، و الرحمة، و التی یسهل علی الناس قبولها، و علی العقول فهمها، و علی الجمیع تطبیقها و العمل بها، متی تم لهم الإیمان، و قوی الیقین.

۸- و لقد عرفت الأمم و الشعوب ما فی هذا الکتاب المنزل من قبل السماء من دعوة للحق، و شریعة صالحة لکل زمان و مکان، و إیمان باللّه، فبدأ الانکباب علی دراسته، و معرفة أسراره، و الإلمام بجمیع جوانبه، حتی کثرت ترجمة معانیه إلی لغات أجنبیة عدیدة، و تواترت الأخبار أن ترجمة معانی القرآن الکریم إلی لغات الشعوب الظامئة إلی معرفة الإسلام، و اعتناق هذا الدین، وصلت إلی سبعمائة لغة، و هذا من فضل اللّه منزله، فقد کتب له الحفظ فی الصدور، و الاستمساک به فی العمل، و الحمایة من التبدیل و التحریف، و الحمایة من عبث العابثین، و حقد الحاقدین: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر: ۹]، و قال أیضا: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ [القمر: ۱۷].

فاللّه قد کتب التیسیر علی نفسه و الحفظ لکتابه بهذه الأسالیب المؤکدة التی تنزع ما یلحق بالنفس من عدم قدرتها علی الإحاطة بهذا الکتاب، و حفظه، و فهمه، و إدراک ما فی جوانبه من أمور فیها صلاح الحیاة و البشر، و الحاضر و المستقبل، و فی ذلک رد علی الذین نصبوا أنفسهم للتربیة و تعلیم شباب الأمة، و عملوا علی أن یباعدوا بین الناشئة و حفظ القرآن الکریم، بدعوی أن الحفظ یلغی

ملكة التفكير، و يقعد بالطفل عن الفهم و استغلال الإمكانات فی البحث و الإدراک.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۳

و لو علم هؤلاء أن طريق التجربة خير طريق، و خير دليل لإثبات صدق ما يعرض من قضايا، و الحكم عليها بالصلاحية و عدمها، لما احتاجوا إلى تذكرة بتلك التجارب التی مرت بها شعوبنا الإسلامية فی مراحل طفولتها، و تربية شبابها أيام أن كانوا فی حضن مدرسة محمد صلى اللّه عليه و سلم، و فی أيام عزة الإسلام و منعته، كانت التربية القرآنية من حفظ، و فهم، و تطبيق، الشعلة التی أضاءت لهم طريق الحياة، فخرّجت صحابة و تابعين، فرسانا بالنهار، و عبادا بالليل، يحاربون من أجل كلمة اللّه، و نشر كلمة الإسلام، و الصد لهجمات الكفار الشرسة أيام الرسول و صحابته، و أيام الصليبيين و التتار، لو لا هؤلاء الحفظة و ما تفعله فيهم تلك الآيات البينات من الأثر النفسی و العقدی من طلب للاستشهاد فی سبيل اللّه، ما كان للإسلام بقاء، و لا للدين وجود.

و إننا لنذكر تلك الغزوة الشهيرة التی تلاقت فيها تلك الجموع الغفيرة من أعداء كلمة اللّه بقضها و قضيضها، و أسلحتها و عتادها، مع تلك الفئة التی أخلصت للّه وحده، و حملت لواء الإسلام عقيدة و سلاحا، و كان الصراع شديدا، و الهجمة قاسية من الأعداء على صفوف المسلمين، حتى تراجعت منهم الصفوف، و زلزلت القلوب، و كادت الدائرة تكون عليهم، لو لا أن قام القائد المسلم المناضل بتذكر ما يجب أن يتذكره فی موقفه من اللّه، و من دفاعه عن كلمة اللّه، فنادى فی أصحابه: يا أصحاب سورة البقرة، النداء للقرآن، و من أجل القرآن، فرجعوا جميعا إلى حومة القتال، و كان اللّه منزل القرآن معهم، فكان النصر المبين.

دعوات هدامة:

و إذا كانت الدول الحاضرة، الغنية بمواردها، و الحافلة بعلمائها، و المتقدمة فی مجتمعاتها، و السباقة إلى أجواز الفضاء بسفنها و مراكبها، قد اهتمت بلغاتها، و أخذت منها سبيلا إلى فرض سيطرتها على غيرها من الشعوب و الأمم، فاختارت من نماذجها البشرية المتفوقة فی الشعر و الأدب ما تجعله محط أنظار أطفالها و شبابها فی مراحل تكوينهم اللغوی و الأدبی، و ذلك باختيار ما تراه من نماذجهم الشعرية و النثرية للدراسة و الفهم و المحاكاة.

إذا كانت هذه الدول تنحو هذا النحو، أ فلا نستطيع أن نقدم لأبنائنا ذلك الأنموذج الأمثل الذی جعله اللّه سبحانه و تعالى نورا و هدى للقلوب و العقول فی بداية ما يتمثله الأبناء من قول و عمل؟.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۴

و إذا كانت لقمة العيش و العمل من أجل الحياة و التغلب على أزماتها و صعابها، و ظروفها الاقتصادية، قد أدت إلى لون من التقارب بين أمم و شعوب قد اختلفت فی مذاهبها، و تباينت فی لغاتها و أنظمتها السياسية و الاجتماعية، كما يحدث الآن فی أوربا، أ فلا نملك نحن أمة القرآن أن نجعل هذا القرآن طريق اتصال لغوی و فكری و عقدی بين هذه الشعوب التی حباها اللّه بالإسلام دينا، و بالقرآن دستورا؟

إن الاتصال اللغوی هو الطريق إلى الاتصال الفكری، و إذا توحّدت اللغة، و تقاربت الأفكار، كان ذلك أدعى إلى تحقيق وحدة قوية بين الأفراد و المجتمعات و الأمم، و إننا نستطيع أن ندرك بعد أن اتضحت النوايا، و تكشفت أساليب الحياة التی تمارسها القوى الكبرى، و تخضع لها الدول الصغرى فی تعاملاتها السياسية و الاقتصادية، أن شرّ ما يبتلى به مجتمع مسلم أن يخرج إنسان إلى مجالات الحياة، و أن يتخرّج من مراحل التعليم و لا يستطيع أن يقرأ سورة من السور القصار، و لا أقول: يحفظها أو يفهمها.

إن تلك الدعوى القائمة على الاهتمام بالعقل و نموه و إدراكه، و إهمال جانب الحفظ، إنما هی دعوى هزيلة مريضة تضيع شخصية الأمة، و تقوّض لغتها التی اختصت بها، و لم يدفع إلى تلك الفكرة إلا ما يختبىء وراءها من رواسب التأثير الفكری المتشبع بالتيارات الغريبة و الأجنبية التی حكمت عقولنا و أفهامنا ردحا طويلا من الزمن.

و من عجب أن نجد لهذه الدعاوى أنصارا و مؤيدين بين صفوفنا، علما بأن دعاتها لا يذهبون فى كتاباتهم و أساليبهم مذاهب التحرر من اللغة و استخدام كلماتها، و التحرر من قواعدها، و الميل إلى التبسط فى الألفاظ، و التساهل فى الضوابط التى تحكم شعرهم و نثرهم.

نراهم مع تلك الدعاوى التى يطلقونها، شديدى المحافظة على الأطر التى تعلموها فى مراحل التعليم، و لهم من أساليبهم المميزة التى تثير عند قارئها هزة و عجبا، مما يدل على اعتنائهم فى صغرهم بحفظ القرآن الكريم، و اهتمام بطريقته فى صياغة الأساليب المتباينة من خبر إلى إنشاء، و إيجاز، و إطناب، و تقديم و تأخير ... إلخ، بل و نرى بعضهم يصل بأسلوبه الذى خص به إلى درجة تتشابه مع أولئك الأدباء فى العصر الأموى و العباسى.

فهذا الارتباط الفكرى و العقلى مما يدل على شدة الإعجاب الذى سيطر على ذلك

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۶۵

الكاتب أو الشاعر، فسار به إلى هذا المنحى و الأسلوب، فما يصدر عنه من دعوى إلى التساهل فى اللغة، و عدم الارتباط بقواعدها و قوانينها، و استخدام العامية فى التعليم، و عدم الحفظ و الاهتمام بتعليم القرآن، إنما هى أمور دفعت إليها ظروف تعليمهم و تربيتهم التى ربوا عليها و شجعتهم على خدمة أغراضها الاستعمارية التى كانت سائدة، أو تحقيق مصالح فئوية أو طائفية لها ظروفها و أغراضها، لذا لم تجد أمامها تلك التربة التى تحفظ لهم ما بذروا، و لم تستجب لرجواتهم فى الإثمار لتلك الأفكار المدسوسة و الخبيثة، ما لبثت أن ماتت فى مهدها و ظهرت أفكار طاهرة أخرى ربطت الماضى بالحاضر، و استعلت على كل أزماتها و استغلت كل إمكاناتها فى الخبرات المتجددة، و النور الذى أفاء اللّه به على عباده المخلصين فى استلهام نور اللّه، و قرآنه فى خطوات الحياة التى يجب أن يحياها المسلم الآن.

إن تجربتنا فى حفظ القرآن الكريم فى مرحلة الطفولة، تجربة دفعت إليها حكمة الآباء، و رغبتهم فى تقويم الألسنة، و إصلاح الأخلاق، و التهيئة لاستقبال أمور الحياة بسلاح قوى.

و كان الخطباء أصدقاء للمنابر، يعتلون منصتها، و يتدفقون كالسيل المنهمر فصاحة و أسلوبا مما يعد أنموذجا رائعا للبيان العربى القويم الذى طبع بالطابع القرآنى استشهادا و تمثلا و اقتباسا.

و بهذا الطريق وحده حفظت بلادنا من محو شخصيتها الإسلامية العربية تحت تأثير الألوان من الاستعمار التى جثمت على صدورنا فترة طويلة من الزمن، الاستعمار الثقافى بتأثيره و سحره فى النفوس و العقول، و الاستعمار السياسى و الاقتصادى بجبروته و سطوته التى هيمنت على مختلف شئوننا الاقتصادية و العسكرية.

و إننا إذا نظرنا إلى واقع بلاد عربية أخرى تعرضت لظروف مماثلة لما تعرضنا له فى إفريقيا، رأينا أن الاستعمار الفرنسى استطاع أن يثبت أقدامه فترة طويلة من الزمن حتى كاد ينجح فى محو شخصية هذه البلاد التى تحكم فيها من جرّاء سيطرته أساسا على لغة البلاد، و فرض لغته الفرنسية لغة حديث، و مخاطبة، و تعليم، و تضاءلت بذلك الاهتمامات باللغة العربية، و بالتالى حفظ القرآن الكريم، مما مكن ذلك المستعمر من خلق أجيال غريبة اللسان و اللهجة و الثقافة، و طبعت بعادات بعيدة كل البعد عن عادات و أخلاق المجتمعات العربية.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۶۶

و كانت هذه التحوّلات حجر عثرة فى سبيل التغلب على هذا الاستعمار الذى لم يقتصر على الجانب العسكرى و السياسى، و لكنه قضى على شخصية هذا الشعب العربى بقضائه على لغته و أصالته، إلى أن عرف طريقه و بدأ يحس بالحاجة إلى عودته إلى اللغة الأم، اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

أما مصر، فقد استطاعت أن تخرج من هذا الفخ الذى نصب لها بفعل عوامل عديدة، كان من أبرزها وجود الأزهر الشريف، الذى كان

له من تأثیره الدینی و اللغوی ما یعد صمام أمان، و حمایة للغة العربیة من الضیاع و الضعف، و صیانة للألسنة من تغلب العامیة، و اللهجات المحلیة من السیطرة و التغلب علی لغة الحدیث و الکتابة، و بالتالی لم یسمح للغة الأجنبیة أن تزحزح اللغة العربیة عن مکانها و مکانتها التی لها فی النفوس، و التربیة و التعلیم.

و ها نحن الآن نری مظاهر نشاطات لتلک الأجهزة المهیمنة علی أمور التعلیم و التثقیف، و الدعوة الإسلامیة فی الاهتمام بتحفیظ القرآن الکریم، و عقد الحلقات التی یشترک فیها الکثیر من الأطفال و الشباب، و عقد مسابقات یتبادی فیها الجمیع فی مختلف المحافظات، و المدارس، و المساجد.

و هذه الصحوة المبارکة، إنما هی إعداد للحیاة الکریمة عن طریق القیم النبیلة التی یتلقاها الجمیع من وراء الآیات القرآنیة، و التعرّف علی أهدافها و مرامیها.

قد تکون هناک دعوات أخری معارضة لهذه الاتجاهات، کما نشر أخیرا فی إحدی الصحف عن اعتراض أحد أولیاء الأمور علی تکلیف أطفاله حفظ آیات من القرآن الکریم، و قد یکون فی ذلک ما یعارض عقیدتهم أو ما یؤثر فی تفکیرهم.

لقد تولی مواطن آخر یشترک معه فی العقیدة، الرد، فأنکر علیه قوله، و أعلمه بما لهذا التعلیم و الحفظ لآیات اللّه من آثار خلقیة و لغویة فی مصلحة الطفل أن یتعلمهما، و یقتدی بتلک القیم التی تدعو إلیها، فهی قیم مشترکة بین الأدیان جمیعها، لا تختلف من دین لآخر، ثم ضرب أمثله عدیدة من تاریخ زعماء ملکوا ناصیة البیان، و أجادوا حفظ القرآن الکریم، و لم یکن ذلک بمخرج لهم عمّا هم فیه من اعتقاد، و لم یرید هذا الأب أن یخرج ابنه معوج اللسان، سقیم التعبیر، لا یستطیع أن ینطق بجملة صحیحة فی بنائها و ترکیبها؟ أ یرضی أن یستقی أسلوبه و تعلیمه من أسالیب البشر، و لا یحب أن یأخذ ذلک من قرآن خالق البشر؟.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۷

و أما الجانب الآخر، فهو ما یعرضه القرآن الکریم من هدایة للخلق، و التبصرة بالأمور، و الدعوة إلی معرفة الصالح من أمر العقیدة، و الابتعاد عن تقلید الآباء و الأجداد فی الفاسد من العمل، و القبیح من الأخلاق، و تنزیه اللّه الخالق الجدیر بالعبادة و الطاعة عن کل شوائب الشرک.

هذه أمور فاضت بها آیات القرآن الکریم فی کل سورة، و فی مطلع کل شمس، و فی کل لحظة حیاة تنبت نبتة من فکر، و تظهر بارقة من أمل فی فهم جدید فی کل آیات اللّه الکونیة و العقلیة، حتی أن الإنسان لیحار و یعجب کیف استغلقت هذه الأمور علی أفهام العقلاء، و غابت عن أبصار الرائین.

أ لم یدع القرآن الکریم فی أول أمر له إلی القراءة: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ [العلق: ۱- ۵].

دعوة إلی القراءة الواعیة فی صحف الوجود، و فی کتب العلم و أجلها القرآن، و بغیرها لا یهتدی الإنسان إلی اللّه سبحانه و تعالی، و لا یتعرف علی خالقه، و ربط القراءة بالقلم، و بخلق الإنسان و تطوره حتی یکون من ذلک معرفة حقیقیة بالکون و خالقه ذی الجلال و الإکرام، و ربط العلم بالإیمان حتی یکون الإیمان قائما علی أساس سلیم لا یهتز و لا یضطرب.

جاء الأمر الإلهی: اقْرَأْ مرتبطا بأساس التکوین الإنسانی من علقة إلی مضغة، إلی إنسان سویّ بعد أن کان من تراب، و فی ذلک دعوة للنظر إلی أیسر السبل علی الإنسان للاهتداء و الالتقاء مع النفس حتی یعرفها و یتأملها، و یبحث عن أصلها و وجودها.

قال تعالی: وَ فِی الْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الذاریات: ۲۰، ۲۱]، و قال أیضا: أَ کَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلًا [الکهف: ۳۷].

دعوات إلی التفکیر، و استخدام العقل؛ لأنه مبدأ العلم، و طریق الحیاة، و ساق الآیات العدیدة إلی أولئک الذین یعقلون و یفکرون؛ لأنهم یهتدون و ینتفعون، و یرتقون بإنسانیتهم إلی مستوی راق بالکفر، و العلم، و العمل، لا بالمال، و التراث، و الثراء. بکل

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۸

تلک القیم النبیلة التی تعلی من شأن الإنسان کإنسان، فیرتفع فوق شهوات نفسه، و رغباته، و أطماعه.

و مع الدعوة إلی العلم، و استخدام العقل و الفکر، تأتی الدعوة أیضا إلی استغلال المفید من التجارب، و الأحداث التی مرت، و السنن التی وقعت، وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنکبوت: ۴۳].

العالمون الذین وصلوا إلی النتائج الصحیحة من مقدماتها باستخدام عقولهم، و ربطوا بین الأسباب و المسببات، و عرفوا حقائق الأمور بفهم السنن التی تحکمها، و کیف جرت هذه السنن کما أرادها لها خالقها فی الکون الواسع العریض، بأرضه و سمائه، و أفلاکه و بحاره، و فی حیاة مخلوقاته، من نبات، و شجر، و دواب، و حشرات، و طیور، و أسماک، و إنس، و جان.

کل ذلک خضع لتلک المشیئة الإلهیة التی حکمته و أجرته تبعا لسنن لا تختلف و لا تتغیر، وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلًا [الأحزاب: ۶۲].

یعرض القرآن کل ذلک فی تلک الصور و المشاهد التی تتسع لتوضیح المرئیات، و تصل إلی العقول و القلوب، فتجتث منها الأفکار السقیمة، و تقتلع منها النباتات الضارة من المعتقدات الفاسدة و الأفکار الخبیثة، و تغرس المبادئ السلیمة، و القیم الصالحة فی تلک البیئات، و النفوس الجدیدة التی استفادت بنور اللّه، و اقتدت بهدیه، و عرفت طریقها إلی الصالح من الأمر فسارت فیه، إلی غیر ذلک من المشاهد الفسیحة فی تاریخ الأقوام السابقین، و بسط أحوالهم، و ذکر ما حاق بهم من نتائج أعمالهم.

و قد تضیق هذه المشاهد، و تختصر تلک الصور فی کلمات موجزة بسیطة، تعرض الأمور علی عقول تستطیع أن تلمح ما وراءها، و أن تسترشد بإیحاءاتها، و أن تفهم ما تقصد إلیه، و علی قلوب تحس باحتیاجاتها إلی الهدایة فی لیل الظلمة الحالکة، و فی دیاجیر الحیاة الخافقة بالاعتقادات الفاسدة، و الأوهام و الأباطیل الملغیة للعقل، و الفکر، و الإرادة، و الاستقلالیة.

کل ذلک یعرض فی کثیر من الألوان الحکمیة، و المشاهد التی تعرض فی آیات اللّه و أمثاله، وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنکبوت: ۴۳].

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۶۹

الحاجة إلی علاج هذه الموضوعات:

النفس الإنسانیة تواقة دائما إلی ما یرضی حاجتها، و یشبع نهمها، فهی ظمئة إلی ذلک السلسبیل من المدد الروحی الذی یفیض علیها بالراحة النفسیة، و الوجدانیة، و العقلیة.

و إذا کانت هذه النفس قد تعرضت فی أزمنتها السحیقة لکثیر من ألوان المحن و الابتلاءات، و صنوف من الفساد متعددة، حتی باعدت بینها و بین معرفة خالقها و موجدها، و انحرفت بها عن جادة الصواب بکثیر من فعالها، و ضلت السبیل فی عبادتها، فلم یترکها الخالق سبحانه و تعالی تعیش فی ذلک الخواء الروحی و النفسی، بل أنعم علیها من فضله بأولئک الرسل الکرام الذین اصطفاهم من خلقه؛ لیکونوا أداة هدایة، و دعاة نور لبنی جنسهم و أقوامهم، یأمرونهم بالمعروف، و ینهوهم عن المنکر، و یباعدون بینهم و بین عبادة تلک الأصنام التی تحول بینهم و بین معرفة الواحد الأحد، و بالتالی یدعونهم إلی النجاة من النار التی أعدها اللّه للکافرین الفجار.

عالج الأنبیاء و الرسل الکرام أوضاع هذه الحیاة بوحی من اللّه فی کتب بین أیدیهم، و آیات یبصرونهم بها، و معجزات یجریها اللّه علی أیدیهم و یمدهم بها، لتکون سندا لهم فی دعوتهم، فتقف أمامها سطوات الجبابرة، و قوی البغی، عاجزة لا تستطیع لها دفعا و لا صدا؛ لأنها قدرة اللّه و عونه لعباده المؤمنین المخلصین.

مع هذه الآیات الموحی بها من قبل السماء، و الآیات المرئیة فی کون اللّه الواسع المحیط بالإنسان فی بره و بحره، و أرضه و سمائه، و کل ما یقع تحت حواسه المختلفة، و مع المعجزات التی تجری علی أیدی الرسل و الأنبیاء، جاء محمد صلی اللّه علیه و سلم لیصل

بهذه الأمة إلى الرشاد من الأمر، و ليكون منقذا لها من الضلال، و آخذا بيدها إلى مرفإ الأمن و الأمان، جاء بتلك الرسالة الخاتمة، رسالة القرآن، الكلام المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، قد فصلت آياته و أحكمت؛ لتكون هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان، و لتصنع تلك الأمة المسلمة الرائدة فى أولها و وسطها و آخرها لهذا العالم المتخبط الحائر الذى لا يعرف طريق هداية، و تتغشاه ظلمات بعضها فوق بعض من ضلال العقائد، و انهيار القيم، و أطماع الحياة و الأنانية المفسدة، و البعد عن جادة الطريق.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۷۰

رسالة الإسلام تحددت من قبل السماء، و بوحى اللّه إلى بنى البشر عن طريق خاتم الأنبياء محمد، عليه الصلاة و السلام، فى صنع هذا الأنموذج الرفيع لتلك الأمة التى عبرت عنها الآية القرآنية: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [آل عمران: ۱۱۰].

أمة ذابت بينها الفوارق العرقية، و الطبقية، و اللونية، و لم يبق أمام المساءلة الإلهية يوم القيامة إلا ذلك المبدأ: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ [الحجرات: ۱۳]، انصهرت هذه الأمة فى بوتقة الإسلام، فكانت جديرة أن تكون شهيدة على الناس يوم القيامة، وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً [البقرة: ۱۴۳].

أمة صنعها اللّه سبحانه بقرآنه المعجز، و بتكاليفه، و أوامره، و نواهيه، فاستقامت شئون الحياة، و صلح أمرها، و أمر معتنقى رسالة الإسلام، و المتبعين لتعاليم اللّه دون بغى أو عدوان.

عاشت هذه الأمة فى ظل القرآن، و سعدت بعدالة السماء، و تأثرت بأخلاق رسول اللّه و صفاته، و أخلاق صحابته، و ما كان لهم من مجاهدة و جهاد فى سبيل اللّه، و ما ظهر على أيديهم من عدالة و سماحة نبعت من شريعة اللّه، و عالجت أوضاع الحياة بالاستقامة على النهج و التمسك بالتعاليم، و الفهم للغايات.

ثم رانت عليها نومة ثقيلة، بفعل الجهالة التى تحكمت فى العقول، و الذلة التى هيمنت على النفوس، و التواكل الذى أضاع جوهر التوكل، و الدسائس التى حيكت ضد الدين و أهله من داخل البلاد و خارجها، و من الاستعمار الذى بسط سلطانه بالقهر و العدوان على مقدرات هذه الأمة و على مقدساتها، و على كل من نطق بالضاد، و من الفرقة التى أصابت جسم هذه الأمة، فتفشى داء الانقسام بين أطرافه حتى غدا أوصالا ممزقة، و فرقا شتى، و شيعا و أحزابا، يحارب بعضها بعضا، و تولى زمام الأمر فيها إما جاهل أحمق، و إما مستبد غاشم، و إما عبد لشهوات نفسه و رغائبها، و هكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعد قرون طويلة من القوة، جسدا مريضا تنهشه كلاب جائعة من حوله، لا تترك فيه رمقا من حياة، و لا تقدم له الدواء كى يعيد سيرته الأولى فى قيادة الحياة و إنارة البصائر، وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ [التوبة: ۳۲].

و بعد لأى من الزمن، و صحوة القلب المريض، و يقظة العقل الجاهل، تنبه المسلمون

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۷۱

إلى حالهم المستكين، و تأخرهم المريض، و عرفوا سر ما هم فيه من انكسارات تقوض دعائمهم، و هزائم فى ميادين الحياة المختلفة تستل منهم مواطن العزة، وجدوا كل ذلك و عرفوه بمقارنة حالهم بحياة الأمم الأخرى التى تعيش بالفكر، و العقل، و العلم، و اليقظة لدروس الحياة، فبدءوا يتلمسون الطريق، و لكن أى طريق يسلكون؟ و أى نور يلتمسون؟ أ كل طريق يصلح للسير فيه؟! أ كل نور يصلح للهداية؟! هذه التساؤلات دفعت عقلاء القوم، و المستنيرين منهم، إلى جدية البحث وراء العلاج الذى يشفى من كل مرض وراء الحياة الجديرة بالأمة التى حباها اللّه بالقرآن، وراء الحياة الحقيقية التى يجب أن يحياها المؤمن، و التى تحقق له خيرى الدنيا و الآخرة، الحياة التى تقوم على دعائم العقيدة، و الروح، و العقل، و الفهم، و التدبر فى ملكوت اللّه حتى يكون السير على هدى و بصيرة.

إن حاجة هذه الأمة إلى تلك اليقظة التى تشمل كل كيانها، حاجة ملحة و شديدة، و فى الاستفادة من دروس الماضى و عبره، و سير

الأولين و الآخرين، و فى الرجوع إلى آيات اللّه و قرآنه الحكيم ما يجعل الأمة المسلمة، و الفرد المؤمن، يرى طريقه الصحيح، و يجتنب العثار و السقوط.

و فى النظر إلى ما يحدث فى الحياة الحاضرة من أحداث، و ما يقع فى العالم من أزمات و مشكلات، و ما يجابه الإنسان المعاصر من متغيرات تدعوه إلى إصلاح مساره، و علاج انحرافه، و طلب المزيد من التجارب الناجحة التى مورست، و يمارسها الإنسان فى الحاضر لإصلاح شأنه، فى جميع ما يحتاج إليه فى هذا الشأن من الأمور الاقتصادية، و السياسية، و الاجتماعية، و اختيار الطريق الأصلح و الأقوم للنجاح فى هذه الحياة.

كل ذلك يوسع دائرة البحث، و العلم، و الاستفادة، و ينير للإنسان طريقه، فلا يخضع لتقليد مقيت يجره للماضى و ما فيه من أمور حكمت تجارب الحياة الحاضرة بفسادها و عدم صلاحيتها للاقتباس منها، و تمثلها فى خطواتنا.

و كذلك لا يخدع بالحاضر، و ما فيه من مغريات تغطى على بصره و بصيرته، فلا يرى طريقه الصحيح، و لا يستبين معالمه.

و إنما هو العقل الراشد، و الإيمان الثابت، و الإرادة القوية، التى تفتح مغاليق الحياة، و تجعل الإنسان آمر نفسه، و صاحب كلمته فى الأرض التى خلقها اللّه من أجله.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۷۲

التصوير فى الأسلوب القرآنى:

قد يعرض المعنى فى الأسلوب القرآنى عرضا مباشرا معتمدا على استخدام الكلمة و الجملة فى الاستعمال الحقيقى الذى لا يحتمل غيره، فيفيد بذلك السامع و القارئ، و لا يحوجه إلى كبير معاناة فى الفهم، أو الجرى وراء التماس معان أخرى يبحث عنها، و يبدو ذلك دائما فى كل ما ورد من ألفاظ القرآن الكريم و آياته التى تناولت الأحكام و الفرائض و المعاملات، مثل: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ [المائدة: ۶]، و قوله تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِ [البقرة: ۱۹۷]، و قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ [البقرة: ۲۸۲].

ألفاظ واضحة الدلالة تصل إلى السامع مباشرة، فلا يحتاج معها إلى بحث، إلا إذا كان استخدام اللفظ غريبا على سمعه لجهله به، أو لصعوبة تلفظه به، فإنه لا بدّ و أن يعمد إلى المعجم ليعرف معناه.

و لكن يبقى بعد ذلك استخدام الكلمة فى غير ما وضعت له، و هذا أمر شائع فى كل لغات العالم، و بالتالى فهو شائع أيضا فى اللغة العربية، و قد استعمله القرآن الكريم ليفيد اللغة اتساعا من الناحية اللغوية، و يفيدها أيضا جمالا من الناحية الجمالية، و يسمى ذلك مجازا، و فى هذا المجاز قوة و تأثير و تصوير، فإذا استمعنا إلى قول اللّه تبارك و تعالى:

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ [النور: ۲۴]، و قوله أيضا: وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ [فصلت: ۲۱]، فى هذه الآيات عبارات ناطقة قوية بالغة القوة فى استنطاقها ما لا ينطق، و فى حوارها فيما بينها، و أمام صاحبها، و هو صامت مأخوذ من نطقها «۱».

و قد أدى استخدام هذا المجاز و اتساعه إلى كثير من ألوان البيان، بدءا بالتشبيه إلى الاستعارة بأنواعها المختلفة، و كلها إضافات جديدة للاستخدام اللغوى بدلالات اجتماعية و نفسية.

و ليس المقام هنا عرض نماذج عديدة لكثير من ألوان البيان، و لكنا نكتفى ببعض الأمثلة التى تكون أساسا لما نريد الوصول إليه من طبيعة التصوير فى الأسلوب القرآنى و وظيفته.

---

(۱) انظر: التيارات الأدبية فى الشرق و الغرب، لدكتور/ إبراهيم سلامة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷۳

فقد نجد التشبیه یأخذ مکانه فی الأسلوب القرآنی؛ لتتم عن طریقه المقارنة بین طرفین، و الموازنة بینهما، فمثلا یقول اللّه تعالی فی کتابه العزیز: وَ حُورٌ عِینٌ کَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَکْنُونِ [الواقعة: ۲۲، ۲۳]، فقد تماثل المشبه و هو الحور العین، مع المشبه به و هو اللؤلؤ المکنون، فی صفة مشترکة هی الصفاء و اللمعان، عن طریق أداة التشبیه و هی الکاف، أرکان أربعة قام علیها أسلوب التشبیه، و فیه انتقاله بالمشبه إلی مرتبة أعلی مما کانت له سابقا لم یکتسبها إلا عن هذا الطریق البیانی، و قد یتدرج الأسلوب بحذف الأداة، و وجه الشبه إلی ما یسمی بالتشبیه البلیغ الذی یعطی قوة و مبالغة أکثر، کأن المشبه هو عین المشبه به، و هکذا تختلف الصورة من صیاغة إلی صیاغة، فإذا حذف أحد الرکنین الأساسیین، المشبه أو المشبه به، کان ذلک انتقالا إلی مبالغة أقوی، و استخدام أکثر تأثیرا، و هو ما یطلق علیه اسم الاستعارة، تصریحیة أو مکنیة.

و قد تقوم المشابهة بین الطرفین علی صفات مشترکة، و أحوال متقاربة، و هو ما یسمی بالتشبیه التمثیلی، أو التشبیه المرکب، فتبدو الصورة کاملة التأثیر بما ترسمه من کلمات تتوفر فیها عناصر اللون، و الحرکة، و الصوت، و تتجمع جمیعها فی إبراز مکونات الحالة الأولی المتمثل لها المشبه بالحالة الثانیة المتمثل بها المشبه به، إلی تلک الصورة الرائعة بمکوناتها و تأثیراتها المختلفة التی تصدق علیها، و علی غیرها مما تنطبق علیه هذه الأحوال.

فإذا نظرنا إلی تلک الصورة الرائعة فی قوله تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوها کَمَثَلِ الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً [الجمعة: ۵]، وجدنا أنها عرضت صورة للیهود الذین أعطوا التوراة و لم ینتفعوا بما فیها من هدایة و تعالیم، بحال الحمار الذی یحمل کتبا کثیرة نافعة فوق ظهره، و لکنه لا یستفید بها، و لا ینتفع بشیء منها.

فالمشبه مرکب من أجزاء: حامل، و هم الیهود، و محمول نافع، و هو التوراة، و عدم انتفاع بالمحمول لانصرافهم عن العمل بما جاء فی التوراة التی حفظوها.

و المشبه به: مرکب من أجزاء هی: حمار حامل، محمول نافع، و هو کتب العلم، و عدم انتفاع الحمار بما یحمل؛ لأنه لا یدرک ما فیه مع تحمل المشقة فی الحمل.

و کذلک إذا نظرنا إلی قوله تعالی: مَثَلُهُمْ کَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَکَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا یُبْصِرُونَ [البقرة: ۱۷]، وجدنا أن

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷۴

الصورة المعروضة لأولئک المنافقین الذین تملکتهم الحیرة و الحسرة؛ لأن نور الإیمان لم یصل إلی قلوبهم، و لم یحققوا الفوز و النعیم المقیم؛ لأن إیمانهم کان مجرد زعم و ادعاء؛ لحقن دمائهم و صیانة أموالهم.

المشبه به: حال و هیئة أولئک الذین طلبوا إیقاد النار للاهتداء بها، فلما أضاءت لهم و سطع نورها حولهم انطفأت، فتملکتهم الحیرة فی الظلمات، و أصابتهم الحسرة علی فوت ما فات، و غمرهم الیأس من بلوغ ما کانوا یریدون لو بقی لهم ذلک النور.

و إذا سیقت هذه الصورة البیانیة بحذف رکنها الأول، و هو التمثل له المشبه، و اکتفی بذکر المتمثل به المشبه به، کان ذلک تدرجا فی البیان، و قمة فی الإیجاز و الاختصار، و عدّ من أسالیب الاستعارة التمثیلیة التی نجد مکانها واضحا فی تلک الأمثال الحکمیة التی حفل بها القرآن الکریم، و عرضها علینا قضایا مسلمة، محکوما بصحتها، و یمکن اللجوء إلیها، و الاستشهاد و التمثیل بذکرها بفرض حال مناسبة مشابهة لها، و قد عرضت کتب التفسیر نماذج لذلک فی قوله تعالی: کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَةٌ [المدثر: ۳۸]، ما عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ [المائدة: ۹۹]، لا یُکَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها [البقرة: ۲۸۶].

الأمثال:

طریقة من جملة الطرائق الأسلوبیة التی عالجت بها الآیات القرآنیة، الحقائق فی منازعها المختلفة.

حقیقة المثل: یقوم المثل علی الشبه و النظیر بین طرفین؛ لتتم بینهما المقارنة و المشابهة، و قد یکون المثل بمعنی الصفة، و من ذلک قوله تعالی: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ [الرعد: ۳۵]، أی صفة الجنة، و قال تعالی: وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلی [النحل: ۶۰]، أی الصفة العلیا، و هی قولنا: لا إله إلا اللّه، و قوله تعالی: ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراةِ [الفتح: ۲۹]، أی صفتهم. و قال قوم: إنما یعنی المثل: المثال الذی یحذی علیه کأنه جعله مقیاسا لغیره.

رأی علماء البلاغة فی الأمثال:

یری عبد القاهر الجرجانی فی کتابه: أسرار البلاغة، أن المثل یقوم علی التشبیه المرکب فقط، فوجه الشبه فیه منتزع من صور لا یمکن فصل بعضها عن بعض، حتی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷۵

أنک لو حذفت منها جملة واحدة فی أی موضع، کان ذلک أخلّ بالمغزی من التشبیه، و قد أعطی أمثلة توضح فکرته، فقال:

إن هناک فرقا بین أن تقول: رجل کالأسد، و بین قوله تعالی: إِنَّما مَثَلُ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا یَأْکُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّی إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها أَتاها أَمْرُنا لَیْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ [یونس: ۲۴].

فوجه الشبه فی الأول مفرد، و هو الشجاعة، أما فی الآیة القرآنیة، فوجه الشبه صورة منتزعة من جملة أمور. و هو یری أن کل تمثیل تشبیه، و لیس کل تشبیه تمثیلا. کما یری أن للتمثیل مظهرین:

أ- أن یجیء المعنی ابتداء فی صورة التمثیل، و هذا نادر قلیل، و لکنه علی قلته فی کلام البلغاء، کثیر فی القرآن الکریم، و ذلک مثل قوله تعالی: مَثَلُهُمْ کَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَکَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا یُبْصِرُونَ صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَرْجِعُونَ أَوْ کَصَیِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِیهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِیطٌ بِالْکافِرِینَ یَکادُ الْبَرْقُ یَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ کُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِیهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ [البقرة: ۱۷- ۲۰].

ب- المظهر الثانی للتمثیل: هو ما یتأثر بالمعانی، و یجیء فی أعقابها؛ لإیضاحها و تقریرها فی النفوس، و مثال ذلک فی القرآن الکریم قوله تعالی: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِیهِ شُرَکاءُ مُتَشاکِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ یَسْتَوِیانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ [الزمر: ۲۹].

فقد أورد المثل بعد ما قرر أمر التوحید فی أول السورة، و شنع علی الذین اتخذوا من دون اللّه أولیاء یقربونهم إلیه زلفی، و نصب الدلائل علی نفی هذا الشرک، و ذکر الجزاء.

و التمثیل فی رأی الزمخشری إنما یصار إلیه لکشف المعانی، و إدناء المتوهم من الشاهد، فإن کان المتمثل له عظیما، کان المتمثل به مثله، و إن کان حقیرا، کان المتمثل به کذلک.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷۶

رأی الفقهاء فی الأمثال:

قال أبو عبد اللّه محمد بن علیّ الحکیم الترمذی «۱»: ضرب اللّه الأمثال لمن غاب عن الأشیاء، و خفیت عنه الأشیاء، فالعباد محتاجون إلی ضرب الأمثال لما خفیت علیهم الأشیاء، فضرب لهم مثلا من عند أنفسهم لا من عند نفسه؛ لیدرکوا ما غاب عنهم، فأما من لا

يخفى عليه شيء فى الأرض و لا فى السماء، فلا يحتاج إلى الأمثال.

و يقول صاحب تفسير المنار (ج ۱): يضرب اللّه المثل فى كلامه تعالى؛ لأنه ليس نقصا فى حد ذاته، و ليس نقصا فى جانبه، و إنما هو حق؛ لأنه مبين للحق، و مقرر له، و سائق إلى الأخذ به بما له من التأثير فى النفس.

و ذلك أن المعانى الكلية تعرض مجملة مبهمة، فيصعب على الذهن الإلمام بها، و استخراج سرها، و المثل هو الذى يفصل المجمل، و يوضح المبهم، فهو ميزان البلاغة.

الهدف من ضرب الأمثال:

يضرب اللّه الأمثال لنفوس العباد، حتى يدركوا ما غاب عن أسماعهم و أبصارهم الظاهرة بما عاينوا «۲».

و تساق أساليب الأمثال فى صورة من الإعجاز البيانى لأولى الألباب، حتى تكون صمام أمان من عذاب اللّه الذى أعده للكافرين، و تبرز تلك المعانى المجردة فى صورة محسوسة، أو الأشياء المتخيلة أو المتوهمة فى صورة متحققة أو متيقنة من التمثيل الحركى أو القولى، حتى يكون لذلك صداه فى نفس المتلقى أو المشاهد، فينطبع فى ذاكرته، و يصل إلى قرار فؤاده، فلا يمحى على مر الأيام.

كانت الكتب السماوية معرضا للأمثال التى تساق للتأثير فى النفوس و القلوب، حتى أن الإنجيل أفرد سورة كاملة من سوره تسمى سورة الأمثال، و أكثر منها الأنبياء و الرسل و الحكماء، كما أكثر من ذكرها القرآن الكريم فى كثير من الآيات، حتى وصلت إلى بضعة عشر موضعا، يضرب فيها الأمثال بيانا للناس و تذكيرا، و هو الحق و أحسن تفسيرا، و أمثال الكفار فى ضلال و بهتان «۳».

و استخدمها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى كثير من المواطن للإيضاح و التعليم، أخرج البيهقى،

---

(۱) من علماء القرن الثالث الهجرى. انظر: (ص ۲) من كتاب الأمثال فى الكتاب و السنة.

(۲) انظر: كتاب الأمثال للترمذى.

(۳) انظر: الأمثال فى النثر العربى.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۷۷

عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، و حرام، و محكم، و متشابه، و أمثال، فاعملوا بالحلال، و اجتنبوا الحرام، و اتبعوا المحكم، و آمنوا بالمتشابه، و اعتبروا بالأمثال» «۱».

و تضرب الأمثال لمن يبتغى هدى و صلاحا من الأمر، و علاجا لكل داء، و محاربة لكل ألوان الفساد التى تمزق المجتمع، و تهدد قيمه، و تبدد طاقاته.

و إذا نظرنا إلى طبيعة المثل فى البيان العربى، وجدنا له موردا و مضربا، فالمورد هو أساس المثل الذى قيل فيه، و الحدث الذى ورد فيه، و أما المضرب فهو الذى يستشهد به فيه من حال مماثلة فى كل وقت و عصر، و قد يكتفى القارئ بذلك المضرب، و قد يذهب الباحث وراء المضرب ليعرف مورد المثل و حقيقته، و هذا أمر مألوف فى الأمثال العربية و طبيعتها و تكوينها، يبحث عن الجذور و الأصل؛ ليستطيع الربط بين المورد و المضرب.

و لكن أ تقاس الآيات القرآنية بهذا المقياس؟! ليس من الصائب من الرأى أن نخضع ما ورد عن اللّه عز و جل لمقاييس من صنع البشر، فالكلام كلام اللّه خالق البشر، و ما يصنعون من قول، و يزخرفون من حديث، و يدبجون من ألفاظ، على أن الأمثال العربية فى قمتها، و هى تلك الأمثال الحكمية أو الكامنة، كما يسميها السيوطى، قد تنوسى فيها المورد، و لم يعد الإنسان بحاجة إلى معرفة ذلك، فالمهم هو التطبيق، و النظير، و الشبيه بالمثل فى حالته و صورته.

أنواع الأمثال:

اشارة

سيكون عمادنا فی هذا المؤلف أن نعرض للأمثال القرآنية التی ضربها اللّه للناس فی مجالات مختلفة، عالجت و تعالج شئون الإنسان، و الحياة التی يحياها، و العقيدة التی يؤمن بها، و كيف حققت هذه الأمثال نجاحها الباهر بأسلوبها القرآنی الأخاذ، و بذلك النمط الذی سيقت فيه للدلالة على صدق ما أخبرت به الآيات عن طريق الدليل، و الحجة و البرهان، بالإضافة إلى ما تعطيه من قوة و تأثير فی الكلام، و إقناع بما تسوقه من أفكار، فكأنها تأتی بالشیء و دليله من واقع الحياة.

و إذا نظرنا إلى نماذج هذه الأمثال الفريدة فی صياغتها، رأينا أن سوقها بهذا الأسلوب فريد فی نوعه و طريقته، و يختلف عما عداه من الأساليب العربية المعهودة فی

---

(۱) انظر: أمثال القرآن (ج ۴) (ص ۴۴)، و الإتقان فی علوم القرآن.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷۸

ذلك الوقت، و المأثورة عن عصر الجاهلية قبل نزول القرآن الكريم، فلم يعهد فی أسلوب القدامى الفصحاء و البلغاء أن أتوا بهذا النسق من الكلام الذی جرت به الآيات القرآنية فی سوق الأمثال بخصائصها و طرائقها، لم يؤثر عن القدامى فی الجاهلية إلا ذلك النمط من الحكمة الصائبة الصادقة، و القول السديد فی لفظ موجز بليغ، و هو لون لا شك أنه من جملة الأساليب التی تحاط بالاحترام و التقدير؛ لما لها من أثر النفس، و تقدير فی العقل، و هو ما يطلق عليه الأمثال الحكيمة، و هی نتاج خبرات، و أحداث، و تفكير، و صدق، إلا أنها لم تتعد ذلك الجانب الذی وردت به، و لم يكن لها ذلك الحظ من المساحة العريضة الواسعة من تصوير المشاهد، و إضفاء الجوانب التأثيرية، كما ورد ذلك فی القرآن الكريم، و قد يرجع هذا إلى طبيعة العصر و ما فيه من بداوة، أو لضيق أفق و فكر فی الإلمام بكل جوانب الحياة، و للجاهلية الفاشية فی نقص معلوماتهم، و تقليدهم و اتباعهم للآخرين، و تأثرهم بتفكير السابقين فی قولهم و فعلهم.

عوامل عديدة قعدت بهم عن إعطاء ذلك المظهر التعبيری الفسيح الذی كان بحق وثيقة تاريخية كتابية صادقة لمست و نطقت بحياة الناس، فكانت كما عبر أحد الكتاب عن قيمة الأمثال: إنها مرآة ترى الإنسان وجهه و حقيقة نفسه، و ما فی حياته من أشياء، كما تريه ما خلفه من مناظر و مشاهد يعجز أن يراها بغيره.

الأمثال مرآة صادقة للحياة، و قد ظهرت بأنواعها العديدة فی آيات اللّه، حتى أن بعض المفسرين حاول أن يحصر ما يطلق عليه من أمثال حكمية، فوجدها تقرب من الثلاثين مثلا، و تكلف آخرون فی إيجاد ارتباط بين الكثير من الأمثال الحكمية التراثية التی وردت إلينا من خلال الموروث من الآداب الجاهلية و غيرها، و بين آيات القرآن الكريم، و التدليل على ذلك بذكر هذه الآيات، و تبيان ما بينها من معان متفقة، و قريبة الصلة بمعانی أمثال معروفة سائرة، فهی أمثال بمعانيها لا بألفاظها، و من هنا سميت أمثال كامنة، كما عبر عن ذلك الإمام السيوطی فی كتابه الإتقان فی علوم القرآن، الذی قال: إنها تمثل القسم الثانی للأمثال القرآنية التی لا ذكر للمثل فيه، و لم ترد فيه حكاية الأمثال الشائعة، و إنما هی أمثال فی نظر العلماء من حيث ما ورد فيها من معنى قريب الصلة بمعانی أمثال معروفة سائرة.

و قد أعطى نماذج عديدة لذلك، مثل قوله تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران: ۹۲]، الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُ [يوسف: ۵۱]، ذلِكَ بِما

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۷۹

قَدَّمَتْ يَداكَ [الحج: ۱۰]، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ [يوسف: ۴۱]، أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ [هود: ۸۱]، وَ لا- يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر:

۴۳]، وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة: ۲۱۶].

و هذه العبارات لا تدخل فى باب الأمثال، فإن اشتمال العبارة على معنى ورد فى مثل لا يكفى لإطلاق لفظ المثل على تلك العبارة. فالصيغة الموروثة ركن أساسى فى المثل، و هذه المحاولة لا سند لها من دليل نصّى و لا تاريخى، و القرآن الكريم لم يصرح فى هذه الآيات بأنها مثل.

و النوع الثانى: و هو عماد دراستنا، و موضوع بحثنا فى هذا المؤلف، هو ما يطلق عليه القرآن الكريم كلمة المثل أو الأمثال، وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ [العنكبوت:

۴۳]، ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا [الروم: ۲۸].

آيات عديدة نستطيع أن نطلق عليها، كما أطلق ذلك الدكتور/ عبد المجيد عابدين:

الأمثال القياسية.

و نحن إذا قرأنا آيات اللّه، و استعرضنا ما ورد بها من أمثال قرآنية، وجدنا أنها تأخذ ذلك الأسلوب الذى لم تسبق إليه فى البيان العربى فى الجاهلية و صدر الإسلام فى صياغتها، و تكوينها على النحو الفريد الذى عرضت فيه. فهى تعرض لنا:

أولا: صورة و صفة المتمثل له، و المتمثل به على هذا النحو الذى تمثله النماذج القرآنية فى الآيات التالية:

أ- قال اللّه تعالى: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [آل عمران: ۱۱۷].

ب- و قال أيضا: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ [العنكبوت: ۴۱].

فالآية تبدأ بكلمة مَثَلُ التى تدل على الصفة و الحالة، و تعرض المتمثل له مباشرة، ثم تعقب ذلك بكلمة مَثَلُ المكررة التى تفيد الحالة و الصفة أيضا للمتمثل به، مسبوقة بالكاف الدالة على التشبيه، و هذا فى أكثر الاستخدامات القرآنية، و قد

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۸۰

وردت فى القرآن الكريم تلك الأمثال القياسية على هذا النحو مصحوبة بالنص على ضرب المثل بصياغة الماضى، و المضارع، و الأمر، و هو لفظ يفيد إيقاع الشىء و تحقيقه، و قد اختير لفظ الضرب، كما عبر صاحب المنار: لأنه يأتى عند إرادة التأثير، و هيج الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به آذان السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه، و ينتهى إلى أعماق نفسه «۱».

ثانيا: يسرد المثل قصة كاملة للمتمثل له، أو يعرض صورة مجازية مبسوطة جىء بها للإيضاح، و التصوير، أو قصد التأديب.

ثالثا: من سمات المثل القرآنى: الإطناب، و عمق الفكرة، و جمال التصوير.

إذا توافرت هذه الخصائص، كان ذلك من المثل القياسى الذى استجمع كل شروطه، و لهذا يخرج العلماء كل الآيات التى تستخدم فيها كلمة المثل، و تعتمد على التشبيه البسيط من المثل القياسى، مثل قوله تعالى: وَ حُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ [الواقعة: ۲۲، ۲۳]، و كذلك قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ [يس:

۷۸]، و كذلك قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها [البقرة: ۲۶].

فهذه الآيات السابقة، و إن صرح فيها بلفظ المثل، فهو ليس مثلا؛ لأنه لا يقوم على التشبيه المركب.

و قد اعتبر بعض البلاغيين أن من جملة المثل القياسى، ما قصد منه عرض قصة، أو صورة مجازية، و لم يرد فيها لفظ المثل صراحة، مثل قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها [البقرة: ۲۵۹]، وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ [الأحقاف:

۲۱]، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ [الكهف: ۱۳]، وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً [الحجرات: ۱۲].

و قد نظروا فی ذلک إلی ما تقصد إلیه الآیات من هدف التأدیب، و التذکیر، و ما توحی به من أمور الاعتبار و الاتعاظ.

---

(۱) انظر: تفسیر المنار (ص ۱۹۸).

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸۱

اجتهادات العلماء فی هذا المجال تقوم علی معرفة الغرض و الحکمة من وراء سوق العبارات، فإذا أبرزت الآیات صورة کاملة لحالین متشابهین فی أمور ممتزجة لا انفصام بینها، کان ذلک مثلا قیاسیا، و لو خلا من کلمة مثل، أو شبه، أو ضرب، ما دام یخدم الفکرة و یوضح الغایة فی رأیهم، و بمقتضی هذا الفهم یتسع المثل، فیشمل کل ما ورد فی القرآن الکریم من أحوال السابقین من قصص، و ذکر أحوال، مثل: أخوة یوسف، و قصة موسی، و عیسی، و أهل الکهف، و غیرهم مما حفلت به الآیات القرآنیة و سور القرآن الکریم، و عرضته بغیة الوعظ و الاعتبار. و لا نغالی إذا قلنا: إنه ما من آیة إلا و تحمل فی طیاتها دعوة، و عظة، و اعتبارا، و عرضا لأحوال السابقین، ما عدا تلک الآیات التی تبین تشریعا، أو تضع قواعد، و تکالیف، و أمور عبادات.

لذا فنحن لسنا مع أولئک القائلین بهذا القول، أو الذاهبین هذا المذهب، فلا یصح أن نخضع هذا الأمر لقیاسات العلماء، أو القواعد التی یطبقون علیها، فالأمر یجب أن یکون بخلاف ذلک، و العکس هو الصحیح، و هو أن تقعد القواعد، و توضع الموازین علی هدی کتاب اللّه، اللسان العربی المبین، و الصیاغة التی وردت فیه، فهی النموذج الأمثل.

لقد فعل أصحاب القواعد النحویة مثل هذا، و ذهبوا هذا المذهب، و لم ینکر علیهم أحد اتجاههم هذا إلی وقتنا الحاضر، فقد جعلوا القرآن الکریم هو الأصل، و ما عداه مقیس علیه، یصلحون من قواعدهم، و یتلمسون العلل فیما أتی مخالفا للنموذج لأنفسهم.

و هذا الجهد الحمید من أولئک العلماء، علماء البلاغة، لا ینکر، و الاجتهادات التی توصلوا إلیها من بلاغیین، و مفسرین، و علماء، فی هذه المیادین، اجتهادات و لا شک مشکورة، حفرت الطریق أمام السائرین، و مهدته لکی یواصل المسیرة من أراد فی طریق النماء العقلی، و التقدم العلمی، حتی وقتنا الحاضر، و لمن یأتی بعد ذلک.

تمهید:

وراء کل عمل فلسفة معینة تدفع إلیه، و تکون حافزا لإتمامه علی نحو معین، یصدق هذا علی کل مجالات الحیاة، و یبرر کل خطوة یخطوها الإنسان فی فکره، و عمله، و إبداعه.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸۲

و أعمال اللّه سبحانه و تعالی جلّت عن الشبیه و النظیر، و تنزهت عن اللهو و البعث، إنما کانت لتحقیق غایة و حکمة تقتضیها مصلحة الإنسان و الحیاة، و تتناسب مع ذلک التکریم الذی کرّمه للإنسان، إذ خلقه فی أحسن تقویم، و للتمییز الذی میزه به عن بقیة المخلوقات، إذ جعله مناطا للتکلیف، و حمله تلک الأمانة الکبری التی عرضها علی السموات و الأرض و الجبال، فأبین أن یحملنها، و أشفقن منها، و حملها الإنسان.

أراد اللّه لهذا الإنسان أن یکون خلیفة فی الأرض، یعمرها، و ینتفع بخیراتها، و یستفید بتلک الکائنات و المخلوقات التی سخرت له من حیوان، و نبات، و أرض، و سماء، و جبال، و أنهار، و نجوم، و أفلاک ... إلخ ما خلق اللّه، و هو کثیر، و وقع تحت علم الإنسان، و معرفته، أو الذی لم یستطیع أن یصل إلی أسراره، و فک طلاسمه، و لم یقع تحت سیطرته بعد.

أبدع اللّه کل ذلک علی هیئة مهیأة لفعل من الأفعال المناسبة لخلقة الإنسان، و فطرته التی فطر علیها، و عقله، و إرادته، فهذا کله جعله

فریدا بین مخلوقات اللّه، و مهیأ لتلقی العلم، مستفیدا بما یحصل علیه، قادرا علی تحصیل ما لا تستطیعه الملائکة من ذات أنفسهم، و الذین یفعلون ما یؤمرون، فالإنسان بهذه الفطرة التی تلتقی مع العقل، یسلک طریقه فی الحیاة، إما علی هدی من الأمر، أو انحراف إلی الضلالة حسبما تؤثر فیه المؤثرات و العوارض المختلفة التی تنتاب نفسه، فتلهمها فجورها و تقواها، و تدفعها إلی فعل الخیر، أو اقتراف الشر.

و لکن کما قال اللّه تعالی فی محکم قرآنه: إِنِّی أَعْلَمُ ما لا- تَعْلَمُونَ [البقرة: ۳۰]، عرف أن الإنسان بإمکاناته السابقة لا یستطیع أن یجعل نفسه بمنأی عن تلک العوارض التی تؤثر فی مسار حیاته، و أنه بحاجة إلی تکمیل من نوع هذه المخلوقات، و من نفسه، فکانت حکمته أن جعله أهلا- للرسالات، و تلقی أوامره و نواهیه، و اصطفی له من جنسه من یراه أهلا- لتبلیغ رسالته، و حمل کلمة اللّه إلی القلوب و العقول، فتتحقق الهدایة، و تکون العبادة خالصة لوجهه الکریم، مبرأة من الدوافع و الغایات، وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ ما أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِینُ [الذاریات: ۵۶- ۵۸].

من هذا المنطق، وجدت أن خیر بدء لهذه الموضوعات التی تعالجها الأمثال القرآنیة

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸۳

هی تلک البدایة الحقة التی بدأ اللّه بها رسالته الخالدة، رسالة الإسلام، عن طریق الوحی الذی نزل به جبریل، علیه السلام، علی محمد بن عبد اللّه صلی اللّه علیه و سلم.

بدایة الیقظة العقلیة و الروحیة التی کانت بدایة حقیقیة لهذه الإنسانیة التی أرادها اللّه، بدایة التعرف علی موجد الکائنات، و خالق الإنسان، و إزالة الغشاوة التی رانت علی العیون و العقول و القلوب، فباعدت بینها و بین الحقیقة الکبری، و هی معرفة اللّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذی لم یلد، و لم یولد، و لم یکن له کفوا أحد، معرفة حقیقیة جدیرة بخطوات ذلک الإنسان الذی خلقه اللّه علی هذه الأرض، خطوات تنبع من تلک الکلمة الآسرة، الآمرة لرسول اللّه، و للإنسان العاقل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ [العلق: ۱- ۵].

البدایة بالعلم، و العلم هو المعرفة بکل ما تحمله هذه الکلمة فی طیاتها من معان المعرفة بکل ما یقع فی الحیاة، و النفس، و الکون، و بکل ما تحتاج إلیه هذه النفس البشریة فی حیاتها و مجتمعاتها و عقائدها، العلم بحقیقة الوجود، و موجده، باللّه خالق الخلق، و الإیمان بوحدانیة اللّه، و تنزیهه عن تلک الأفکار الضالة الجاهلة التی تفشت، فأوقعت النفس فی الشرک باللّه، و اتخاذ الأصنام و الأحجار، و المعبودات الباطلة، التی لا تملک لنفسها و لا لغیرها نفعا و لا ضرا، و لا حیاة و لا نشورا.

المعرفة إذن هی الطاقة التی فتحت بأنوارها الکاشفة، فکانت البدایة لتطهیر النفس البشریة، حتی تکون فی صفائها و نقائها، أهلا لتلقی أمر اللّه بالتکالیف و الأوامر، و اتباع ما یأتی من قبله بإیمان و اقتناع یعلی من شأن الإنسان کإنسان له رأیه الخاص الذی ینفرد به، و له شخصیته الواضحة التی تخلعه عن الاتباع و التقلید لمن سبقه من آباء و أجداد، فی هفواتهم، و سقطاتهم، و جهالاتهم، و التی یقولون فیها: بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَیْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ [البقرة: ۱۷۰].

فهذا التقلید یتنافی مع إیمان المؤمن القوی بعقله، و روحه، و قلبه، و یجعله مسخا مشوها للإنسان الذی یجب أن یزن الأمور بمیزان العقل، و یعلم أن لکل شیء نهایة، و أن وراء کل عمل جزاء، و أن الفرق بین الحق و الباطل واضح، و یترتب علی ذلک حساب اللّه و عقابه یوم القیامة، الْیَوْمَ تُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْیَوْمَ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸۴

[غافر: ۱۷]، و أن أولئک الضالین الذین یقولون: ما هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الدَّهْرُ [الجاثیة: ۲۴]، إنما یهدرون آدمیتهم، فهم کالأنعام بل أضل سبیلا.

و إذا کانت هذه الملامح هی أولی خطواتنا علی الطریق، فإن الأمر یستدعی أن تکون خطواتنا بمکة، حیث نبتت الدعوة، و ننطلق

معها، لنتعرف عليها فى جوها و مجالها، حتى تكون الصورة واضحة، فبعد أن نرسى القواعد الأساسية للاعتقاد، و يقام البناء على الإيمان بوحدانية اللّه، و الإيمان باليوم الآخر، و الحساب و العقاب، و تحارب التقليد، و إغفال العقل، تبدأ النفس الإنسانية تتوزعها نوازع شتى من خارج بيئتها الحقيقة، فتجد معها فى طريق الحياة من يتناقض مظهره مع مخبره، و أقواله مع أفعاله، و يبدى شيئا و يخفى آخر.

و هكذا نقائض فى الحياة بدأت تطل برأسها، و تعكر صفو الحياة، و جوهر الدين و حقائقه، فكان لا بدّ من كشف ذلك، حتى يتطهر المجتمع من أدرانه، و ينقى من شوائبه، حتى يكون المجتمع سليما فى صفوفه، قويا فى بنيانه، لا- تهزه كلمة، و لا- تؤثر فى عزيمته شائعة.

فهذا النفاق الذى أطل برأسه فى المدينة، دفعت إليه ظروف المجتمع الجديدة، و ضعف فى بعض النفوس، و دسائس من المخالفين من أهل الديانات الأخرى، فاحتاج الأمر إلى تطهير الأرض من عوامل فسادها فى العقيدة، و الشخصية، و النفوس، و تهيأ لذلك النبت الجديد الذى تحوطه عناية اللّه بالحفظ و الصون، و بكل ما يمده بأسباب الحياة، أن يقوى و يشتد بفعل الطاعات، و اجتناب المحرمات، و بالبذل من جانب المؤمنين بإنفاق المال، و التحكم فى النفس الشحيحة، فكان الإنفاق و الدعوة إليه من مقومات بناء المجتمع الجديد، الذى يقوم على الالتزام و العمل من أجل الآخرين، و الدفاع عن العقيدة، يقبل على ذلك رغبة فى رضا اللّه سبحانه و تعالى، لا طلبا للشهرة، و إنما هو الإحساس بالمسئولية حيال أولئك الذين يتصدون للدعوة، و يحاولون إطفاء نور اللّه، وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ [التوبة: ۳۲].

و إذا كان العمل فى هذا البناء يحتاج إلى تضحية بالنفس فى صد اعتداءات المعتدين، و هجمات الحاقدين الذين يريدون أن يطفئوا نور اللّه، فهو يحتاج كذلك إلى اليد التى تنفق، و النية الحسنة التى تفعل الخير، و المال الذى تقوم عليه الحياة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۸۵

و كل هذا عن طريق الترغيب فى مجالات الخير بكل أنواعه؛ ليفوز المؤمن بثواب اللّه، وَ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ [آل عمران: ۱۳۳، ۱۳۴].

و إذا كان للترغيب صولته و مكانته فى الدعوة إلى الخير، و الصالح من العمل، ففى المقابل كذلك يظهر جانب التحذير لعلاج تلك النفوس الخبيثة التى جبلت على الشر، و البخل بالمال، أو انحرفت عن جادة الصواب، و سلكت طريق الضلال، فارتكبت المعاصى، و اجترحت السيئات، و ابتعدت عن عمل الخير، و كانت عونا للشيطان، فخضعت لمغريات الحياة و شهواتها، و سقطت فى حمأة الرذيلة، و ساءت نية و خلقا، و خرجت بذلك عن دائرة التكريم الذى منحه اللّه لها، بأن جعلها خير مخلوقاته، و الجديرة بتحمل أماناته فى الحياة الدنيوية التى يحياها الإنسان.

ثم يكون بعد ذلك التسلسل الطبيعى أن تتجه الأنظار إلى القيادة المختارة من قبل اللّه، و المصطفى من عباده؛ لحمل هذه الأمانة و الرسالة، فيأتى الرد على أولئك الذين يعترضون على رحمت اللّه، و ينكرون أن يكون الرسول بشرا، أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [الزخرف: ۳۲].

بل و يقترحون على محمد صلى اللّه عليه و سلم الاقتراحات التى لو استجيبت، لكان فى ذلك هلاك أولئك القوم و تدميرهم تدميرا، و لكن رحمة الرسول التى جبل عليها كانت سبيلا إلى إبعاد الهلاك عنهم، فلعل ذرية تخرج من أصلابهم تسبح اللّه و تحمده.

و هكذا كان الرسول كما عبر القرآن الكريم: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [آل عمران: ۱۵۹].

و بعد دور القيادة يأتى دور الشخصية المسلمة السوية، و كيف تكونت، و اقتدت بالرسول الإنسان الكريم، فى خلقه، و عمله، و اتباعه

لسنته، حتی ظهرت تلک النخبة الصالحة التی فتحت الآفاق، و أشعت هذا النور فی کل الأرجاء.

ما سر ذلک؟ و ما المنهج الذی ربوا علیه؟ ذلک هو الدور الأخیر الذی یحتاج إلی تبیان، کی نری منهج القرآن الکریم فی علاج هذه النفوس التی تتوق إلی علاج فی وقتنا الحاضر.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸۶

لقد تعرضت هذه النفوس لمناهج عدیدة أخذت ترسم لها طریق الحیاة بنزعات أصحابها و مفکریها، و اصطدمت بنظریات عدیدة ما لبثت أن تهاوت، فلم تفلح فی علاج نفس، و لم تقض علی أزمات الحیاة بألوانها و أشکالها، و کانت النتائج لذلک و خیمة فی أمراض نفسیة عدیدة، و أزمات أخلاقیة شملت الأفراد و الجماعات.

و لذا فإن الاتجاه إلی تلک المناهج الربانیة من ینابیعها الأساسیة هو و لا شک خیر طریق إلی الفلاح، علی أن نحسن الفهم، و نعدل فی التطبیق، و نساير الحیاة بمتطلباتها العدیدة.

۱- الدعوة إلی الإیمان باللّه و وحدانیته:

و هی دعوة قام علیها الدین، و بنی علیها أوامره و نواهیه، و جعلها أساس العقیدة الصحیحة التی یعتقدها المؤمن بربه، و التوحید معرفة اللّه تعالی بالربوبیة، و الإقرار بالوحدانیة، و نفی الأنداد عنه جملة «۱».

و قد شغلت قضیة البحث عن اللّه العقل الإنسانی من قدیم الزمن، فمنهم من آمن بأن اللّه موجود، نظر إلی کل ما خلق اللّه حوله، و استمد منه یقینه و معتقده فی تلک المظاهر التی تدل علی الخالق و المبدع من أرض و سماء، و إنسان و حیوان، و نبات و جماد ... إلخ، و رأی فی کل ذلک نظاما مرسوما، و قدرة فائقة تدل علی مبدعها و منشئها، فلا یعقل أن تکون قد خلقت بدون خالق، و آخرون أخذوا أنفسهم بالبحث عن دلیل یؤید فکرتهم و دعواهم الباطلة التی لا تؤمن إلا بالمادیات، و بما یقع تحت الحواس، و هم لذلک ینکرون المغیبات من وجود اللّه، و الملائکة، و البعث، و الحساب، و الیوم الآخر، و ما فیه، و یجعلون حواسهم هی الطریق إلی الإیمان بمقاییس یضعونها لأنفسهم مع علمهم بقصورها، فهناک أشیاء موجودة و یعرفونها، و لا تستطیع حواسهم أن تعرف عنها شیئا، مثل الروح، یجهلون حقیقتها، و لا یعرفون عنها شیئا، علما بأنها ثابتة و موجودة، و یحکمون بعد ذلک الحکم الفاسد أن الطبیعة هی التی خلقت هذا العالم و ما فیه، و هذا الکون و ما یسیر علیه من نظام بدیع لا یتغیر و لا یتبدل، نسی أولئک القوم تلک الحقیقة البدهیة أنهم إذا أرجعوا ذلک کله إلی الطبیعة، فمن أوجد الطبیعة؟ أ أوجدت نفسها؟

---

(۱) انظر: کتاب التعریفات لعلی بن محمد الشریف الجرجانی (ص ۷۳).

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۸۷

سؤال یحتاج إلی إجابة، و لا یستطیع أولئک القوم أن یجیبوا، لضلالة فی نفوسهم، و ضیق فی تفکیرهم، و غیاب فی عقولهم. إن کتاب اللّه بین أیدینا یدعو العقل إلیه:

تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفُورُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً [الملک: ۱- ۳].

حجج و أدلة تهدی من یرید اللّه له الهدایة و استخدم عقله و حواسه فی مواطنها التی خلقت من أجلها، وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً [الأحقاف: ۲۶]، و لیس من المغالاة إذا قلنا: إن کلام اللّه و قرآنه قد وجه کل آیة إلی أولئک الذین ألغوا عقولهم و تفکیرهم و اتجهوا اتجاهات باطلة فی عبادة غیر الخالق الذی رزقهم و أطعمهم و سقاهم و بیده الخیر، انحرفوا إلی عبادات باطلة تتمثل فی آلهة یعتقدون ألوهیتها، و أصنام یصنعونها بأیدیهم ثم یعبدونها، و ظواهر طبیعیة تبدو لهم فی رعد و برق، و مخلوقات خلقها اللّه بقدرته

من شمس، و قمر، و ملائكة، و حيوانات، اعتقدوا فى ذلك النفع و الضرر، و آمنوا بها و هم يعلمون أنها لا تقدم و لا تؤخر، و لكنهم مع ذلك أسلموا إليها قياد أنفسهم، يستشيرونها فيما يقدمون عليه من عمل و ما يريدون إنجازه من أمور، يضربون القداح، و يستقسمون بالأزلام، و يرضخون لعادات باطلة من صنع أيديهم، و إلغاء عقولهم.

تأخرت بهم تلك المعتقدات الباطلة عن انتشال أنفسهم من مهاوى الضلال، و التقليد، و باءوا بخسران مبين، حتى أصبحت الهوة شاسعة بينهم و بين غيرهم من الشعوب المجاورة، و المجتمعات الأخرى التى تمتعت بقسط وافر من التقدم فى مجالات الحياة، و تحقيق النظم الاجتماعية المتطورة.

هوة شاسعة بين طريقين: طريق جهالة، و طريق علم، تقدم و تأخر، تفكك و تجمع.

لم يرجع هؤلاء الذين أرسل إليهم رسول اللّه إلى فطرتهم التى فطرهم اللّه عليها، و كانت كفيلة بالأخذ بأيديهم إلى القرب من الصفاء، و التقاط الهداية من قبل السماء، فالإنسان الذى يولد على الفطرة لا يرى غير وجه اللّه، و قد دعت ذلك الأعرابى الذى لم يتلوث بأضاليل الشياطين من إنس و جن، و لم يحجب ذلك النور الإيمانى من سرعة الظهور، حينما سنحت فرصته، غطاءات من أدناس النفس و الحياة، حينما سمع

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۸۸

الأعرابى ذلك النداء إلى الإيمان باللّه الخالق، و الموجد، الرازق، قال: إن البعرة تدل على البعير، و الأثر يدل على المسير، أ فلا يدل ذلك الكون بأرضه و سمائه على الخالق القدير؟

و نفس الموقف تعرض له رجل آخر، و إن كانت له سابقة من أدناس النفس حجبت عنه الضوء فترة من الزمن، و قعدت به عن سرعة الاستجابة إلى اللّه، بل كانت له مواقف محاربة ضد الدعوة الإسلامية، فقد كان عكرمة بن أبى جهل من أولئك الذين لهم سهم معلوم فى موقف الكفار المعاندين للدعوة فى مكة.

أحاط الهول و الخطر بعكرمة، و هو هارب إلى الحبشة على ظهر سفينة، و رأى الناس يدعون اللّه أن ينقذهم من ذلك الخطر الداهم، فقال لهم: أ لا تدعون آلهتكم؟ فقالوا:

إنها لا تقدر على ذلك، فكانت هذه الإجابة سببا فى رجوعه إلى صوابه، و أدراك حقيقة ما هو عليه من باطل، و حاجته إلى ذلك النور الجديد، كى ينقذ نفسه و حياته، فعاد إلى مكة، و آمن باللّه و رسوله، و كان من جند اللّه المخلصين.

فطرة صافية وصلت إلى تحقيق إيمان كامل ثابت فى نفس صاحبها، و عقيدة عجزت عقول الكثيرين عن الوصول إلى نتائجها مع ما اتصفوا به من كمال عقل، و فصاحة لسان، و قوة منطق، و بلاغة أسلوب، و مع ما لديهم من سابق معرفة بأخبار الأمم و أحداثها، و ما يصل إلى مسامعهم من بشارات الكتب السماوية الأخرى التى تنبئ بعهد جديد فى الاعتقاد و الالتزام، و طهارة المسلك و الطريق.

ما كان من أولئك الذين أرسل إليهم رسول اللّه إلا الانحراف فى الفكر، و إلا الضلال فى العقيدة، سار فى ذلك الكثيرون و أعانهم على ذلك شياطين الإنس من أرباب الكهانة، و السيطرة الدينية، ممن يعيشون فى كهوفها، و يريدون أن يكون الجميع على منوالهم، يسيرون فى طريق الفساد، و أعوانا للشياطين فى الأرض، فكانت الآلهة أصناما، و أشجارا، و ملائكة، و أشخاصا ... إلخ، مما باعد بينهم و بين الحقيقة الباهرة التى يجب أن يعيشوا فى نورها، و يرتقوا بأنفسهم و فكرهم إلى مستواها، ألا و هى حقيقة التوحيد.

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لا يَسْتَطِيعُونَ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [النحل: ۷۳، ۷۴].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۸۹

نعم: لقد جهلوا حقيقة فطرتهم، و انحرفوا بها عن القصد، و سلكوا طريق من حرم التوفيق و البصيرة، و الفهم بتلك العبادة الباطلة للأحجار و الأصنام.

۲- حقيقة التوحيد:

إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ [الأنعام: ۷۹].

الإيمان بوحدانيـة اللّه، و هو إفراده بألوهيته فى الأرض، كإفراده بالألوهيـة فى السـماء، و عـدم تعـدده فى ذاته، و صـفاته، و أفعاله، هو الفارق بين طريق و طريق، طريق الحق، و طريق الباطل، طريق الهـدى، و طريق الضـلال، و كانت هـذه الحقيقة التى نطق بها أبو الأنبياء إبراهيم، عليه السلام.

هـذه النقلـة فى الاعتقاد كانت طريق الأنبياء و الرسل، و لم يكن هذا الطريق ممهدا مملوءا بالورود و الرياحين، و لكنه طريق الشوك و القتاد، طريق الصـعاب، و الألم، و التضـحيات، فكم من نبى و رسول حورب من قومه، و قوبل بالهزء و السـخرية، و كان محل تنـدر، و سخرية مريرة من أهله، و كم من نبى و رسول قتل فى سبيل هداية قومه إلى طريق الحق كما حدث فى بنى إسرائيل.

و لم يكن محمـد، عليه الصـلاة و السـلام، بدعا من الأمر، أو بعيدا عن مواطن المشـقات و المتاعب، فقد أرسل إلى قوم غلف القلوب، غلاـظ الأكباد، صم الآذان، عمى العيون، لا يسـتمعون لكلمـة اللّه و لا يصـيخون لـدعوة الحق، و لا تؤثر فيهم موعظـة حسـنة، حتى إذا نزلت إليهم الآيات القرآنية تدعوهم إلى عبادة اللّه وحده بطرائقها العديدة، و أساليبها المختلفة من أمر إلى نهى، من استفهام إلى خبر، من قصة إلى مثل؛ لاسـتمالتهم و التأثير فى نفوسـهم، اتخذوا من ذلك أداة للتندر و التفكه، و أعرضوا عن السماع، مع ما لهم من ملكة التـذوق و الفهم لهذه الأساليب التى أتت من جنس ما يتكلمون و يتحدثون، و لكنه الكبرياء الذى تمكن من نفوسـهم، و الغرور الذى سيطر على قلوبهم، فكيف يدعو محمد إلى ذلك، و يظهر من بين أيديهم، و لا يكون من أولئك العظماء الذين يدينون لهم بالطاعة و الخضـوع، و يعرفون لهم مكـان الشـرف و السـيادة: أَ هُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ نَحْنُ قَسَـمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِی الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ [الزخرف: ۳۲]، و فى آية أخرى. وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۹۰

وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَیْءٌ عُجابٌ [ص: ۴، ۵].

تـدرجت الآيات القرآنيـة بأساليبها العديـدة فى دعوتهم عن طريق الإقناع، و سوق الدليل؛ لتنمى فيهم جانب العقل و التفكير، حتى إذا كان الإيمان كان على بصيرة من الأمر و اقتناع بما أنزل اللّه، و إيمان كامل بوحى اللّه و شريعته.

استمر الرسول يـدعو إلى الإيمان بوحدانيـة اللّه، و هى الأساس الإيمان بكل ما جاء من عنـده، فى مكة ثلاثة عشر عاما، ثم انتقل بعد ذلـك إلى الهجرة إلى المدينـة، فكـان الانتقـال إلى مرحلـة البنـاء و الجهـاد فى سبيـل اللّه، و الاتصـال بالمجتمعات الأخرى، و إرسال الرسائل إلى الملوك و الأمراء، يـدعوهم إلى كلمة اللّه و الدخول فى الإسـلام، و كان اللقاء مع أولئك الذين صدّوا عن سبيل اللّه فى ميادين القتال فى الحرب و السلام.

كـانت مرحلـة التأسـيس، و تطهير النفـوس و القلوب ممـا ران عليهـا من الشـرك، و الجهـل، و التقليـد، هى أخطر المراحـل، و أولاـها بالاهتمام، يبدو هذا من آيات اللّه فى أمثاله، و الإكثار منها، و ما تناولته من عقائد و شرعته من شرائع، و دعت إليه من قيم.

ثم كانت بعد ذلك مرحلة البناء، و المحافظة عليه بالحرب و السلم فى المدينة، و هى مرحلة بدأها رسول اللّه بالوحى الذى أنزل عليه، ثم سار بعد ذلك على دربها صحابته و من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

و نحن إذ نعرض لتلك الآيات القرآنيـة التى تعالـج الـدعوة إلى وحدانيـة اللّه، و الإيمان به، فى ذلك الثوب القرآنى، ثوب الأمثال، لا نقصد من وراء إيرادها على ذلك النهج أن تكون خاضـعة لتسـلسل نزولها، ففى ذلك جهد لا نملك أدواته، و لا نستطيع أن نقطع فيه برأى، و إنما نقصـد من وراء ذلك تحقيق الهـدف و الغايـة التى إليها نسـعى، و نقصـد من كتابـة هـذه الموضوعات و هى غرس القيم الدينية البعيدة عن الانحراف، القيم التى تدعو إلى الإيمان باللّه و وحدانيته، و اتصافه بالكمال المطلق، و الإيمان بما أنزل.

هـذه القيم هى التى يجب أن يعلو صوتها فوق كل صوت، و تأثيرها فوق كل تأثير، فى وقت نعيش فيه، و يعيش فيه شـبابنا، و يحسون بـذلك الفراغ الروحى الذى يسيطر على كل خطواتهم و ميولهم و اتجاهاتهم، فيحسون معه بالضـياع، و الاكتئاب، و القلق، و العثار، و يتلمسون كل وسيلة يعتقدون أن وراءها حلا لمشكلاتهم، و قضاء على

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۹۱

معاناتهم، و قـد يقعون نتيجـة ذلك فريسـة سـهلة لألوان من المخدرات القاتلة التى تذهب بأرواحهم و قوتهم و عقولهم، دون أن تبدو منهم مقاومة لها؛ لأنهم لا يملكون من وسائل القدرة على ذلك ما ينفعهم فى موقفهم، فعقولهم و أفئدتهم خواء لا شـىء يعمرها، و لا فكر يمد يده لينقذها مما تردت فيه.

يجب أن يكون للقيم النبيلـة تلك الصـدارة على قيم أخرى التى تعتبر أدنى مرتبة و أقل تأثيرا فى النفس، لقد انعكست الأمور فى وقتنا الحاضـر، فأخـذت الماديـة تطغى على كل النفوس فى مواقف الحياة، و فى التعاملات، و العلاقات، و التطلعات المختلفة، و الطموحات العديدة التى يرنو إليها كل شاب متطلع للحياة بكل ما فيها، و هذا هو موطن الخطورة، يحس بذلك أولو الأمر فى اتجاهاتهم السياسـية و الثقافيـة، و يشـعر بها المربون و الآباء فى سـعيهم الثقافى، و التربوى، و الاجتماعى، و يرون فى ذلك نـذيرا لمسـتقبل لا يبـدو باسـما بحال، و لا مبشرا بطريق مستقيم.

و لكن إذا بـدأت القيم تغير من أماكنها على مسـرح الحياة، و فى شـعور الناس و عقولهم، و بـدأت تسترد اعتباراتها التى كانت لها فى الماضـى، و يعاد ترتيبها من جديـد، و تحتل القيم الرفيعـة صـدارتها الأولى، كان ذلك بداية إلى ما هو أفضل فى الحياة، و قضاء على عادات و انغماسات فى مهالك مردية يقع فيها الكثيرون.

إن مـا نلحظه فى وقتنا الحاضـر أن تلك الأنظمـة التى شـدت انتباه الناس، و بخاصـة الشـباب الـذى بهر بما فيها من حريـة و انطلاق، و استمتاع مطلق بكـل مـا تحمله المدينـة الحديثـة فى طياتها من خبائث الشـراب و الجنس، بـدأت تلك الأنظمـة تعيـد النظر فى ترتيب أوراقها، و ترجع إلى فهم حقيقى للحرية المنشودة للإنسان المعاصـر، الحرية التى تلتزم بالقيم النابعة من الدين، المحافظة على الأخلاق العامة و على حقوق الآخرين.

۱- قـال اللّه تعـالى: مَثَـلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيـاءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنكبوت: ۴۱- ۴۳].

جاء هـذا المثل القرآنى عقب آيات تناولت أحوال أمم سابقـة لهم فى مجال المعصـية دور مشـهود، و فى محاربة الرسل السابقين لهم عمل مشهور، و فى إنكار الدعوات

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۹۲

الصالحـة التى تـدعوهم إلى الإيمـان بـاللّه الواحـد القهـار، و تـدعوهم إلى تطهير أنفسـهم من قبائـح الحيـاة و الرذائـل المتفشـية فيهم، فأصـابهم اللّه جزاء أعمـالهم و ظلمهم لأنفسـهم بتلـك العقوبـات التى تنوعت بإرسـال الحاصب من السـماء، و الرجفـة التى تهلك، و الخسف، و الإغراق.

ألـوان مـن العـذاب تتنـاسب مـع كفرهم بـاللّه، و ظلمهم لأنفسـهم، و اعتمـادهم على أفكـار ضالـة، و إيمـانهم بعبـادات باطلـة، فكـان الاسـتحقاق من جنس العمل، و لا يظلم ربك أحـدا، و كأن هذا إشارة إلى عقوبات مماثلة تلحق بمن يتشابه مع السابقين فى مواقفهم، و لن يكون المصير مختلفا، فالنتائج واحدة ما دامت الأعمال واحدة، و قد قال اللّه فى هذه الآيات: فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَـلْنا عَلَيْهِ حاصِـباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَـذَتْهُ الصَّيْحَـةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَـفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنـا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: ۴۰].

فی ضوء هذا التمهید، جاء المثل لیبین حقیقة أولئک القوم الکافرین الذین أرسل إلیهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، و ما وصلوا إلیه من فهم سقیم، فالمشرک الذی یعبد الأصنام و یعتقد فی نفعها و ضررها، و ألغی بذلک تفکیره بالقیاس إلی المؤمن الذی یعبد اللّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذی بیده النفع و الضرر، و الإحیاء و الإماتة، یشبهان فی حالیهما بحال تلک العنکبوت التی لجأت إلی نسجها الضعیف الواهی تلتمس فیه نجاة، و تتخذ منه حمایة لها و لحیاتها، و هو لا یدفع عنها شیئا من حر أو برد، بالقیاس إلی من بنی بیتا حصینا اعتمد فی إقامته علی کل ما یثبت دعائمه.

و هکذا تتضح الصورة، ففرق بین بیت و بیت، و فرق بین عبادة و عبادة، عبادة قائمة علی شیء واه ضعیف، و عبادة قائمة علی أساس سلیم من الاعتقاد، و الفکر، و الاقتناع، و لذلک جاء التأکید بقوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ ما یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ [العنکبوت: ۴۲].

فالإنسان الذی له مسکة من عقل، جدیر به أن یستند إلی حقیقة و دعامة ثابتة تقیه شر تقلبات الحیاة، و ما تأتی به من أرزاء، تلک الدعامة التی تعلی من شأن الإنسان و ترفع من مکانته، فلا یذل لمخلوق، و لا یحرم نفسه من مکانة أعزه اللّه بها، و هی خلافة اللّه فی الأرض، یعمرها بالفکر و العقل، و الإرادة، و الحریة، و التحکم فی شهوات النفس و غرائزها.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۹۳

هذا هو الإنسان الذی أسلم وجهه حقا للّه، و عرف حقیقة وضعه، فتجرد من أنانیته، و کان مستعدا لتلقی وحی اللّه، و دعوة رسله، لا یخضع لصنم، و لا یرکع لوثن، و لا یذل لطاغوت، و إنما یؤمن بمن خلق الصنم و الوثن، و خلق الکافر و المؤمن، و الحیاة و الموت، یؤمن باللّه الذی بیده الأمر، و هو علی کل شیء قدیر: وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلی فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ [الروم: ۲۷]، و الذی یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ کَذلِکَ تُخْرَجُونَ وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: ۱۹، ۲۰].

یعرض علی أولئک الکفار فی هذه الآیات مشاهد مألوفة و محسوسة لدیهم، تقع علیها أنظارهم، و تتصل بحیاتهم و معاشهم، لعلها تثیر فیهم نزعة التفکیر و التأمل، و توجه حواسهم إلی أداء وظائفها علی أکمل وجه فی الإیمان باللّه، و الاعتراف بفضله و نعمه التی لا تعد و لا تحصی.

هذا ما یعرضه المثل القرآنی، و ما یهدف إلی تحقیقه، و لکن کیف استقبل أولئک المشرکون هذا المثل؟

لقد استقبل هؤلاء المشرکون هذا المثل الذی یوضح حقیقتهم بطریق المقابلة و الموازنة، استقبال أهل الغفلة و الضلالة، فهم لا ینظرون إلی الحکمة و المقصد، و إنما یتعلقون بالقشرة الظاهرة، و هذا دأب التافهین الذین لا یفکرون و لا یتعمقون فی الأمر، نظروا إلی ما فی المثل من عنکبوت، و إلی أمثال أخری تحوی ذبابا و بعوضا، تمثل أحوالهم، و تعرض صورهم، فقالوا: إن رب محمد یضرب الأمثال بالذباب تارة، و العنکبوت أخری، یتضاحکون و یستهزءون، فرد اللّه علیهم بقوله: إِنَّ اللَّهَ لا یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَیَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَیَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا [البقرة: ۲۶].

حقا اللّه سبحانه و تعالی یضرب المثل بالشیء القلیل و الحقیر الذی لا ینال من الکفار حقا من احترام؛ لأنهم جهلوا أن ضرب المثل یحقق حکمة یریدها اللّه، و هی العظة و الاعتبار، زیادة الفهم و الإدراک للأمور، و أن اللّه خالق الشمس و القمر، و الکون الکبیر، هو الخالق للصغیر من الأمر، فلیست هذه أصعب من تلک، فإذا اقتضت مشیئة اللّه أمرا خلقه بقدرته القادرة القاهرة، یشترک فی ذلک النملة و الفیل، و الکبیر و الصغیر.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۹۴

و کم من دلالات یتعلمها الإنسان، حتی فی علو مکانته، و سموّ منزلته، من تلک الأشیاء الصغیرة، إن نظرة فی أعمق أعماق التاریخ یری موقف ابن آدم، علیه السلام، حیث قتل أخاه، یقف موقف الخاسرین، لا یعرف ما یأتی و ما یذر، فیبعث اللّه إلیه غرابا یبحث فی

الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه، فأصبح من النادمين.

و سليمان، عليه السلام، و هو نبى مرسل من قبل اللّه، يمرّ على بيت للنمل، فتراه النملة، فتقول: يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ [النمل: ۱۸، ۱۹].

و كذلك موقفه من الهدهد الذى أتى إليه بأخبار ملكة سبأ، كل هذا كان مددا لسليمان، عليه السلام، من تلك الأشياء الصغيرة التى كانت مصدر علم و معرفة لنبى اللّه، فكان منه الشكر، و الطاعة للّه رب العالمين، ليست العبرة إذن فى كثرة الأشياء و قلتها، و كبر الأحجام و صغرها، و ثقل الأوزان و خفتها، و إنما فيما تتركه من أثر فى اهتداء العقل، و ضلاله، و إيمانه، و انصرافه عن الحق.

۲- قال اللّه تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: ۲۸].

ما موقف الآيات التى سبقت هذا المثل و مهدت له؟ جاء هذا المثل عقب آيات تناولت قدرة اللّه المطلقة فى السموات و الأرض، و أنه صاحب الأمر فيهما، و كل من خلقه خاضع لمشيئته، من إنس و جن، راجع إليه لا يخرج عن قدرته و سيطرته، و قدرته أيضا على الخلق و الإعادة، و اتصافه بصفات الكمال المطلق، العزيز الغالب الذى يصنع كل شىء فى حكمة و تقدير، قال اللّه تعالى: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الروم: ۲۶، ۲۷].

هذا هو التمهيد و الفرش لما يأتى من مثل بعد ذلك، يثير فى العقل الإنسانى و كل من يخاطب و يقع فى دائرة التكليف دفعة إلى التمييز بين المتقابلات، و الفهم للحقائق، و حسن استخدام ما جعله اللّه تكريما للإنسان، و هو العقل.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۹۵

تناول المثل واقع هؤلاء المشركين الذين يشركون مع اللّه إلها آخر يتنازلون برغبتهم و اختيارهم عما ميزوا به من عقل، فاتجهوا إلى أصنام يعبدونها و يسلمون إليها رقابهم و يخضعون لمشيئتها، إن كانت لها مشيئة، و فى نفس الوقت لا يرضون أن يكون أولئك العبيد و الأرقاء و الإماء الذين يملكون رقابهم، لا يرضون أن يكونوا لهم شركاء فيما يملكون من مال، أو يتدخلون فى شئونهم الخاصة و العامة، و أن تتساوى تصرفاتهم مع تصرفات السادة و الأمراء، يأنفون من ذلك، و يخافون أن يكونوا أندادا لهم.

و مع ذلك يرضى أولئك الكفار أن يشركوا مع اللّه فى عبادته تلك الأحجار و التماثيل العاجزة، و هو القادر الخالق حتى لهذه المعبودات، و ينسبوا إليه الشركاء.

بهذا الأسلوب الإقناعى المستمد من الحياة التى يحياها أولئك الناس، الحياة الاقتصادية و الاجتماعية التى تعتمد على تجارة العبيد، و استغلال الأرقاء و الإماء، يخاطبهم و يوجه تقريعه و لومه لمن يهمل ما ميزه اللّه به من عقل فضله به على بقية المخلوقات، و أعطاه القدرة على الملاحظة، و التدبر، و حسن التصرف.

حقا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [الأعراف: ۱۹۴].

اتجاهات و لا شك تدل على تدن فى التفكير، و إلغاء للعقل يخرج بالإنسان من دائرة الإكرام الذى عبرت عنه الآية الكريمة: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا [الإسراء: ۷۰].

ما الموقف الذى يدعو إليه المثل؟ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: ۲۸]، بهذا الختام نلمس ما يدعو إليه من موقف سليم فى الاعتقاد، و العمل، و السلوك، موقف ذلك الإنسان الذى يتلقى ضوء السماء، فيسير فى حياته لا يتخبط، يحافظ على منزلته التى حباه اللّه بها فى دنياه، و يتجه اتجاها حقيقا إلى خالقه رب العباد جميعا، و

خالق الأسباب و المسببات، و أن يقيم اعتقاده على الإيمان باللّه وحده الذى يأخذ بيده على صراط اللّه المستقيم، فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [الروم: ۳۰].

و ما دام هذا الدين هو الفطرة، فعلى كل مؤمن أن يرجع إلى ربه، و أن يعرف طريقه

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۹۶

إليه فى كل وقت و حين، فى سرائه و ضرائه، فى صحوه و نومه، فى حركاته و سكناته:

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: ۳۱، ۳۲].

۳- قال اللّه تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [النحل: ۷۵].

جاءت الآيات السابقة لهذا المثل، و الممهدة له، توضح حقيقة أولئك الكافرين الذين يؤمنون بالباطل و يكفرون بنعم اللّه عليهم، و التى تمثلت فى قدرة اللّه التى جعلت لهم من أنفسهم أزواجا، و جعل لهم من أزواجهم بنين و حفدة، كما رزقهم من الطيبات، و أنعم عليهم بنعم كثيرة من الصحة و المال و العقل، و مع ذلك ألغوا عقولهم و تفكيرهم، فاتجهوا اتجاهات باطلة نحو عبادة ما لا يملك لنفسه نفعا، و لا يدفع عنها ضرا، عبادة أصنام لا تملك من أمرهم شيئا من رزق أو مرض، حياة أو موت، فهى مخلوقات ضعيفة قد حرمت صفة القدرة، و الذى لا يملك التأثير فى نفسه لا يملكه فى غيره.

قال اللّه تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لا يَسْتَطِيعُونَ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [النحل: ۷۲- ۷۴].

و قد أبانت الآيات أن اللّه جلت قدرته يعلم حقائق ما يأمر به عباده من فعل، و ما ينهاهم عنه من باطل، و بيده الأمر كله من نفع و ضرر، و حياة و موت، و رزق و فقر، و نصر و هزيمة. و الإنسان العاجز المخلوق قاصر عن فهم هذه الحقائق، جاهل بحقيقة نفسه، محتاج إلى الإيمان بخالقه، فكان هذا المثل الذى يوضح تلك الحقيقة الكبرى فى تلك الصورة المأخوذة من حياتهم الواقعية، و أمورهم الاقتصادية، حتى يكون العقل على إدراك كامل بحقيقة الموقف الذى ينحاز إليه.

صورة ذلك العبد الذى فقد حريته و أصبح خاضعا لغيره، ذليلا لمن يتحكم فى رقبته، و جهده، و وقته، فما يجنيه من عمل يحصل عليه سيده، و ما يبذله من جهد إنما يذهب ريعه لمن اشتراه و دفع ثمنه، فهو بمثابة البهيمة التى لا تملك الدفاع عن نفسها

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۱۹۷

حين يراد ذبحها، أو بيعها، أو التصرف فى أمورها، حرم ذلك العبد سمات الإنسان الذى يملك القدرة على التفكير، و إبداء الرأى، و التصرف فى ملكه.

هذه هى صورة ذلك الكافر الذى نحت صنمه، و أخذ يسجد و يركع له، و هو من صنع يده، و قد أخضع نفسه و تصرفه لهذا الضعيف، يستشيره فى أموره، و لا يصدر رأيا، و لا يعزم على أمر إلا بالرجوع إليه.

هل يستوى هذا بمن رزقناه منا رزقا حسنا: صورة أخرى تختلف عن الأولى جديرة بالاحترام و التقدير، صورة السيد المالك لأمره، المتصرف فى أمر نفسه و أمر غيره، الحرّ الذى يفعل ما يشاء، و هو اللّه سبحانه و تعالى خالق الموجودات، لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، و كل مخلوقاته له عبيد.

هل يستوى العبد بالسيد؟ و قيل: هو مثل مضروب للوثن، و الحق تبارك و تعالى، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [النحل: ۷۵]: إيقاظ للنفس الإنسانية الغافلة كى تثوب إلى رشدها، و ترجع إلى طبيعتها الجديرة بها، الطبيعة المفكرة العاقلة التى تعمر الكون، و تصل فى

نهايـة المطاف إلى أن تكون فى زمرة أولئك الـذين يعلمون الحقائق، و يؤمنون باللّه الواحـد، و يحمـدون اللّه على تلك النتائـج التى وصلت بهم إلى العقيدة الصحيحة، و الإيمان القوى، و المعرفة بحقيقة دورهم فى عمارة الكون و الاستخلاف فى الأرض.

۴- قال اللّه تعالى: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [النحل: ۷۶].

هـذا المثل يكمل الصورة السابقـة، و يؤكـد بما يحويه من مضـمون تلك الحقيقـة الكبرى التى ترمى إليها الآيات، حقيقـة الألوهيـة، و الابتعـاد عن الشـرك، فـإذا كـان المثـل السابق تكلم عن العبـد العاجز الـذليل الـذى لا يملك حريته، و لا يتصـرف بإرادته، و إنما هو خـاضع لغيره فى كـل تصـرفاته، فهنـا أيضـا رجل لا يسـتطيع أن ينطق، حرم نعمـة الكلام، فهو عاجز عن التعبير عن حاجـة نفسه، و عن إرادته، عجزا حقيقيـا لنقص فى أدوات الكلام، أو عجزا معنويـا لحرمـانه من كمـال العقل و التفكير، و بـذلك حرم من سـمة الإنسان الذى له إرادة، و حركة، و قدرة، و عمل، فهو مقهور، و يحتاج إلى من يتحكم فيه،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۹۸

يسير حسب أهوائه، فنفسه خبيثة طبعت على الرضا بالهوان، و المسكنة، و الخضوع، لا ينتظر منه خير فى مسلك أو عمل صالح.

أمـا الرجـل الآخر، فهو كنظيره فى المثل السابق الـذى يملك ماله، و يتصـرف بإرادته، و يفيض على الآخرين فى كل وقت و حين، له عمله، و حريته، و حركته البناءة التى تـدل على حقيقـة حاله، هنا أيضا له أمره الذى يصدره عن عزة و اقتدار، لمن يخضع لمشـيئته، فلا يملك إلا التنفيذ و سرعة الاستجابة، أمر يصدر يحمل فى طياته النفع، و الخير، و الهدى، و العدل.

هـذه الأمثـال التى تناولتهـا سورة النحل سـبقت فى إطار واحـد لتوضـيح حقيقـة لا لبس فيها، و لا غموض لـدى الإنسان الـذى يملك إرادته، و يعرف الحكمـة من وجوده، و هى أن العبودية للّه وحده؛ لأن السـلطان بيده، و الحكم له، يأمر بالعدل، و ينهى عن المنكر، و كل فعل يجب أن يكون فى إطار ما شـرع اللّه، و على هـدى سـننه، و كل تحرك بالعمل، و الفهم فى هـذه الحياة التى يحياها الإنسان يجب أن يأخـذ نوره و قبسه من شـرع اللّه، و يبتعـد عن أولئـك الظـالمين لأنفسـهم، و المضـلين لغيرهم، الـذين تحكمت فيهم عقـائد الجاهلية و غوايات الشيطان.

۵- قـال اللّه تعالى: ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُـرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَـلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْـتَوِيانِ مَثَلًا الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [الزمر: ۲۹]. هذا المثل أتى عقب آية قرآنية تشيد بأمرين جديرين بالتأمل و الاستفادة، و هما:

(أ) أن اللّه اقتضت حكمته أن يكثر فى كتابه الكريم من ضرب الأمثال للتذكر، و العظة، و الاعتبار.

(ب) و أن يكـون ذلـك فى معرض قرآنه الحكيم الـذى أنزله بلسـان عربى مـبين؛ ليكون طريقـا إلى الإيمـان القوى، و ليكون علاـجا للنفوس المريضـة الـتى لم تتشـرب الإيمـان الحقيقى، فيكون طريقـا إلى التقوى و الخوف من اللّه جـل فى علاـه، و مراقبته فى السـر و العلن، و خشـيته فى الظاهر و الباطن، و الإيمان به إيمانا قائما على إعمال الفكر، و التدبر، و النظر، و الاستدلال، وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [الزمر: ۲۷، ۲۸].

تبدو كل هذه المعانى فى ذلك المثل الذى يأخذ أمثلته من الحياة التى يحياها الناس،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۱۹۹

و ما يشـغل بالهم و تفكيرهم فى كل وقت و حين، يأخـذ أمثلته التى توضـح فكرته التى يرمى إلى إيضاحها، ألا و هى حقيقـة الألوهية أيضـا التى تعزب عن بـال أولئك المشـركين، يأخـذ أمثلته من واقع الحياة الاقتصاديـة التى يحيونها، تتشابك فيها المصارع، و تتصارع الرغبات، و تبدو الاهتمامات، و يظهر الطمع و الجشع، و تبدو النفس عارية على حقيقتها بما فيها من شرور و آثام.

يضـرب اللّه المثل لأولئك الكافرون بما بين أيـديهم من أدوات الحياة الاقتصاديـة التى يسـتخدمونها و هم العبيـد. فهـذا عبد مشـرك حكم عليه بالعبودية، يتحكم فيه عديد من السادة، و يتنازعون فى رقبته، كل له رغبة قد تتفق و قد تختلف، و هذا العبد حائر بين أيدى

سادته، لا یعرف له طریقا، و لا یبصر له نهجا ینقذه من حیرته و ضلاله.

و رجل آخر مؤمن له سید واحد یخضع لما یأمره به، و ینفذ ما یرید دون أن تتبدد قواه، أو تتوزع نفسه بین جملة شرکاء، یعرف طریقه، و یسیر علی هدی و بصیرة من الأمر، هل یستویان؟ لا شک أن الأول ضائع، معذب فی دنیاه، و الثانی منعّم یشعر ببرد الراحة و الهدوء فی سیره و نهجه. و کذلک من یعبد غیر اللّه، و یتخذ آلهة له و شرکاء فی عبادته مظلم النفس و البصیرة، و من یعبد اللّه لا یلتوی به الطریق، و یعرف طریقه نحو خالق السماء و الأرض.

لذلک ختمت الآیة بقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذی اختار لعباده الأمن و الطمأنینة، و إن صدرت منهم أعمال تتصف بأعمال الجاهلیة، و بعیدة عن روح الدین و حقیقة التوحید، فأکثرهم لا یعلمون.

۶- قال اللّه تعالی: وَ مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا کَمَثَلِ الَّذِی یَنْعِقُ بِما لا یَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَعْقِلُونَ [البقرة: ۱۷۱]. أتی المثل القرآنی عقب آیة تندد بکل تفکیر معوج، و بالعادات البالیة التی سیطرت علی أخلاق الکافرین فی أفکارهم، و باعدت بینهم و بین استلهام الضوء من مصدره الجدیر بالاتباع و الإیمان، فإذا بذل رسول اللّه نصحه لهم باتباع ما أنزل علیه، غلبت علیهم شقوتهم و أغضبتهم الجاهلیة، و فکرهم المریض الذی یدعوهم إلی التقلید، و مسخ الصورة الآدمیة التی کرمها اللّه بالعقل و التمییز، و جعلها جدیرة بالاستخلاف فی الأرض، و لذلک کان هذا الرد المعوج الذی تعرضه الآیة القرآنیة فی قوله تعالی: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَیْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ [البقرة: ۱۷۰].

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰۰

نعم یصرون علی موقف، و هم یعلمون أنهم جاهلون بنتائجه، و یصرون علی الاتباع و لو کان یؤدی إلی الهلاک، و بخاصة و قد حرم أولئک المتبعون من السابقین من نعمة العقل و الاهتداء، و إلا لکانوا فی موقف آخر من الإیمان، و محو عار الجاهلیة الذی لصق بهم، و استدعی إرسال الرسل إلیهم، و دلیل ذلک إصرارهم علی معاداة النبی و محاربته، و الوقوف ضد دعوة الإسلام، حتی بهذا التدنی فی المرتبة التی تصمهم بوصمة الحیوانیة التی سلبت العقل و الهدایة، و هذا ما عرضه المثل بعد ذلک: یَنْعِقُ بِما لا یَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً [البقرة: ۱۷۱].

جو واحد، تشابهت فیه الأشخاص و الدواب، و سلکت کلها فی مسلک واحد، لا تفکیر، و لا اهتداء، و إنما اتباع مضلل، و طریق إلی الهاویة، نری ذلک کله فیما یعرضه المثل من صورة أولئک المقلدین لغیرهم فی خطواتهم الضالة، و الذین ألغوا عقولهم و تفکیرهم التی خلقها اللّه للاهتداء بها، فهم یرون الحق و یعرضون عنه، و یصرفون أنفسهم عن دلالته و آیاته، و یتبعون خطوات الشیطان، و یقولون علی اللّه بغیر علم، و لا دلیل و لا برهان، و هم علی فساد من الأمر.

صورهم اللّه فی هذا المثل بتلک البهیمة السارحة التی لا تفقه ما یقال لها إذا صاح فیها راعیها، بل هم أضل منها، فهی تری و تسمع و تصیح، و لکنهم: صم، بکم، عمی، مع وجود هذه الحواس، و لکنهم معطلون لها، و لا تؤدی وظیفتها التی خلقها اللّه من أجلها، صم لا یسمعون الحق سماع تدبر و فهم، بکم لا ینطقون به عن اعتقاد و علم، و لا یعقلون مبدأ ما هم فیه، و لا غایته کما یطلب من الإنسان، و إنما ینقادون لغیرهم کما هو سائر الحیوان. و هؤلاء الکفار هم المشرکون الذین تکرر منهم القول: بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَیْنا عَلَیْهِ آباءَنا [البقرة: ۱۷۰].

صورة تحذر من اتباع الشیطان، و تعطیل الفکر عن المعرفة و الهدایة، و تلقی أمر اللّه و الشریعة من غیر الجهة التی یتلقی منها أمر العقیدة و الشریعة.

۷- قال اللّه تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوها کَمَثَلِ الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ [الجمعة: ۵]. جاء هذا المثل بعد آیات أربع افتتحت بها سورة الجمعة، و تناولت هذه الآیات:

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰۱

(أ) تمجيد اللّه و تعظيمه بذكر صفاته، و خضوع المخلوقات من إنس، و جن، و سماء، و أرض، له، و تسبيحها بحمد اللّه، وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء: ۴۴].

(ب) اختيار رسول اللّه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور من جنس العرب؛ ليتلو عليهم آيات اللّه.

(ج) رحمة اللّه شملت غير العرب الذين آمنوا، و من بقى من أمة محمد من الأجيال اللاحقة.

(د) أسبغ اللّه نعما كثيرة على عباده الذين أراد لهم الهداية، و جدير بمن يعرف هذه النعم أن يوفيها حقها من الذكر، و حق موجدها بالطاعة و العبادة و التوحيد، حتى يكون من جملة المسبحين و المعترفين بفضل اللّه.

أما أولئك القوم الذين ضرب بهم المثل من اليهود الذين كانوا فى عصر الرسول، و عرفوا حقيقته من الآيات التى بين أيديهم التى تحويها التوراة، و ما عرفوه من علامات، حتى أنهم كانوا يستفتحون على غيرهم من الكفار بأنهم سيتبعون الرسول الذى سيرسل، و سيكونون عونا له عليهم، فلما أرسل اللّه محمدا، عليه الصلاة و السلام، إذا بهم ينكرون الرسالة و يحاربونه أشد محاربة؛ لأنهم كانوا يحسبونه من قومهم و من جنسهم.

هؤلاء القوم الذين كلفوا العمل بالتوراة، و لم يؤمنوا بمحمد، و لجأوا إلى التأويل و التحريف و التبديل، ضرب اللّه لهم المثل بالحمار الذى يحمل فوق ظهره كتبا تحوى كنوز المعرفة و اليقين، و لا يدرى عنها شيئا، و لا ينال من حملها إلا الثقل دون فائدة، بل هم أسوأ حالا من الحمار؛ لأن الحمار لا فهم له، و هؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها.

و فى هذا التصوير القرآنى دعوة واضحة لكل ذى لب أن يستوعب علم ما يحمل، و أن يتفهم جوانبه و أهدافه و مراميه، حتى لا يلحقه الندم من جراء جهله بما معه، و الذم ممن يراه، و أن يعمل بمقتضى ما فيه من نهج صالح، و دعوة بناءة فى الحياة الدنيا، و سعادة فى الآخرة.

إنها دعوة المعرفة التى تنتظم جوانب النفس، و جوانب المجتمع و الحياة زراعة، صناعة، تجارة، حتى تصل إلى كفايتها التى تطمح إليها، ثم تصل فى نهايتها إلى المعرفة

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۰۲

الروحية، و هى صفاء القلب، و تفتح العقل و نوره، حتى لا يكون مظلما، و غير قادر على العمل، فالعقل مصدر كل شىء، و التقدم مرهون بتشغيل عقول الناس.

و من خلال هذا المثل نرى الفرق واضحا بين من عطّل حواسه، و من أحسن استغلالها فى فائدة تعود عليه، فمثل الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ [هود: ۲۴]، و قال أيضا: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ [الملك:

۱۰، ۱۱].

و بعد استعراض تلك الأمثال القرآنية التى تناولت فكرة الاعتقاد و الدعوة إلى الإيمان باللّه الواحد الذى يتجه إليه بالعبادة، و يفرد بالتعظيم و الإجلال، و تطهير النفوس من غواشى الجهالة التى تسيطر عليها، فتحول بينها و بين الإيمان الصحيح القائم على استخدام العقل و الفكر.

و لذلك كانت رسالة محمد و دعوته إلى الإيمان باللّه الواحد الأحد، و ما يتبع ذلك من أمور اعتقادية، هى من صميم الفكرة الأم التى دعا إليها القرآن، و نادى بها رسول اللّه، فاللّه هو خالق الخلق، و هو المحيى و المميت.

و إذا كانت هناك حياة، فلا بد و أن يكون هناك موت، و إذا كان هناك موت، فلا بد أن تكون هناك حياة أخرى للحساب، و العقاب، و المجازاة على الأعمال التى كانت و حدثت من الإنسان فى دنياه، فلا يعد الإنسان إنسانا إلا إذا كان صاحب إرادة، و صاحب عمل يصدر عنه، و يكافأ عليه، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، و هذا هو مقتضى العدل الإلهى الذى وضعه اللّه للإنسان فى دنياه

و أخراه، و بذلک کان التمییز عن بقیة المخلوقات التی تکون ترابا، و المخلوقات الأخری فی ملکوت اللّه الواسع العظیم التی خلقها لتکون فی یومها الموعود علی غیر ما هی علیه فی الدنیا من نظام مرسوم.

حیاة دنیویة هی مقر الإنسان، و محل العمل، یترتب علی ذلک جزاء و ثواب، و عقاب فی الدنیا و فی الآخرة.

هذا هو طریق الإیمان الذی یجب أن یسلکه المؤمن فی اعتقاده، و لذلک کان البعث، و النشور، و الحساب، من مستلزمات هذا الإیمان، و الکفر بذلک یقتلع فکرة الإیمان من جذورها، و یجعلها لا تقوم علی أساس، آمن بذلک القدامی، و سیطر ذلک علی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰۳

اعتقاداتهم، و ظهر هذا فیما ترکوه لنا من آثار تشهد لهم بالإیمان بفکرة البعث و الحساب بین یدی اللّه سبحانه و تعالی منذ آلاف السنین، و ما تلک الآثار التی تطل علینا من أهرامات و شواهد إلا شاهد صدق علی حقیقة هذا الاعتقاد، و دلیل علی سلامة ما کان یفکر فیه أولئک القوم.

إلا أن لوثة من الفکر السقیم سیطرت علی مجموعات أخری من الشعوب الجاهلة، قد اندست و ترسبت فی أعماقهم، فجعلتهم یکفرون بالحیاة الأخرویة، و ما بها من حساب، و عقاب، و بعث، و نشور، و اعتقدوا أن ذلک ضرب من المحال، وَ قالُوا ما هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ [الجاثیة: ۲۴].

فکان أولئک الدهریون أولی بأن تتجه إلیهم الأمثال القرآنیة؛ لتحارب هذه النزعة الفاسدة من نفوسهم، و تدعوهم إلی الإیمان بفکرة الجزاء، و الثواب، و العقاب.

۳- البعث و النشور و الحساب:

من کمال الإیمان باللّه سبحانه و تعالی، الإیمان بکل ما جاء من قبله فی کتابه العزیز، و قرآنه الکریم.

و کما دعانا إلی الإیمان بوحدانیته، و عدم الإشراک به، دعانا کذلک إلی الإیمان بالیوم الآخر، و الاعتقاد الکامل فی أن هناک حسابا و عقابا یوم القیامة، یوم تجزی کل نفس بما عملت فی دنیاها من خیر أو شر.

و کما أنه لا یقبل فی حکم العقل أن یتساوی محسن مع مسیء فی دنیانا، لذلک کانت هناک آخرة لأیام الإنسان مهما طالت، و لا بدّ له أن یموت مهما طال به الأجل:

فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ [النحل: ۶۱]، أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ [الصافات: ۱۶، ۱۷]، أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً ذلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ [ق: ۳].

بذلک قضی اللّه، و کما حکم بالموت علی الإنسان حتی الأنبیاء، إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ [الزمر: ۳۰].

جعل هذا الموت نهایة لکل حی فی دنیاه، ثم یبعثه مرة أخری یوم القیامة، حیث

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰۴

الحساب و العقاب، فإما إلی جنة، و إما إلی نار، حیث النعیم الأبدی، و العقاب الأبدی.

هکذا جاء فی القرآن الکریم، و فی شرع اللّه، و لکن هذه الحقیقة صدمت الکثیرین من أهل الجاهلیة فی اعتقاداتهم التی ورثوها، و أخذوا یتناقلونها من أن الموت نهایة کل حی، و لا حساب، و لا عقاب، و لا بعث، و لا نشور، و إنما هی أرحام تدفع، و أرض تبلع، و ما یهلکنا إلا الدهر.

و تصور الآیات القرآنیة هذا التفکیر و الاعتقاد، و نسیان الآخرة، و ما أعد اللّه فی هذا الیوم الموعود بقوله تعالی: وَ قالُوا ما هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ [الجاثیة: ۲۴].

اعتقدوا هذا الاعتقاد، و سیطر علی تفکیرهم، حتی أنهم أرجعوا ذلک إلی الدهر، و ما یأتی به من أحداث. کان هذا التفکیر مقدمة

إلى تفكير أهل الزيغ و الإلحاد فى العصر الحاضر، الذى يقول بالطبيعة و ما تجريه من أحداث.

الدين و ما يأتى به فى القرآن الكريم تحارب هذا اللون من التفكير، و الابتعاد عن استخدام العقل و المنطق فى تصحيح المسار، فكل شىء خلقه اللّه من حياة، و موت، و صحة، و مرض، و سعادة، و شقاء، و رزق، و فقر، و القادر على الإحياء قادر على الإماتة، و القادر على الإنشاء و البدء قادر كذلك على الإعادة مرة ثانية.

و دليل هذا من واقع الحياة، فالإنسان الذى ينشئ شيئا من غير نموذج سبق، يستطيع بعد ذلك أن يعيد ترتيبه و إعادته من جديد دون صعوبة فى ذلك.

و هكذا جابه الرسول صلى اللّه عليه و سلم ذلك الكافر الذى أتى بعظم قد رمّ، و فتته بين يدى رسول اللّه، و قال: يا محمد، أ يحيى اللّه هذا بعد أن تفتت و أصبح رميما؟ قال: «نعم، و يدخلك النار».

فاللّه قادر على أن يجعل العظم الرميم إنسانا، فقد خلقه أصلا من ماء مهين، ثم تطور فى بطن أمه حتى ولد، و صار إنسانا يجادل ربه و يخاصمه، و يطلب منه الدليل و البرهان، كما قال تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ۷۷- ۷۹].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۰۵

فإذا كانت النطفة أصل الإنسان، و سر نشأته الأولى، و اللّه قادر على أن يجعل منها إنسانا، فهو قادر على أن يجعل العظم الرميم إنسانا.

استبعد ذلك الكافر إعادة اللّه ذى القدرة العظيمة، التى خلقت الشمس و القمر، و السماء و الأرض، للأجسام و العظام الرميمة، و نسى نفسه الذى خلقه من ماء مهين، و أنه خلقه من عدم، و هو بكل خلق عليم، يعلم العظام فى سائر الأرض، أين ذهبت، و أين تفرقت و تمزقت، يجمعها بعضها إلى بعض، و يبعث فيها الحياة.

فلا مفر من الوقوف بين يدى اللّه للحساب على الصغيرة و الكبيرة التى اقترفت فى الدنيا، فكل نفس بما كسبت رهينة، و عمل الإنسان و اعتقاده هما المقياسان الجديران بالتقدير و الإكرام، فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ نارٌ حامِيَةٌ [القارعة: ۶- ۱۱].

و قال تعالى فى آية أخرى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ [الحج: ۵- ۷].

فى هذه الآيات استدلال على إمكان البعث، و إحياء الناس من قبورهم بتلك الأدلة المشاهدة بين أيدى الناس من واقع تكوينهم فى بطون أمهاتهم، و تطور حياتهم إلى نهايتها، و من إحياء الأرض الهامدة بذلك الماء الذى يحييها بالخصب و النماء، فاللّه قادر على إحياء الموتى، و أن أمر الساعة حقيقة لا يصح أن تكون مجالا لشك أو ريبة، و أن اللّه يبعث من فى القبور لمحاسبتهم على أعمالهم فى دنياهم التى أحصاها عليهم فى كتاب مبين، و لا يظلم ربك أحدا، و لذلك جاءت الآية الكريمة فى سورة يس: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ [يس: ۱۲]، لتفيد قدرة اللّه على إحياء الموتى يوم القيامة، و أن أعمال الإنسان و أفعاله مسجلة عليه فى كتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها، و سيجزى كل إنسان

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۰۶

بأعماله، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر.

ثم أعقب هذه الآية بذلك المثل و تلك القصة التى تناولت تلك القرية التى حاربت رسل اللّه إليها، و ما كان من وراء ذلك من

نتائج بالغة للفريقين، الذين آمنوا، و الذين كفروا.

۱- قال اللّه تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ [يس: ۱۳- ۲۷].

أمر من اللّه لرسوله، عليه الصلاة و السلام، أن يقص على كفار مكة، و مشركى قريش، و من يناصبونه العداء، و ينكرون ما يدعو إليه من دين و رسالة، و إيمان بالبعث و النشور، و الحساب يوم القيامة.

يقص عليهم قصة تلك القرية الظالمة، التى جاءها رسل اللّه يبلغونهم دعوة اللّه، فقوبلوا بالتكذيب؛ لأنهم بشر مثلهم، و كأن اللّه فى اعتقادهم يجب أن يجعل رسالته فى جنس آخر من الجن، أو من الملائكة، حتى يكون كلامهم مسموعا، و مصدقا، و مسلما بصحته، و كانت المحاجة بين الفريقين، حاول الفريق المؤمن أن يثير فى نفوس أولئك الكفار دوافع الإيمان، بأن اللّه يعلم حيث يجعل رسالته، و أنهم لو كذبوا على اللّه فى التبليغ لانتقم منهم، و أنه سيعزهم بنصره و تأييده، و ستكون العاقبة لهم، و الفرصة سانحة للهداية، فإن أطعتم ربكم، كانت لكم السعادة فى الدنيا و الآخرة، و إن لم تستجيبوا كانت العاقبة و خيمة، و كانت جهنم و بئس القرار مثوى لكم.

ثم كملت صورة المثل بموقف ذلك الرجل الصالح الذى سمع أولئك الدعاة،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۰۷

و وعى ما يدعون إليه من أمور صالحات، فدعا قومه إلى الاستجابة لهم و عبادة اللّه الجدير بالطاعة و العبادة؛ لأنه الخالق القادر، الذى لا تنفعه طاعة، و لا تضره معصية، و بيده الخير، و هو على كل شىء قدير.

أما ما يعبدون من آلهة، فهى عاجزة عن حماية نفسها، و حماية عابديها، و لكن الكفار عاجلوه بالقتل، فأدخله اللّه جناته جزاء لطهارة نفسه، و ثبات يقينه، و شدة تمسكه بالحق، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ [يس: ۲۶، ۲۷].

تمنى فى موقفه بين يدى ربه أن يحظى قومه بذلك الظل الظليل من النعيم، بإيمانهم بالرسل، و اتباعهم لأوامر اللّه.

هذا مثل مضروب لأصحاب قرية ظالمة، و أمر الرسول بأن يقصها على كفار قريش، فالمواقف متشابهة بين أصحاب القرية و كفار قريش، و الأحداث تكاد تكون واحدة، و النتائج أيضا واحدة، فمنهم من آمن، و منهم من كفر، و ما أطلق اللّه عليه مثلا، فهو مثل لاستجماع شروط المثل فيه كما قدمنا من متمثل له، و متمثل به، و تصوير حال، و تحقيق هدف.

فالعبرة من وراء هذه القصة واضحة، فى الدعوة إلى الاستجابة لكل دعوة بناءة، و الإيمان القوى القائم على الدليل و البرهان، و بخاصة إذا كانا مأخوذين من واقع الحياة.

و قد أدى هذا المثل الغاية المقصودة من ورائه، فى لفت الأنظار إلى ما حدث قديما من أمور فى مجتمعات لا تختلف كثيرا عما يحدث فى مجتمعات أخرى بعد حين من الزمن قد يطول، و قد يقصر، فالنفس هى النفس، و التفكير يتشابه، و يحتاج الأمر إلى الصبر، و محاولة الإقناع بالدليل و بالبرهان، و يعرض ما يراد عرضه بأسلوب يجذب الأنظار، و يقنع العقل، و يرضى المنطق، و بخاصة لو صيغ هذا المثل فى ثوب فضفاض من القصص و الأسلوب الحوارى الذى تبدو فيه الشخصيات المتنوعة، و ما تعرضه من واقع و أحداث تكون بمثابة الدليل و البرهان على ما يعرض من أمور العقائد، و بخاصة الأساسية منها من إيمان باللّه وحده، و اتباع للرسول

فی کل ما یأتی به، الإیمان بالبعث، و الحساب، و النشور، الطاعة للّه فی کل أوامره.

الرسول ما علیه إلا البلاغ، العمل من أجل الآخرة، الجهاد باب من أبواب الجنة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰۸

الترغیب و التحذیر:

المعرکة بین الخیر و الشر، و الحق و الباطل، و الطیب و الخبیث، تدور رحاها منذ أن خلق اللّه الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، و أمر ملائکته بالسجود له، فسجدوا إلا إبلیس، أبی أن یکون مع الساجدین، و کانت تلک بدایات الصراع الذی أدی إلی الهبوط إلی الأرض، بعضهم لبعض عدو، فکانت المعرکة ضاریة، لا یخمد لها أوار، و لا تطفأ نارها.

و قد تتکاثف الظلمات، و یضعف الحق فی فترة من الفترات، و لکن إلی حین، فإن النور لا بدّ و أن ینبثق، و یعلو صوت الحق، و قد کتب اللّه فی محکم قرآنه: لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی إِنَّ اللَّهَ قَوِیٌّ عَزِیزٌ [المجادلة: ۲۱].

و قد حفل القرآن الکریم بالآیات التی تحمل فی طیاتها کل معانی الخیر، و الدعوة إلی العمل الصالح، و تحبب المؤمن فی التفوق علی شهوات النفس، و لذائذ الحیاة التی تطغیها، و تخرج بها إلی دائرة الحیوانیة الرخیصة.

و أبواب الترغیب کثیرة، تشمل الحیاة بأسرها، و بکل ما تحتاج إلیه من جهد، و طاقة، و علم، و تقی، و صلاح، یحقق سعادة النفس فی الدنیا، و یمهد لذلک اللقاء الباقی فی الآخرة، حیث یجد کل إنسان ما عمل من خیر محضرا.

لذلک کانت الدعوة من اللّه هی دعوة إلی العمل الصالح، و ترغیب فی خیر یشمل خیری الدنیا و الآخرة، فی الأوامر التی تدعو إلیها، و النواهی التی تنهی عنها، و التکالیف التی تلزم بها، و الإتقان فی العمل عن طریق المراقبة للّه، و ممارسة العبادات، فإن الوقت الذی یقضیه المرء فی العبادة هو شحن لطاقة الإنسان بقوة جدیدة، و نشاط زائد، فالصلاة هی أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتی یومنا هذا، و قد فشلت العقاقیر فی معالجة کثیر من المرضی، فلما عجز الطلب تدخلت الصلاة، فأبرأت الکثیر من المرضی.

و قد یبدو فی ظاهر هذه التکالیف بعض المشقات التی یکابدها الإنسان، أو المتاعب التی یضیق بها حینا، کالامتناع عن الطعام و الشراب شهرا من شهور العام، أو الأموال التی یخرجها عن نفسه و ماله، و لکن لو نظر الإنسان نظر تبصر و اعتبار، لعرف أن اللّه جل جلاله برّ رحیم بعباده، یدعوهم إلی الحسنی فی کل شیء، و ینأی بهم عن الشر،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۰۹

و یخوفهم من مغباته، و ما یجره علی النفس من مهالک.

و إذا کانت الأسالیب المرغبة فی الخیر، و الناهیة عن الشر، قد تنوعت فی أسالیب القرآن من أخبار، و قصص، و تذکر لأحوال، و أمر، و تعجب، و استفهام ... إلخ، و کان لها من التأثیر ما یملک القلوب، و یصل إلی العقول، فتکون الاستجابة، و الإقبال علی الطاعة، فإن سوق هذا الترغیب و التحذیر فی ثوب الأمثال ما یکون له من الإقناع، و تجلیة الأمور الخفیة و إیضاحها أکثر من وصف الشیء ذاته، و عرضه عرضا مباشرا، فکأنه یعطی المعنی، و الدلیل علیه، و یعرض الغائب فی سورة المشاهدة، و هذا سر تأثیره.

و من الملاحظ أن الترغیب فی الإیمان إذا کان مجردا عن ضرب مثل به، و لم یتأکد وقوعه فی القلب، کما یتأکد إذا مثل بالنور، أو بشجرة طیبة، و إذا کرّه فی الکفر بمجرد الذکر لم یتأکد قبحه فی العقول کما یتأکد إذا مثل بالظلمة، أو بشجرة خبیثة، و إذا أخبر بضعف أمر من الأمور، و ضرب مثله بنسج العنکبوت، کان ذلک أبلغ فی تقریر صورته من الإخبار بضعفه مجردا «۱».

و بعرض هذه النماذج القرآنیة المتقابلة تتضح الحقائق، حقائق النفوس، و حقائق الحیاة، و یعرف الإنسان موقفه بین یدی ربه فی الآخرة، و لیس هناک من رادع عن الشر، و زاجر عن الوقوع فی معصیة، من عرض قصة، أو تبیان حالة، کما أنه لیس هناک من داع إلی الخیر، و دافع إلی الإحسان، من التمثل بحال من الواقع، و سرد لحقیقة یصحبها الدلیل و البرهان.

هکذا النفوس جبلت علی الاقتداء، و الإیمان بالممارسة و العمل، و لذا فإننا حین نعرض للأمثال القرآنیة فی هذا السبیل الداعی إلی الخیر، فإننا نتمثل الإنسان و ما یصدر عنه، و ما یحیط به، و ما یقع منه، و کذلک نعرض لهذه الأمثال التی تحذر من الشر، و الوقوع فی براثنه، و التأثر بمغریات الحیاة و شهواتها من مال، و ولد، و جنس، و کل ما یجعل للشیطان سبیلا إلی سیطرته علی النفس، و المعتقد، و الفکر.

أتت هذه الأمثال کما سنراها شاملة لجانبی الحیاة من خیر و شر، و من فضیلة و رذیلة، حتی یسهل عن طریق الموازنة و المقابلة، الحکم علی الأشیاء، و بضدها تتمیز الأشیاء.

---

(۱) من کتاب هدایة المرشدین إلی طریق الوعظ و الخطابة، للشیخ علی محفوظ (ص ۱۷۷).

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱۰

و لا یحتاج هذا الأمر إلی دراسات مذهبیة، و لا فلسفات فکریة، بل یصل إلی الاقتناع بها الکبیر و الصغیر، و العالم و الجاهل؛ لأنها من واقع الحیاة، و من ممارسات الإنسان، و لا تختلف فی ذلک عقائد، أو نحل، و لا ینکرها إلا کل مکابر، یری ضوء الشمس، فیعمی عن النظر، و یری الحقائق، فیغض الطرف عنها.

اعتمدت هذه الأمثال علی مشاهد من الطبیعة الواقعة تحت أبصار الناس، من زرع، و نبات، و ریح، و کلها مشاهد تولد فی النفس الیقین، و تعین علی التبصر فی الأمر، و الاقتناع بالنتائج، و قد أضیف إلی ذلک مسلک آخر فی الاعتبار، و هو ما حل بالسابقین من تجارب، وَ سَکَنْتُمْ فِی مَساکِنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَیَّنَ لَکُمْ کَیْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَکُمُ الْأَمْثالَ [إبراهیم: ۴۵]، و هو مثل حی مبسوط أمام الأعین، لا یغیب عن أنظار الناس، یعطی دلالته فی کل لحظة، و العاقل من اتعظ بغیره، و هو یقوم علی عرض بعض القصص، کما فی قصة أصحاب الجنة.

إِذْ أَقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّها مُصْبِحِینَ وَ لا یَسْتَثْنُونَ فَطافَ عَلَیْها طائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَ هُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ کَالصَّرِیمِ فَتَنادَوْا مُصْبِحِینَ أَنِ اغْدُوا عَلی حَرْثِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صارِمِینَ فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ یَتَخافَتُونَ أَنْ لا یَدْخُلَنَّها الْیَوْمَ عَلَیْکُمْ مِسْکِینٌ وَ غَدَوْا عَلی حَرْدٍ قادِرِینَ فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ یَتَلاوَمُونَ قالُوا یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا طاغِینَ عَسی رَبُّنا أَنْ یُبْدِلَنا خَیْراً مِنْها إِنَّا إِلی رَبِّنا راغِبُونَ [القلم: ۱۷- ۳۲]، حرمهم اللّه من ثمارها، فرجعوا علی أنفسهم باللوم، و الاعتراف بالخطیئة. عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن ۲۱۰ الترغیب و التحذیر: ..... ص : ۲۰۸

کذلک قصة صاحب الجنتین مع صاحب له من ذوی الإیمان الأول تبطره النعمة و ینسی اللّه، و یعتقد أن ماله أخلده، و الثانی معتز بإیمانه، ذاکر لربه، یری النعمة دلیلا علی المنعم، و موجبة لحمد اللّه و شکره: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً کِلْتَا الْجَنَّتَیْنِ آتَتْ أُکُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً وَ کانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هذِهِ أَبَداً وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَ کَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلًا لکِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّی وَ لا أُشْرِکُ بِرَبِّی أَحَداً وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱۱

أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مالًا وَ وَلَداً فَعَسی رَبِّی أَنْ یُؤْتِیَنِ خَیْراً مِنْ جَنَّتِکَ وَ یُرْسِلَ عَلَیْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِیداً زَلَقاً أَوْ یُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِیعَ لَهُ طَلَباً وَ أُحِیطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ یُقَلِّبُ کَفَّیْهِ عَلی ما أَنْفَقَ فِیها وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها وَ یَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُشْرِکْ بِرَبِّی أَحَداً وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ فِئَةٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما کانَ مُنْتَصِراً هُنالِکَ الْوَلایَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَیْرٌ ثَواباً وَ خَیْرٌ عُقْباً [الکهف: ۳۲- ۴۴].

۱- قال اللّه تعالی: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ تُؤْتِی أُکُلَها کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّها

وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ [إبراهيم: ۲۴- ۲۷].

سبق هذا المثل بتبيان مواقف الكفار المخزية فی يوم يتحقق فيه وعد اللّه الذی كفروا به، و هو يوم القيامة، و لم يجدوا فيه نصيرا يدفع عنهم العذاب، حتی أن الشيطان الذی وسوس لهم و زين لهم المعصية فی الدنيا، نفض عن نفسه مسئولية كفرهم، و حملهم نتيجة أعمالهم، فما كان منهم من كفر، إنما كان بسبب رغبتهم فی الشر، و حبهم للمعصية، فاللوم واقع بهم، و لا لوم عليه، فهؤلاء الكفار يتحملون وزر شركهم و عباداتهم الباطلة، و ما يقع بهم من عذاب، إنما هو جزاء ظلمهم و كفرهم.

و أما موقف المؤمنين، فهو موقف مغاير لذلك الموقف المخزی، موقف أصحاب الحق، و إخلاص النية، فلهم جزاء النعيم فی جنات تجری من تحتها الأنهار، يجدون فيها جزاء أعمالهم الصالحة، و تحيتهم فيها سلام.

مواقف واضحة الدلالة، ظاهرة الاعتبار لمن أراد أن يذكر، فأخذها من الآيات القرآنية: وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ [إبراهيم: ۲۲، ۲۳].

و يعقب تبيان هذه المواقف المتقابلة هذا المثل القرآنی الذی يتعرض للكلمة، و ما لها من نتائج فی النفوس، و تأثير فی القلوب، و تغيير فی الاتجاهات، فاللّه سبحانه و تعالی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱۲

يضرب هذا المثل: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا [إبراهيم: ۲۴]؛ ليصوّر للناس سنته الجارية فی الطيب و الخبيث فی هذه الحياة بالشجرة الطيبة، و الشجرة الخبيثة.

فالكلمة الطيبة هی كلمة الحق، و هی أساس الوجود، و لا تستطيع قوی البغی و الطغيان أن تقضی عليها، أو هی كلمة التوحيد، فهی كالشجرة الطيبة، ثابتة، مثمرة، متعالية، فبذورها تنبت فی تلك التربة الخصبة، و كذلك الكلمة الطيبة تثبت فی النفوس الطيبة، و فی ظل هذا يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: ۲۷]، و القول الثابت: بكلمات القرآن، و بالعمل الصالح، و بكلمات الإيمان، يكون العون من اللّه، و التثبت للذين آمنوا.

و أما الكلمة الخبيثة، فهی علی النقيض من ذلك، هی كلمة الشرك و الباطل التی تعمل علی إفساد الحياة، و فی نشر بذور الشر فی كل مكان، و فی كل نفس، و هی كالشجرة الخبيثة التی قد تتشابك أغصانها، و تتعالی فروعها، و لكنها لا تثمر إلا ثمرا مرا، و لا تعطی فائدة، و فی نفس الوقت لا تتحمل أية هزة، فلا قرار لها و لا بقاء.

و فی ظل هذه الكلمة الخبيثة وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ [إبراهيم:

۲۷] بسبب ظلمهم و شركهم، و اتباع الهوی، و تمكن الخرافات و الأباطيل من نفوسهم القلقلة المضطربة، يفعل اللّه ما يشاء بإرادته المطلقة.

مشاهد من قصص المؤمنين و المكذبين، و مصير هؤلاء و هؤلاء، و صور تتضح فيها النفس التی يزكيها صاحبها فيفلح، و النفس التی يسوقها صاحبها إلی الهاوية من خلال ما رأينا فی المثل من مقابلة و موازنة بين حالتين يلمسهما السامع و القارئ، فينحاز إلی ما هو جدير به أن ينحاز إليه من عمل صالح، و ابتعاد عن الطالح من الأمر، و قد يفهم من هذا التصوير أن المؤمن مثل الشجرة، لا يزال يعطی من ثماره فی كل وقت، صيفا و شتاء، ليلا و نهارا، و كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل آناء الليل و أطراف النهار، و فی كل وقت و حين. و الكلمة الخبيثة تمثل كفر الكافر، لا أصل له، و لا نبات، و لا فرع، و لا يصعد له عمل، و لا يتقبل منه شیء.

و فی هذا المجال يأتی دور العالم و الجاهل فی بناء هذه الحياة، و ما يؤثران به فی مجريات الأمور، فإذا زلّ العالم زلّ بزلته عالم.

فقد يتعرض الغافل و الجاهل لسقطات فى الحياة تجر عليهما أوخم العواقب، و قد

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۱۳

يغفر الناس لهما هذه الزلات؛ لجهلهما و غفلتهما، و لكن الذى لا يغتفر أن تقع هذه الزلات ممن يدرك أبعادها، و من يقصد إلى غايتها، و يميل به الهوى، و يجر على نفسه و مجتمعه و دينه الدمار و الهلاك.

و فى مقابل ذلك صلاح يؤدى إلى صلاح الحياة و العالم، فهذا العالم بمثابة الرأس من الجسد، و القلب من الإنسان، له أجره المضاعف، و ثوابه الكبير بما ينطق به من قول طيب، و ما يسطره من فكر.

و إذا كان قد بدأ بالإنسان و ما يصدر منه من قول و عمل، و ما إلى ذلك من مؤثرات فى النفس و المجتمع فى الكلمة الطيبة و العمل الصالح، و فى مقابلهما من كلمة خبيثة و عمل خبيث يؤديان إلى فساد الحياة و النفس، فإنه فى التدرج التالى لهذه الكلمة الطيبة كلمة الحق، و ما لها من أثر نافع لا يزول مع الأيام، و الكلمة الخبيثة كلمة الباطل الذى يذهب جفاء.

تدرج نراه فى ذلك المثل الرائع الذى صورته لنا الآية الكريمة فى تلك الصورة التى استمدت جزئياتها من الطبيعة بما فيها من أرض و سماء، و من حياة الناس فيما يتخذون من أدوات مستخدمة فى الحياة، كل ذلك امتداد طبيعى لتقوية و تثبيت الفكرة الأساسية، التى بنى عليها المثل السابق من طريق الخير المؤدى إلى الفلاح، و تبيان طريق الضلال و الشر المؤديان إلى الفساد.

۲- قال اللّه تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ [الرعد: ۱۷].

أتى هذا المثل عقب آية قرآنية حوت كل قيمة بناءة فى بناء العقيدة الصحيحة، من الاعتقاد، و الإيمان باللّه رب السموات و الأرض، و أنه الجدير بالعبادة و الطاعة وحده، و أن الانحراف و الشرك باللّه باتخاذ تلك الأصنام التى لا تضر و لا تنفع، إنما يعد نقصا فى الإيمان و التفكير، و خروجا عن حد الاعتدال، فلا يصح فى حكم العقل أن يتساوى الناقص بالكامل، و الأعمى و البصير، و الظلمات و النور، و كذلك لا يتساوى من بيده القدرة على الخلق و الإيجاد، و غير الخالق، فاللّه خالق كل شىء و هو الواحد القهار:

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۱۴

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ [الرعد: ۱۶].

قيم عالية تدعو إلى الإيمان باللّه الواحد القهار الذى لا يغلبه شىء، و يحتاج إلى تثبيت من واقع الحياة، كما يظهر ذلك فى المثل القرآنى.

فى المثل موقفان متقابلان، للحق فى ثباته و بقائه، و للباطل فى اضمحلاله و فنائه، فالحق مهما توارى زمنا لا بدّ و أن يعلو، و الباطل مهما يرتفع فإنه لا محالة زائل، و قد ضرب اللّه المثل حتى لا ييأس أصحاب الحق، و حتى لا يغتر أصحاب الباطل.

يضرب اللّه بهما المثل من واقع الحياة التى يعيشها الناس، فيرون فيها الباطل و قد ظهر أمره، و فشا فى المجتمع و علا، حتى أنه يغطى ما عداه من كلمة الحق، و لكنه فى حقيقة أمره زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء، لا حقيقة له، و لا تماسك فيه، فهو كالزبد الذى يعلو فوق سطح الماء، و لكنه لا يثبت معه، يتكوّن ثم يضمحل، و كخبث الحديد الذى يعلو فوق الذهب حين انصهاره.

أما الحق، فهو الباقى الساكن الهادئ كالماء الذى يحيى الأرض بعد موتها، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة، أو المصلحة حسبما اقتضته مشيئة اللّه و حكمته، فينتفع به من مختلف الوجوه، و يمكث فى الأرض، يبقى بعضه فى منابعه، و يسلك بعضه فى عروق الأرض، إلى العيون، و القنوات، و الأنهار. و كالمعدن الصريح الذى ينفع الناس فى الحلى، و الأمتعة كالأوانى، و آلات الحرب، و

يدوم ذلك مدة طويلة.

و قد يحسب بعض الناس فى فترات من الزمن أن الغلبة للباطل بحكم ما يرون من سطوات الظالمين، و قهر الرجال، و التحكم فى الرقاب، و أن الحق قد انزوى، فلا تسمح له الحياة بالبقاء، أو التغلب على الباطل و أعوانه. هذا الظن، أو الاعتقاد، فى غير موطنه، فاللّه قد حكم فى محكم قرآنه بقوله: وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً [الإسراء: ۸۱].

و هكذا مصير كل دعوة حقة، و كل معتقد يقوم على أساس، و نهاية كل عمل طيب، و كل قول طيب، ينقذ الإنسان من نفسه، فلا يتملكه الغرور، و لا تتحكم فيه شهوة

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۱۵

تدفعه إلى المهالك.

و كم جرّ الغرور على أناس من المهالك، فأودى بهم إلى الجحيم، و مثال ذلك واضح من واقع ما عرض القرآن من صور أولئك الذين استبد بهم الغرور فقتلهم، من قصة قارون الذى دفعه الجهل و الغرور إلى قوله: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي [القصص: ۷۸]، فكانت نتيجته فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ [القصص: ۸۱] طريق الانهيار الذى يبدو فى الجهالة المهلكة بحقيقة الكون و خالقه، و حقيقة الإنسان و قدراته، و طبيعة النفس البشرية، و ما لها من حدود لا تتعداها فى ملكوت اللّه.

هذه هى الضوابط التى يجب على المؤمن بحق أن يتخذ منها سلاحا واقيا ضد نزوات الحياة، و خداع الفكر، و نسيان اللّه خالق هذه الحياة و الجدير بالعبادة الحقة، و إذا تخلى الإنسان عن هذه الضوابط، و تسربت إليه النفس الأمارة بالسوء فى المعتقد و الفكر، و العمل، فإن هذا يؤدى به فى النهاية إلى الهاوية، و يخرج من هذه الحياة صفر اليدين خاسرا، لا يملك ما يقدمه بين يدى ربه من صالح الأعمال، و هذا المثل القرآنى يوضح هذه الحقائق.

۳- قال اللّه تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً «۱» [الكهف: ۴۵].

ذكرت آيات قبل هذا المثل توضح حقيقة النفس التى تنسى اللّه فى وقت الرخاء و النعمة، و لا تذكره جلت قدرته إلا فى وقت الأزمات و الشدائد، حين يمسها الضرّ، و تقع بها المصائب فى وقت الرخاء، و إسباغ النعم، تستغرق فى شهواتها و لذائذها، و يتحكم فيها غرورها، و نزوات الحس، و تنسى خالقها الذى أنعم عليها بجليل النعم، و حباها من فضله بالكثير من صحة، و عقل، و تكريم.

صاحب الجنة نسى اللّه فى نعمه الكثيرة، و لم يعط حق اللّه فى هذا المال لأصحابه من فقراء و محتاجين يقاسمونه الحياة بما فيها، فأصبحت هذه الجنة خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس، و لم يجد من أحد عونا فى موقفه يزيح عنه ما نزل به من بلاء، أو يخفف

---

(۱) مقتدرا: قادرا على الكمال، و من جملة الشىء: الإنشاء، و الإفناء.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۱۶

عنه وقع المصيبة التى ألمت به، أو يمد له يد المساعدة فى أزمته؛ لأنه قطع هذه اليد بحرمانها من مال اللّه، و نفض عنه عون المعينين له بتلك السيئات التى بدرت منه فى حقهم، و نسيانه حق الأخوة و الإنسانية لمن يعيش معه فى ظل هذه الحياة التى تحتاج إلى التكافل و التعاضد، و المواساة فى الضراء، و العاقل من عمل لغده و عرف حقيقة حاضره، و أن الأمر بيد اللّه الذى يثيب على العمل الصالح الباقى إلى يوم الدين.

أما ما نراه من مظاهر الحياة الدنيوية، و ما بها من مغريات، فهى إلى زوال، ما لم تحط بالشكر، و لم تؤد الحقوق إلى أصحابها، و لم

یصحبها غرور النفس و نسیانها لموجدها، وَ أُحِیطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ یُقَلِّبُ کَفَّیْهِ عَلی ما أَنْفَقَ فِیها وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها وَ یَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُشْرِکْ بِرَبِّی أَحَداً وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ فِئَةٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما کانَ مُنْتَصِراً هُنالِکَ الْوَلایَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَیْرٌ ثَواباً وَ خَیْرٌ عُقْباً [الکهف: ۴۲- ۴۴].

و هذا التیار الذی یسیر فیه ذلک المثل القرآنی، و هو علاج ما یبدو فی الحیاة من اغترار بظواهرها، و ما تزخر به الدنیا من متع و شهوات خادعة للإنسان عن حقیقة نفسه، و نسیان مآله و مصیره عالجه مثل آخر قرآنی، و هو قول اللّه تبارک و تعالی فی سورة یونس:

۴- قال اللّه تعالی: إِنَّما مَثَلُ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا یَأْکُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّی إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها «۱» أَتاها أَمْرُنا «۲» لَیْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ «۳» کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ «۴» لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ [یونس: ۲۴].

المغریات کثیرة من مال و بنین، و صنوف مأکل و مشرب و ملبس، و لکن سریعا ما تنقضی و تزول بهجتها و مناظرها الخادعة، و تنهار أمام أعین من یعرف حقیقتها، بذهاب رونقها و بهائها، فهذه الدنیا بما فیها من زینات و متع شبیهة بحال تلک الأرض التی أرسل اللّه علیها المطر، فأنبتت ما یسرّ الناظرین، ثم نزلت بها جائحة من السماء،

---

(۱) قادرون علیها: متمکنون من الاستمتاع بها.

(۲) أتاها أمرنا: أهلکها اللّه بقدرته بجائحة.

(۳) کأن لم تغن بالأمس: هلکت فجأة، فلم یبق من ثمرها شیء، حتی کأنها لم تنبت.

(۴) نفصل الآیات کهذا المثل، و ما یوضحه من حال الدنیا، و اغترار الناس بها، أو نفصل حقائق التوحید و أصول التشریع، و کل ما فیه صلاح البشر.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱۷

فأهلکتها قبل الانتفاع بها، و تحول النبات النضر مهشوما تفرقه الریاح کأن لم یکن، و کان اللّه علی کل شیء مقتدرا، فهو القادر علی الإحیاء و الإفناء، و الکل بیده، و إلیه المصیر.

أمثلة شاخصة ناطقة تعرض نماذج أولئک الطغاة الذین یظلمون أنفسهم، و ینقضون عهد اللّه من بعد میثاقه بتوحیده و شکره و طاعته، و تذکره فی کل حین، فهذه هی سمات المؤمن الحق، إن أصابته نعماء شکر، فکان خیرا له، و إن أصابته ضراء صبر، فکان خیرا له، أما من ینسی اللّه فی وقت النعمة، و الراحة، و الطمأنینة، و لا یذکره إلا فی وقت الشدة و الضیق و وقوع المصائب، فلن تکون حاله إلا حال ذلک النبات الذی صار هشیما تذروه الریاح بفقدان عمله، و ضیاع ثوابه، و ذهاب أجره یوم القیامة.

۵- قال اللّه تعالی: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَیاةُ الدُّنْیا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِینَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَیْنَکُمْ وَ تَکاثُرٌ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ کَمَثَلِ غَیْثٍ أَعْجَبَ الْکُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَکُونُ حُطاماً وَ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ [الحدید: ۲۰].

سبقت هذه الصورة الموضحة لحقیقة الدنیا، و ما بها من مظاهر الغرور بآیات تبین مواقف جدیرة بالإعجاب و التقدیر، و أخری لا ینال أصحابها إلا الخزی، و العذاب المهین.

أما مواقف التقدیر، فینالها الذین استجابوا لدعوة اللّه فی الإنفاق فی سبیله، و بذل المال عن طواعیة و رغبة فی الأجر من اللّه، ذلک الأجر المضاعف فی ثوابه و نعیمه، و لأولئک الذین آمنوا باللّه و بما أنزل و أرسل، ثم جاهدوا فی اللّه حق جهاده، و فی سبیل نشر کلمة اللّه منهم بذل، و عقیدة، و تضحیة نفس متکاملة فی إیمانها لا تغتر بما فی الدنیا من مغریات المال، و حب النفس، و الشهوات و

التفاخر بالأهل و العصبیة و اللهو و الزینة و اللعب.

أما الذین کفروا بربهم و کذبوا بآیات اللّه، فقد حرموا هذه المنزلة التی ساقها اللّه فی أول الآیات، و لا منزلة لهم إلّا فی الدرک الأسفل من النار، ملازمون لها، لا ینفکون عنها بحال.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِینَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً یُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱۸

کَرِیمٌ وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِکَ هُمُ الصِّدِّیقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَحِیمِ [الحدید: ۱۸، ۱۹].

جاءت آیة التصویر للدنیا و ما بها من غرور، تحمل فی ثنایاها الترغیب و التحذیر، فهی توضح لنا مظاهر الاغترار بالدنیا، فمتاعها غرور لا حقیقة له، إن اطمأن بها الإنسان، و جعلها ذریعة للآخرة، و مثلها فی ذلک مثل ذلک المطر الذی یعجب الزارع، و الذی أنبت نباتا کثیرا استطال حتی نضج، ثم ما لبث أن اصفر و أخذ فی الجفاف، ثم صار هشیما متکسرا، لا یبقی منه ما ینفع، و فی الآخرة عذاب شدید لمن آثر الدنیا، و أخذها بغیر حقها، و مغفرة من اللّه و رضوان لمن آثر الآخرة علی الدنیا.

و قال ابن کثیر: ضرب اللّه المثل للحیاة الدنیا فی أنها زهرة فانیة، و نعمة زائلة بالمطر الذی یأتی بعد قنوط، فیعجب الزارع نبات ذلک الزرع الذی نبت بالغیث، کذلک تعجب الدنیا الکفار، فإنهم أحرص علی کل شیء فیها.

و من خلال هذه الأمثلة العدیدة التی ذکرت للدنیا التی تغرر بالإنسان بما فیها من لهو، و لعب، و زینة، و تفاخر بالأنساب و الأحساب و کلها علی خلاف ما یعتقده الإنسان الجاهل، قوی ضعیفة لا تسانده مساندة حقیقیة.

إنما العاقل الراشد فی تفکیره هو الذی یعمل لآخرته، کما یعمل لدنیاه، و أن یفهم حقیقة ما یدعو إلیه من عدم التکالب علی حطامها، و التفانی فی جمع المال، حتی لا یکون ذلک سبیلا إلی التقاطع و التباغض بین الناس، فمن یغرق فی حاضره و یغفل عن الآخرة، تصدق علیه الآیة الکریمة: إِنَّ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَیاةِ الدُّنْیا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیاتِنا غافِلُونَ أُولئِکَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ [یونس: ۷، ۸].

و هو و لا شک یغرر بنفسه، و یجلب علیها المتاعب بفعل ما یتسم بالتهور، و الاندفاع، و الطیش، و ینقلب الأمر إلی حسرة، و ندم کفاقئ عینیه عمدا، فلا یبصر طریقا، و یندم حیث لا ینفع الندم.

أما قصة ذلک المثل العربی، فکما ترویها کتب الأدب، تتلخص فی أن روایة الشاعر:

الفرزدق، قال: أتتنی النّوار زوجة الفرزدق، و قالت: کلم هذا الرجل أن یطلقنی، فأتیت الفرزدق، و قلت: یا أبا فراس، إن النوار تطلب الطلاق، فقال: ما تطیب نفسی حتی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۱۹

أشهد الحسن، فأتی الحسن بن علی، رضی اللّه عنه، و قال: یا أبا سعید، اشهد أن النوار طالق ثلاثا، قال: قد شهدنا.

قال: فلما صار فی بعض الطریق، قال للنوار: طلقتک؟ قالت: نعم، قال: کلا، قالت: إذن یخزیک اللّه عز و جل، یشهد علیک الحسن و صحبه، فترجم، فقال:

ندمت ندامة الکسعیّ لمّاغدت منی مطلقة نوار

و کانت جنتی فخرجت منهاکآدم حین أخرجه السرار

فکنت کفاقئ عینیه عمدافأصبح ما یضیء له النهار

و لو أنی ملکت یدی و قلبیلکان علیّ للقدر الخیار

و ما طلقتها شبعا و لکنرأیت الدهر یأخذ ما یعار ۶- قال اللّه تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ کَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ

عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: ۱۸].

أتى المثل القرآنى عقب آيات فضحت موقف أولئك الكفار، الذين ناصبوا الإسلام العداء، و ظلموا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و صحبه، و لم يتقبلوا دعوة الحق، بل عاندوا، فهؤلاء ينتظرون يوما شديدا يتجرعون فيه كأس المهانة و الذلة، و لا يستطيعون له دفعا، فهو يوم القيامة بما فيه من عذاب غليظ نتيجة أعمالهم السيئة و الظالمة.

و قد عبرت الآيات عن هذا كله تمام التعبير فى قوله تعالى: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ [إبراهيم: ۱۵- ۱۷].

أما ما كان لأولئك الكفار من أعمال تبدو فى ظاهرها خيرة و صالحة، فيوضحها المثل القرآنى الذى أتى؛ ليبين لنا حقيقة هذه الأعمال، و أنها لا قيمة لها ما لم تكن مستندة على باعث نبيل يدفع إليها من إيمان، و عقيدة صحيحة، فهؤلاء الذين يعبدون غير اللّه، و يكذبون الرسل، ثم يقومون بأعمال فى ظاهرها الخير، و المنفعة، و العمل الصالح، تضيع كلها سدى، و لا ينتفع أصحابها بشىء من نتائجها التى تشبه ذلك الرماد الذى تنثره الرياح فى اليوم العاصف فى كل مكان، فلا قيمة لهذه الأعمال التى قاموا بها فى دنياهم ما لم تستند إلى إيمان حقيقى باللّه، و بموجد هذا الكون، و التطابق بين

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۰

الظاهر و الباطن هو دعوة الإسلام الحقيقة، و لذلك فإن أولئك الذين تعبر عنهم الآية القرآنية الآتية: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ [البقرة: ۲۰۴، ۲۰۵]، لا مكانة لأولئك الناس الذين لهم ظاهر يغرى، و باطن يؤذى، و كلاهما من الضلال البعيد، كما عبرت الآية فى المثل القرآنى.

۷- قال اللّه تعالى: وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ [إبراهيم: ۴۵].

سيق هذا المثل فى جو يبرز موقف الكافرين الذين ظلموا الرسول، فلم يؤمنوا بما جاء به، و ظلموا أنفسهم، فألقوا بها فى المهالك جزاء عنادهم و إصرارهم على الباطل، و متابعة الشيطان، فاللّه سبحانه و تعالى ليس غافلا عما يفعل الظالمون، و سيكون لهم ذلك الجزاء الذى يتناسب مع أعمالهم فى يوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعى رءوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، و يتملكهم الفزع و الرعب، و لا يستطيعون لهذا العذاب دفعا، حتى أنهم يتجهون إلى اللّه بالدعاء أن يكتب لهم حياة دنيوية أخرى يصلحون فيها أحوالهم، و يتبعون الرسول، و لكن هيهات، فقد بان منهم الكفر، و ظهر منهم العناد، و وضحت حقيقتهم فى معارضتهم لآيات اللّه، و اعتقادهم بأنه لا قدرة لأحد على إماتتهم، و أن دنياهم هى آخر المطاف، فلا رجعة مرة أخرى، و لا حياة ثانية يؤمنون بها.

كل ذلك تناولته الآيات القرآنية، وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ [إبراهيم: ۴۲- ۴۴].

هذه الآيات مهدت لما يأتى فى المثل، فهى تجعل اللاحق كالسابق فى اعتقاده، و موقفه، و عقابه؛ لأنه ارتدى ثيابه، و سلك طريقه، و أخذ بتعاليمه، و صد صدوده، و سكن فى مساكنه.

فهذا المثل يضرب لكل طاغ و متجبر يسكن مساكن الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم و غيرهم، فكانت عاقبتهم الهلاك، و مع ذلك لا تؤثر فيه تلك الآثار الباقية التى تتحدث

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۱

عن أولئك الهالكين و تاريخهم، فلا يتعظ و لا يعتبر.

يضرب اللّه المثل بما حل بالأمم السابقة، و بما أنزل عليها من عقاب جزاء كفرانها بآيات اللّه، و بما أرسل من رسل، فظلموا أنفسهم و عرضوها لعذاب اللّه فى الدنيا بتلك النقمات التى حلت بها، و بما أنزل عليها من عقاب، حتى صارت إلى ما صارت إليه.

و مع ذلك لا يجد فيها أولئك المشركون باللّه فى عهد الرسول صلى اللّه عليه و سلم ما ينذرهم و يخوفهم، أما كان الأجدر بأولئك المشركين أن يجدوا فى ذلك درسا لهم و اعتبارا بما حدث؟ إنه أمر لا يحتاج منهم إلى كثير تفكير، و إعمال عقل، فهم و لا شك خلفاء للسابقين الذين كانت لهم تلك الديار التى لحقها الدمار و الهلاك، و سيكون المصير هو المصير، و العقاب هو العقاب، و لكن هل من معتبر؟.

تحذير و تخويف يأتى به المثل لمن سبق، و يأتى به أيضا لمن لحق، و لمن سيأتى بعد ذلك.

إن يد اللّه غالبة، و ليس فى مقدور أحد مهما طالت قوته، أن يفلت من عقاب اللّه، و أن العذاب لكل كافر لاحق مهما اختلف نوع الكفر، و كثر النسيان لما أوجد اللّه من نذر، و دروس تفيد من له مسكة من عقل، و قدرة على التفكير، و النظر فى العواقب، و ما لنا لا نتعظ و نحن نرى فى كل يوم أناسا على آلة حدباء محمولين، يطويهم الثرى، و تغمرهم مياه البحار و المحيطات، و تنزل بهم صواعق السماء، و براكين الأرض، و أمراض العصر الظاهرة و المستترة، و ما يجدّ من أشياء تغيب عن العقل، و لا يستطيع لها فهما أو تعليلا.

و يكفى أن يردد المرء قول اللّه مالك الملك، و مدبر الأمر: وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ [إبراهيم: ۴۵].

سكن و اقتداء بالظالمين، و ظلم للنفس، و مكر، و جهالة أدوات للتعطيل، و التعرض للهلاك، يقوم بها ذلك الإنسان الغائب عن وعيه، السادر فى أخطائه، فكيف يكون المصير؟ وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى [الليل: ۱۱]، صدق اللّه العظيم.

الإنفاق فى سبيل اللّه:

لم تحظ دعوة بعد دعوة التوحيد بمثل ما حظيت به تلك الدعوة البناءة للمجتمع الإسلامى، أفرادا و جماعات، دعوة أخذت بحجزه عن الوقوع فى الهاوية و الانهيار، فى

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۲

وقت اختلت فيه الموازين، و تفشت فيه عوامل الفساد فى كل شىء، فى معتقداته، فى اقتصادياته، فى طبقاته، فى نظمه و عاداته.

و إذا رجعنا إلى التاريخ السحيق قبل بعثة الرسول، عليه الصلاة و السلام، و فى أيام بعثته، وجدنا دولا كبرى تتمثل فى فارس و الروم، و وجدنا أنظمة رأسمالية بشعة بكل طغيانها و تحكماتها، و استغلالها لكل جهد و حق، و إهدارها لكل قيمة من القيم النبيلة فى سبيل تحقيق أهواء حكامها، و شهوات أصحابها، و نظرتهم الطبقية المهينة، كما نجد فى صفوف هذه المجتمعات أيضا طبقة العبيد الذين يكدون و يكدحون، و يحرمون من أجورهم، فلا حق لهم فى مال، و لا حق لهم فى تملك، و إنما إذلال لآدميتهم و كرامتهم، و استغلال بشع لجهدهم و جهدهم، و حرمان من التملك الذى هو سمة المخلوق البشرى الذى خلقه اللّه و ميزه على بقية المخلوقات.

و شبيه بتلك المجتمعات الكبرى المجتمعات العربية، و ما بها من أوضاع لا تختلف عن تلك الأوضاع السيئة المزرية، ففيها الإقطاع بكل صوره و أشكاله، الطبقات من سادة، و أشراف، و عبيد، و ألوان، و قبائل، و حضر، و بادية، أدت كل هذه الاختلافات إلى تباين شاسع يعيش فيه المجتمع العربى، و يمزق صفوفه، و يسرع إلى انهيار بنائه.

لذلك ساءت فيه أوضاع القوم، و لم يبق إلا ذلك البصيص من النور الذى يشع فيضعهم على الطريق، و يأخذ بأيديهم على أول درجة من درجات الفهم الواعى لروح الدعوة المنتظرة، دعوة السماء إلى الأرض، دعوة الإسلام، بدأ ذلك بتلك الدعوات السماوية التى أرادت أن يكون بناء تلك الأمة الجديدة بعيدا كل البعد عن روح التكليف و الفرض و الإلزام، و هى أمور يأنف منها الإنسان، أى إنسان، فما بالك بالعربى الذى يجد حريته و تحقيق وجوده فى الانطلاق فى أرضه و سمائه، دعوات إلى الحب و التآلف، و هو الهدف الأول للدعوة الإسلامية، أن توجد روح المحبة فى النفوس، و تؤلف بين القلوب برباط متين لا تنقضه الأيام.

لـذلک کانت الدعوة إلی البذل و العطاء، و الإنفاق فی سبیل اللّه، تتکرر فی کثیر من المواطن، و تتفق فی روحها و أهدافها، و تثیر فی المؤمن دوافع الشـفقة، و الإحساس بما یفرضه الواجب علیه حیال غیره فی المجتمع و الأمة، و حیال الأفراد و الجماعات، السـبل کثیرة، و تبقی أن تلتقی معها النفوس الکثیرة أیضا فی إنفاقها و بذلها، و کل ما یعلی من

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۲۳

شأن الأمـة، و یؤدی إلی نفعها، فهو أمر من اللّه، و فی سبیل اللّه، من إعـداد جیش، و عتق رقاب، و نشـر دین، و مقاومـة لظلم، و إنشاء مدارس، و ملاجئ، و مستشفیات، و مؤسسات تخدم المجتمع ... إلخ.

إنفاق خالص لوجه اللّه، لا یحـدد بکم، و لا توضع له مقاییس، إلا ما یضـعه المؤمن لنفسه، و ما یتفق مع رغبته المحبة للخیر، المتعاونة علی الحق، و القاضـیة علی تلـک الرواسب القدیمـة التی حملها ذلک الجیل من ماضـیه، فی أحقاده و کراهیته، و الإنسان الـذی یبخل بماله أو یکنزه، إنما یؤدی إلی تعطیل الحیاة، فالمشروعات التی تخدم المجتمع و الکثیرة التکالیف إنما تحتاج إلی مال سائل یساعدها علی النهوض و الکمال، و حبس المال إنما هو تعطیل لتلک المرافق أن تقوم بدورها، لذلک کانت الآیات القرآنیة:

وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الـذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا یُنْفِقُونَها فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذابٍ أَلِیمٍ یَوْمَ یُحْمی عَلَیْها فِی نارِ جَهَنَّمَ فَتُکْوی بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ فَذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَکْنِزُونَ [التوبة: ۳۴، ۳۵].

استجاب المؤمنون لهـذه الـدعوات، و تلاقت مع نفوسـهم و قلوبهم المحبـة للخیر، و البذل، و العطاء، فکانت تلک النماذج الرائعة من الصحابة الذین بذلوا کل مالهم فی سبیل اللّه، فقد رأینا عثمان بن عفان، رضی اللّه عنه، یجهز جیش العسرة من ماله، و رأینا غیره ینفق مـاله فی سبیل إطعام الجیاع عام الرمادة، و لکن قـد تضن بعض النفوس بمالها، و تبخل بالعطاء، فالإنسان خلق قتورا، و لـذا فقـد فرض اللّه الزکاة التی تؤخذ من مالهم و ترد علی فقرائهم بطریقة معینة لا تنقص أبدا، و لا یکمل إیمان الفرد إلا إذا أعطاها و قدمها.

فرضـها اللّه سـبحانه و تعـالی فی الأـموال، و الزروع، و الثمار، و فی الغنم، و الماشـیة، و فی الـذهب، و الفضـة، و جعل لـذلک أنصـبة معلومـة، و عـاقب من قصـر فی أدائهـا، بل لقـد حارب أبو بکر الصـدیق، رضـی اللّه عنه، المرتـدین الـذین أنفوا أن یخرجوا الزکاة، و اعتبروها جزیـة، حاربهم و قضـی علی المانعین لها؛ لأنها رکن من أرکان الدین، و هی طهرة للمال، تنفی خبثه، و تعین علی بناء الحیاة و المجتمع، و هی حق للفقراء و المحرومین، لـذلک کـانت فرضـیتها إیـذانا ببدایـة جدیـدة لمجتمع جدیـد متماسـک، کـل فرد فیه له حقوقه قبل الآخرین، و لیس لأحد أن ینفرد بشیء لا یعطی حقه للحاکم و ولی الأمر.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۲۴

و بذلک الطریق الذی رسـمه اللّه سبحانه و تعالی اسـتقام أمر الجماعة المسلمة، و نجح المؤمنون فی إقامة ذلک الصرح المشید الذی قاوم الطغاة و البغاة، و کانوا رسل هدایة و إنقاذ للمحرومین و المستعبدین فی مشارق الأرض و مغاربها.

و لم یتأخر بنا الزمن، و لم تضع فرص الحیاة الناجحة أمام أعیننا إلا حین فرطنا فی أداء الواجبات التی أتی بها القرآن الکریم، و تراخینا فی القیام بتکالیف اللّه و أوامره و أرکانه کما یجب أن تکون.

إن اللّه سبحانه و تعالی بما فرضه من فرائض، و بخاصـة الجوانب المالیـة و المادیـة التی یلتزم بها المؤمن، لا یقصـد إلی التضـییق علی النفس، و لا تعذیب الإنسان، و إنما هو الیسر کما قلنا سابقا، و النظرة إلی الجماعة التی تحتاج إلی کل لبنة صالحة فی هذا المجتمع، و من هذه المتطلبات الصـغیرة التی یخرجها المسـلم من ماله و زرعه، إنما یتکون ذلک الصـرح الکبیر الذی لا یهتز و لا تضطرب أرکانه أمام أحداث الدهر.

و لننظر إلی هـذه الآیات فی مواطنها العدیدة، و التی تعطی صورة حیة مؤثرة فی نفس المؤمن، آیات حوتها أمثال قرآنیة عالجت أمور المال، و کیف یستغل، و کیف یخرجه المؤمن؟ و أثر ذلک فی الدنیا و الآخرة.

۱- قـال اللّه تعالی: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ کَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَـبْعَ سَـنابِلَ فِی کُلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَـةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ

يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة:

۲۶۱].

جاء المثل القرآنى عقب آيات تبين موقف إبراهيم، عليه السلام، الإيمانى من ربه، يطلب منه المعرفة؛ لأنه مصدر المعرفة فى اليقين، معرفة كيفية إحياء الموتى، و لم يكن ذلك عن شك فى الإمكانية، أو زعزعة فى العقيدة، و إنما لزيادة الطمأنينة فى القلب المؤمن.

و هكذا يكون المؤمن فى كل مواقفه، يطلب الزيادة و الطمأنينة فى العقيدة، و التثبت من الفكرة الصالحة التى تعود على صاحبها باليقين و الثواب العظيم.

و ما حب الإنسان للمعرفة، و العلم، و زيادة اليقين، إلا طريق للفضل، و زيادة الثواب، قال اللّه تعالى فى هذه الآيات: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَ

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۵

إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [البقرة: ۲۶۰].

ثم أتى المثل الذى يعالج حب المال، و كيف يكون هذا الحب طريقا أيضا إلى زيادة الفضل و الثواب، فقد طبع الإنسان على حب المال، وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [العاديات: ۸]، و لذلك تتحكم فى نفسه شهوة الشح به، و الضن عن الإنفاق، و تتحكم فيه الأنانية، و المصلحة الخاصة، فيبخل و يحرم نفسه من ذلك الثواب الذى أعده اللّه، و وعده به فى دنياه و أخراه.

و قد صورت الآية القرآنية هذه النزعة الشحيحة فى قوله تعالى: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ [محمد:

۳۸].

و الإنسان مع هذا الشح و البخل، فقير إلى الأجر و الثواب، و بحاجة إليهما، كما هو بحاجة إلى المال، و حاجته إلى الأجر و الثواب أكثر، لذلك كانت الدعوة إلى الإنفاق، و ما يترتب على ذلك من مضاعفة الأجر فى تلك الصورة المشرقة التى عرضتها الآية القرآنية: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ [البقرة: ۲۶۱]، فتلك الأموال التى تنفق فى سبيل اللّه، و فى سبيل مرضاته، لن تضيع هباء، بل ستكون مضاعفة الأجر و الثواب حسب قوة الإيمان فى صاحبها، و حسن نيته، و عمق إخلاصه، كتلك الحبة التى بذرت فى أرض خصبة، فتأتى بتلك الغلة المضاعفة.

لا حرج على اللّه فى أن يضاعف الأجر حتى على الشىء القليل، ففضله واسع الرزق، عليم بنوايا المنفقين، و يعطيهم أجورهم حسب إخلاصهم، و من يبدأ الطريق فله أجره، و أجر من يستن بسنته، لا ينقص ذلك من أجورهم، كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و ليس هناك من عاقل يسمع هذه الدعوة و لا يبادر إلى مصلحة نفسه بالأجر المضاعف فى دنياه، و الثواب العظيم فى أخراه، ف لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران: ۹۲]، و كما قيل فى المثل العربى: رب زارع لنفسه حاصد سواه.

فالإنسان الجدير بهذا الاسم لم يخلق لنفسه، و إنما خلق لينفع نفسه و ينفع غيره ممن يعيش معه أو يأتى بعده بأوجه النفع العديدة، من مال، و علم، و خلق، و العمل الصالح

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۶

يصل من صاحبه إلى الآخرين، فيتأثرون به، و يقتدرون، و يعملون، و قد عبر عن ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى حديثه عن الجليس الصالح: «إما أن يحذيك، و إما أن تبتاع منه، و إما أن تجد ريحا طيبة».

و هكذا كانت الحكمة الإلهية من وراء الزكاة المفروضة لإعادة الاعتدال إلى تلك المجتمعات الخربة، التى تبدو فى تفاوتات عجيبة، و مستويات متناقضة، تئن من كثرة ما بها من أمراض اجتماعية و اقتصادية.

إعادة التوازن فى هذه المجتمعات لا يكون إلا بالعطاء الناجم عن الاقتناع، و البذل للحق المعلوم الذى فرضه رب العباد، و هو العالم

بالحقائق، الخبير بما يصلح البشر، و يزيل ما بها من أحقاد و كراهية قد تؤدى إلى أوخم العواقب، من قتل، و حروب، و صراعات عديدة، تأكل الأخضر و اليابس.

۲- قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ [البقرة: ۲۶۴].

الجو العام للآيات السابقة للمثل هو الدعوة للإنفاق فى وجوه الخير، و فى سبيل اللّه، و بذل المال، و إعطاء المحتاجين، و إخراج حق اللّه فى هذا المال الذى أنعم به على الإنسان و جعله مستخلفا فيه، يخرجه عن طيب نفس، و غير مقرون بمنّ يضيع من ثوابه، أو أذى يؤلم نفس الآخذ، و فى ذلك الثواب العظيم من اللّه سبحانه و تعالى، و لا خوف على المنفق من ضياع مال فى الدنيا، أو حرمان من ثواب الآخرة، بل فى هذا العمل سرور نفس، و طمأنينة قلب، و رضا عن الفعل و العمل، و خير للإنسان الذى لا يملك ما يقدمه أن يرد ردا جميلا، فلا يلفظ بما يجرح كبرياء الإنسان، أو يهين كرامته.

قال اللّه تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ [البقرة: ۲۶۲، ۲۶۳].

يعرض المثل القرآنى صورة تلك النفس الإنسانية التى تصدر أعمالا خيرة، و تبذل المال، و تنفق الكثير، ثم تتبع ذلك بما يطفئ نور العمل الذى قدم، بقول خبيث، و لفظ جارح، و عمل سيئ، يذهب الثواب، و يضيع الأجر، فالمرائى و ما ينفقه كمثل ذلك

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۷

الحجر الناعم الذى يتراكم عليه تراب ناعم، ثم ينزل عليه مطر شديد أذهبه، و لم يبق منه شيئا، فالمراءون لا يستطيعون الحصول على شىء من ثمرة إنفاقهم إذا أصابهم غضبه تعالى، أو أحبط أعمالهم، كما لا يستطيع الحجر إمساك ما عليه من التراب إذا أصابه مطر.

ما المقصود من الصدقة؟

أن ينظر فيها إلى صالح الفرد، فتخفف من بؤسه، و تعالج من حاله، و ترفع من معنوياته، و تقضى عنه حوائجه التى يحتاج إليها كما ينظر فيها إلى صالح المجتمع و الأمة بتحقيق المصالح العامة، و المشاركة فى المشروعات الخيرية التى يعود نفعها على الجميع، بذلك يكون المتصدق قد أصاب الهدف، و حقق الغرض، أما إذا كان يبغى من وراء ذلك المراءاة للناس، و طلب السمعة الحسنة بين الآخرين، بأنه رجل محسن، و صاحب فضل، أو يلحق ما أنفق إيذاء لمشاعر الآخرين الذين قدم لهم معروفا، فمثله فى عدم انتفاعه بما عمل، بذلك الحجر الأملس إذا كان عليه شىء من تراب، ثم أصابه مطر غزير أزال عنه ما أصابه، فعاد أملس كما كان. و كذلك الذى يتبع ما أنفق بالمنّ و الأذى، أو المرائى بعمله، قد وضع نفسه موضع المهانة و غش نفسه، و أظهرها على غير حقيقتها، و لا ينتفع بشىء من صدقاته، بل يجلب المقت لنفسه من الناس، و الذم من المجتمع، و ضياع الثواب فى الآخرة.

و هكذا يكون الجزاء و الثواب، أو العقاب و الحرمان، بمقدار النوايا الطيبة، و الرغبات الصالحة، و لن يجنى الإنسان من عمله إلا ما عمل، و العاقل من يحذر تعريض نفسه لمواقف يجد فيها حطا لكرامته فى دنياه، أو يطأطأ الرأس أمام من يملك عليه أمره، و يحصى عليه هفواته.

۳- قال اللّه تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [البقرة: ۲۶۵].

فى الآيات السابقة ظهرت موبقات العمل الصالح، و عوامل محقه من رياء أمام الناس، و طلب للسمعة، و منّ بتعداد النعم التى قام بها للمنعم عليه، و أذى من لفظ جارح أو قول غليظ يؤلم النفس و يجرح الكرامة، و فى هذا المثل المكمل تجرى تلك

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۲۸

الموازنة و المقابلة بين حالتين: سابقة و لاحقة، ففی هذا المثل نری كيف يحفظ الثواب لصاحبه، و يدخر له فی دنياه و آخرته، لا يضيع عليه شیء من عمله و جهده.

عرض المثل صورة للمخلص فی صورة ناطقة بالعمل، و الخير، و الأمل، و الإنتاج، صورة تلك النفس الخيرة التی تبذل ما بيدها، و تنفق ابتغاء مرضاة اللّه، و دليلا- على تمكن الإيمان من القلب هذه النفس التی استكملت عناصر نجاحها مادة و روحا، كتلك الجنة التی استوفت كل عناصر الخصب، و الحياة، و الجمال، فی موقعها الفريد، و وفرة المياه، و ما بها من شمس، و هواء، و شجر، ثم نزل عليها مطر شديد، فأدی ذلك كله إلی ثمار مضاعفة، و خير كثير، فالجنة تثمر كثيرا، قلّ المطر أو كثر، و هكذا نفقات المخلصين تنمو عند اللّه العليم بدوافع كل ذلك من إخلاص فی النية، و رغبة فی النفع، قلّت هذه النفقات أو كثرت، وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فهو عليم بمن خلصت قلوبهم فی الصدقة، فلم تبتغ رضا أحد غير اللّه تعالی، فيجازيها علی إخلاصها و احتسابها الخير لوجه اللّه.

۴- قال اللّه تعالی: أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ [البقرة: ۲۶۶].

صورة مكملة للصورة السابقة، و تمثل نهاية النفقة، و الصدقة التی اتبعت بالمنّ و الأذی أو بالمراءاة، تلك النهاية التی هی المحق الكامل حتی لم يبق من أثرها شیء يفيد صاحبها، فأصبح عاجزا لا يجد ما يستند إليه فی موقفه، فهو شبيه بذلك الشيخ الفانی الذی كبرت به السن، و احترقت جنته التی يعتمد عليها فی معاشه، و كبرت عياله، و قلّ كسبه، فلا يملك من إنتاجها شيئا.

موقف مؤلم لذلك الذی قدم الحسنة، و أتبعها بما يمحقها، كتلك الجنة التی أتی عليها الإعصار بناره المحرقة، فی وقت الحاجة إليها، و لا يستطيع لذلك دفعا، أو لها إنقاذا.

و قد يكون المحق فی الدنيا، فالذی ينفق ماله يكون له من الجاه و السلطان، ما يرفع من مكانته فی مجتمعه، و يفتح له الأبواب المغلقة، و يقضی مصالحه المادية و الدنيوية، فإذا ذهب ماله، ذهب جاهه، و احتاج إلی ما غرست يداه، فيحول دون ذلك ما كان له من منّ ماحق، أو أذی، أو رياء، فيحرقها.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۲۹

و كذلك عاقبة أهل الرياء و المن، تبديد للجهد، و ضياع للثواب، و شعور بالندم، و الحسرة علی ما فات.

و الجدير بالمؤمن الخائف من ربه أن يقدم لغيره ما يحفظ عليه كرامته فی دنياه و أخراه، فلا ينطق إلا صدقا، و لا يقدم صالحا. و السخاء الحقيقی ما خلص من تلك المعكرات، و الشوائب التی تضيع الثواب.

و السؤال الذی يطرح نفسه الآن: كيف يستثمر المؤمن أمواله؟

إن الدعوة للإنفاق، و العطاء، و فرض الزكاة فی أموال الأغنياء لتعطی لفقراء المسلمين، و أصناف المصارف التی حددها القرآن الكريم، كل ذلك ليس سبيلا إلی السرف و التبذير و تضييع المال، و إنفاقه فی وجوه غير مشروعة، و تبديد له فی غير فائدة، و إنما ذلك يعتبر نوعا من الاستثمار المحقق الفائدة، الذی يعود علی صاحبه بالخير و الفائدة، فالمال ينمو بالزكاة، و يسجل لصاحبه الأجر فی الدنيا و الآخرة، و هذا نوع من الجزاء لن يتحقق فی أی لون آخر من ألوان التبايع و الشراء.

و لكن أ يكتفی بهذا العطاء القاصر علی إخراج حق معلوم للسائل و المحروم؟ أو يمكن أن يضاف إلی ذلك مصارف أخری تحقق فائدة أعم و أشمل؟.

إن مقتضيات الأحوال الآن قد اتسعت فی احتياجات أفرادها، و إسهام رءوس الأموال فی تهيئة الوسائل التی تعجز الحكومات عن الوفاء بها، لضيق إمكاناتها المادية، و عجز مواردها عن تلبية رغبات الناس، و ما يجدّ من أمور فی الحياة.

إن نظرة واعية لما يكابده المجتمع من أزمات اقتصادية، و اجتماعية، و صحية، تلقی علی عاتق كل مسئول أن يكون إيجابيا بكل ما تحمله الكلمة من معنی، فالمسئولية ليست قاصرة علی الحاكم و من يشغل المناصب المسئولة، و إنما يتعدی ذلك إلی النظرة الشاملة

التی حددها رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فی حدیثه: «کلکم راع، و کل راع مسئول عن رعیته»، فصاحب المال راع، و مسئول عن تصریف ماله و استثماره فی وجوه تعود بالنفع علی نفسه و علی مجتمعه الصغیر و الکبیر، فالإسهام فی إعداد المشافی، و تهیئة الأماکن و الأدویة؛ للقضاء علی الأمراض المتفشیة فی المجتمع، و القیام بدور إیجابی فی تعلیم الأمة، و القضاء علی الأمیة، و کذلک مساعدة الحکومة فی مشروعاتها الکبری التی تعجز عن القیام بها بمفردها، إنما هو نوع من الاستثمار المطلوب فی المال الذی وضع

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۰

بین أیدینا، و تحملنا أمانة إنفاقه فی الوجوه المشروعة.

إن مجالات الاستثمار عدیدة، و یستطیع کل صاحب مال أن یقدم الکثیر من الفکر البناء الذی یطور المجتمع، و یقدم المال الذی یقضی علی البطالة المتفشیة فی المجتمع، و یهیئ المجال للسواعد الفتیة أن تعرق فی استصلاح الأرض، و القضاء علی الإدمان، و حل أزمة الإسکان، کلها استثمارات تنبثق من روح الدین، و تتفق مع أهدافه و مرامیه، و تتمشی مع حاجیات المجتمع، و تقتدی بما فعل الصالحون من آباء لنا و جدود، عرفوا حق اللّه، و حق العباد، و حق النفس، فأعطوا لکل ذی حق حقه.

۵- قال اللّه تعالی: مَثَلُ ما یُنْفِقُونَ فِی هذِهِ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَمَثَلِ رِیحٍ فِیها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَکَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لکِنْ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ [آل عمران: ۱۱۷].

سیق هذا المثل بآیات تعرض لنا حال من سبقنا من أمم سارت علی النهج، فکان منهم من یتلو آیات اللّه، و یؤمن باللّه و الیوم الآخر، و یأمر بالمعروف، و ینهی عن المنکر، و یسرع إلی عمل الطاعات، فکل هذه الأعمال التی قاموا بها، لها أجرها و ثوابها عند اللّه سبحانه و تعالی، و هناک أقوام آخرون لا یرتفعون إلی مستوی أولئک السابقین فی جهادهم، و أعمالهم الصالحة، مع تشابههم فی امتلاک المال، و کثرة الأولاد، و التمتع بأطایب الحیاة و ما فیها، و لکن الطریق یختلف، و النفس غیر النفس.

قال اللّه تعالی فی حق الفریقین السابقین: لَیْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ یَتْلُونَ آیاتِ اللَّهِ آناءَ اللَّیْلِ وَ هُمْ یَسْجُدُونَ یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُسارِعُونَ فِی الْخَیْراتِ وَ أُولئِکَ مِنَ الصَّالِحِینَ وَ ما یَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَلَنْ یُکْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالْمُتَّقِینَ إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً وَ أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ [آل عمران:

۱۱۳- ۱۱۶].

ثم یأتی بعد ذلک المثل القرآنی، لیعرض حال أولئک الکافرین الذین کانوا حریصین علی أموالهم، و أولادهم، و حیاتهم، و أنفقوا بعض أموالهم فی الخیر، بحال تلک الریح ذات الصر المهلکة للزرع، فهم لا یستفیدون منها شیئا، و لیست مانعتهم من اللّه، و هم أصحاب النار، و کل الذی بذلوه من مال و أنفقوه، إنما ذهب أدراج الریاح و هلک،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۱

فلیس له أثر، حتی و لو أنفق فی مجال الخیر.

و من المفسرین من جعل هذا فیما ینفقونه فی عداوة النبی صلی اللّه علیه و سلم و مقاومة دعوته، سواء کان المنفقون هم مشرکی مکة، أو الیهود، أو المنافقین، ریاء أو تقیة، و قد وصف اللّه هؤلاء الذین أهلکت الریح حرثهم بأنهم ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عقوبة لهم؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم الضلال، أو إفادة أن المنفقین لا یستفیدون شیئا؛ لأن حرث الکافر یذهب، و لا منفعة له فیه فی الدنیا و الآخرة، بخلاف حرث المؤمن، و بذلک یتقرر أن لا جزاء علی عمل، و أن لا قیمة لعمل إلا إذا ارتبط بمنهج الإیمان، أو باعثه الإیمان.

و هناک شیء آخر نستفیده من هذا المثل القرآنی، أن الکوارث و المصائب قد تحل بأموال الناس من إهلاک حرث، أو فقدان نسل، عقوبة علی ذنوب اقترفوها، أو نتیجة لأسباب خلقها اللّه بحکمته تبعا لارتباط الأسباب بالمسببات، مثل ما حل بالسابقین من طوفان مغرق، و نار محرقة، و إهلاک بالجراد، و القمّل، و الضفادع. حقا وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لکِنْ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ [آل عمران: ۱۱۷]، صدق

اللّه العظيم.

و من هـذا التتابع فى الآيات القرآنيـة نرى احتفال القرآن بالجانب المادى الذى ينفع الفرد و المجتمع، و الحياة بكل متطلباتها، فالقرآن قد نزل لبشر فيهم القوة و الضعف، و الغنى الفقر، و ذلك ليتسامى بهم عن شهوات النفس و لذائذها إلى ما هو أسمى، من جعل المال فى خدمة الإنسان، و تحرير الإنسان من ربقة المال.

و الإيمان بإله واحد، يستلزم بأن الكون له قواميس ثابتة، و أن البحث وراءها يؤدى إلى الإيمان بالقدرة الإلهية المسخرة لهذا الكون، و الخضوع لكـل ما يأمر به اللّه من أوامر لصالحه، فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَـةَ وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَـةُ فَكُّ رَقَبَـةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْـغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ [البلد: ۱۱- ۱۶].

و قـد كان أصـحاب محمد صـلى اللّه عليه و سـلم فيهم الأغنياء و الفقراء، جمعتهم معا آصـرة الأخوة، يؤاكلونهم ما يأكلون، وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [الحشر: ۹] على حين كان معسكر قريش على خلاف ذلك، و اشتد الصراع بين المعسكرين حتى كانت النصرة للدين الجديد الذى لا يعترف بالتفرقة، أو التميز لأحد على آخر إلا بمقياس التقوى و العمل الصالح.

و نزلت فى ذلك المعسكر القرشى و زعمائه آيات القرآن الكريم: أَ رَأَيْتَ الَّذِى

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۳۲

يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْـكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ [الماعون: ۱- ۷].

و نزلت سورة: تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَّ ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِى جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ [المسد: ۱- ۵].

عرفت قيمة المال الحقيقية عند أصـحاب محمد، فاستخدم فى وجهه الأمثل لنفع الحياة، و تسيير الدعوة، و الأخذ بيد الفقير و المحتاج، حتى أن الغنى منهم كان يخرج من ماله ما يكفى لسد حاجة جيش يتأهب للغزوة، كما فعل عثمان، رضـى اللّه عنه، فى جيش العسـرة، و كذلك غيره من نماذج الصحابة.

أما تلك النماذج الباهتـة، و الواهيـة، الفارغة البال من هموم الناس، من أمثال القرشـيين الذين ضـنوا بمالهم، و حسـبوا أنه طريقهم إلى الخلود، و البعد عن العذاب، و كثير غيرهم ممن هم على شاكلتهم فى العصور المتتابعة، و فى عصـرنا الحاضر و فيما سيأتى، فهؤلاء قد حرموا لذة الاسـتمتاع بالنعمة حينما تبل ظمأ عطشان، أو تسد حاجة فقير، أو تسـتعمل فى عمارة مسـجد، أو تعليم طفل، أو إقامة مبنى، أو زراعة أرض، أو إنفاق فى جهاد فى سبيل اللّه، و كل هذا مسارب حقيقية تنساب إليها نعم اللّه على عباده، فتقيم الحياة الخصبة التى يجب أن يحياها المؤمن.

بتلـك الـدعوات التى ترغب فى الخير و تـدعو إليه، و تعمل من أجله، و تبصـر بالطريق إلى تحقيقه فى الحياة من كلمـة طيبـة، و عمل مثمر بناء، و جهاد فى سبيل الحق و نصرته على الباطل و شياطينه، و التزام بالصبر، و تحمل للإيذاء فى سبيل الفهم لحقيقة هذا الوجود، و لطبيعة النفس المؤمنة.

و كـذلك التحـذير من السـير فى طريق الباطـل، و ضـياع الأعمال، و الخـداع بمغريات النفس من شـهوات، و أموال، و لهو، و لعب، و لجوء إلى الظالمين، و السلوك مسالكهم فى تيارات الحياة المختلفة.

كل ذلك عرضـته الأمثال القرآنيـة فى تعـددها و تنوعها، و كل هـذا من أجل الإنسان المؤمن، و الحياة الإسـلامية الحقيقية التى يدعو إليها الإسلام، كحياة جديرة بالنفع و الاستمرار حتى يأذن اللّه، حياة قائمة على أسس فاضلة من التعاون و التآزر بين الكبير

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۳۳

و الصـغير، و الغنى و الفقير، و القوى و الضـعيف، و تضامن فى جميع الأوقات و الأزمات على مستوى المجتمع و العالم الإسلامى، فلا

تکون هناک دولة فقیرة ترزح تحت نیر الجوع، و الحرمان، و الفاقة، و العوز، و أخری تنعم بطیبات الحیاة، و ما بها من ترف و تخمة فی المأکل و المشرب و المسکن.

أ فلا نتعلم من طریق رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فی أول درس له فی بناء المجتمع الفاضل قائم علی التقوی و الإیمان؟. أ لا نری کیف استلب الأحقاد من الصدور، و الغل من القلوب، وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [الحشر: ۹].

تطبیق جدیر بالالتفات و الأخذ، یقوم علی المال و تثمیره، و إنفاقه فی وجوه الخیر، و إبعاده عن المظالم و ما تجره من طحن للناس و استبعاد لأجسامهم و جهدهم.

هذه هی دعوات الإسلام إلی إنفاق المال و استغلاله، و الترغیب فیه، و التحذیر من مغبات الشح و البخل، و إلقاء النفس فی المهالک.

النفس الإنسانیة:

لکل شیء خلقه اللّه سبحانه و تعالی حکمة من وراء وجوده، و قد تظهر هذه الحکمة أمام تفکیرنا و أعیننا، و قد تغیب عن أبصارنا و عقولنا فترة من الزمن، ثم تبدو بعد ذلک، فلم یخلق اللّه الکون عبثا أو لهوا، حاشا للّه، و إنما خلقه لحکمة أرادها، و غایة قصدها، و کذلک لم یخلق الإنسان لیکون کبقیة مخلوقاته الکثیرة فی أرضه و سمائه، و بحاره و محیطاته، و هوائه و سحابه، و شمسه و قمره، و أفلاکه و ملائکته، و إنما خلقه لیحقق هدفا إلیها، و غرضا عبرت عنه الآیات القرآنیة: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ ما أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِینُ [الذاریات: ۵۶- ۵۸].

بتلک القوة القادرة، القاهرة، الخالقة، و بتلک الإرادة الإلهیة خلق الإنسان لیعمر الکون، و لیکون خلیفة له فی أرضه، یعمرها، و یحیا علی ظهرها، و یقوم بعبادته و طاعته للّه، استجابة لأوامره، و استغلالا لما خلق اللّه فیه من عقل ممیز.

هیأ اللّه لهذا الإنسان الأسباب الکثیرة التی تحقق هذه الحکمة، و تمهد لها، فخلق مع الإنسان الضعیف الجسم أسلحة الحیاة التی تمکنه من التغلب علی وحوشها الضاریة، و أحجامها الکبیرة، أسلحة و أدوات، و وسائل تمیزه علی بقیة المخلوقات التی تقابل

صعوباتها بمخلب و ناب، و تتغلب علی أزماتها بحجم و منقار، فإذا تشابه فی تلک الحواس الظاهرة التی تتمتع بها کل المخلوقات من حواس السمع، و البصر، و الشم، و الذوق، و الجسم، فإن طریقة استخدام هذه الحواس، و حسن استغلالها فی تحقیق أهدافها، مما یمیز الإنسان عن غیره.

فالعین تبصر و تؤدی وظیفتها فی رؤیة الأشیاء بالنسبة لکلیهما، و لکن أن تکون طریقا إلی الهدایة و الاستدلال و تنمیة العقل، فهذا مما کرم اللّه به الإنسان، و جعله محلا للتکلیف، و کذلک الأذن تؤدی عملها فی السمع، و قد تکون الحیوانات أقوی سمعا، و لکن أن تکون طریقا إلی العلم، و المعرفة، فهذا مجال آخر جعله اللّه سبحانه من خصائص الإنسان، و قد یختلف فیه إنسان عن آخر مما یدل علی قدرة اللّه.

و هکذا فی بقیة الحواس و الوظائف المتشابهة، أسلحة و أدوات، و لکنها فی جانب الإنسان لها وظائف أخری تعلو فوق الحاجة المادیة إلی الجوانب الروحیة و العقلیة التی بها یتسامی علی غیره، و تجعله مناطا للتکلیف و عمارة الکون، لذلک فالتشابه الظاهری لیس هو المقیاس الحقیقی للتمییز، و إنما فیما یکمن وراءه من انطباعات، و آثار، و هدایات.

یقول اللّه سبحانه و تعالی: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ یَطِیرُ بِجَناحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُکُمْ [الأنعام: ۳۸].

نعم أمم لها خصائصها، و ذواتها المستقلة التی تکتب التمییز لفریق علی فریق فی مظاهر عدیدة من حیث الشکل، و التکوین، و القوة، و الخصائص، و منها الإنسان الذی یدب علی الأرض، خلقه اللّه فی أحسن تقویم من الخلق و الخلق، و التکوین النفسی و العقلی، لیتحمل مسئولیة الحیاة الحقیقیة، و حمله أعباء الأمانة التی عرضها عَلَی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَیْنَ أَنْ یَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ

حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا [الأحزاب: ۷۲].

ظلم الإنسان نفسه، فقد حرمها من أداء مهمتها فيما خلقت من أجله، و ما هيئت له من تحقيق الكرامة لها، و الفوز بالسعادة الروحية، و سلامة الاعتقاد، و ذلك بأعماله و سلوكه فی الحياة، ذلك السلوك و العمل الذی جانب الصواب، و كذلك ظلم غيره من الذين تحملوا أداء الرسالات و الدعوات الصالحة من أنبياء و رسل، فلم يستجب لهم،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۵

و أنكر دعوتهم، و وقف أمامهم موقف المحارب و المعاند لرسالتهم، و بهذا الظلم الذی بدر منه لنفسه و لغيره كان معول هدم لهذه الحياة التی أوجدها اللّه، و أراد لها البقاء إلی حين، فما الظلم إلا أداة للتنابذ و التباغض، و تفكك المجتمع، و يؤدی إلی خراب العمران.

و فوق ظلمه هذا، فهو جاهل بمكانته، و دوره فی الحياة و بنائها، و ما هو مطلوب منه، كی يحيا تلك الحياة السعيدة عن طريق حسن فهمه، و بصره بمستقبله، و اعتباره بما حدث، و يحدث له و لغيره فی ماضيه و حاضره، و جاهل أيضا بتلك الحكمة من وراء وجوده، و بما خلقه اللّه من أجله.

هذا هو الإنسان الذی هو محور الحياة، و من أجله أرسل الأنبياء و الرسل، و من أجله جاءت الآيات القرآنية تشيد به، و الأمثال تناولته فی عقيدته، و سلوكه، و علاقاته، و حربه، و سلمه، و بقی علينا أن نعرض لبعض هذه الأمثال التی تناولت تلك النفس الإنسانية لنجلوها، و نكشف عما تخبئه هذه النفس من حقائق وراء مظهرها، و ما لها من اتجاهات و نزعات، و رؤيتها لحقيقة نفسها و غيرها فی الحياة.

إن الرؤية القرآنية فی مجالات الأمثال التی تعرضها، و فی كثير من المواطن، لا تمثل هذه النفس الإنسانية فی موطن واحد، و سبب معين، و إنما تشرح هذه النفس و تصورها فی جميع أوقاتها، و فی كل حالاتها ماضيا، و حاضرا، و مستقبلا، و هذا سر إعجاز القرآن، و دلالة آياته البينات.

۱- قال اللّه تعالی: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ [البقرة:

۱۷، ۱۸].

هذا المثل القرآنی من جملة آيات كريمة نزلت فی سورة البقرة، و هی سورة مدينة، و أطول سور القرآن الكريم، و قد تناولت أمور التشريع، و الدعوة إلی توحيد اللّه، و تعرضت إلی ما فی القرآن من إعجاز، و ما يرد من نسخ، ثم تكلمت السورة عن أحوال السابقين من أنبياء و رسل من لدن آدم، عليه السلام، و خصت بنی إسرائيل بكثير من الآيات التی تناولتهم فی معاملاتهم لموسی، عليه السلام، و طريقة تفكيرهم القائمة علی اللجاج، و المجادلة، و المكر، و الخداع، كما ذكرت الكثير من قصص بنی إسرائيل.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۶

و أفاضت السورة فی تناول التكاليف الشرعية و الفرائض التی فرضها اللّه سبحانه و تعالی علی أمة محمد، عليه الصلاة و السلام، من صلاة، و صيام، و حج، و معاملات ...

إلخ، و قد أفردت بالذكر فی آيات الربع الأول النفس الإنسانية التی نحن بصدد تشريحها و تعريفها من خلال هذا المثل القرآنی.

قسمت هذه النفس إلی أنفس ثلاث، كما ذكر ذلك صاحب تفسير المنار:

(أ) نفس مؤمنة: أخلصت فی إيمانها باللّه الواحد الأحد، و كان لها من صلاح العقيدة، و شفافية الروح، و ما تجنی من طمأنينة نفس، و عمل صالح، و استقامة علی الطريقة، و أخذ بسنة الأولين من السلف الصالح، و استغلال لإمكاناتها و طاقاتها فی الاهتداء لداعی الإيمان، و الفهم الواعی، و العلم المستنير، بكل ما دعا إليه الدين من الإيمان بالغيب، و القيام بأداء الشعائر، و الإنفاق فی سبيل اللّه، و

التطبیق لأحکام اللّه، أتاها القرآن الکریم بالدین القیم، و الهدایة التی عمل بها الأولون، فکانت لهم طریق نجاح فی حیاتهم العملیة و الإیمانیة، و انتصروا علی أنفسهم و علی أعدائهم، و طهرت نفوسهم من الشرک، و عادات الجاهلیة و تقالیدها.

(ب) نفس کافرة جاحدة: عاندت و أصرت علی الکفر باللّه، و بما أرسل من کتب و أنبیاء، و ألغت وظیفة حواسها، کما ألغت عقلها فی الفهم عن اللّه، و ابتعدت عن طریق الحق، و أظهرت العصیان للّه، و تمردت علیه، فلم تستجب لدعوته.

طریقان مختلفان، و مسلکان متناقضان یمثلان تلک النفس الإنسانیة بالنسبة لدعوة الحق جل و علا، مؤمن و کافر، یمین و شمال، کل فریق یجد جزاء عمله فی دنیاه و فی أخراه.

و یبقی بعد ذلک ما بین الطریقین و المسلکین من اتجاهات تمیل مع هذا مرة، و مع الآخر مرة أخری، و هذا هو ما أتی المثل القرآنی لیعرضه أمام أعیننا، و لیبسط حقیقته، فهو ما تحار العقول فی فهمه، و ما یلتبس علی الجمیع شکله و مظهره، و یبدو علی سطح الحیاة متحکما فی سیرها، متقلبا فی أوضاعها المختلفة، حقیقة هذه النفس الملتویة التی کانت و ما زالت و ستظل أشد خطرا علی المؤمنین فی کل وقت و حین، و علی کل دعوة بناءة، و أمام کل إصلاح طریق هدم و تعطیل، یسلط المثل علی هذه النفس الضوء لیحذر المؤمنین من أعمالهم التی تهدف إلی تخریب المجتمع، فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۷

یُؤْفَکُونَ [المنافقون: ۴].

أتی القرآن الکریم بسورة کاملة، و هی سورة المنافقون، تظهر سوأة أولئک المنافقین فی عهد النبوة و الوحی ینزل من السماء و یکشف أسرارهم.

ما ذا قالت الآیات السابقة لهذا المثل؟

قال اللّه تعالی: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِینَ یُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ ما یَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لکِنْ لا یَشْعُرُونَ وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ آمِنُوا کَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ کَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لکِنْ لا یَعْلَمُونَ وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلی شَیاطِینِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَکُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ اللَّهُ یَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ یَمُدُّهُمْ فِی طُغْیانِهِمْ یَعْمَهُونَ أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدی فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما کانُوا مُهْتَدِینَ [البقرة: ۸- ۱۶].

هذه هی الآیات التی عرضت حال أولئک القوم، و أظهرت حقائق نفوسهم المریضة، فما سماتها؟

(أ) التظاهر بالإیمان مع کفرهم.

(ب) اعتقادهم بأنهم یخادعون اللّه و یخدعون المؤمنین بأعمالهم و مظهرهم، و اللّه یفضح کیدهم.

(ج) تغلغل النفاق فی قلوبهم، و هو مرض لا یرجی معه شفاء، و عقابه شدید یوم القیامة.

(د) ادعاء الإصلاح و الصلاح مع إضمار خلافهما.

(ه) التعالی علی المؤمنین و التکبر عن مجالستهم و الغرور بالنفس.

(و) التظاهر بالإیمان أمام الناس، و الانضمام لأعداء اللّه فی السر.

(ز) النفاق تجارة خاسرة لا تنفع صاحبها فی الدنیا و لا فی الآخرة.

هذه صفات النفس الملتویة التی استحبت العمی علی الهدی، و أتاها القرآن الکریم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۸

بالدین القیم، فاستوقدت النار، فما أضاءت لها نور الحیاة و نور البصیرة، لم تنتفع بها، فعاقبها اللّه عقابا شدیدا.

ذهب اللّه بنور أولئک المنافقین الذی طلبوه، ثم ترکوه وَ تَرَکَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا یُبْصِرُونَ [البقرة: ۱۷] جزاء إعراضهم عن النور.

ترکهم فی ظلمات نفوسهم المریضة بالنفاق، و البعد عن روح الدین، و إیذاء الجماعة بما یقذفونه من طعن فی الدین و الأعراض، و ظلمات حیاتهم التی تضیق بهم، و تجعلهم فی قلق و خوف، و ظلمات عقولهم، فلا یهتدون إلی صواب فی فهم آیات اللّه، و الإحاطة بأسرارها، و العمل بموجباتها التی تحقق السعادة الدنیویة و الأخرویة، ظلمات بعضها فوق بعض، وَ مَنْ لَمْ یَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ [النور: ۴۰] فهم لا یبصرون شیئا من أسرار الحیاة و عوامل النجاح فیها بعد أن حرمهم اللّه من النور الذی أعطاه للمتقین الذین فازوا برضا اللّه، و نزهوا قلوبهم و نفوسهم من النفاق و التبعیة و عادات الجاهلیة الأولی.

إن أمثال هؤلاء فی حیاتنا و مجتمعاتنا الحاضرة لکثیر، ممن فقدوا نور الهدایة الدینیة، و حرموا من الاهتداء بها، و استطاعوا بما أوتوه من أسالیب خادعة أن یتسلقوا زمام الأمور، و أن یؤثروا فی مجری الحیاة، و أن تکون لهم کلمة مسموعة فی دنیا الناس و الأحیاء.

هذه صورة لأولئک المنافقین الذین کانوا یمثلون دورا تخریبیا فی المجتمع الإسلامی الجدید، و قد أعطانا المثل القرآنی و الآیات السابقة ملامح أعمالهم، و اتجاهاتهم فی تقویض دعائم الدعوة الجدیدة، و تتضح الصورة أکثر و أکثر حینما تتم الآیات القرآنیة فی ذلک المثل اللاحق، لتکتمل هذه الصورة فی ذلک التصویر المبدع فی قوله تعالی.

۲- قال اللّه تعالی: أَوْ کَصَیِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِیهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِیطٌ بِالْکافِرِینَ یَکادُ الْبَرْقُ یَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ کُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِیهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ [البقرة: ۱۹، ۲۰].

فی هذا المثل تشبیه معجز لأولئک المنافقین الذین سیطر علیهم القلق و الاضطراب، و استبدت بهم المخاوف و الحیرة من الأمر، فهم حینما یلتقون بالمؤمنین یطلبون الهدی

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۳۹

و النور، و حینما یلتقون بإخوانهم شیاطین الإنس، ینکصون علی أعقابهم عما طلبوا فجأة، و یرجعون إلی الظلام و الضلال.

صور متعددة تتابعت لتکشف خبیئة تلک النفوس التی تعیش فی جحورها، ثم تنفث سمومها، و تبث دعایتها ضد کل دعوة صالحة تختبئ وراء ما یخدع من لسان معسول، و کلمات تنم عن خداع و حقد، یجد متنفسه فی إثارة الأحقاد و الکراهیة فی صفوف المجتمع، و تمزیق أواصر العلاقات بین الأفراد و الطوائف بالکلمة الخبیثة التی ینطق بها: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یُشْهِدُ اللَّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ وَ إِذا تَوَلَّی سَعی فِی الْأَرْضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَ یُهْلِکَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الْفَسادَ وَ إِذا قِیلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ [البقرة: ۲۰۴- ۲۰۶].

و قد اهتدی صاحب تفسیر المنار إلی رأی من القول قال فیه: إن هذا المثل یمثل من بقی له بصیص من النور، فله نظرات تهدیه أحیانا، و تصل به إلی فهم معانی الآیات بالفطرة، أو الاستدلال بالحوادث للنظر فیما بین یدیه، و لکنه تسیطر علیه دواعی التقلید و البدع، فیعیش فی ظلمات حوالک یخبط فیها، و یسمع قوارع الإنذار، و یری نور الهدایة، فإذا أضاء ذلک البرق سار، و إذا انصرف عنه بشبه الضلال قام و تحیّر، و یعرض عن دعاة الحق، و نذر الکتاب، فهو یضع إصبعیه فی أذنه، حتی لا یسمع نصح الناصح، یخاف من تلک النوازع أن تقتله.

و لکن أ هذه صورة النفس الإنسانیة المقبولة؟! إنها صورة مریضة لنفس تعیش فی الحیاة و لها دورها، و لا یمکن إهمال ما تقوم به من أعمال ماکرة، و إلا ضاع المجتمع و أهله، و ما کانت هناک صراعات أو حروب أو دعوات صالحة لبناء المجتمع.

بجوار هذه النفس نفوس أخری صالحة توجهت إلیها الآیات و الأمثال القرآنیة بالنداء و الأوامر، کی تنفق و تبذل المال، و الجهد، و الدم، فی سبیل الدعوة، و فی سبیل الحیاة، و قد تعرض الباب السابق لکثیر من هذه المظاهر المعطاءة التی تقدم القلیل، و یکون لها الکثیر من الأجر و الجزاء، و تبذل العلم و المعرفة، و یکون البناء للنفس و الأمة، و تعطی ما لها من جهد و دم فی سبیل المحافظة علی العقیدة، و الدفاع عن الدین، و یکون لها کرامة الاستشهاد، و جزاء ذلک فی وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۴۰

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِینَ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْکاظِمِینَ الْغَیْظَ وَ الْعافِینَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ [آل عمران: ۱۳۳، ۱۳۴].

صفات تلک النفوس المخلصة التی تستوجب التقدیر، و تحظی بالاحترام، و تعطی مثالا للنفس السویة التی لم تشبها أمراض النفاق، و لم تدنسها أرجاس الشرک، و عرفت ذاتها، و صدقت فی حیاتها، فکانت عماد الحیاة، و أمل المستقبل، و حامل لواء النهضة و التقدم فی کل عصر.

بناء الشخصیة الإسلامیة:

تسعی جمیع الهیئات و الأجهزة التی تتولی أمر الإرشاد و التوجیه، و التربیة و التعلیم، فی کل زمان و مکان، إلی تحقیق هدف سام نبیل، و هو العمل علی بناء الشخصیة المتمیزة للفرد و المجتمع.

و تختلف فلسفة بناء هذه الشخصیة تبعا لما یحکم المجتمع من أنظمة اقتصادیة، أو سیاسیة متباینة، و تظهر الفروق الکثیرة فیما نجده من وسائل التوجیه، أو طریقة التعلیم و التربیة فی ناتج هذه الفلسفات، أو المتمخض عن نزعاتها، و آرائها، و کلها آراء و اتجاهات إذا کتب لبعضها التوفیق فی تحقیق هدف، أظهرت قصورا و فشلا فی آخر، و بذلک کانت سمة هذه الاتجاهات الحاجة الملحة إلی التغییر و التبدیل فی کل خطواتها، و علاج ما تجد من عثرات فی تطبیقاتها، و إصلاح القصور فی نظریاتها.

و کل هذا لأنها استمدت نورها وضوءها من إشعاعات فکر قاصر، و تقلید ممسوخ لنظریات و أفکار قدیمة لا تراعی مصلحة الفرد، و لا مصلحة الجماعة، و لا ترضی جوانب الشخصیة الکاملة من إنماء للشعور، و توجیه للسلوک، و تربیة للعقیدة و الوجدان، و تنظیم للفکر.

و لما ذا نطلق القول فی هذا و أمامنا ما یحدث فی تلک الدول العظمی، و بخاصة ما نراه فی الدول الاشتراکیة فی وقتنا الحاضر، تحولات خطیرة تشهدها تلک المجتمعات التی قامت علی فلسفة اشتراکیة، عجزت عن إرضاء حاجة الإنسان الضروریة، و ابتعدت عن الجوانب الروحیة التی تمیز الإنسان عن غیره من بقیة المخلوقات، فإذا استطاعت أن ترضی حاجة الجسم الشهوانیة من مطعم، و مأکل، و ملبس، و قلیلا ما یحدث هذا، بدلیل ما نراه الآن من أحداث هروب جماعیة من دولة اشتراکیة إلی دولة غربیة النظام، من

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۴۱

ألمانیا الشرقیة إلی ألمانیا الغربیة، و تغییر النظام فی بولندا علی انقاض الحزب الشیوعی الذی أسقطته الجماهیر، و کثیر من الأمثلة علی هذا الواقع المریر الذی تعانیه تلک الدول التی أهملت الجانب الإنسانی فی الإنسان، و ما یجب أن یتمیز به من حریة و إرادة و عقیدة.

تنذر هذه الأحداث بانهیارات متوقعة لتلک الأنظمة العفنة التی قامت علی أسس خاطئة من التربیة و التوجیه، و حضارات هذه الدول حضارات هشة تعمل علی أن تهیئ للإنسان کل وسائل الترفیه و التقدم المادی، و لکنها ترهقه روحا و نفسا، و تحرمه من کل معانی الاستقرار النفسی، و تجرده من القیم الموروثة التی تصله بالحیاة و الناس.

و ما یحدث فی هذه المجتمعات یحدث نظیره کذلک فی المجتمعات الرأسمالیة التی تقوم علی إعطاء الحریة المطلقة فی کل التصرفات، و طغیان رأس المال، و التفاوت بین طبقات الشعب تبعا للون و الجنس و الدین، و حضارات هذه الدول تقوم علی مبدأ الصراع و التدافع فی سبیل الوصول إلی الغایة، و کل شیء یقیم بثمن و فائدة، و بذلک أصبح التعاون بین الناس ضربا من المساومة و الخداع و المجاملة، و لا- محل للتعاون و الحب، و إنما یعیش الإنسان منقسما علی نفسه، منفصما عن مجتمعه، لا یشعر نحوه بأیة مسئولیة، و ساد التوتر و القلق، و الإفراط فی المسکرات، و تناول المخدرات، کما کثر الانتحار و الانحراف.

انحرافات فی اتجاهات متباینة ذات الیمین و ذات الشمال، کان لها آثارها الضارة فیما یعانیه العالم الآن من أزمات اقتصادیة، حیث

تتحكم الدول الكبرى الغنية فى الدول الصغرى الفقيرة، بكثرة الديون، و ازدياد الفقر، و المعاناة، و التخلف، و كذلك أزمات اجتماعية أدت إلى تفككك عرى المجتمعات، و تخلخل أنظمتها، و انحلال أخلاقها، و تفشى روح البطالة فى شبابها و رجالها.

و لم يكن حظ هذه الأنظمة الأخرى إلا مماثلا للأولى فى آثارها، و توقعات أحداثها، و كثرة أضرارها، و أعانها على ذلك الترف المقيت الذى تعيش فيه شعوبها من جراء استعمارها لشعوب العالم القديم، و امتصاص خيرات هذه البلاد المستعمرة من قديم الزمان.

و لكن إذا نظرنا إلى الجانب الإسلامى من هذا المنطق المتجدد الذى ينطلق من

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۲

حاجيات النفس البشرية، و رغابتها، و اتجاهاتها فى الحياة، وجدناه قد ربط بين هذه الجوانب التى تهيمن على الإنسان، و رغباته و انطلاقاته، برباط الوحدة، الوحدة فى المشاعر و السلوك، و العقيدة و العمل، الوحدة بين الإيمان القلبى و العملى، و قد ظهر هذا النموذج المثالى فى الإسلام، فكان الفرد و المجتمع وحدة واحدة فى التكاليف و المسئوليات، و من مظاهر ذلك عبادة اللّه وحده، و الاقتداء بفعل اللّه نحو عباده من رزق، و مغفرة، لأجل الفعل نفسه، لا لغرض نفعى.

و قد رسمت الآيات القرآنية المنهج القويم فى قوله تعالى: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: ۱۱۱، ۱۱۲].

إسلام الوجه و استسلامه المعنوى و العملى للّه الذى أوجد له العقيدة التى تصنع الحياة، و الأجر مضمون لا يضيع عند رب العباد فى الدنيا و الآخرة، و الإسلام دين يزرع فى قلب المؤمن الإيمان باللّه سبحانه و تعالى و يجعله على بصيرة من أمر دنياه و أخراه، و متى آمن الإنسان بربه، و عرف حقيقة هذا الإيمان، و ذاق طعم الطاعة، ازداد تمسكا به، و فهما لمبادئه القويمة التى سار عليه الرسول صلى اللّه عليه و سلم و طبقها فى حياته و بين صحابته، حتى ينال رضا اللّه، و رضا الناس.

و نحن إذا أردنا أن نخطط لبناء هذه الشخصية الإسلامية، فإننا نعرض نماذج من الآيات القرآنية تحدد لنا طريقة هذا البناء، و ما يجب أن يكون عليه، و الإنسان يعرف طريقه من التقابل و الموازنة فى المواقف، و من النماذج التى تصور تفكيرا معينا، و آراء فى العقيدة و الفهم للأمور.

قال اللّه تعالى: وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [البقرة: ۱۱۳].

هذه نماذج من التفكير السقيم، و الآراء الفجة التى تدل على سفاهة و قصور، و مواقف لأناس اختلفت بينهم المشارب، و تباينت النزعات، فضلوا عن سواء السبيل.

نجد فى هذه الآيات أن كل فريق يطعن الآخر فى اعتقاده، و أنه ليس على شىء من

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۳

اليقين، و أن الدين الذى يعبده كل فريق ليس دينا حقيقيا يتعبد به، و يشترك فى هذا أهل الملل الأخرى، حتى مشركو قريش الذين وصفتهم الآية بأنهم لا يعلمون، فنفت عنهم العلم؛ لأن الأمية قد تفشت فيهم، و انتشرت الجهالة و سيطرت على أنفسهم و عقولهم، فلا يعلمون من حقائق الأمور شيئا، حتى عن الكتب السابقة و الشرائع التى أنزلت.

لذلك فهو يشتركون فى هذا المعمعة، و يدفع الجميع تعصب لما يعتقد، و خرافات تتحكم فيهم، و اعتقادات باطلة، و أنهم وحدهم الناجون من النار، و من عذاب اللّه يوم القيامة.

يسجل اللّه سبحانه و تعالى على الجميع ما يقوله، و يحكم بينهم يوم القيامة، و يبطل ما لهم من دعاوى باطلة، فالدين واضح، و الحق سبيله معلوم، لا يتعبد بأسماء و لا بألقاب، و إنما هو إيمان خالص، و عمل صالح، لا يدعو إلى تفرق فى دين، أو اختلاف فى أصول.

و إذا كانت الأهواء و النزعات قد طغت على أهل الكتاب فى تفكيرهم، فأعرضوا عن الإيمان بمحمد صلى اللّه عليه و سلم، و طعنوا فى هذا الدين الذى أتى به، و إذا كان هذا الطعن لا ينهض حجة على بطلان الدين الذى جاء به، فإن الآية تصورهم بأنهم لا يرضون إلا بمن يتبع دينهم، و كل فريق يخالف فهو فى النار و على ضلال.

هذا تفكير طبعوا عليه من قديم، حتى فى أيام أنبيائهم، و رسلهم، و جدالهم معهم، و يبدو هذا واضحا فى قصة بنى إسرائيل مع موسى، عليه السلام، حينما قتل واحد منهم، و أرادوا معرفة قاتله، فذهبوا إلى موسى، و طلبوا منه أن يدلهم على القاتل، فأمرهم بذبح بقرة، و أن يأخذوا جلدها، و يضربوا به القتيل، فيحييه اللّه تعالى، و يدلهم على قاتله، أمور واضحة لا تحتاج إلى لجاجة و مراجعة، و لكنهم أخذوا يسألون: ما لونها؟ ما عمرها؟ ما صفاتها؟ أسئلة، و لجاجة، و التواء فى التفكير لا تدل إلا على سوء طوية، و خداع.

و هو لون من الفكر المارق، كما يسميه الأستاذ أحمد بهجت، تحت عنوان: الفكر البقرى، نسبة إلى قصة البقرة، فكر ضال أخذ عليهم حياتهم، و سيطر على نفوسهم؛ كراهة الاهتداء، و عدوانا على الحق و أهله، و من سماته الفجاجة، و الالتواء الذى لا يعرف طريق الحق، و ينحرف عن الجادة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۴

و الآيات المعروضة تدعونا إلى العلم الذى يقوم على البرهان، و الدليل، و التحرى فى الحكم على الأشياء، و تنعى على أولئك المقلدين الذين ألغوا عقولهم، و تحكم فيهم التعصب للرأى، و اتباع الهوى، كما تبث فينا روحا تسمو على أى لون من ألوان التفكير الضال، أو التعصب المقيت، فالدين الإسلامى جاء بشريعة مكملة لتلك الشرائع، و لا تتناقض معها فى الأصول، و للإنسانية جمعاء، لا لشعب بعينه كما فى تلك الديانات السابقة.

و هناك جانب عقلى يرجع إليه كل عاقل فى المقارنة بين الأشياء و الموازنة بين فريقين أو اتجاهين، و هو أنه لا مجال لإعطاء الحق فى الحكم على الأشياء لمن سبق على ما سيأتى؛ لأن ذلك ليس فى مقدور البشر الذى لا يعلم الغيب، و لا يدرك المستقبل، فهؤلاء السابقون لم يعاصروا الأحداث، و لم يشهدوها، فليس من حقهم الحكم عليها بالصواب و الخطأ، أو الصحة و الخطل، و لذا فلا يقبل فى حكم العقل أن يأتى أصحاب الديانات السابقة بآيات أو أدلة تحكم على ما سيأتى من أحداث و ديانة أخرى.

أما الصواب من الرأى، فهو أن يكون العكس صحيحا، و هو أن القرآن الكريم و خاتم الديانات ينطق بالحكم و الحق فى حق السابقين؛ لأن هذا الحكم قائم على التجربة و الواقع، و الفهم، و التطبيق، باعتباره شاهدا على الأحداث، فما يقوله الإسلام و ما ينطق به محمد، عليه الصلاة و السلام، هو الحق بالنسبة لمن سبقه فى تبيانه لنفوسهم، و شرائعهم، و أحداثهم، و حكمه على كل ما بأيديهم من آيات و كتب سماوية سليمة من التغيير و التبديل و التحريف.

و ما زال موقف أولئك المعاندين لشريعة اللّه و قرآنه، و رسالة محمد صلى اللّه عليه و سلم يحتاج إلى توضيح من آيات القرآن الكريم التى لم يدخلها تحريف أو تبديل: وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [البقرة: ۱۱۶- ۱۱۸].

مواقف أيضا يشترك فيها أصحاب الكتب السابقة مع مشركى قريش، فالأولون ينسبون إلى اللّه الولد، و هم يعلمون تمام العلم من واقع دياناتهم و كتبهم أن اللّه برىء

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۵

من هذا الذى ادعوه، و أنه واحد أحد، و له ما فى السموات و الأرض يخضع لمشيئته، و إذا أراد شيئا كان بقدرته الفاعلة.

أما مشركو قريش الذين تحكم فيهم الجهل، و سيطر على نفوسهم جانب الغفلة، فقد أبانوا عن هذه الجهالة بتلك الاقتراحات الباطلة من تكليم اللّه إياهم، أو إنزال آية، تشابهت مواقفهم مع مواقف الأمم السابقة من اليهود الذين طلبوا من موسى، عليه السلام، أن يروا

اللّه جهرة، فأخذتهم الصاعقة.

و هؤلاء الغافلون من أهل مكة أيضا يطلبون آية تشهد بنبوة محمد، أو يفجر اللّه لهم ينابيع الماء، إلى غير ذلك من تلك الخوارق المادية التى تدل على الجهل بالشرائع و بالكتاب، من هذه الاقتراحات ما يدل على إنكارهم لرسالة محمد و اختصاصه بالوحى دونهم، و لم يكن ذلك إلا عن جهل و عدم معرفة بحقيقة أن اللّه سبحانه يختار لرسالته من يشاء، و أن اللّه أجرى على يديه آيات قرآنية، و عقلية، و كونية، عجز الفصحاء و البلغاء أن يأتوا بمثلها، و لكن هذا دأب الكافرين فى معارضة الحق.

لذلك ختم اللّه هذا المثل بقوله: قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [البقرة: ۱۱۸]، و الذين يوقنون هم من خلصت نفوسهم من شوائب الشرك و التقليد، و الآراء الفاسدة، و توجهت إلى طلب الحق فى الأمور الاعتقادية بالبرهان و الدليل.

و بالإضافة إلى هذا الجانب الاعتقادى و العقلى الذى يتميز به المؤمن لكى يمارس دوره البناء فى الحياة كما يجب أن تكون، عليه أن يستفيد أيضا من تجارب الآخرين، و أن يتحمل بأساء الحياة، و ما بها من سنن تجرى بقضاء اللّه و قدره، و من انتصار مرة، و هزيمة أخرى، حتى يكون كأولئك الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الدين إبان ظهوره، يتعلم منهم، فلا يقنط من رحمة اللّه إذا ألم به مكروه، و لا يحزن إذا نزلت به كارثة، فتلك الأيام نداولها بين الناس.

۱- قال اللّه تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران: ۱۴۰].

أتت هذه الآية عقب آية تنهى عن الجزع و الحزن، و الوهن الذى يصيب كل مهزوم، و ذلك فى قوله تعالى: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: ۱۳۹].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۶

فلا يليق بالمؤمن أن تتملكه هذه النزعات التى تتنافى مع كمال الإيمان، و روح الاعتقاد، بل هى من صفات أولئك الكافرين الذين تجردوا من الإيمان باللّه، و تحكمت فيهم شهوات النفس و حب الدنيا، أما أولئك الأقوياء فى عقائدهم، فهم يستسلمون لقضاء اللّه و قدره إذا نزل بهم مكروه، و لا يجزعون من الأحداث التى تضعف النفس، فاللّه جلت قدرته قد حكم فى محكم قرآنه أن الغلبة و الفوز لمن تمكن الإيمان من قبله، و الذى يعمل من أجل الحق و إزهاق الباطل، فقال فى كتابه العزيز: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة: ۲۱].

ثم جاءت الآية الثانية: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ [آل عمران:

۱۴۰]، جاءت هذه الآية لتوجه البصائر إلى ما يقع فى الحياة من سنن اللّه، و لن تجد لسنة اللّه تبديلا، هذه السنن تحدث فى الحياة و مع الإنسان فى عاداته، و سلوكياته، و حروبه، و مواقفه المتعددة، سنن تجرى من اللّه جل و علا لتكون فى جانب الحق تارة، و لتكون فى جانب الباطل تارة أخرى، ينتصر الإيمان فى معركة، و قد ينتصر الشرك فى معركة، فقد انتصر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى على الرغم من قلة عددهم و عدوهم، و انهزم المشركون و قوى الباطل، ثم هزم المسلمون فى معركة أحد أمام الكفار.

كل هذه السنن تجرى تبعا لحكمة إلهية أرادها اللّه، و جعل لكل شىء سببا، فما كان من هزيمة المسلمين، إنما لأسباب عديدة، لا لنقص فى الإيمان، و لا لضعف فى العزيمة، و لا لغرور أصاب القوم، و إنما كان لمخالفة الجند لأمر القائد، و ترك أماكنهم التى أمرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بالبقاء فيها؛ لحماية جيش المسلمين و النّبل عنهم إذا تعرضوا لهجوم مباغت، و هكذا كانت النتيجة مترتبة على عمل من أعمال الإنسان، و ليست بأمور خارجية عنه.

و لذلك جاءت الآيات القرآنية تعلم، و تظهر حكمة اللّه فى هذه الهزيمة التى لحقت بالمؤمنين فى هذه المعركة لتكون طريقا إلى العظة و الاعتبار، و درسا يستفيد منه كل من يبغى الفهم الحقيقى لجوهر الدين و مراميه، فإذا كان المسلمون قد هزموا فى معركة أحد، فقد هزم الكفار أيضا فى معركة سابقة، و أصابهم ما أصاب المسلمين من خسائر فادحة، و ليس هذا الأمر صدفة و جزافا، و إنما

لأسباب جديرة بالفهم و الدرس، فالنصر يتحقق بالأعمال التى تحقق النجاح، و الاستعداد، و جانب الحذر، و القيادة الحكيمة،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۷

و الارتباط العقدى بين الجنود ... إلخ، كل هذه الأمور التى تحقق النجاح و الانتصار فى كل معركة من معارك الحياة.

وَ تِلْكَ الْأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ [آل عمران: ۱۴۰]، حكمة اللّه التى تحتاج إلى وقفة و دراسة، و فهم: نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ لا فرق بين مسلم و كافر، و لا فرح مستمر، و لا حزن مستمر، و إنما هى أحوال متغيرة من حال إلى حال، يحدث هذا فى الحياة بالنسبة للأفراد و المجتمعات و الدول، و تظهر آثار هذا فيما نلحظه فى حياتنا الحاضرة من تقلبات و أحداث متغايرة فى كل ما يتعلق بأنظمة الناس و عاداتهم. و كما ظهرت هذه الحكمة الإلهية و الاستفادة بثمارها فى الغزوات اللاحقة لغزوة أحد و ما حدث فيها، فقد تميزت صفوف الجند فى الاستبسال و القتال من أجل الدفاع عن العقيدة، و تم بذلك إعداد الجماعة الإسلامية ذلك الإعداد الذى وقف على أبواب التاريخ يقرع أبوابه، و يدك حصون الباطل، و يقضى على أنواع الفساد نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ بما تحمله هذه الكلمة من ابتلاءات و امتحانات لقوى الصبر على الشدائد، و هى و لا شك طريق إلى تحقيق التوازن بين الناس، و استقرار النظام، و تحقيق العدل بين الدول، و يعلم اللّه الذين آمنوا، و يتخذ منهم شهداء فى ميدان الجهاد و القتال، أو شهداء يشهدون على الناس يوم القيامة بما عملوا.

هذا دور المؤمن، أما الكافرون فقد ظلموا أنفسهم و ارتكبوا الموبقات، و ساعدوا على الفساد فى الأرض، و انتشار البغى على الناس، و هضم الحقوق، فلا مكان لهم عند اللّه، حتى لو انتصروا فى معركة، فهو انتصار سريع الزوال.

و هكذا نتعلم من الحياة و من سنن اللّه التى يجريها فى كونه و بين مخلوقاته، نتعلم الكثير من الدروس، فهذه الحياة تجمع الحلو و المر، و السعادة و الشقاء، و العاقل من فهم هذا، و عاش أيامها، دون حزن و تنغيص، و يقبل ما بها من تناقضات، فلا يأسى على فقد إخلاص، و لا يحزن لضياع أمانة، و لا بدّ و أن يتحمل، فقد يجد من صديق طعنة، أو من يحسن الظن به غدرا، أو ممن يحب جفوة، فليس الجميع على خلق حميد، و طبع رضى، ففيهم العاقل و السفيه، و المخلص و العدو، و قديما قال المثل العربى: إن لم تغض عن القذى لم ترض أبدا.

و إذا كان هذا هو دور المؤمن فى استقبال الحياة و التغلب على مشقاتها، فإنه و لا

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۴۸

شك بحاجة ملحة إلى الحذر، و الدهاء، و المكر، و كل ألوان الأسلحة التى تستخدم استخداما كريما فى مدافعة الحياة دون أذى أو إضرار بالآخرين، فهذه الصفات تكسب صاحبها تفوقا و تميزا على الآخرين، يكتسبها من ممارسة الحياة، و مخالطة الآخرين، و كثرة التجارب، مع يقظة فى العقل، و دقة ملاحظة للأمور، و بصر بالمواقف، بهذا يكون المؤمن عامل نفع فى الحياة لا معول هدم يلحق الأذى بالآخرين، و يضر نفسه و مجتمعه، كما كان يظهر سابقا فى أخلاق اليهود، و ما لهم من كيد و تدبير جرّ عليهم الكثير من المتاعب، وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ [الأنفال: ۳۰].

مكر، و مكر موازنة، و نتيجة واضحة، و غلبة للّه سبحانه و تعالى فى هذا الموقف، و هكذا كل موقف مشابه.

و يحضرنا فى هذا الموقف كيف تستغل هذه الصفات استغلالا طيبا تؤدى إلى النفع لأصحابها و لغيرهم، من شخصيات لها دورها فى المكر و الدهاء فى تاريخنا العربى، تذكر كتب الأدب أن داهية من دهاة العرب و هو معاوية بن أبى سفيان، صاحب المقولة الشهيرة: لو كان بينى و بين الناس شعرة ما انقطعت؛ لأنهم إذا شدوا أرخيت، و إذا أرخوا شددت.

التقى و هو مؤسس دولة بنى أمية، مع قائده زياد بن أبيه، و اليه على الكوفة، فى موقف فيه إرشاد و تعليم، فقد توفى المغيرة والى الكوفة، و خاف زياد أن يولى معاوية مكانه رجلا آخر يسمى عبد اللّه بن عامر، فأرسل إلى معاوية يخبره بوفاة المغيرة، و يشير عليه بتولية رجل آخر يسمى الضحاك بن قيس مكانه.

ففطن معاوية لما يدور فى خلد زياد، فكتب إليه: قد فهمت كتابك فليفرخ روعك «۱» بالمغيرة، لسنا نستعمل ابن عامر على الكوفة، و

قد ضممناها إليك مع البصرة. فلما ورد كتاب معاوية، قال زياد: النبغ «۲» يقرع بعضه بعضا.

۲- قال اللّه تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ «۳» فِيها

---

(۱) يفرخ روعك: يهدأ بالك.

(۲) النبغ: من شجر الجبل، و هو من أكرم العيدان.

(۳) المشكاة: فتحة فی الحائط غير نافذة، و المراد الأنبوبة التی تجعل فيها الفتيلة، ثم توضع فی القنديل.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۴۹

مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِی زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّیٌّ «۱» يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ «۲» يَكادُ زَيْتُها يُضِیءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ «۳» يَهْدِی اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِيمٌ [النور: ۳۵] جاءت الآية السابقة لهذا المثل ممهدة لتوضيح حقيقة أن اللّه سبحانه و تعالى قد أنزل إلى المؤمنين آيات واضحات، مفصلات لكل حاجيات الإنسان فی حياته الدنيوية من شرائع، و معاملات، و عقائد، ثم عرض اللّه سبحانه أمثلة لما حدث للسابقين فی مواقفهم من أحداث الحياة، و من الرسل، و ما حلّ بالمكذبين من عقاب، جزاء عنادهم و كفرهم و عدم استجابتهم للدعوات الصالحات التی دعو إليها، و ما كان فی مقابل ذلك من مواقف لمؤمنين نعموا فی دنياهم بصفاء العقائد، و القلوب، و الأرواح، و سعدوا بها فی معاملاتهم، كما سعدوا بها فی أخراهم بما حظوا به من رضا اللّه سبحانه و تعالى، عليهم، و ما أعده لهم من جزاء و فضل عميم.

و كل هذا الذی عرض مجملا فی آية واحدة إنما سيق ليكون طريق عظة و اعتبار يهتدی به كل من يعبد اللّه، و يتقيه، و يؤمن بكل ما جاء من مثله على أيدی رسله، فالمؤمن هو حصيلة هذه الدعوات التی نزلت على رسل اللّه، و التی خصه اللّه بها و كرمه، من اللّه نور السموات و الأرض.

و سورة النور قد حوت الكثير من أوضاع هذه النفس البشرية، و بخاصة المتدنية التی ترتكب الموبقات من قذف، و شهوة، و فاحشة، و وضعت لها الضوابط التی تقيم من عوجها، و تردعها حتى تعود إلى صفائها و نقائها، و تستعد لاستقبال النور الإلهی الذی يفيض فی الكون الكبير، أرضه و سمائه، و يسبح فيه، فتلتقی هذه النفس بمشاعرها بهذا النور فی ألفة و معرفة و فرح؛ لأنها من خلق اللّه، و قد هيأها اللّه سبحانه و تعالى لتكون نقطة اتصال بين السماء و الأرض عن طريق وحی اللّه الذی كرمها به، و جعلها أهلا لتحمل أمانته من رسالة، و إرادة، و اختيار، و بذلك كان تمييزها، و تقديرها بهذا التصوير الرائع الذی عرضته الآية القرآنية.

---

(۱) درّی: منسوب إلى الدر لفرط ضيائه و صفائه.

(۲) لا شرقية و لا غربية: لا يتمكن منها حر و لا برد.

(۳) نور على نور: يريد أن النور الذی شبه به الحق نور مضاعف قد تناصر فيه المشكاة، و الزجاجة، و المصباح، و الزيت، حتى لم تبق بقية مما يقوى النور.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۰

فقد قال ابن كثير فی (ص ۶۰)، المجلد السادس من تفسيره: شبه اللّه قلب المؤمن و ما هو مفطور عليه من الهدی، و ما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، فی صفائه فی نفسه، بالقنديل من الزجاج الشفاف، و ما يستهديه من القرآن و الشرع، بالزيت الصافی الذی لا تكدره كدرة.

و الضمير فی قوله تعالى: مَثَلُ نُورِهِ يعود على اللّه عز و جل، أی مثل هداه فی قلب المؤمن كمشكاة، أو يعود إلى المؤمن الذی يدل عليه السياق، و تقدير الكلام: مثل نور المؤمن الذی فی قلبه كمشكاة.

و رأى صاحب الظلال: أن هذا النور، نور اللّه الذى لا ندرك كنهه، و لا حقيقته، و لا مداه، نور أشرقت به الظلمات، و يتجلى فى بيوت اللّه التى تتصل فيها القلوب باللّه حين تذكره و تخشاه، فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ [النور: ۳۶]، فتلتقى مع النور المتألق فى السماء و الأرض، مع قلوب الرجال الذين لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه.

و يقول الأستاذ أحمد بدوى «۱»: المراد بالنور هنا هو النور الذى يغمر القلب، و يشرق على الضمير، فيهدى إلى سواء السبيل، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح يلقى عليه ضوءه فيهتدى إلى الحق، و أقوم السبل؟

ثم ألا ترى فى اختيار هذا التشبيه إيحاء بحالة القلب، و قد لفه الظلام و الشك، فهو متردد، قلق، خائف، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه، فيجد الراحة و الأمن و الاستقرار؟ فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى، حتى إذا أوى إلى بيته، فوجد هذا المصباح فى المشكاة، وجد الأمن سبيله إلى قلبه، و استقرت الطمأنينة فى نفسه، و شعر بالسرور يغمر فؤاده.

و هكذا كان النور فى القلب، و الفهم، و العقل، و العقيدة، و الشرع، طريقا إلى الإيمان الصحيح الذى لا ينحرف و لا يضل، و يجد سبيله إلى الهدى و التطبيق فى الحياة العملية و الروحية، و حتى يقضى على عوامل الشك، و الكفر، و الزيغ، و الإلحاد، و بهذا النور تتحقق تلك الشخصية السوية الإنسانية التى ميزها اللّه عز و جل، و جعل الملائكة تسجد لها، و قال: إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ [البقرة: ۳۰].

---

(۱) انظر: بلاغة القرآن (ص ۱۹۵) من الأمثال فى القرآن، د. محمود بن الشريف (ص ۸۸، ۸۹).

نور يهدى و لا يضل، يرفع و لا يضع، يحقق للإنسان الحائر فى دنيا القلق، و التوتر، و المتاعب الصحية النفسية، و العقلية، و الروحية، التى تأخذ بيده إلى مرفإ الأمن و الأمان اللذين امتن اللّه بهما على قريش فى سابق عهدها: الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: ۴].

إن ما يعانى منه العالم الآن هو الحرمان من الأمن و الأمان، و الخوف من التعرض للمحن التى تحمل فى طياتها الكوارث المخفية التى تلحق بالعالم، كوارث الحروب، و التلوث، و الجوع، و التصحر ... إلخ، لذا فإن الدول تتسابق و تتعاون، و بخاصة تلك الدول التى تقدمت علما و تطبيقا فى إجراء بحوثها و توجيه طاقاتها إلى بث الطمأنينة فى نفوس شعوبها، و تحقيق الطمأنينة النفسية بجانب الطمأنينة المادية من مأكل و مشرب و مسكن فى الحياة.

و لكن هل تنجح تلك الجهود فى تحقيق ما يريدون إلا على أشلاء شعوب أخرى ضعيفة عانت و تعانى من الظلم و الإرهاب.

المنهج: مقدمة:

ما ذا نقصد بالمنهج؟ أ هو ما تعارف عليه الناس فى اقتصاره على ما هو مألوف و موضوع لتلك المواد و المقررات الدراسية التى يضعها المربون و الأخصّائيون للمراحل المختلفة حسب السن؟ أ هو ما يركز عليه ذلك المنهج العلمى من إعطاء المعلومة، و الاهتمام بالتلقين، و الحفظ، و تخزين المعلومات؟

كل هذا ليس بالوارد فى موضوعنا، و إنما نقصد ذلك المنهج الذى يبنى الحياة بكل متطلباتها، و يبنى الإنسان بقيمه و بثقافاته العديدة، و يحقق رسالة العلم الحقيقة، و يبتعد عن تلك الأطر الضيقة التى تهتم بمرحلة من العمر ضيقة، و تنسى المراحل الأخرى من العمر، و هى جديرة بالعناية و الرعاية، حتى تكون مناهج مستوعبة، شاملة عامة، تخرج من حدود الزمان و المكان، و لا تهتم بجنس دون آخر.

إن هذا المنهج الذى نهدف إليه إنما يتحقق عن طريق رؤيتنا الواعية لمشكلات عصرنا، و إحاطتنا بكل احتياجات حياتنا، إن المنهج

الـذی نقصـد إلیه هو التربیـة الناجحـة التی تهتم بالعلم و أسالیبه من أجل تنمیـة الفکر و التفکیر، و تشـجیع المبادأة و الإبـداع، و إیجاد روح التنافس الشریف، و القدوة الصالحة فی المجتمع، و بناء الأمة علی أساس من

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۲

المستقبل القائم علی النقاء، و الطهارة، و الإیمان، و العمل، و العلم، و کل ما من شأنه تملک زمام النفس و الحیاة.

و إذا أردنـا أن نخطـط لبنـاء مجتمع أو أمـة، فلن یکون الأـمر إلاـ عن طریق بنـاء الفرد النواة التی یتکون منها ذلک المجتمع، و تکوین الوعی لـدی جمـاهیر الأمـة یسـتحیل بناؤه بمعزل عن الـدین، و الفهم العمیق له، و دوره فی التقـدم، فإذا کانت المجتمعات الغربیـة قد أفلست فی الماضـی عن أن تحقق نجاحا فی أن تتخـذ من الـدین وسـیلة إلی النهوض و التقـدم و الرقی، فـدفعها ذلک إلی تنحیته عن معارک الحیاة، و إبعاد من اتخذوه سلعة و تجارة، فإن الدین الإسلامی لیس علی هذا النحو، فهو الحیاة بکل ما فیها من متطلبات، تعنی بشـأن الفرد و الجماعـة، و الأخـذ بیـد الإنسـان کی یحیـا حیـاته التی خلقه اللّه من أجلهـا، فالـدین لیس حکرا علی أحـد، و لیس نزعة للتسـلط، و إنما هو أول مصدر من مصادر الوعی لدی الإنسان بحقیقة الحیاة الکونیة و الاجتماعیة، و المتمشی مع فطرته التی فطره اللّه علیها، یعدل من مساره و یتسامی بغرائزه، و لا یقف ضد حاجیات نفسه المادیة، و الروحیة، و السـلوکیة، و النفسیة، إلا بمقدار ما یوجه و یرشد.

لذا کانت لتعالیمه التی نزلت من أربعة عشـر قرنا من الزمن، سمة الصلاحیة و الاستمرار، لا یدخلها تغییر أو تبدیل، بخلاف ما نری من نظریـات تقوم العقول البشـریة بوضـعها لتنقـذ الإنسـان فی اعتقـادهم من براثن الحیـاة، و من شـر مـا یحیط به فی أجوائها تحت أسـماء الاشتراکیة أو الرأسـمالیة، إلی آخر ما یصنفون و یبدعون، ثم ما تلبث أن تتهاوی تلک النظریات بفعل التطبیق، و تظهر الأیام قصورها، و حاجاتها إلی التغییر و التبدیل لتوائم الحیاة بأحداثها و متطلباتها.

رسالـة الإسـلام تحقیق الهدایـة للبشـر فی اعتقـادهم، و توجیه حرکـة الحیاة للفرد و الجماعـة، عن طریق ما تثبته من قیم نبیلـة للأفراد و الجماعات.

۱- قـال اللّه تعالی: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْناهُ آیاتِنا فَانْسَـلَخَ مِنْها «۱» فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطانُ «۲» فَکانَ مِنَ الْغاوِینَ وَ لَوْ شِـئْنا لَرَفَعْناهُ بِها «۳» وَ لکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ «۴»

---

(۱) خرج من الآیات بأن کفر بها.

(۲) فاتبعه الشیطان: لحقه الشیطان بعد أن اخار هذا الانسلاخ.

(۳) لو أردنا أن نرفعه بتلک الآیات إلی درجة الکمال و العرفان التی تقرن العلم بالعمل.

(۴) أخلد إلی الأرض: مال إلی الدنیا و حطامها.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۳

وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَیْهِ «۱» یَلْهَثْ «۲» أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ ذلِکَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَـذَّبُوا بِآیاتِنا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ کانُوا یَظْلِمُونَ [الأعراف: ۱۷۵- ۱۷۷].

جاء هـذا المثل القرآنی بعـد آیات تعرضت لموقف الخلق من لـدن آدم، علیه السـلام، حیث أخـذ اللّه علیهم العهـد بعبادته وحـده، و الإیمـان بربوبیته، و إقرارهم علی ذلـک، و تنصـلهم ممـا یفعله المجرمون من غفلتهم عن هـذه الحقیقـة، و اتبـاعهم لغیرهم فی عبادات فاسـدة، و إقرارات أخری زینها لهم الشـیطان و من اتبعه، فضـلوا عن سواء السبیل، فصـلت الآیات ذلک حتی یکون الاهتداء إلی الحق طریق من یطلبه و یسعی إلیه، و یهدیه اللّه إلیه بالفهم الواعی، و العلم النافع، و القلب السلیم.

قال اللّه تعالی: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلی أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قالُوا بَلی شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ

الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف: ۱۷۲- ۱۷۴].

و إذا كان أول طريق إلى تحقيق هذه الهداية هو العلم و الانتفاع به فى مجال الإيمان بآيات اللّه المنزلة على رسوله صلى اللّه عليه و سلم و ما يساندها من آيات و دلائل كونية و نقلية، فإذا كان عالما بها، حافظا لقواعدها، عارفا بأصولها و أحكامها، عاملا بها، كان الإنسان مؤمنا حقا، أما إذا تباين عمله مع عمله، و لم ينظر فى تلك الآيات نظر اعتبار، فلا بد و أن يسلب هذه النعمة، و هذا المعنى يظهر فى تلك الآيات البينات التى تعرض المثل القرآنى، فقد صور المثل حال الذى أعطى العلم، و لم يعمل به، فسلبه اللّه تلك النعمة، فأشبه فى حالته تلك الحية التى تنسلخ من جلدها، و تتركه على الأرض.

صورة معجزة، واضحة الدلالة لهؤلاء المكذبين بالرسول مع ما أتى به من آيات واضحات و حجج قاطعة، الذين يشبهون حال ذلك العالم الذى حرم ثمرة علمه، فكل منهما لم يستفد شيئا و لم ينظر نظر اعتبار، فخرج من الآيات، و كفر بها، و مال إلى الدنيا و حطامها، و ما فيها من شهوات، و تمتع بلذائذها، و قد كان فى إمكان ذلك العالم أن

---

(۱) إن تحمل عليه: تزجره و تطرده.

(۲) يلهث: يخرج لسانه من النفس الشديد عطشا أو تعبا.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۵۴

يكون فى راحة بال و طمأنينة نفس بما آتاه اللّه من علم، و لكن هكذا الدنيا، فكلما زاد الإنسان غنى ازداد رغبة و طمعا، فهو كمن يشرب من ماء البحر ليروى عطشه، و لكن هيهات، و كذلك العالم الذى لا يستهدى بعلمه، و لا يتخذ منه طريق دلالة يظلم نفسه، فلا هو استراح بالمعرفة و العلم، و لا استراح الجاهل بجهله.

و لذلك يأمر اللّه سبحانه و تعالى رسوله أن يحذر من يعلمون شيئا أن ينتهوا إلى تلك النهاية البائسة، و أن يصيروا إلى هذا اللهاث الذى لا ينقطع أبدا، و أن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذى لا يظلمه لعدوه، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم، فالعلم بكل صوره و أشكاله يحقق الهدف من المعرفة و الإيمان، و يبحث فى الوجود و الطبيعة، و فى كل ما ينفع الناس دنيا و أخرى، و هو قوة و زاد لا يدخل عقل إنسان، إلا و ينتقل إلى نفسه و أسلوب حياته، و معيشته، و طريقة تعامله فى مجتمعه مع تباين الناس فى علمهم، هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [الزمر: ۹]، و أمر اللّه سبحانه و تعالى رسوله، عليه السلام، أن يدعو قائلا: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه: ۱۱۴].

فإذا نظر الإنسان إلى الكون و ما فيه بالتأمل، و حاول أن يفهم السنن التى جرت و تجرى فى تسخيره، لاهتدى إلى مفتاح الكون لإدارته بقدرة اللّه، و هذا يزيده قربى من اللّه، و قد كان ذلك أول خطوة خطاها أبو الأنبياء، عليه السلام، كما ذكرت ذلك الآيات القرآنية: وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [الأنعام: ۷۵].

و بهذا الأسلوب استطاع الإنسان الهداية إلى خالقه الأعظم، و تحرر من أسر العادات الباطلة، و الخرافات الجاهلة، و الخضوع للآخرين، و قد أثبتت التجارب أن العلماء بأبحاثهم و اكتشافاتهم هم أقرب الناس إلى الإيمان الصحيح القائم على الأدلة و البراهين، إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ [فاطر: ۲۸].

۲- قال اللّه تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ [التحريم: ۱۰- ۱۲].

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۵۵

سبقت هذه الآیات بأمر للرسول، علیه الصلاة و السلام، بمجاهدة تلک العناصر المناهضة للدعوة، و التی تمثلت فی عنصری الکافرین و المنافقین، و هذه المجاهدة هی لون من ألوان العلاج لهؤلاء و أمثالهم فی کل عصر و حین، تختلف فی أشکالها و أنواعها، فلا بد و أن الجزاء من جنس العمل، و الدواء مما یتناسب مع المرض مرارة و شدة، فقد أمر الرسول بمجاهدة فی طیاتها غلظة و شدة لا تعرف الرحمة و الشفقة، فهم نماذج سیئة للإنسان الذی ضل سواء السبیل، و لم یتبع الهدی، لذلک کان مأواهم جهنم و بئس المصیر.

ثم جاءت الأمثال أیضا بنماذج من الأعمال الطالحة، و الأعمال الصالحة من أقوام سابقین تحمل فی ثنایاها العظة و الاعتبار، نماذج من جنس النساء تمثل نزعتین من النزعات اختلفتا هدایة، و ضلالا، و مسلکا، و عاقبة، و طباعا، و أخلاقا، و تحملت کل نفس وزر عملها، فلم تنفعها صلة قربی، أو وشیجة نسب، کما لم تضرها سیئة لیست من کسب یدها.

هذا هو الصرح الثانی فی هذا المنهج القرآنی بعد العلم، و استخدام العقل و التدبر، و هو إبراز ذاتیة الإنسان، و حریته فی العمل، و تحمله للمسئولیة فی نشاطاته المختلفة فی الحیاة، و العمل من أجل الکرامة و العقیدة.

امرأة نوح، و امرأة لوط، انفصمتا عن زوجیهما الصالحین بأعمالهما الفاسدة، فکانتا من الکافرین، و لم تنفعهما صلة الزوج، و لم تنقذهما من عذاب اللّه؛ لأنهما تآمرتا علی زوجیهما، و أفشیا سرهما إلی قومهما، فکانا عونا للکافرین، و مشارکین للباطل فی وقفته ضد الحق و أهله.

هذه القرابة الأسریة مرفوضة؛ لأنها قامت علی غیر هدی و طاعة، و قد وقف نوح، علیه السلام، هذا الموقف من ابنه، و هو یوشک علی الغرق حینما أراد الاعتصام بالجبل لیحمیه من الطوفان و الغرق، و کان من جملة الکافرین، فقال: إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحاکِمِینَ قالَ یا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِینَ [هود: ۴۵، ۴۶]، صدق اللّه العظیم.

فالقرابة هی الطاعة و الدین، و لا قرابة لعاص، و لا لخارج عن أوامر اللّه.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۶

ثم ذکرت الآیة ذلک المثل الرائع لوقفة الحق ضد هجمة الباطل، و ما له من أعوان من العتاد، و الفکر، لامرأة فرعون، و مریم ابنة عمران فی الطاعة للّه، و الإیمان برسله، و الصلاحیة من الأمر، و الثبات فی المواجهة الظالمة التی تتعرض لهما و لسمعتهما.

من خلال النموذجین نری تربیة القرآن الکریم للمؤمن الذی یتحمل نتیجة أعماله أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُری ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی [النجم: ۳۸- ۴۱].

و علی المؤمن أن یندمج فی مجتمعه، و یفهم حیاته و ما تستوجبه من عمل لغده، و تحریر لإرادته و نفسه من عوامل المهانة و الذل، و من کل الموبقات التی تؤدی به إلی المهالک، فقد رأینا خائن العقیدة لا تنفعه قرابة، و لا تغنی عنه صلة نسب، و لو کان برسول اللّه: فَلا أَنْسابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ وَ لا یَتَساءَلُونَ [المؤمنون: ۱۰۱].

و هذه النماذج الناطقة المصورة التی ضربت و تضرب، حتی فی مستقبل الأیام، للکافرین و المؤمنین تقدم أیضا الدرس لزوجات الرسول، علیه الصلاة و السلام، و للنساء فی کل جیل، لتتحمل کل واحدة تبعة أعمالها، و مسئولیة ما یقع منهن.

بل إن القرآن أوضح فی مجالات لا تحتمل اللبس أن هذه القربی لها تبعاتها العظمی فی مضاعفة الأجر إذا کان العمل صالحا، و مضاعفة العذاب إذا کان الأمر سیئا: یا نِساءَ النَّبِیِّ مَنْ یَأْتِ مِنْکُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ یُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَیْنِ وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً وَ مَنْ یَقْنُتْ مِنْکُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَیْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً کَرِیماً [الأحزاب: ۳۰، ۳۱]، صدق اللّه العظیم.

۳- قال اللّه تعالی: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً [الفتح: ۲۹].

تقدمت آیة قرآنیة ذلک المثل تفید تفضل اللّه علی عباده بإرسال رسول إلیهم، یحمل الهدایة و النور إلی الناس، برسالة هی الرسالة الخاتمة لکل ما سبقها من رسالات تحمل توصیاتها و شرائعها، و تشمل کل ما تفرق علی أیدی الأنبیاء و الرسل، و ذلک لتکون

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۷

مشعلا علی طریق الحیاة، و تبصرة بالمواقف الجادة التی تنتصر علی کل فکرة سابقة لا تحمل ضوءها و نورها من اللّه جل فی علاه، و یکفی أن اللّه شهید علی ذلک: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً [الفتح: ۲۸].

هذه مکرمة خص اللّه بها رسوله، و الذی تتضح صورته، و صورة صحبه و من آزره و نصره فی دعوته، و إعلاء کلمة اللّه فی المثل الذی نعرضه فی الآیة.

فاللّه یضرب المثل بأولئک الذین خلصت نیاتهم، و أخلصوا أعمالهم لوجه اللّه، و فی سبیل دعوته بمحمد صلی اللّه علیه و سلم و صحابته الذین آزروه، و نصروه، و اتبعوا النور الذی أنزل معه، فکانوا من المفلحین الذین یتراحمون فیما بینهم، و یتآخون برباط الإسلام، و یکثرون من العبادة و الطاعة للّه، و لا یقصدون من أدائها إلا ابتغاء وجه اللّه و رضوانه، قد صفت و خلصت من الغرض، و هم یهبون أنفسهم للدفاع عن الدین و العقیدة، و الاستشهاد فی سبیل اللّه، و هم أشداء علی الکفار أعداء اللّه.

ظهرت آثار أعمالهم الصالحة علی صفحات وجوههم، و هکذا المؤمن إذا کانت سریرته صحیحة مع اللّه، أصلح اللّه ظاهره للناس.

قلة قلیلة بدأت بمحمد صلی اللّه علیه و سلم، ثم قویت و استحکمت، و ترقی أمرها یوما بعد یوم، فکانت کما قال صاحب الکشاف: کما یقوی الطاقة الأولی ما یحتف بها مما یتولد منها.

و ظاهر المثل: أن الزرع هو محمد صلی اللّه علیه و سلم، و الشطء: أصحابه. قیادة حکیمة اختارها اللّه من بین خلقه لتؤدی أمانة الوحی بالقدوة الطیبة و الموعظة الحسنة، و تحمل الرسول الکریم الکثیر من ألوان الإیذاء، و العنت فی سبیل تبلیغ دعوة الحق، و محاربة الباطل، و کان حریصا علی هدایة القوم، یتعرض لهم فی کل مکان، و یسلک لذلک کل طریق، حتی نزل قول اللّه سبحانه و تعالی: ما عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ [المائدة: ۹۹].

القائد و الجند تجمعهما رابطة العقیدة، و بینهما مدد مشترک یبعث فیهما القوة و النماء و الروح، مدد روحی من القرآن الکریم، و من نور اللّه یستمد الضوء، فیکون الزرع الذی استغلظ و استوی علی سوقه، و یکون الشطء الذی آزره، و کان عونا له فی سیر الحیاة.

مثل للمؤازرة الحمیمة، و المساندة التی لا یمکن أن تنفصم إلا بفعل اللّه سبحانه

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۸

و تعالی. هذه الصورة ذکرت فی الکتب السماویة القدیمة، التوراة، و الإنجیل، و أبرزت صفات محمد و صحبه فی جهاد الدعوة بتلک الصورة المشرقة التی تدعو إلی الاقتداء بجلیل الأعمال، و الإخلاص فی الدعوة و تحمل تبعاتها، استجابة لأمر اللّه و إتماما لنوره، حتی یصل إلی کل قلب واع، و روح متفتح إلی الإیمان باللّه، و التنزه عن دنس الشرک، و وسوسة الشیطان، و اتباع الهوی.

و من الملاحظ أن تلک الصفات التی وصف بها محمد و صحبه إنما تناولت تلک القیم النفسیة، من قوة فی الحق، و تراحم بین الناس، و مؤاخاة، و إخلاص طاعة، و کلها صفات و قیم تغطی علی تلک القیم التی تواضع الناس علیها فی وقتنا الحاضر من تفاخر بالمال و کثرته، و طغیان بالمرکز و الجاه، و تعالی علی الآخرین باللون و الحسب و النسب، قیم باطلة زائفة لا تصمد علی الأیام، و هی ما تلبث أن تذروها الریاح و لا یبقی منها شیء.

و لکن هل استطاعت هذه الصورة أن تصل إلی تلک القلوب الغلف فتهدیها إلی سواء السبیل؟ هل وجدت الأرض ممهدة؟ هل أرست دعوتها فی بناء هذه الأمة دون مکابدة و عناء؟.

۴- قال اللّه تعالی: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْیَةً کانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً یَأْتِیها رِزْقُها رَغَداً مِنْ کُلِّ مَکانٍ فَکَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما کانُوا یَصْنَعُونَ [النحل: ۱۱۲].

سبق هذا المثل بآیة قرآنیة تلفت النظر إلی ذلک الیوم الذی یجب أن یعمل حسابه کلّ مخلوق، و أن یزن أعماله قبل أن توزن علیه، و یحاسب نفسه قبل أن یحاسب فیه، و هو یوم القیامة الذی تقف فیه الأنفس و الخلائق خاشعة بین یدی ربها ذلیلة، تحاول أن تبرئ ساحتها مما لحق بها من سیئات، و أن تنفض عنها غبار الذنوب و الآثام، و تحاول أن تظهر حسن نیاتها بما عملت فی دنیاها، و اللّه علیم بکل نفس، وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً [الکهف: ۴۹]، فهو یعطی لکل ذی حق حقه: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ [الزلزلة: ۷، ۸].

هذا هو الیوم، و هو موقف تتعری فیه النفس الإنسانیة، و تظهر علی حقیقتها، قال اللّه تعالی: یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّی کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ [النحل: ۱۱۱].

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۵۹

ثم جاء المثل عقب ذلک لیسوق ما یحمله من حقیقة تلک القریة و قاطنیها، المنعمین بخیراتها، الرافلین فی حلل الأمن و الطمأنینة النفسیة و المادیة، ثم تتبدل بهم الأحوال بفعل أنفسهم، و تغیر أخلاقهم، فیکفرون بنعم اللّه، فیذیقهم اللّه لباس الجوع و الخوف بما کانوا یصنعون.

و المثل یضرب لکل قوم أنعم اللّه علیهم فأبطرتهم النعمة، و کفروا و تولوا، فأنزل اللّه نقمته بهم، و هؤلاء القوم قد یراد بهم أهل مکة التی کانت آمنة مطمئنة، مستقرة، یأتیها رزقها رغدا من کل مکان، و یتخطف الناس من حولها، و هی آمنة، ثم کفرت بأنعم اللّه علیها، و جحدت فضله، فلم تشکر اللّه علی ما أعطاها من نعم، و خصها به من منح، و لیست هناک منحة أعظم، و لا نعمة أوفی من بعثة محمد صلی اللّه علیه و سلم، و لکنها استقبلتها بالجحود و النکران، فکانت نقمة اللّه علیها شدیدة، إذ بدل حالها، فألبسها اللّه لباس الجوع و الخوف بعصیان أهلها لأمر اللّه و کفرانهم، فدعا علیهم رسول اللّه بسنین کسنی یوسف، علیه السلام، فأصابتهم سنة أذهبت کل شیء، و سیطر علیهم الخوف بما حققه رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم من انتصارات فی غزواته المختلفة، حتی تم فتح مکة، و ذلک بسبب تکذیبهم لرسول اللّه الذی بعثه اللّه من بین أظهرهم داعیا، و مبشرا، و نذیرا، و عاد عاقبة الظلم علی أهله.

و إذا کانت هذه صورة قائمة لذلک المجتمع المکی الذی ساند بعضه بعضا علی الباطل، و وقف ضد نور اللّه یحاول أن یطفئه، فکانت ید اللّه الغالبة، و جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل کان زهوقا، و تکسرت الأصنام، و حطمت تلک المعبودات یوم فتح مکة، کما تحطمت معها أنصارها و أعوانها من مفسدین و ظالمین بما کانوا یصنعون.

فهی أیضا صورة لکل من سار علی درب الضلال فی کل حین، ضلال الفکر و الاعتقاد، و ضلال العمل، و الفسوق، و العصیان، و المصیر هو المصیر، فالقانون الإلهی یجری علی الناس جمیعا لا یتخلف، فما دام هناک کفر و عصیان و ابتعاد عن الحق و أهله، کانت هناک نقمات من اللّه من جوع یؤدی إلی نقص فی الأموال، و الأنفس، و الثمرات، و الإمکانات المادیة، و خوف یسیطر علی الأفئدة، فتحرم نعمة الأمن و الأمان فی الحیاة، و تتبدد القوی المادیة و المعنویة التی هی عماد الحیاة الحقیقیة، و ذلک کله جزاء تلک الأعمال السیئة التی اقترفتها الأیدی، و النوایا الخبیثة التی أضمرتها القلوب.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۶۰

۵- قال اللّه تعالی: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً کِلْتَا الْجَنَّتَیْنِ آتَتْ أُکُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً وَ کانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هذِهِ أَبَداً وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَ کَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلًا لکِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّی وَ لا أُشْرِکُ بِرَبِّی أَحَداً وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مالًا وَ وَلَداً فَعَسی رَبِّی أَنْ یُؤْتِیَنِ خَیْراً مِنْ جَنَّتِکَ وَ یُرْسِلَ عَلَیْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِیداً زَلَقاً أَوْ یُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِیعَ لَهُ طَلَباً وَ أُحِیطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ یُقَلِّبُ کَفَّیْهِ عَلی ما أَنْفَقَ فِیها وَ هِیَ خاوِیَةٌ

عَلى عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً [۲ لكهف: ۳۲– ۴۳].

تعرض الآيات السابقة لهذا المثل لحال من ذاق حلاوة الإيمان، و عرف الطريق إلى اللّه، و لم ينضم لحظيرة الكافرين و المنافقين، بل كان منه العمل الصالح، و المسارعة إلى الخيرات، و الجهاد فى سبيل اللّه، فحفظ اللّه له أعماله فيما كتبه له من ثواب عميم، و أجر عظيم، فى جنات عرضها السموات و الأرض أعدت للمتقين، و أسبغ عليهم من نعيمه و خيراته ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، ذلك كله فى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً [الكهف: ۳۰، ۳۱].

أما ما سيق فى هذا المثل القرآنى، فهو الجدير بإعمال النظر و الفكر، فعن طريق الموازنة يعرف العاقل طريقه، و فى أى الفريقين يتمنى أن يكون، و مع من يعمل فى دنياه، و بأى سلاح يتسلح لمواجهة أخراه، ذلكم ما نراه فى هذه الرؤية العاقلة، و الحوار البناء.

بصيص من نور فى قلب و فكر يعرف طريق الحق، فينصح و يبذل الخير لغيره حتى يهتدى.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۶۱

يضرب اللّه هذا المثل لأولئك المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء و المساكين من المسلمين، الذين آمنوا باللّه و رسوله، أخذ هؤلاء الكفار يفتخرون عليهم بما عندهم من كثرة مال، و ضياع، و تجارة، و أحساب، و أنساب، يصور هذا كله فى صورة رجلين، أحدهما له جنتان مثمرتان، و قد حوتا ألوان الثمار، و زخرتا بكل ألوان الجمال البادى فى المياه الجارية، و الزروع، و النخيل، و الأعناب، مما كان دافعا بصاحبها إلى الغرور، و التباهى على الآخر بكثرة ما لديه، و أنه لن يفنى أبدا، و أن حظه فى الآخرة، إن كانت هناك آخرة، سيكون أوفر ثراء، و أكثر رزقا، ظلم نفسه بهذا التفكير الأخرق، و بكفره، و ضعف يقينه باللّه، و إعجابه بالحياة الدنيا، و نسيانه للآخرة، و بذلك عرضها للعقاب يوم القيامة.

صورة مؤلمة لمن يخدع بالمظاهر البراقة التى قد تخدع، و تغرى بما لا يحمل فى طياته من القيم الرفيعة التى يعتز بها الإنسان، يخدع بمتاع زائل، و جاه عريض، و سلطان مزيف، و لذائذ رخيصة، و ينسى تلك القيم التى تعلى من شأن الإنسان، و إن كان فقيرا مجردا من المال و السلطان، من جهاد النفس، و الزهد فى الحياة، و العلم، و العمل، و البذل فى سبيل الدعوة.

عرف الرجل الظالم لنفسه هذه الحقائق بعد أن اتضحت الصورة أمام عينيه، و تكشفت الحقائق، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها و هى خاوية على عروشها، و يقول: يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً [الكهف: ۴۲].

أما النموذج الآخر، فقد استطاع أن يسبر أغوار الحقيقة، و أن يفهم بتوفيق اللّه إياه جوهر الأمور، و أن المظاهر خادعة، و أن وراء المظاهر منشئها و خالقها الأول، الجدير بالعبادة و الطاعة، و أن هذه النعم هى: فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ [المائدة: ۵۴]، و لا يحرم على النفس إلا ما كان ضارا بها، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ [الأعراف: ۳۲].

أحلّ الطيبات، و حرّم الخبائث، ليست هذه الطيبات غاية فى ذاتها، و لكنها سبيل إلى غاية أجل و أعظم من تقوية للبدن، و الجسم، فقوى الإيمان لا ينظر للمال و الحطام إلا نظره للأمور المتنقلة، و الأعراض الزائلة المتحولة، فلو منحها شكر، و لو حرمها صبر،

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۶۲

و هو فى كل ذلك عزيز النفس، بعيد عن الدنايا و ارتكاب الخطايا «۱».

و هكذا تكاملت أمامنا فيما عرضناه صورة المجتمع الرافض للخير، و ما كان له من عاقبة سيئة، ثم ظهور تلك النبتة الخضراء التى تحمل فى ثناياها الإيمان و الفكر المستنير، فتأخذ بيد الحائر فى متاهات الحياة، و الفكر، و العقل.

و يبدأ يتكون ذلك المجتمع المتكامل المؤمن، الذى يشق طريقه إلى تحقيق حرية الحياة، و العقيدة، و الفكر، و يبذل فى سبيل ذلك كل مرتخص و غال من دم و مال، و هذا طريق البناء الصحيح فى تحمل أعباء الحياة، كما يبدو فى الآيات التالية.

۶- قال اللّه تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة: ۲۱۴].

سبقت ذلك آيات بينات مهدت و فرشت لما يأتى به المثل القرآنى، فقد تعرضت إلى حكمة اللّه جل و علا، التى اقتضت أن تكون هناك مجموعة من الخلائق خلقها اللّه فى أحسن تقويم؛ لتقوم بدورها العبادى عن طريق ما وهبت من تفكير و عقل، و ما حباها اللّه به من مبعث أنبياء مبشرين لهم بالجنة، و حسن المآب، إذا صلحت منهم الأعمال، و مخوفين لهم من عذاب اللّه إذا أساءوا السلوك، و انحرفوا عن النهج، و لم يكتف بإرسال الرسل، بل أرسل مع هؤلاء الأنبياء كتبا تبين حقيقة العبادة، و جوهر الدين، و ما يجب أن يكون عليه الحكم بين الناس فى القضاء و المعاملات و العبادات ... إلخ من ألوان الفرائض التى فرضت و شرعت على يدى إبراهيم، و موسى، و عيسى ... إلخ، هذه المواكب من الرسل و الأنبياء الذين اصطفاهم اللّه من بين خلقه.

و لكن بعض النفوس التى جبلت على الكفر و العناد، أبت إلا أن تذهب فى فهمها لهذه الكتب مذهب المصلحة الخاصة، و البعد عن روح الدين، و التأويل للمقروء منها، حتى خرجوا بها عن صفائها و نقائها إلى غير المقصود منها، و قد جر هذا الاختلاف الكثير من المتاعب للرسل و الأنبياء، و البعد بالرسالات إلى غير ما وجهت إليه، و قد هدى اللّه القلة القليلة التى أحسنت الفهم، و لم تخرج عن المنهج الذى وضع من قبل اللّه فى كتبه و رسالاته، و استطاعت أن تواصل حمل مشاعل الهداية على طريق اللّه و صراطه المستقيم.

---

(۱) من كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية و النبوية.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۶۳

قال اللّه تعالى فى هذه الآيات: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ ما اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [البقرة: ۲۱۳].

و يلى هذا مقارنة فى المثل القرآنى بين حالين، و عرض لنموذجين، تظهر من خلالهما تلك الدعوة النبيلة من اللّه عز و جل للمؤمن أن يكون أهلا لتحمل أعباء الحياة، و ما تستلزمه من جهاد و مشقات فى سبيل الوصول إلى الغاية و الفوز.

فالابتلاءات و الاختبارات هى المحك الطبيعى لإفراز النفس المؤمنة الجديرة بالانتماء للإسلام، لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [آل عمران: ۱۸۶].

يصدق هذا على السابقين فى عهد الرسول صلى اللّه عليه و سلم و صحابته، و على اللاحقين الذين أتوا بعده، و على كل جيل يأتى، فليس الانتماء بالاسم موجبا لاستحقاق الرحمة يوم القيامة و دخول الجنة، بل طريق ذلك تحمل الإيذاء فى سبيل اللّه، و فى طريق الحق و هداية الخلق: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: ۱۴۲].

هذه سنة اللّه الجارية فى خلقه، لا تتغير و لا تتبدل، وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [الأحزاب: ۶۲]، و قد جرت سنة اللّه على أن الإيمان الحقيقى لمن اعتبر و اتعظ بما حدث للسابقين الذين نزلت بهم الشدائد، و أحاطت بهم قوى الأعداء، و لم يروا بادرة من بوادر الفوز تلوح لهم، و اعتقدوا أن وقت العناية الإلهية و النصر الذى وعدهم اللّه به قد حان، أو أبطأ حدوثه، فاستعجلوه بقولهم: مَتى نَصْرُ اللَّهِ [البقرة: ۲۱۴].

منهج تعرضه الآيات، جدير بالاعتبار و التقدير، و هو طريق إلى التربية الصحيحة للأفراد و المجتمعات و الشعوب، إذا أرادت أن يكتب لها نجاح فى هذه الحياة، ففى تجارب الآخرين و أحداثهم، و بخاصة المتماثلون فى النهج و الطريق و المشكلات، سبيل إلى التعلم و الاستفادة، و لا خير فى شعوب و أمم و أفراد، أصمت آذانها عن سماع القول و الحق، و عميت عن رؤية الأحداث، و إن تحقيق أى

فوز فی الحیاة مرهون بالتدبیر،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۶۴

و الأخذ بالأسباب، بعد الاعتماد علی اللّه سبحانه و تعالی خالق الأسباب و المسببات، فلا یأتی عشوائیا، و لا عن طریق الصدفة کما یدعی المادیون و القائلون بهذه المقولات الفاسدة التی لا تدل علی إیمان، و یأخذون بظاهر الأمور.

فالفوز بالآخرة مرتبط بالعمل، و الصبر علی صنوف الآلام و المتاعب و الإیذاء، و أما التمنی و التغنی بالشعارات دون أن یصحب ذلک جهاد و مشقة، فبضاعة خاسرة لا تجد لها وزنا و تقدیرا یوم توزن الأعمال، و تجد کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَها وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً [آل عمران: ۳۰].

و أسمی ما یقدمه المؤمن من عمل فی دنیاه تلک الروح التی تحررت من الخوف، و الذل، و الحرص علی الحیاة، و الاسترخاء إلی الدعة و طیب العیش، کما یتحمل المسئولیات فی الأعمال المنوطة به.

و من الأشیاء التی توجه الآیات الأنظار و العقول إلیها، أن آصرة العقیدة هی التی تربط المجتمع المسلم برباط التحابّ، و الأخوة، و الأخذ بتعالیم الإسلام و آدابه القائمة علی التکالیف التی فرضها الإسلام، کما أن العلم الذی یکوّن النفوس المسلمة، و یصنع الحیاة، هو القائم علی النظر و الاستدلال، و یربط بین العقل و القلب و العمل.

و الدارس لمشکلات الشعب، و الحیاة الحاضرة، و ما یجدّ من أزمات تأخذ بخناقنا، و بشبابنا و أولادنا و زوجاتنا، و مقارنة ذلک بما عرضناه من صور نابضة بالحیاة، و مجاهدة النفس، و الجهاد فی سبیل اللّه، و العمل علی إیقاد جذوة الحیاة بما فیها من قیم و مثل رفیعة، یری من خلال هذه الموازنة و المقارنة أن أسباب ما نکابد و ما نجد فی حیاتنا من أزمات و مشکلات یرجع فی أساسه إلی تلک المصادر التی تولت تغذیة عقولنا و أرواحنا بلبانها، و أرضعتنا بثقافتها، و أمدتنا بنماذجها البشریة؛ لتکون قدوة لنا فی الحیاة، و العمل، و السلوک، و الخلق.

إن هؤلاء الذین یعانون من تلک المآسی إنما یتلقون زادهم الفکری و قیمهم المثلی من مصادر تشبع فیهم النهم، و تروی الظمأ الذی یستبد بنفوسهم و أرواحهم، مصادر لا یستطیع أی إنسان أن ینکر تأثیرها و إسهامها فی صنع قیم الإنسان، و تنمیة عقله، و تغییر سلوکه، و بخاصة بعد تلک النقلة الجبارة فی العلم، و التقدم الحدیث فی الاتصالات التی قربت بین الشعوب علی اختلاف لغاتها و مذاهبها، و ما تمارسه من عادات و أخلاق.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۶۵

فإذا نظرنا إلی الإذاعة المرئیة و استمعنا إلی المسموعة منها، وجدنا أنها تتجه فی الکثیر من برامجها إلی إرضاء الجوانب الشهوانیة التی تسیطر علی اتجاهات الشباب، و تغذی عقله بتلک الآراء الفجة المسمومة التی تؤلف خصیصا لهذه الفئات، کی تفسد من تفکیرها، و تغرس فیها قیما بعیدة کل البعد عن معتقداتها، و ما مشکلات الأحداث، و کثرة حوادث اغتصاب الفتیات، و مسلسل قتل الأزواج، إلا ولادة طبیعیة لما یجری أمام الأبصار فی برامج مهزوزة، فلا یجد من أصاب العطن عقله بالعقم، و شلت یده عن العمل نتیجة البطالة و الکساد، و سقمت البرامج التعلیمیة عن تقدیم ما یتناسب مع إدراکه و حاجیاته الحقیقیة فی الحیاة، فلا یملک إزاء هذا إلا أن یقلد ما یری و یسمع فی لیله و نهاره، و قد یدفعه ذلک أیضا إلی تلمس الغیبوبة عن الحیاة التی یحیاها، و لا یشعر بجدواها فیما یتناوله من مخدر، و أقراص تنسیه آلامه و قلقه و حیرته فی الحیاة.

إنها مسئولیتنا جمیعا، و لا نملک أن نحول بین هذا الشاب و نظائره ممن یتفقون معه أو یختلفون سلوکا و منهجا، و یقعون فریسة التقلید فی المظهر، و المشرب، و المأکل، و لا نملک أن نحول بین سمعه و بصره و رؤیة الأشیاء المبثوثة فی جهاز التلیفزیون، و شرائط الفیدیو، و الإذاعات الأجنبیة، و بخاصة تلک الإذاعات التی تعمل عملها علی تقویض دعائم الأمة الإسلامیة بتقویض شبابها، و بث روح الانحلال فی أخلاق رجالها و نسائها، و إذا لم یکن قد کتب لها النجاح فی حروبها المستمرة، فإنها تملک و لا شک

الوسائل الکفیلة بتحقیق انتصارات أخری أقوی تأثیرا، و أشد تفتیتا لعضد هذه الأمة و معقل قواها بالتأثیر فی أرواحها، و تغییر سلوکها و اتجاهاتها فی الحیاة.

لقد أتاح التقدم العلمی لکل إنسان أن یشاهد و أن یسمع ما یقع فی الحیاة بلغته و بغیر لغته، ما یثیر فیه الانتباه، و یغرس فیه القیم، و یشحذ منه الفکر، و یؤدی به إلی الانطلاق، و لکن ما الضمانات التی تکفل لنا نجاح هذه الأدوات فیما ترسله، و ما تذیعه من برامج و معلومات؟ لا- سبیل إلی إنکار ما تقدمه من نجاحات علمیة تفید الحیاة، و الدارس، و تربط بین عقول العلماء و الشعوب برباط المصلحة و النفع، و هو هدف نبیل لا ینکره إلا مکابر.

و لکن علینا أن نحسن استقبال ما یرسل إلینا عبر هذه الأقمار الصناعیة، و الإذاعات المسموعة، کما أحسنوا إرسالها، و ذلک بحسن التطبیق و الفهم المشترک بین العلماء الذی یخدم الحیاة، و سرعة الاستجابة للمتغیرات التی تنشأ عن ذلک، و محاولة إشراک الشباب

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۶۶

و الأجیال فی هذه الطفرات العلمیة بوضعها فی البرامج التعلیمیة، و تدریب أبنائنا علی حسن استخدامها لتیسیر سبیل الحیاة.

أما الجانب الآخر، فهو ما یتعلق بالعادات و التقالید و القیم التی تتصل بما لنا من أصالة، و ترتبط بما نتلقی من تعالیم سماویة خصنا اللّه بها، و جعل لنا کتابا فیه هدایة لنا و تبصرة بشئوننا، فهذا ما یجب أن یغرس فی النفوس؛ لتکون وقایة لنا و لأولادنا ضد هذه التیارات الوافدة إلینا و لا نملک لها منعا، کما لا نملک لأنفسنا و لا لشبابنا حجزا و حرمانا.

و بجانب تلک الوسائل المسموعة و المرئیة، تقف وسیلة أخری أسبق فی التأثیر و الوجود، و هی: الصحافة، فما کانت تلک الصحف التی تلقاها إبراهیم، و موسی، و عیسی، من قبل اللّه سبحانه و تعالی، إلا تربیة للأمم و الشعوب و الأفراد، بما تحمله من تعالیم السماء، و وصایا تعلی من شأن القیم، و ترفع من درجة الأعمال الصالحة إلی أن تکون المعیار الحقیقی الذی یمیز بین إنسان و إنسان.

هذه الوسیلة مع تطور الأیام و ظهور الطباعة و المطبعة، لعبت دورها البارز فی إثارة الأذهان، و تعمیق الفکر، و استطاعت بما ینشر فیها علی أیدی محرریها أن یشکلوا من طاقات الإنسان، و أن یوجهوا السلوک إلی اتجاه معین حکمته ظروف الحیاة القدیمة بما لها من تقالید، و دفعت إلیه من سیاسات، کانت طریق هدایة، و رسول بناء، و نداء حریة، و تحریر مستضعفین، أدت رسالتها؛ لأنها أحست بواجبها نحو نفسها، و شعبها، و حاجیات أمتها.

أما إذا أسیء استغلالها، کما یحدث فی تلک الصحافة الرخیصة، فإنها و لا شک تصبح معول هدم یفسد علی الإنسان دینه، و خلقه، و قیمه، بما تبثه من فکر رخیص، و قصص منحل، و أحداث تقع فی الشرق و الغرب تغری بالتتبع و التقلید، و بخاصة ممن یخدعون بالتقلید فی المظاهر البراقة، و أشکال المجون و الترف، و أخطار هذا لا تقع تحت حصر فی حیاتنا الیومیة.

و الشارع بما فیه و من فیه من مجریات، و أحداث، و أناس، و ما یقع من صراعات و تدافعات، یلقی علی أذن الطفل الکثیر من الکلمات، و یعرض علی عینیه الکثیر من المشاهد، و یوحی إلیه بأمور تغایر طبعه، و یثبت فی أعماقه الکثیر من المظاهر التی تعج

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۶۷

بها الحیاة، و فیها ما فیها من المفسدات، من تهالک علی المتع و اللذائذ، و ما ینتشر فی بیئات کثیرة من مخدرات تفعل فعلها فی إفساد الأسر و الشباب، و ما تعوّدهم من عادات الإدمان التی لا یفلح معها علاج، و لا ینفع فی کبح شرورها قانون، أو استشفاء.

و لذا نجد فی أحداث هذه الأیام، أن کثیرا من الأحداث الصغار السن قد قبض علیهم جهاز الشرطة فی تلک المواطن التی تنتشر فیها هذه المخدرات، یقدمون للمدمنین المخدرات، و یعلمون تحت أیدی عصابات توجههم هذا التوجیه الشائن الذی یفسد علیهم أنفسهم، و حیاتهم، و أسرهم.

هذه أبرز المصادر الفعالة التی تؤثر فی صنع هذا الشباب، و ما تؤدی إلیه من سوء استخدام یعمل علی زیادة هذه المشکلات التی یعانی منها المجتمع، و یعانی منها الشباب.

و قد ساعد على ذلك ظروف أخرى اقتصادية قاسية مرت بهذا المجتمع عقب تلك الحروب العديدة التى خاضها الشعب، و الشباب، و المجتمع، ضد أعداء الحياة، فكانت هذه المآسى و هذه المشكلات، و كلها من خارج النفس، و من صنع أيدينا؛ لذا كانت العثرات و السقطات، و البعد عن الصواب.

و بعد: أئمة ترابط بين الأمثال القرآنية؟ أ توجد بينها وحدة فى الأهداف، و الاتجاهات، و المعالجة؟ هذه تساؤلات تجيب عنها تلك الدراسة المطولة التى سبقت، فهى على اختلاف صيغها و مضمونها و مواقعها، تهدف إلى استكناه حقيقة الإنسان، و وظيفته فى الحياة، و الحكمة من وجوده، و تبيان خصائصه التى يستحق بموجبها عمارة الكون، و خلافة اللّه فى الأرض.

لقد سخرت مظاهر الكون بأرضه، و سمائه، و جباله، و أنهاره، و دوابه، و مخلوقاته، من أجل هذا الإنسان الذى ميزه اللّه بالعقل، و كرمه بإرسال الرسل، و فضله على بقية مخلوقاته، و جعله أهلا لتحمل الأمانة التى عرضها على السموات و الأرض و الجبال، فأبين أن يحملنها، و أشفقن منها، و حملها الإنسان، حملها بما له من إمكانات التدبير، و العقل، و الفهم، و الحرية، و الاختيار فى الأمور، و تحمل المسئوليات التى يترتب عليها الثواب و العقاب، و الجزاء فى الدنيا و الآخرة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۶۸

انفرد ذلك الإنسان بتلك الميزة التى تجعله يعيش حياتين: دنيوية يكابد فيها، يسعد و يشقى، و يمرض و يصح، و يتطور فى خلقته من صغر إلى كبر، و حياة أخروية يجد فيها جزاء سعيه فى دنياه، و نتيجة عمله الذى قام به، و حريته التى اكتسبها، و هكذا ينفرد بتلك الخاصية التى لا تحظى بها مخلوقات أخرى من دواب و مخلوقات، و أرض و سماء.

بل إن هذه المخلوقات إنما جعلت فى هذه الدنيا لتخدم ذلك الإنسان الذى يبحث عن مصيره فى دنياه و أخراه، و عن ذاته، و كيف تتحقق، و عن وجوده، و كيف يكون، تخدمه بلا- مقابل و لا- جهد، فالزرع ينبت فى الأرض و يستوى على سوقه و يعطى ثماره، و الشمس تشرق فترسل الدفء إلى الأجسام المقرورة، و تثير الرياح و السحاب كى يحمل فى طياته المطر الذى يبعث النماء و الخير، كى يحيا الإنسان، عطاءات عديدة من قبل خالق الخلق بمقتضى ربوبيته لهذا الإنسان، و الذى أمر ملائكته بالسجود له، و قال لهم: إِنِّى أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ [البقرة: ۳۰]، لا يسأل عما يفعل، فقد خلق ذلك الإنسان و هو يعلم بحقائقه علم انكشاف و إحاطة، و إدراك لما يتطلبه، لحكمة إلهية وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ [الذاريات: ۵۵].

هذا هو المحور الذى تدور حوله الأمثال القرآنية، و الترابط بين غاياتها فى تحرير هذا الإنسان من كل إصر يعوق عقيدته، من أن تنطلق نحو الإيمان الحق باللّه الواحد، و الابتعاد عن مواطن الأهواء، و النزعات الضارة المفسدة لتلك الفطرة النقية الصافية التى خلقها اللّه سبحانه و تعالى، لتتشرب روح الحياة كما خلقها خالقها، و لتسير فى ضوء هداه، واضحة المنهج، متمتعة بطيبات ما أحل اللّه، بعيدة عن نزعات الشيطان، محققة ذلك الإنسان المميز بعقله، و حريته، و اختياره، و الذى يستحق كلمة اللّه فى حقه: إِنِّى أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ [البقرة: ۳۰].

المقارنة بين الأمثال القرآنية:

بالقراءة المتأنية و الواعية لسور القرآن الكريم، يستطيع الإنسان القارئ أن يجد ألوانا من التفاوت و الاختلاف فى الأمثال التى عرضت، تفاوت و اختلاف يرجعان إلى طبيعة المكان، و الزمان، و الناس، و الموضوع المعالج، إلى غير ذلك من أوجه الاختلاف، و قد استطعت بتوفيق من اللّه جل فى علاه، أن أحدد بعض هذه الأوجه، أعرضها فى الآتى:

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۶۹

۱- الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم فى السور المكية أكثر من التى وردت فى السور المدينة، و يرجع ذلك إلى بدء الدعوة فى

مکة، و حاجة الناس إلی وسائل عدیدة من الإرشاد و التوجه، حتی تصل الدعوة إلی نفوسهم و قلوبهم و عقولهم، عن طریق الاسترشاد بالأحداث و الوقائع، و بخاصة أن الأمیة و الجهالة فاشیة فی القوم، و کانت التقالید و العادات آخذة برقابهم، و مهیمنة علی عقولهم، فهم لا ینفکون یقولون: هذا ما وجدنا علیه آباءنا.

و التغلب علی هذه العقدة المسیطرة جد عسیر، ما لم تستخدم تلک الوسائل المؤثرة فی النفس و العقل، فهم بمثابة أطفال وجدوا أنفسهم فی مقاعد للسمع، و یحتاجون إلی إدراک ما یزیل ما بهم من جهالة، و یرفع عنهم الغشاوة، و یفتح أعینهم علی أنوار الحیاة بکل معطیاتها، و لا یتأتی ذلک بالتعلیم المباشر، و بالنصح الغالب، و إنما تقوم وسائل الإیضاح بمهمتها خیر قیام بعرض بعض قصص السابقین، و وصف أحوال الغابرین بتلک الصورة الموحیة التی تستخلص نتائجها، و یستهدی بها العقل إذا وصلت إلی سمعه، و استقرت فی أعماقه، و قد تکون کما نفعل الآن بمثابة فیلم یعرض علی الصغار، فیثبت فی أذهانهم المعلومة، و ینقل إلیهم التجربة، و یعرفون النتیجة بتلک الصور التی تستولی علی مشاعرهم، هم فی دور التکوین و التعلیم، فلتؤد وسیلة الإیضاح مهمتها بکل طریق.

و من التجارب و الأحداث و الوقائع تکون الخبرات الصادقة، و النتائج القریبة، و لم لا؟ أ لیس هؤلاء الناس أقرب إلی جو هذه الأمثال، و ما بها من صدق و فکر، و تأثیر بما یشتهر علی ألسنتهم من حکمة صادقة یرسلونها إرسالا، فتدوی مع الزمن، و تصدق فی کل حین، أ لیست الحکمة التی یتحدثون بها فی ندواتهم و یتناشدونها فی أشعارهم إلا قسیما لذلک المثل الذی یردد بین الحین و الحین، فیکون له تأثیره و أثره؟

إن الأمثال الحکمیة بما ترسله من إشعاعات الفکر، و تأثیرات القول، و عمق التجربة، لتعلی من شأن قائلها علی مدی العصور و الأیام، و تعلی من شأن معتنقیها و مصدقیها لو ساروا علی نهجها و هداها، لذلک کانت الأمثال فی هذا الجو، و فی هذا المیدان، من متطلبات الدعوة، تأتی فی آیات اللّه لتنزع الجهل و الجهالة، و تقتلع بذور الشرک، و تضع اللبنات الأولی فی بناء ذلک المجتمع الذی یحتاج إلی کثیر من مواد البناء من مثل، و حکمة، و أمر، و نهی، و تبیان ... إلخ.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۰

و عن طریق هذا المثل الذی یقوم علی التشابه بین قصتین، و حالتین، دعوة لأولئک الناس إلی استخدام عقولهم فی التفکیر الذی یقوم علی الموازنة و التمییز بین شیئین لیختار العاقل الصالح من الأمر، و إعلامهم بأن العقل و الفکر علامتان للإنسان الجدید الذی یدین بدین الإسلام، فلا خضوع لتقالید، و لا إرهاب لسلطة مهما کانت مراکزها، و لا بجنس أو لون، و إنما الناس جمیعا إخوة سواسیة، إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی وَ جَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ [الحجرات: ۱۳].

فی هذه البیئة الصخریة الحجریة فی طبیعتها، و فکر أصحابها، و تقالید أسرها و عائلاتها، و تکوین مجتمعاتها، کان من الحکمة الإلهیة أن یکثر قرع الآذان بتلک الدقات الشدیدة من الأمثال؛ لتصل إلی مجامع القلوب، فتقوم من غفوتها، و تستیقظ من سباتها العمیق الذی یحجب عنها الرؤیة لذلک النور الإلهی الذی بدد الظلام، و أزال الغشاوة عما لحق بالصدور و القلوب من الشرک باللّه، و الانتماء للباطل بصوره و أشکاله.

و إذا کانت الفترة الزمنیة الأولی فی بدء الدعوة قد امتدت إلی ثلاث عشرة سنة، مما أتاح للرسول، علیه الصلاة و السلام، أن یعمل علی نشر الدعوة بین ربوع مکة و ما جاورها، و أن یهیئ أولئک الرجال الذین اتبعوه و آمنوا بالقرآن الکریم لیحملوا رسالته فی کل مکان، فإن المجتمع الجدید الذی ستنتقل إلیه الدعوة تختلف فیه الصورة عن المجتمع المکی، فهذا المجتمع المدنی یقوم علی الزراعة، و طبیعته تختلف عن طبیعة مکة، فالأرض الخصبة تعطی، و تنبت الخیر و الرزق، و تنعکس تلک الطبیعة علی أهلها برا، و سماحة، و لینا، و استجابة لدعوة الخیر من أول نداء وجهه الرسول إلیهم فی بیعاتهم التی بایعوا فیها رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، فهذا المجتمع تفتح ذهنه لهذا الفکر الوافد، و بدت ملامح الیقظة فی حرکاته بفعل تأثره بغیره من المجتمعات الأخری التی اختلطت به، و تمیزت بفکرها، و کتبها السماویة، فکان الأمر سهلا، لا یحتاج إلی کبیر معاناة فی توصیل الحقائق المباشرة التی تبنی الحیاة بکل

اتجاهاتها المختلفة.

فليس فيها ذلك الفكر المتسلط، و لا رهبة أصحاب السلطة الدينية، كما فی مكة، و لا تلك التقاليد البالية التی تعوق الفكر الجديد عن الوصول إلی قلوب الناس و عقولهم.

و كان القرب من اليهود فی ذلك الوقت سبيلا إلی معرفة مظاهرهم الدينية،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۱

و اختلاطهم بهم، و تناقلهم لأمثالهم و أقوالهم، لذلك كانت منهم الاستجابة السريعة لكلمة الإسلام و الإصغاء لتعاليمه دون حاجة ماسة إلی ضرب الأمثال الكثيرة التی يحتاج إليها المعاندون و الجاحدون لآيات اللّه.

۲- تتشابه صياغة المثل المكی و المدنی فی كثير من المظاهر الخارجية، من حيث اشتمالها علی المتمثل له، و المتمثل به، و الإتيان بكاف التشبيه، الأداة، فی صورة قصصية، و صفة مجازية تصور حال كل منهما. إلا أن هناك أشياء جديرة بالملاحظة تعطی فروقا لها دلالتها، مثل:

(أ) يكثر فی المثل المكی استخدام الفعل ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا [إبراهيم: ۲۴]، و ما أخذ من هذا الفعل من المضارع و المصدر، و ما لهذا الاستخدام من وقع، فهو يقرع الأسماع، فيدعوها إلی الالتفات و التنبه.

(ب) يكثر فی المثل المكی أيضا التعقيب بقوله: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ [البقرة: ۲۱۹]، كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ [الأنعام: ۱۲۲]، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ [الأعراف: ۱۷۶]، ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: ۱۸]، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ [إبراهيم: ۲۷].

و هذا التعقيب بعد ذكر المثل له دلالته، فهو يبين الحكمة من إيراد المثل، و يوقظ فی النفوس و العقول ما هی بحاجة إليه من رغبة فی الهداية و بعد عن الجهل و الضلال.

(ج) البدء فی المثل المدنی يكثر فيه استعمال المثل: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً [البقرة: ۱۷].

۳- اعتمدت الأمثال المكية فی أدواتها التأثيرية علی كثير من مظاهر الحياة المكية، فهذا المجتمع يقوم التعامل فيه علی التجارة، و القوافل، و العبيد، و استغلال مواسم الحج، و ما يجلبه ذلك من نفع مادی يعود علی الجميع، و نفع ثقافی، حيث تتناقل فيه السير و الأحداث التی تلوكها الألسنة، و تبقی فی عقول الناس راسبة، بالإضافة إلی أسواق أدبية شهيرة، تعقد فيها حلقات الشعر، و تعرض فيها نماذج الشعر الجيد، و يتبارى فی ذلك الكثيرون، حتی إذا حكم لأحدهم بالتفوق، كتبت قصيدته بماء الذهب، و علقت علی الكعبة، أسواق شهيرة، أسواق عكاظ، و ذی المجنة، و ذی المجاز.

فی هذا الجو المفعم بالتأثيرات المادية و الثقافية، كان لا بدّ و أن تكون الأمثال القرآنية

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۲

معرضا لما تريد أن تقتلعه من النفوس من أفكار سقيمة، و تفرقة ظالمة، و قيم جاهلة، و هضم للحقوق، و أن تكثر من ذكر الأحداث للاعتبار و الاتعاظ فی تلك الحياة التی انغمسوا فيها، تتكلم عن البعيد، و تذكر الأحداث التاريخية، و تندد بالشركاء فی التجارة، و الشرك فی العقيدة، و الكفر، و العناد.

أما فی المجتمع المدنی، فتساق الأمثال معتمدة علی مظاهر الحياة التی تحيط بالناس، فتأخذ من مظاهر الطبيعة، و ما فيها من ظلمة و نور، و رياح و غيث، و نباتات و جمادات، و أصوات و مخلوقات، ما توجه إليه أنظار الناس؛ ليكون محل تدبر و إبصار، فتكون الهداية، و كما تأخذ من مظاهر الحياة الخارجية التی تحيط بفكرهم، كاليهود و أشياعهم، فتندد بمواقف أصحاب هذه الكتب من الرسول و دعوته، و ذكر أحوال الأمم السابقة، و ما حل بهم جزاء كفرهم و عنادهم، و ما يجب أن يكون عليه المؤمن الحق من صفات، و إخلاص الإيمان باللّه صاحب القدرة المطلقة، و الاهتمام بالقيم النبيلة، و عدم الاغترار بالحياة الدنيا و ما فيها.

۴- أما مضمون الأمثال و موضوعاتها، فتختلف اختلافا واضحا بين المكی و المدنی، اختلافا دعت إليه ظروف الدعوة الإسلامية، و

اختلاف الناس و المجتمع، و الحالات التی تستدعی علاجا معینا، و یبدو ذلک فی الآتی:

المجتمع المکی مجتمع جاهلی تتحکم فیه تلک العادات الباطلة، و التقالید البالیة، و تسیطر علیه أفکار و ثنیة خائبة تلغی العقل و دوره، و تسمح للطبقیة أن تعلو، و للعنصریة أن توجد، و للرأسمالیة الظالمة الباغیة أن تتحکم، کل هذه العناصر جعلت صوت الحق یخبو، و نور اللّه یتبدد بین قوم قساة القلوب، غلاظ الأکباد، نفوسهم قدت من صخر، لا تلین لدعوة، و لا تستجیب لنداء کریم، حتی کانت کلمة اللّه، و نزل الوحی علی محمد صلی اللّه علیه و سلم ابن هذه البیئة، و لکن اللّه اختاره من صفوة خلقه لیعالج هذا الأمر بالقرآن الذی یوحی إلیه، و بکل الطرق التی یسلکها رسول اللّه، فکانت هذه الأمثال و هذه الآیات التی تعالج الکفر باللّه، و تندد بدعاة هذا الکفر و أصحابه، و تقبح أعمال الکفار الذین یتخذون الأصنام آلهة من دون اللّه، و یلغون عقولهم و تفکیرهم، و تقبح لهم اتخاذ الشرکاء، و تزجرهم عن المعاصی، و تحبب إلیهم الإیمان، و تکره إلیهم الکفر، و الفسوق، و العصیان.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۳

کما تناولت الأمثال أیضا البعد عن موجبات غضب اللّه التی تصیب الفرد و الجماعة، و دعتهم إلی الإیمان بالبعث، و الحساب، و الیوم الآخر، و أظهرت قدرة اللّه فی عقاب من یستحق العقاب، و نددت بموقف الکفار من الرسول، و عنادهم، و معاملتهم له ... إلخ.

دارت کل هذه المعانی فی أثواب الآیات القرآنیة و أسالیبها، و کان للمثل المکی دوره البارز فی هذا المجال، یعالج السلوک الإنسانی إزاء رسالة اللّه و دعوته.

أما فی المجتمع المدنی، فالأمر مختلف، فقد عالجت الأمثال الکثیر من العیوب التی تبرز فی هذا المجتمع المتحضر من نفاق، و خداع، و بخل، و شح، و جبن، و قعود عن الجهاد.

لم تتعرض مباشرة لسلوک الناس و تصرفاتهم إزاء الرسالة، و إنما هی بیان لما فی الکون و الملکوت الواسع الذی یدبر اللّه أمره، فهذه الحیاة الدنیا مثلها کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ [یونس: ۲۴].

اختلفت البیئة، فاختلف الاتجاه و العلاج، و اختلف الزمان، فکان لکل وقت دواء، و اختلف الناس، فکان لکل دواء.

الأمثال العربیة:

من خلال دراستنا للأمثال القرآنیة، و ما تناولته من اتجاهات علیا لا یأتیها الباطل من بین یدیها و لا من خلفها؛ لأنها من التنزیل، تنزیل رب العالمین، الرحیم بعباده الذی خلقهم، و عرف احتیاجاتهم، و ما یعلی من مکانتهم و شأنهم، فوضع لهم الأسس الحکیمة التی یسیرون علیها، و رسم للإنسان طریق النجاة بما ساقه له من قیم، و قدمه من مثل، و دعا إلیه من أوامر، و ما وضعه من تکالیف.

من خلال هذا کله، اشرأبت النفس إلی محاولة إیجاد علاقة و ترابط بین الأمثال القرآنیة و ما تعرضه علینا کتب التراث و الأدب من تراث إنسانی نطقت به الألسنة، و حفظته العقول، و سجلته فی صفحات التاریخ من أمثال کان لها صداها و تأثیرها فی الفکر الإسلامی، حقیقة ما روته الکتب الأدبیة یحوی بین جنباته الکثیر من الأمثال العربیة التی وصلت إلینا من العصر الجاهلی، و فیها ما فی هذا العصر من عادات و أمور قد لا تتفق مع القیم الإسلامیة و ما یدعو إلیه القرآن، و لذا فإننا سنحاول بإذن

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۴

اللّه أن نعرض نماذج من بعض الأمثال التی تتشابه فی نزعاتها و اتجاهاتها البناءة فی الحیاة مع الأمثال القرآنیة فی سمو أهدافها، و نبل أغراضها، و هذه الأمثال عاشت و تعیش فی أفکارنا، و ترتبط بعقائدنا، و تصلنا بماضینا.

و قد یکون فیما نذهب إلیه من إیجاد علاقة فی الهدف و الاتجاه، لون من التکلف و العسر؛ لأن المصادر القدیمة لم تتعرض لهذه المناحی و لم تقدم لنا ما یرضی عقولنا من موازنات و مقارنات بین هذا و ذاک، و لکن ما دامت النیة قد خلصت لخدمة هذا الطریق، فإن فی إفراد باب بتعلق بالمنهج القرآنی و ارتباطه بالأمثال العربیة المتفقة معه فی الاتجاه و المأخذ، ما قد یغنی القارئ اللبیب الذی

یستطیع أن یتبین من التقارب الذی نطقت به الألسنة التی تشربت حب الإسلام، و تعلقت به أرواحها و قلوبها، و عقولها، و عقائدها، فنطقت بذلک معبرة، و جری علی ألسنتها من لفظها الخاص ما ینبئ عن شدة الحب و الارتباط بتعالیم الإسلام، و ارتباط الناس به فی حیاتهم الخاصة و العامة، و فیما یجری بینهم من تعامل و علاقات.

و فیما أسوقه من نماذج أمثال، إنما أعطی دلیلا علی أن الخلق المسلم إنما استوحی فیما نطق و فیما عمل طریق القرآن، و دعوته، و منهجه.

و قبل أن نعرض لهذه النماذج المختارة التی تعتبر نواة لدراسة أوسع فی أنواعها، و أقسامها، و أغراضها، و التی عقدنا العزم بمشیئة اللّه أن نجعلها مبسوطة بین یدی القراء فی دراسة مستقلة، أن نعرض لبعض الحقائق العامة التی تنیر الطریق لما سیطرح من أمثال عربیة، تعالج مواقف الحیاة، و تعرض أحداثها، و وقائعها، و عظاتها، و هی تکمن فی الآتی:

۱- هذه الأمثال فی أغلبها مجهولة الصاحب، لا یعرف لها قائل، و لا تسند إلی شخص معروف، و لکنها سلکت طریقها إلی الحیاة عن طریق المشافهة و الرواة حتی وصلت إلینا فی تراث له فی النفس إعزاز و تقدیر، قد استحوذ علی هذا الفضل، و هذه المکانة بالنظر إلی مضمونه و معناه، أما معرفة الصاحب، و کیف نشأ المثل، فلم یحظ ذلک باهتمام الرواة.

۲- کان من أسالیب بقاء هذه الأمثال، و المحافظة علیها، ما تتسم به من صدق، و من توافق مع الحیاة فی تطبیقاتها، و ما تحویه من قیم رفیعة، و اتجاهات بناءة مقتبسة من القرآن الکریم، و الحدیث النبوی.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۵

۳- إیجاز هذه الأمثال، و اعتمادها علی اللفظ القلیل، و المعنی الکثیر، أغری بسرعة تداولها و حفظها، و التمثل بها، فی اللحظات المشابهة لما قیلت فیه.

۴- تعرضت هذه الأمثال لأحداث حدثت، و نطقت بها ألسنة المشارکین لهذه الأحداث، أو المشاهدین لها، أو السامعین لأوصافها، فکان ذلک دافعا إلی الحرص علیها، و التمسک بمعرفة أصولها و مناسباتها.

۵- کانت هذه الأمثال صورة واضحة لأحداث الحیاة، و شخصیاتها المتباینة، ففیها الرجل و المرأة، و الکبیر و الصغیر، و الفتی و الفتاة، و العالم و الجاهل، و الحاکم و المحکوم.

حقائق کثیرة نورد بعضها فی هذا المقام، تارکین لما نختاره من نماذج مهمة ألقت الضوء علی ما تزخر به من صور رائعة لقیم رفیعة من القرآن و الحدیث، و ما یعد أنموذجا للفکر العربی و العقلیة العربیة، و أسلوب الحیاة فی تطبیقاتها العدیدة علی أیدی أفراد و جماعات، و أحداث فی الحیاة، دون تکلف أو حاجة إلی معرفة قواعد نحویة، أو أوزان عروضیة، أو أنماط من الأسالیب تبعها الأدباء و العلماء.

هذا بالإضافة إلی أنها اتخذت فی أسلوبها الأعم و الأغلب، أسلوب الأمثال الحکمیة التی تعرض المعنی فی ثوب موجز من اللفظ، و لا تعرض صیاغتها اللفظیة علی طریق الأمثال القرآنیة القائمة علی التشبیه التمثیلی، و من وجود مشابهة بین حالین مختلفین، و إنما تکتفی بذکر قضایا مسلّمة محکوم بصحتها من واقع الحیاة، و یمکن اللجوء إلیها و الاستشهاد بذکرها إذا کانت هناک حال مشابهة لها.

۱- المنهج الذی قامت علیه الأمثال:

أ- بناء الإنسان:

اشارة

حددت هذه الأمثال بصورتها الموجزة، طریقها فی خدمة الحیاة بکل متطلباتها، و ذلک بالنظر إلی الإنسان و واقعه، و لم تخرج به إلی

عالم الخيال، و العيش مع الأحلام و التمنيات، دعته إلى أن يكون إنسانا مكتمل الإنسانيـة، بعيـدا عن الانزواء و الجهالة، و أن يكون ذا شخصـية لهـا سـماتها البشـرية من عقل مفكر، مبـدع، مالك لزمام نفسه، متحكم فی نزواته و شـهواته، له منهجه الواضـح فی الحياة، لا يلتوی به الطريق، و لا تخدعه الأمانی و الآمال الزائفة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۶

و بناء هذه الشخصـية علی أسـس من الواقع و الصلاحية للحياة عن طريق خبراتهم، و تجاربهم، و دعوات الحياة، و علی هدی ما رسمه منهج القرآن الكريم، و ما وصـفه لنا من خلال الأمثال القرآنية التی تكلمت عن هذه الشخصية المسلمة، و النفس المسلمة التی صاغها القرآن الكريم فی أوامره و تكاليفه، و طبقها محمد و صحبه الكرام فی معالجة أوضار الحياة.

و نحن إذ نعرض لهذه الاتجاهات من خلال الأمثال العربية التی نسوقها فی ثوبها الذی وردت به، نلمس جانبا من تيارات ثقافتنا العربية له فی تكويننـا العقلی مكانـة لاـ تقـل شأنـا و أثرا عن مكانـة الشـعر، و بقيـة ألوان النثر، و لاـ أغـالی إذ قلت: إن هـذا الأثر سـيظل قوی المفعول، محفورا مع الزمن فی العقل و الوجدان؛ لأنه مأخوذ من الحياة، و مستمد من الأحداث، و مرتبط بالوقائع و الواقع، فقد تلفظت به شـفاه، و طبقه أشخاص، و رسمته فی دنيا الواقع أحداث كانت من الحياة و إلی الحياة تعود، و خاطبت العقلاء من القوم، صغيرهم و كبيرهم.

قامت الأمثال علی مخاطبة الإنسان، و النظر إليه، و سبر أغواره، و الإحاطة بشأنه، و تصوير أحواله النفسية، و الوجدانية، و الاجتماعية، و العقلية، و كل ما يتعلق به فی حياته الخاصة و العامة، خاطبت الإنسان الذی حظی بالتكريم من خالقه، ففضـله علی بقية مخلوقاته بتلك القيم التی يتمثلها فی حياته، و يطبقها فی معاملاته.

خلق اللّه الإنسان حرا، له إرادته الخاصة، و اختياره فی الحياة، فهما، و سلوكا، و عملا، و عقيدة، دون أن يقع تحت تأثير معتقدات بالية تأتيه من كبير أو صغير، أو معبودات باطلة تسیء إلی آدميته، و فطرته، فطرة متحررة تعطيه هذا المدد من الحرية و الاختيار فيما يملك من أدوات، و اسـتخدام حواس خلقهـا اللّه له، و هيأها لخـدمته، و قـد لا تكون هـذه الأدوات كافيـة للهدايـة و التوجيه فی الحياة، و قد يكون العقل قاصـرا، فلا يبلغ بصاحبه إلی برّ الأمان الفكری و العقدی، لذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يعالج هذا القصور البادی فی الإنسـان بإرسال الرسل الداعيـة إلی الخير، و عـدم الاغترار بالعقل، و الاسـتفادة من تجارب الآخرين فی الإلمام بشـئون الحياة، و عـدم الاسـتبداد بالرأی، و الأخـذ بنصـح الناصـح ما دام خالصا، هـذا هو الإنسان السوّی الـذی يهـدف إلی إبرازه و تكوينه المثل العربی فی تعبيره و رأيه.

يتصدر المثل العربی قائمة هذه النظرة بقوله:

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۷۷

۱- دع امرأ و ما اختار:

يری ذلـك التنديـد بمـن يهـدرون قيمـة الإنسـان فی فكره المتحرر، و رأيه الـذی ينبع من عقله، و يحـاولون السـيطرة عليه بالإرهـاب الفكری، و إملاء الإرادة، حتی لا تكون هناك شخصية متميزة متحررة، إنهم بذلك يمسخون هذه الشخصية، و يلغون صفاتها المتميزة فی فكرها الحر، و عملها المنطلق فی رحاب الحياة دون قيـد أو عائق، يريدون أن يرسـموا له الطريق، و يحددوا له الاتجاه، حتی يكون كالآلة الصماء التی تدور و تعمل تبعا لأوامر صانعيها.

و ما هكذا الإنسان و ما خلق له من تعمير للكون و الحياة، وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُری ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی [النجم: ۳۹- ۴۱].

فالإنسان مجزی بعمله، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، و الجزاء من جنس العمل، ف كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ [المدثر: ۳۸]، و قد عبر

عن ذلک مثل عربی آخر بقوله:

۲- یداک أوکتا و فوک نفخ:

و یضرب هذا المثل لمن یجنی علی نفسه بأفعاله و أعماله، فهو بقصوره و تقصیره یتسبب فی إیذاء نفسه.

و الإنسان بمسئولیاته، و بتحمله لأعباء الحیاة، و تفکیره، و الجزاء فی الدنیا و الآخرة مبنی علی ما قدم بنفسه و بتفکیره الحر، دون سیطرة أو رقیب إلا- من داخله، من أعماق نفسه، و من معتقده، و هکذا تکون الانطلاقة الحرة المتمثلة مع الحیاة المتطورة، و ما تستدعیه من الفکر الحر، و الاختیار المطلق الذی لا یتقید إلا بتعالیم الدین و ما یضعه من قواعد و تکالیف یحاسب علیها الإنسان من رب الإنسان و رب الأرض و السماء، رب العالمین یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَها وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً [آل عمران: ۳۰].

و أصل هذا المثل أن رجلا کان بجزیرة، فأراد أن یعبر علی زقّ قد نفخ فیه، فلم یحسن إحکامه، حتی إذا توسط البحر خرج منه الهواء المضغوط، فغرق الزق، فاستغاث صاحب الزق برجل، فقال له: یداک أوکتا و فوک نفخ.

و إذا کانت الانغلاقة فی الفکر، و التقوقع فی الزمان و المکان، من الأمور المرفوضة

فی حیاتنا الحاضرة، فالانطلاقة البهیمیة فی الشذوذ الفکری، و التحرر من کل معتقد صائب، و من کل دین و قیمة، لها من الخطورة و الضیاع ما للأولی من المهانة و الاستخفاف بالإنسان و إمکانیاته، و أولی بالإنسان أن یأخذ طریقه فی الحیاة دون جهالة ممیتة، أو عجب قاتل، حتی یکون کما قال الشاعر:

إذا المرء لم یدر ما أمکنهو لم یأت من أمره أزینه

و أعجبه العجب فاقتادهو تاه به العجب فاستحسنه

فدعه فقد ساء تدبیرهسیضحک یوما و یبکی سنه و إذا کانت الحریة هی اللبنة الأولی فی بناء الإنسان، فإنها لا تکمل إلا إذا صحبتها عزمات قویة، و إحساسات بالکرامة التی ترتقی بالإنسان إلی عزة تنزهت عن الهون، و ابتعدت عما یشین خلق الإنسان، أو یجعله مضغة فی الأفواه، أو یصمه بوصمة عار تنتقل من نفسه إلی عقبه، قوانین للحیاة لیست غریبة عن دعوات الأدیان، بل هی فی صمیمها و جوهرها.

فکم من نداء و دعوة سمعناها من أفواه الرسل، علیهم أفضل الصلاة و أزکی السلام، و هم یدعون قومهم إلی الحق و إلی صراط مستقیم دون انتظار لمکسب مادی رخیص، أو ابتغاء أجر علی دعوتهم، لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْری لِلْعالَمِینَ [الأنعام: ۹۰]، فَسَتَذْکُرُونَ ما أَقُولُ لَکُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ [غافر: ۴۴].

و ما لنا لا نذکر هذا الموقف لرسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و هو یستعرض ما تفتقت عنه حیل المشرکین و تفکیرهم المریض، لیثنوه عن طریقه و دعوته، و قوله: «و اللّه یا عم، لو وضعوا الشمس فی یمینی، و القمر فی یساری، علی أن أترک هذا الأمر ما ترکته حتی یظهره اللّه أو أهلک دونه»، مغریات الدنیا بما فیها من مال، و مکانة، و ملک، لا تقف بصاحب العقیدة عن طریقه، أو تبعده عن مسلکه الذی هیأه اللّه.

و هکذا طریق الإنسان الحر الکریم علی نفسه و علی قومه، سواء کان رجلا أو امرأة، طریق سلکه أولئک العظماء من الذین مهدوا الطریق و ساروا، فلم یهنوا و لم یضعفوا، و لم یقفوا أمام مغریات الدنیا بمختلف ألوانها و صنوفها، موقف الخاضع لها، الذلیل أمام مغریاتها، و قد نطقت بذلک أمثال العرب فی هذا المنحی الکریم، فقالت کما روت ذلک کتب الأدب:

۳- تجوع الحرة و لا تأكل بثديها «۱»:

و تفسيره: أى لا تأكل بما يدره عليها ثدياها من أجرة الرضاع للأطفال، و إن آلمها الجوع.

و أصل هذا المثل أن الحارث بن سليل الأسدى زار حليفه علقمة بن خصفة الطائى، فرأى ابنته الزباء، فأعجب بها، و طلب من أبيها أن يزوجه إياها، فقال له أبوها: أنت كفء كريم، و لك من حسبك و منصبك و بيتك ما يرغب فيك، و لكن أقم حتى ننظر فى أمرك، و دخل على زوجته يستشيرها فى الأمر، و يعلمها بعزمه على تزويج ابنته بالخاطب، فقالت له: لا تفعل حتى نعرض الأمر على ابنتنا، فقالت الأم لابنتها: أىّ الرجال أحبّ إليك؟ الكهل المتاح، أم الفتى الوضاح؟ قالت: لا، بل الفتى الوضاح «۲»، قالت: إن الفتى يغيرك، و إن الشيخ يميرك «۳»، و ليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحدث السن الكثير المنّ، قالت: يا أماه، إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاء أينق الكلأ، قالت: أى بنية، إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، قالت: إن الشيخ يبلى شبابى، و يشمت بى أترابى.

فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على أمرها، فتزوجها الحارث، و رحل بها إلى قومه، و بينما هو جالس فى فناء بيته، إذ أقبل بعض الشباب من بنى أسد قومه، فى فتوتهم و قوتهم، فتذكرت حالها، و قارنت بين حاليها، فبكت على شبابها الضائع مع رجل كهل، فلما رأى زوجها ذلك قال لها: ثكلتك أمك، تجوع الحرة و لا تأكل بثديها، ثم قال لها: الحقى بأهلك، لا حاجة لى فيك، و قال:

تهزأت أن رأتنى لابسا كبراو غايةُ الناس بين الموت و الكبر

فإن بقيت لقيت الشيب راغمةو فى التعرف ما يمضى مع العبر

فإن يكن قد علا رأسى و غيرهصرف الزمان و تغيير من الشعر

فقد أرواح للذات الفتى جذلاو قد أصيب بها عينا من البقر

---

(۱) انظر: كتاب ألوان (ص ۸۲).

(۲) الوضاح: الحسن الوجه.

(۳) يميرك: يقدم لك أطيب الطعام و يميرك فى المعاملة.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۸۰ عنى إليك «۱» فإنى لا يوافقنىعور الكلام «۲» و لا شرب على الكدر و إذا كانت سمة الإنسان فى الحياة، إرادة و كرامة فوق حرية يتمتع بها، فى قوله و عمله و مسلكه، فإنها أيضا لا تكمل بمعناها الواسع إلا إذا اتصلت بالحياة بناء و عملا نافعا، و مشاركة إيجابية فى الحياة تمد يد العون لمن يحتاج، و تقدم الخير للجميع، و لا تبخل بعطاء، و لا تضن عن مشاركة، هو إنسان لم يخلق لنفسه فقط، و إنما هو سبيل سعادة الآخرين، و حياة لمن يبغى الحياة، و سلم لمن يريد الطمأنينة فى يومه و غده، و هو كما عبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى حديثه، جليس صالح بكل ما تحمله هذه الكلمة البناءة من معانى النفع، و الخير، و الهداية، و الأثر الطيب فى النفس و فى الآخرين: «مثل الجليس الصالح و الجليس السوء كحامل المسك و نافح الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، و إما أن تبتاع منه، و إما أن تجد منه ريحا طيبة ...».

إنسان يعمل و يحفظ ماء وجهه من السؤال و الشحاذة، و يحفظ غيره من الضياع، و يفيد الآخرين بألوان الخير و المنفعة، و يترك بصماته فى كل شىء علما، و رزقا، و خيرا، و اجتهادا، و قدوة، أ ليس هذا هو ما يدعو إليه القرآن و الرسول فى العمل الطيب، و النفقة، و البذل، و العطاء، و الأجر المضاعف لصاحبه فى جميع مجالات الحياة. و قد جاء المثل العربى مصورا هذا الاتجاه فى قوله:

۴- رب زارع لنفسه حاصد سواه:

و أصل هذا المثل أن صعصعة بن معاوية ذهب إلى عامر بن الظرب، يخطب ابنته، فقال: يا صعصعة، إنك جئت تشترى منى كبدى، و أرحم ولدى عندى، النكاح خير من الأيمة، و الحسيب كفء الحسيب، و الزوج الصالح يعد أبا، و قد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك.

ثم قال لقومه: يا معشر عدوان، أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم، و لكن من خط له شىء جاءه، رب زارع لنفسه حاصد سواه.

فلولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به، و لكن

---

(۱) عنى إليك: ابتعدنى عنى.

(۲) عور الكلام: يقصد به القبائح و الأمور التى تنكرها الطبائع السليمة الشريفة.

الذى أرسل الحيا «۱» أنبت المرعى، ثم قسمه أكلا، لكل فم بقلة، و من الماء جرعة.

و قد يعمل الإنسان عملا صالحا يحتاج إلى تأن فى جنى ثماره، و الوصول إلى نتائجه، فأولى به أن لا ييأس من بلوغ الهدف، و أن يقف موقف الآمل فى تحقيق الرجاء، دون استسلام لهوى، و استعجال لنتائج قد تتأخر، أو قد يعوقها عائق عن سرعة الإنجاز و تحقيق المراد، و أما إذا تحكمت فيه شراهة النفس، و تعجل أموره، فلن يكون حاله إلا كحال من عبر عنه المثل العربى:

۵- استعجلت قديرها فامتلت:

فقد أبت نفسها الشرهة إلا أن تحقق مغنمها سريعا دون انتظار لنضج اللحم فوق النار فى قدرها، فأخذت بعض ما فيه و وضعته فى الرماد الحار لتأكله سريعا، و بذلك فاتها الكثير من أجل القليل.

ب- الإنسان و المجتمع:

اشارة

و هكذا تصور الأمثال العربية النفس السوية فى منهجها فى الحياة، و طريقتها فى معالجة شئونها، و يبقى بعد ذلك أن تتلاءم مع الآخرين الذين يعيشون معها فى ظل مسئوليات ضخام تحتاج إلى أسلحة مادية، و طريقة ناجحة، و إعداد نفسى.

و قد يستدعى ذلك بعض التنازلات من قبل صاحبها فى سبيل اندماجه فى محيطه، و تحمله لأعباء الآخرين.

و هكذا الحياة بقوانينها و التزاماتها تأبى إلا أن تستوفى حقها كاملا من الإنسان السوى بإتمام العمل و إتقانه، و الشجاعة فى تحمل مسئولياته، و الإخلاص فى إنفاذه، و الخبرة بأموره.

و كل هذه وفق منهج قرآنى استقر فى أعماق النفس البشرية و الإنسانية من قديم الزمن و حديثه، و تعرضه الأمثال العربية بتلك الكلمات البسيطة:

۶- أعط القوس باريها:

فصانع القوس أدرى بأسراره، و أعلم بإمكاناته، و هو الذى يستطيع أن يصلح عيوبه.

---

(۱) الحیا: المطر. انظر: کتاب ألوان (ص ۲۹).

قوانین صادقة من الحیاة فی ماضیها و حاضرها، حیاة لا تقوم علی جهالة و جاهلین، إنما علی علم بأسرارها، و حذق بأمورها المختلفة، سیاسیا، و اقتصادیا، و عسکریا، و دینیا، و تربویا، و الاستعانة بکل هذه الخبرات لإدارة شئون الحیاة، و للنجاح فی تسلم زمامها.

أما إذا تـدخلت الأهواء، و تحکمت النزوات فی الاختیار، و تغلبت الأغراض الخاصـة علی العامة، فهو أمر مؤذن بانتهاء الحیاة، و علامة من علامات الساعة، حینما یسند الأمر إلی غیر أهله، فتضیع الأمانات.

و أمثله ذلک کثیرة فی الحیاة و المجتمع، فأولئک الـذین یتصـدون للفتیا دون سـند من دلیل أو علم بشـریعة، أو فقه لقانون، و أولئک الـذین یتصـدرون واجهات الحیاة الاقتصادیـة و المالیـة، أو یقودون الأمـة إلی معارکها العدیـدة فی الحرب، و السیاسة، و التخطیط، و التربیة، و التعلیم، دون بصـر بالحیاة، و اسـتعداد لمجابهة أزماتها بما تستحقه من أسلحة مناسبة من علم، و معرفة، و إخلاص فی العمل، و شجاعة فی تحمل المسئولیات، إنما یسیئون إلی أنفسهم و إلی دینهم، و مجتمعهم، و وطنهم بأعمالهم هذه التی تهدم و لا تبنی.

و من الأمور التی تحقق النجاح المنشود، أن یستعد المرء لکل ما یقع فی الحیاة من أمور حسنة أو سیئة، یتلقاها و یحسن فهمها و وضع نتائجهـا موضع التنفیـذ فی مکانهـا اللائـق بها، حتی لا یؤخـذ علی غرة، فیجلب علی نفسه هزات تؤثر فی تفکیره، و تقضـی علی نشاط جسـمه و عقله، و قـد تفضـی به إلی عثرات فی طریق حیاته، و اضـطراب فی تفکیره، و ما یصـدق علی الفرد یصـدق علی الجماعـة، و المجتمع، و الدولة.

و المثل العربی:

۷- قبل الرماء تملأ الکنائن:

فالاستعداد واجب لملاقاة کل أمر صعب، و کم تعرضنا لکثیر من ألوان المحن و الأزمات فی معیشتنا التی لم نحسن التخطیط لها، فما نعـانیه من ازدیـاد عـدد، و تضـخم سـکان، و کثرة دیون من قبل من یتحکم فی رقابنا، و یمنع عنا ما نحتاج إلیه من غـذاء، و سـلاح، و مال، إنما یرجع إلی أننا لم نضع کل هذه الأمور موضع حساباتنا و تقدیرنا، فکان من ورائها ما نلاقی من متاعب و آلام.

و لقـد عرّفنا المنهـج القرآنی منـذ أربعة عشـر قرنا من الزمن ما یجب علی المؤمن العارف بربه أن یسـتعد لآخرته، بإعداد تلک الکنانة التی تحوی الأعمال الصالحـة، و أفعال الخیر قبل أن یقف بین یـدی ربه یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَها وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً وَ یُحَذِّرُکُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ [آل عمران: ۳۰].

و إذا نجحت کـل تلک الخطوات فی سبیل تحمل المسـئولیات، و إسـناد الأمر إلی صاحبه القوی الکفیل بإنجاحه بما یملک من قیادة بصـیرة، تری الأمر و تعالجه، و تضع خطواتها علی الطریق الأکمل المأمون، البعیـد عن المزالق و المخاطر، و المسلح بقوی الإیمان، و المعرفة، و تحمل الصـعاب، کان ذلک هو طریق الفوز و النجاح له و لغیره. و قد عبر عن ذلک المعنی مثل عربی قدیم له دلالته النافعة فی مثل هذا الموقف، یقول:

۸- عند الصباح یحمد القوم السّری:

و أصل هـذا المثل أن خلیفـة رسول اللّه صـلی اللّه علیه و سـلم، أبا بکر الصدیق، رضـی اللّه عنه، أمر قائده خالد بن الولید، رضـی اللّه عنه، و هو سـیف اللّه المسـلول، أن یسرع إلی معاونـة جیش المسـلمین بالعراق، و إلی نجـدتهم، فأراد خالد أن یجتاز طریق الصـحراء

اختصارا للوقت، و تلبيـة لأمر الخليفـة، و إحساسا بالمسـئولية إزاء هذا العمل الجسـيم، فعرض الأمر على معاونيه، فقال له رافع بن عمرو الطائى: لقد سـلكتها فى الجاهلية، و تحتاج إلى خمس ليال للإبل الواردة التى شـربت و ارتوت، فاشترى خالد بن الوليد مائة من الإبل، و عطشـها، ثم سقاها الماء حتى رويت، ثم كمم أفواهها، و سلك بها الصحراء، حتى إذا كان اليوم الثالث خاف العطش على الناس، و الخيل، فنحر الإبل، و استخرج ما فى بطونها من الماء، فسقى الناس و الخيل، و مضى فى طريقه، حتى إذا كانت الليلة الرابعة، قال رافع: انظروا هل ترون سدرا عظاما، فإن رأيتموها، و إلا فهو الهلاك، فنظر الناس، فرأوا السدر، فأخبروه، فكبّر، و كبّر الناس، ثم هجموا على الماء، فقال خالد بن الوليد:

لله درّ رافع أنّى اهتدىفوّز من قرار إلى سرى

خمسا إذا سار به الجيش بكىما سارها من قبله إنس يرى

عند الصباح يحمد القوم السّرى «۱»و تنجلى عنهم غيابات الكرى «۲»

---

(۱) السرى: السير ليلا.

(۲) غيابات: ظلمات. الكرى: النعاس.

عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن، ص: ۲۸۴

ينجو بنفسه و قومه، و يحقق الأمان و الطمأنينـة، و تكشف أمامه الحقائق، و تتضـح الأمور بلا لبس و لا غموض بعـد مخاطرة، و اقتحام للشدائـد، و خبرات بالطريق و مسالكه، و حذر ... إلخ، كل هذا كان عدة للقوم، فكانت النتائج فى جانبهم، و الدولة لهم، و الغلبة على الأعداء.

أما إذا اسـتنام الجميع إلى لهواتهم، و شـهوات نفوسهم، و انغمسوا فى ملذات الحياة دون بصر بالعواقب، و حذر من مغبات الأيام، فلن تكون النتائـج إلا فى صالح أعداء الحياة، و أعداء البلاد، و العقيدة، و الوطن، و ليس أمر الهزيمة المرة التى حاقت بالبلاد عام ۱۹۶۷ م عنا ببعيد.

ج- طريق التربية الناجحة:

إذا تحدد أمامنا الطريق إلى بناء الحياة، و تكوين المجتمع الصالح، بتلك اللبنات السـليمة فى تفكيرها و عملها، و بالرجل الخبير بعمله، و العالم بأسـراره، و الثقـة فى نواياه، فإن طريقـة إخراج هـذه النماذج البشـرية لحياتنا تختلف من حين لآخر، تبعا لاختلاف الأساليب و الأدوات، و تبعا لنماذج القيادات التى تتولى تربيتها و تعليمها، و ما قد يصل إلينا فى وقتنا الحاضر من مذاهب عديدة، شرقية و غربية، و تجارب تسـتخدم فيها ألوان عديدة من النظريات و الآراء، و التفكير الفلسـفى و النفسـى، لا تقتصـر على وطن و لا جنس، و إنما تصـل إلى دراسـة كل ما يتعلق بنوازع النفس، و قـدرات العقل، و طاقات الإنسان الكامنـة، و كل ذلك لكى تصل إلى تربية سـليمة للإنسان، تتسامى بغرائزه، و ترتفع بطاقاته العقلية إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان فى عصره الحديث.

و هنـاك طريقـان فى الحيـاة و التربيـة، كـان لهمـا أثرهمـا فى وقتنـا الحاضـر فى اهتزاز القيم و المثـل العليـا التى تحرص عليها الأمم و الشـعوب، و لكن يبقى هنـاك سؤال يفرض نفسه على طريق الموازنـة و المقارنـة بين أحوال متعـددة فى اتجاهاتها، و هو كيف كانت النظرة إلى الأفراد و الجماعات فى تربيتها و بناء أشخاصها و مجتمعاتها؟

لا- ننتظر أن نضع أمام ناظريك يا أخى فى هـذه العجالـة منهجا محـدد الاتجاهات، واضـح القسـمات لما نريـد، و إنما هى قبسات من تلك النماذج التى حوتها الأمثال العربيـة التى تهتم بالناشـئة، و تحرص على مصالـح الأفراد و الجماعات على حـد سواء، مهتديـة عون الحنان فى شرح الأمثال فى القرآن ۲۸۵ ج - طريق التربية الناجحة: ..... ص : ۲۸۴

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۸۵

بتعالیم القرآن و السنة المحمدیة، و واقع الحیاة و ما تفرضه من أمور تحکم میزان الحیاة، و ننظر إلیها من خلال المعایشة و الاختلاط، حتی یشب الصغیر و یتکون المجتمع، و تصلح أحوال الحیاة.

و مما لا شک فیه أن للمنزل و المجتمع دورهما فی البناء لهذه الحیاة، بدءا بالطفولة و ما تحتاج إلیه من رعایة و حنو، و إعطاء حق کل فرد فی الحیاة الحقیقة، و ما تستلزمه من اهتمامات عدیدة فی المطعم، و المأکل، و المشرب، و التعلیم، و التربیة، و إعداده للمستقبل، یشترک فی ذلک کل من یملک هیمنة، و مسئولیة إخراجه إلی عالم الوجود، من أب، و أم، و مجتمع، و قبیلة، و حکومة، و مربین.

کلمة أخیرة:

و إذا نظرنا إلی ما تعانی منه بیوتنا و مجتمعاتنا من تخریب و تدمیر لشبابنا و زوجاتنا، و ما یجری من أحداث تنبئ بشر مستطیر، إنما ینجم ذلک کله عن فقدان الرعایة من جانب الآباء و أولیاء الأمر، ممن أعطاهم اللّه القیادة لهؤلاء الشباب و الزوجات، فلا هیبة، و لا احترام، و لا- خوف، و لا- تقدیر، انعدمت الرقابة، کما انعدم الجزاء، تفشت فی المجتمع وسائل التخریب للأجسام و العقول، من مخدرات تعصف بالقوی، و تهلک الأجساد، و کثرت حوادث القتل من الأبناء للآباء، و الاغتصاب بین الفتیات، ألوان کثیرة من الفساد الذی لا یعلم مداه إلا اللّه سبحانه و تعالی.

أعلاج ذلک فی تلک القوانین الکثیرة الثغرات فی بنودها و نصوصها؟ أعلاج ذلک فی تلک القوانین التی یکثر التحایل علیها، و التی لا تحظی بتقدیر؟

إن شبابا، و زوجات، و فتیات، یتلقون تعلیمهم و یأخذون تعلیمهم و یأخذون منهج حیاتهم من تلک الصور البغیضة المنقولة إلیهم عبر وسائل التلقی التی تصدع آذانهم فی کل لحظة بأخبارها و أنبائها، و تشغل عیونهم بالمرائی المختلفة الناطقة و المسطورة فی تمثیلیات و قصص، و أحداث من مختلف أنحاء العالم، لن ننتظر من وراء ذلک إلا التأثیر المقیت المتمثل فی تقلید ما یرون، و ما یسمعون، و ما یقرءون.

ینطبع ذلک کله فی حرکاتهم، و أفعالهم، و أزیائهم، و ألسنتهم، و ضغط الحیاة علیهم

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۸۶

بکل أثقالها، فلا یکون نتیجة ذلک إلا إهمال الشأن، و التراخی فی التربیة، و الجهل بوسائل العلاج، و النقص فی الخبرات التی تنجح فی مثل هذه الحال.

فإذا أردنا أن نخطط لإقامة بناء إنسانی مدعوم بالقیم، و المبادئ، و الأخلاق، و متسلح بالعلم النافع، و بعید عن تنافرات الحیاة، فلا بد أن نعید للمنزل دوره فی البناء، فالرجل یتحمل مسئولیاته فی التربیة و الإرشاد، و الأم تقوم بدورها المؤثر بنفسها فی حضانة أطفالها منذ الصغر حتی الکبر.

مسئولیة کاملة عبر عنها رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «کلکم راع، و کل راع مسئول عن رعیته»، مسئولیة کاملة عما یقع فی الحیاة من تقصیر، و إهمال، و تأخیر، مسئولیة عن هزات الحیاة بکل ما یتفشی فیها من عادات قبیحة، و رذائل تصیب الأفراد، صغارهم و کبارهم، مسئولیة کاملة إیجابیة فی نفعها و دفعها، تزوید بکل نافع من القول، و قدوة فی السلوک، و تربیة حصینة لمجابهة المستقبل بکل ما فیه، و دفع و وقایة من کل أمر مدمر، و مخدر، و مهلک.

المسئولیة ریادة، و حکمة، و بصر بالأمور، توجب علی القائم بالأمر، و المسئول عنه ألا یخدع، و لا یورد أتباعه موارد الحتوف و الهلاک من أسرة، و مجتمع، و دولة.

لا یتبادر إلی الذهن أننا ندعو إلی أن ترجع المرأة إلی سابق ما کانت علیه فی الجاهلیة الأولی، من إهدار لکرامتها، و هضم لحقوقها،

و إهمال لشأنها، إنما ندعو إلی إبراز ما أنعم اللّه به علیها من فطرة حانیة علی بیتها، و أداء صحیح لرسالتها فی الحیاة، و صیانة لنفسها و زوجها من کل أمر شائن یغض من مکانتها، ففی ذلک کله شفاء لنفوس مزقتها أمراض الحیاة المادیة، و اهتمام بأطفال حرموا الرعایة فی دراستهم، و تولی أمرهم خادمات جاهلات بشئون التربیة و التعلیم، و مراقبة لشباب و فتیات یحتاجون إلی دراسة احتیاجاتهم المادیة و المعنویة، و یرغبون فی اللجوء إلی الشخص الواعی الذی یسدی إلیهم النصح و التوجیه، دون حساسیة أو غلظة فی المعاملة، أو سوء فهم لأمور العلاج.

من أولی بذلک کله؟ من یستطیع أن یقدم هذا العون؟ إن الأب و قد شغلته مسئولیات الحیاة، جدیر بأن یضیف إلی أعبائه المادیة ما یستطیعه من نصح و إرشاد،

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۸۷

و یأتی بعد ذلک و قبله أیضا الدور الفعال الذی تقوم به الأم فی المراقبة و الرعایة، و تهیئة البیت السعید الذی یمکنه أن یحقق ما تصبو إلیه کل أسرة سعیدة من سکینة النفس، و رقی العقل، و توفیر النجاح فی الحیاة لکل فرد من أفرادها، رجلا أو امرأة، شابا أو فتاة، و بذلک تکمل الوظیفة الحقیقیة للأم فی الحیاة الناجحة التی نبتغیها الیوم لمجتمعاتنا الحاضرة و المستقبلة.

عون الحنان فی شرح الأمثال فی القرآن، ص: ۲۸۸

محتویات الکتاب

المقدمة ۳ الفصل الأول التمهید القرآن الکریم وظیفته الأصلیة، و کیف یتخذه المسلمون ۷ انتفاع الموتی بقراءة القرآن ۱۰ بدع حول القرآن ۱۱ الغایة من إنزال القرآن ۱۲ وجوب طاعة اللّه و طاعة رسوله، و وعید المخالفین ۱۶ الأمر بتدبر و تفهم القرآن ۱۷ وعید المعرضین عن القرآن ۱۸ فضائل قراءة القرآن و فضائل بعض سوره و آیاته ۱۹ تحزیب القرآن ۲۴ لا- تعرض عن قراءة القرآن ۲۴ بدعیة جمع القراءات فی سورة أو آیة واحدة ۲۷ بدع و ضلالات متعلقة بالقرآن العظیم ۲۷ ذکر أسباب إعراض الناس عن القرآن ۳۲ حکم الجهر بقراءة سورة الکهف بالمسجد، و سماعها من المذیاع فی المسجد ۳۷ الفصل الثانی إلزام القرآن للمادیین و الملیّین ۳۹ ۱- معنی المادة و المادیین ۳۹ ۲- إلزام القرآن للملیین ۸۰ کلمة للتاریخ ۱۳۶ الفصل الثانی الأمثال فی القرآن الکریم ۱۴۶ محتویات الکتاب ۲۸۸

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب

الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩